

مكتبة | سُر مَن قرأ
أدب أمريكي معاصر
محقق بغداد
إليوت كولا
ترجمة: محمود علي
رواية
المحروسة

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

مُحَقّق بَغداد

عنوان الكتاب: مُحَقِّقٌ بَغداد BAGHDAD CENTRAL
المؤلف: إليوت كولا Elliott Colla
ترجمة: محمود علي
مراجعة لغوية: محمود شرف



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٤٩٦٢ / ٢٠٢١
الترقيم الدولى: 978-977-313-839-4

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2021

© Elliott Colla, 2014

مُحَقِّقُ بَغداد

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

إليوت كولا

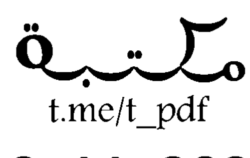
ترجمة

محمود علي

رواية



الطبعة الأولى 2021





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كولا، إليوت
مُحَقِّقُ بَغداد: رواية/ إليوت كولا؛ ترجمة: محمود علي.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021
385 ص؛ 21.5×14.5 سم
تدمك 978-977-313-839-4
1 - القصص الامريكية
أ-علي، محمود (مترجم)
ب- العنوان
823
رقم الإيداع 2021/4962

إلى أُمِّ مروج، دائمًا وأبدًا.

ليسَــت البُطولَــةُ دائِمًــا في المُهاجَمــة، بــل قــد تكــون كذلــك في الصَّــبرِ والثَّبــات، وليسَــت الشَّــجاعَةُ دائمًــا في مُحارَبَــةِ العَــدوِّ الظَّاهــريِّ فحســب، بــل إنَّمــا هــي أيضًــا -وعــلى الأخــصِّ- مُحارَبَــة العَــدُوِّ الباطنــي، أي أن يُحــارِبَ المَــرءُ في نَفسِــه اليــأسَ والفُتــورَ وحُــبَّ الرَّاحَــة.

ميشيل عَفْلَق



أبريل 2003

يَقِـفُ قلَّـةٌ يقاتلـون وسـط فـوضى الانسـحاب. البعـض يتراجعـون، والبعـض ينقلـون المعركـة إلى مـكانٍ وزمـانٍ آخرَيْـن. والبعـض يبقـون في مواقعهـم لينتظـروا ويسـمعوا.

نرتَشِـفُ الشَّـايَ ونشـاهد التلفـاز. ونتفقَّـد أسـلحتنا مُجـدَّدًا، ثـم نُغـيِّر ملابسـنا ونعـود إلى بيوتنـا. لقـد اختَفَـت حُشـودٌ كاملـة مـن الرِّجـال. البعـض سـقطوا عـلى الجبهـة، والبعـض عـلى الحـدود.

بـدأ هـدوءٌ غريـبٌ في التَّماسُـك بعـد أيَّـامٍ مـن القصـف. سيصلون غـدًا عـلى أبعـد تقديـر. لقـد بلغـوا الضواحـي بالفعـل، والقتـال دائـر الآن في الـدورة. يقولـون إن المعـارك بلَغَـت سـاحةَ الفـردَوسِ وحـيَّ الجهـاد.

لم يَتفاجَـأ أحـدٌ بالرجـال الذيـن يسـتقلُّون الشـاحنات، أو بأمـر الإخـلاء؛ فالـكُلُّ عـرف أنهـم سـيأتون في يـومٍ مثـل هـذا. التعليـمات واضحـة، والرجـال في مكتـب السـجلات أنهـوا عملهـم منـذ أسـبوع ولم يعـودوا. يـشرَعُ آخـرونَ بإنـزال الصناديـق مـن الشـاحنات ثـم جَرِّهـا إلى داخـل المبنـى. لم يتبـقَّ إلَّا حفنـةٌ منَّـا، مُتحيِّريـن. نتسـكَّع في الخـارج، ثـم نبـدأ

بالابتعاد واحدًا تلو الآخر، نسلك الأرصِفَةَ وأروقةَ شارع الخلفاء حتى نختفي إلى الأبد.

تُشبِهُ أصوات أولى الانفجارات وراءَ الجدران الإسمنتية السميكة الرَّعدَ. ويُسمَعُ تَهشُّمُ النَّوافذ تحت شمس الصباح، ثم يسود الصمت. وفي النهاية يتراجَعُ، وإن كان تَراجُعُه بطيئًا في البداية. ثم يتصاعد الصَّوتُ ليصبح هديرًا. الحرائق مُتأجِّجَة في الأعماق بعيدًا عن الأبصار. والرياح اللاهِبَةُ تَجلِدُ كُلَّ ما يعترض طريقها في الرَّدهاتِ والمكاتب الخاوية والأروقة والخِزانات. ثم تنطلق عبر النوافذ المتكسِّرة عاصفة من الملفَّات والمُجلَّدات والاستمارات المشتعلة نحو السماء. وأخيراً تأكل ألْسِنَةُ اللَّهبِ نَفسَها.

كان مخفر شرطة وسط بغداد مجرَّدَ هيكَلٍ فارِغٍ حين أصابَه أول الصَّواريخ الأمريكيَّة.

المنطَقَةُ الحَمراء

... يتـمُّ بموجـب هــذا الأمـرِ إقصـاءُ مَــن يحملـون العضويَّــةَ الكاملـة لحـزب البعـث مـن مراكزهـم، وهـم مَـن يحملـون الرُّتَـبَ التاليـة: عضـو القيـادة القُطريَّـة، وعضـو الفـرع، وعضـو الشُّـعبة، وعضـو الفرقـة. ويُحظَـرُ عليهـم في المسـتقبل شَـغلُ أيِّ وظيفــةٍ بالقطــاع العــام. هــؤلاء الأعضــاء البـارِزون سـوف يُتَحَـرَّى بشـأنهم لتقييـم مـدى مـا ارتكبـوه مـن مُمارَسـاتٍ إجراميـة، أو مـا يُشَـكِّلونه مـن خطـرٍ عـلى أمـن الائتـلاف. وسـوف يُتَحـرَّى ويُحقَّــق بشــأن مَــن يُشــتَبَهُ في ارتكابهــم لممارَســاتٍ إجراميــة، وســوف يتعـرَّضُ للاعتقـال أو لتحديـد الإقامـة مَـن يُحتَمَـلُ هروبهـم أو مَـن تَـدلُّ التحريـات والتحقيـق عـلى أنهـم يُشـكِّلون خطـرًا عـلى الأمـن. ويُحظَـر بموجـب هـذا القـرارِ عَـرضُ صـور أو تماثيـل لصـدَّام حسـين أو لأيِّ شـخصٍ آخــر مــن أعضــاء النظــام الســابق المعروفـين في المبـاني الحكوميـة أو في الأماكـن العامـة، كـما يُحظَـر اسـتخدامُ أيِّ رَمـزٍ مـن رمـوز حـزب البعـث أو مـن رمـوز نظـام الحُكـم السـابق. وتُمنَـح مكافـآتٌ مُقابِـلَ المعلومـات التـي تُــؤدِّي إلى القبـض عــلى الأعضــاء البارزيــن بحــزب البعــث وعــلى الأفــراد المتواطئـين مـع نظـام الحُكـمِ السـابق فيـما ارتكبـوه مـن جرائـم. قـد

يُجيـزُ رئيـسُ سُـلطَةِ الائتـلاف المُؤقَّتـة -أو مَـن يُنيبُهـم عنـه- اسـتثناءاتٍ للتَّعليـمات الـوارِدَةِ أعـلاه لـكلٍّ حالَـةٍ عـلى حِـدَة...

سُلطَة الائتلاف المُؤقَّتة

الأمر رقم 1

16 مايو 2003

مساء الأحد
23 نوڤمبر 2003

"أريد هالشّي، بس ما أقدر. آني مو مُحقِّق".

يُحَملِقُ نضالُ إلى نسيبه كأنَّه يراه لأوَّل مَرَّة: "لعد شنو شغلتك؟".

"إنت تعرف والكل يعرفون".

"إنـت تِشـتَغَل بالشُّرطـة ويصيحولـك سـيدي المحقـق، شـتريدني أعـرف غـير هالـشي لعـد؟".

"اشـتَغَلت. قبْـل، بـس مـو مثـل الـلي ببالـك. تشـان[1] شُـغل مكتـب. أرتِّـب أوراق وأصفـط فايـلات. قريـت تقاريـر عـن تحقيقـات، وقريـت تقاريـر المخبريـن الـلي تشـانت أسـاس التقاريـر الأولى. وراهـا كتبـت تقاريـري الخاصـة وضمِّيتهـا ويَّـا التقاريـر اللـوخ[2]".

"يعني لازم أكتب لك تقرير؟".

"اسمعني... آني آسف. عوفني[3] أفكِّر بالشَّغلَة".

---

(1) "تشـان" بمعنـى "كان" بالعاميـة العراقيـة حيـث يكـثر في العاميـة البغداديـة اسـتخدام الجيـم الفارسـية "چــ" والتـي تنطـق "تـش" كـما في كلمـة "تـشي"..

(2) الأخرى بالعامية البغدادية.

(3) اتركني بالعامية البغدادية.

تهبط عينا نضال إلى قَدحِ شايِه، ثم يتطلَّع عبر الغرفة إلى حيث اعتادَت صورَةُ القائد الأعظم أن تُعلَّق. ويُلوِّح محسن خضر الخفاجي إلى الشايشي ليطلب كوبَ شايٍ آخر. يجلس حولهما أزواجٌ من الرجال يحيطون بطاولات خشبيَّة منخَفِضَة، يرتشفون الشاي ويُدَخِّنون ويسهرون مثلما يفعلون في أيِّ ليلة أخرى من ليالي رمضان. البعض يلعبون بالنَّرد ويحرِّكون أحجار الطاولة ذهابًا وإيابًا. ويلعب مُسِنُّون في أحد الأركان بالكوتشينة، دون أن تُبدي وجوههم أيَّ شيء سوى الحِدَّة، بينما تتجمَّع أكوامٌ صغيرة من النقود في منتصف إحدى الطاولات.

يشاهدهم نضال وهم يلعبون. ويتابع خفاجي وجهَ نضال الجانبي الصارم حتى يشرع في البكاء والنشيج. يربت خفاجي على كتف نضال الضخمة. وبعد قليل يرجع نضال في كُرسيِّه ويمسح عينيه بِيَدِ فلَّاحٍ غليظة. حينها فقط يلاحظ خفاجي اختفاءَ صليبِ نضال الذَّهبي. اعتاد ذلك الصَّليبُ أن يجلب لنضالَ السُّخرية، لكنه الآن اختفى. كان خفاجي أيضًا ليبكي لو لم يُغيِّرَا الموضوع.

"صار... راح أساعدَك. بس احتشي لي اللي صار مرة اللوخ من البداية".

"سوسن ما رجعت من الشغل صار إلْها أسبوع. وهاي مها قاعدة بالبيت تبتشي طول الوقت. انجنِّت من القلق. والقصص اللي جاي نسمعها ما تبشِّر بخير. تشنَّا نفكِّر جديات بالسفر بعد كل اللي صار. بس هَسَّه[1] ما نقدر".

"لعد ليش ما قلت لي وقتها؟".

"لأنه ما دا نعرف إش صار. ولحد هَسَّه ما نعرف غير إنها ما رجعت البيت".

---

(1) الآن بالعامية البغدادية.

"من يا وقت صار هالموضوع؟".

"الخميس".

"أحد خابَرْكُم؟".

"...؟".

"أكو أحد خابر يطلب فلوس؟ يقول لكم تعالوا في مكان؟ حتشيتوا ويَّا أحد؟".

يقبض نضال ذراع خفاجي ويرفع صوته: "يا أخويا. إلمن نخابر لخاطر إبليس؟ إنت الشرطي الوحيد اللي نعرفه".

"آني استقاليت. وعمومًا، بعد ماكو شرطة".

"عندك عِرِف[1] بالحزب؟".

"هالحَكي صار له زمن. والحزب هَسَّه انحل".

"لعد ماكو قدَّامنا غيرك".

يحاول خفاجي بشدَّة أن يبدو مُتفائلًا، ويُتَمتِمُ: "خلِّي نشوف شلون أقدر أساعد". يتنحنح ويبدأ من جديد: "احكي لي اللي صار بعدها".

ما تزال قِصَّة نضال باليَةً، حتى بعدما حكاها للمرَّة الثالثة. إنها كبضعَةِ خيوطٍ مقطوعة ومربوطة بعُقدَة. لقد تخرَّجَت سوسن في شهر أغسطس بمعهد التنظيم والإدارة بالجامعة المستنصرية. أرادت دراسةَ البَرمَجَة لكنَّ أمرَها آل إلى دراسة المالية. قابَلَت الأُسرَةُ بضعًا من أصدقائها بالجامعة، لكنها لم تعرف الكثيرَ عنهم، ولا سُبُلَ الاتِّصال بهم. بدأت سوسن العمل بعد التَّخرُّج مباشرة. تعمل استشاريَّةً، أو

(1) معارف.

هكـذا قالـت. وكانـت تُسـاعِدُ بمصروفـات المنـزل، خصوصًـا بعدمـا تبخَّـرَت وظيفَـةُ نضـال. ولقـد عملـت لحسـاب أسـتاذة بالجامعـة.

"وظيفـة زينـة. سوسـن تشـان عندهـا سـايِق يوصلهـا للشـغل ويرجعهـا للبيت".

"اكتـب لي أي اسـم تعرفـه. زمـلاء الدراسـة، أسـاتذتها، أي اسـم، وخلِّيني أشـوف ويـن نوصل".

يخرج نضال ورقة ويبدأ بالكتابة.

تثـور فجـأةً مُشـادَّةٌ عـلى طاولـة الكوتشـينة بالخلـف. ويغـرق المقهـى كلُّـه في الصَّمـت بعدمـا اندلَقَـت الكـؤوسُ وتكـسَّر الزجـاج عـلى الأرض، وانقضَّـت الأيـادي والقبضـات عـلى أكـوام النقـود. يلتقـط شـيخٌ غاضِـبٌ ذو لحيـة عُمرُهـا أسـبوعٌ طـرفَ دشداشَـتِه ويعـرج مُتَّجِهًـا نحـو البـاب وهـو يصيـح بـشيء عـن الأمَّهـات والمَهابِـل. وبقيـة الرجـال ينادونـه ويسـخرون منـه ويضحكـون عـلى الفـوضى. يَصِـلُ نـادِلٌ بمقشَّـة وخرقـة مُبلَّلـة. ويتبادل نضـال وخفاجـي النظـرات مجـدَّدًا.

يسـأل خفاجـي: "شـلونها الشـقة الجديـدة؟" فقـد طُـرِدوا مـن منازلهـم خـلال الأسـابيع الأولى مـن الاجتيـاح كحـالِ الكثـير مـن الفلسـطينيين.

"تشـانت البلديّـات منطقتنـا. أصدقاءنـا هنـاك وحياتنـا تشـانت هنـاك. نشـكر الـرَّبّ إنـه ميخائيـل وباقـي العائلـة تشـانوا ويّانـا. بـس شـارع السـعدون مـا يصـير بيتنـا أبـدًا".

"شلون تِدبِّرون أموركم؟".

"راح تشـوف شـلون ندبِّـر أمورنـا مِـنْ تجـون إنـت ومـروج الثلاثـاء. إحنـا محشـورين تسـعة بغرفتـين. الوضـع مـو زيـن لمَّـن تيجـي الكهربـاء والمـاي، بـس مِـنْ ينقطعـون..."، ويخفـت صـوت نضـال. يتابـع: "بـس مـو هـاي المشـكلة، المداهـمات. هـي مـو عشـوائيَّة. هـم يعرفـون إلمـن

يطاردون وبيا وقت. إحنا محظوظين لّمن طفرنا وقتها. تتذگّر بيت جبراوي؟ رادوا يبقون. بس بقيتنا فهموا الرسالة".

يحاول نضال الابتسامَ لوَهلَةٍ. لكنَّ وجهَه ينهار.

"اسمعني محسن. إحنا خسرنا كل شي وقلنا ممكن نتأقلم. بس الوضع هذا يختلف. بس ترجع سوسن راح نطفر. سمعت شنو قاعد يصير بالملعب؟ آلاف دا يعيشون بالخيم هناك. أعتقد جوارينّا معظمهم هناك. أكو عشرات آلاف غيرهم عَ الحدود. راح نسافر قبل ما يصير إلنا مثل هالشي".

يسكُتُ ويرتَشِفُ شايَهُ. ولا تفارق عيناه عينَيْ خفاجي: "إحنا نقدر نِحصِّل تأشيرة كندا. بس لازم نقدِّم عليها بالأردن. راح نقعد عند قرايبنا بعمَّان وننتظر".

"عمَّان؟ صِدِقْ؟".

يربت نضال على كتف خفاجي مازحًا: "إضحك يا محسن. إحنا فلسطينيين. يعني خبرة بالتعامُل مع الطرد". يرى خفاجي عينَيْ زوجته سهير الزُّمُرُّديَّتَيْن في عينَيْ أخيها، كذا يجد طيبَتَها وجَمالَها.

نضال رجلٌ قضى حياتَه كُلَّها هنا في المدينة. فجأة يغزوها جيشٌ أجنبيٌّ ويصبح هو الأجنبي. وخفاجي يفكِّر في أن هذه المدينة تخصُّ نضال أكثر ممَّا تَخصُّه. لقد طُرِدَ والدا سهير ونضال من يافا. وحين وصلا إلى بغداد عام 1949، قرَّرَا أن يرُبَيِّا طفليهما كأنهما عاشَا حياتهما كلَّها هنا. إنهما رحَّالتان بالمعنى التقليدي، يستخلصان حياةً جيِّدَةً من وسط الكوارث. وبمرور السنين أصبحت بغداد بالفعل بيتًا لهما. وبمرور الوقت أدركا أنها في أغلبها تخصُّ عشائِرَ تكريت. لكن مع ذلك فإن هؤلاء التكريتيِّين كانوا طيِّبين كفايةً، وتركوا بعض البقايا لغيرهم، وما كانوا ليشغلوا ضفَّتَيْ النهر بالكامل على أي حال. ربما لهذا ما رحل الناس قَطُّ.

حين ماتت سهير، أمَرَ خفاجي نضال بأن يرحل مع أسرته طالما هذا مُمكِن. كانت آلام العقوبات في بدايتها، لكنَّ أغلب الناس عرفوا كيف يتأقلمون ويصمدون. ولم يخطر على بال خفاجي أن يرحل إلَّا بعد فوات الأوان. كان ليغادر مع سهير لو كان يعرف مدى مَرَضِها. فقد ظنَّ مثل الجميع أن الحال لا يمكن أن يَسوء أكثر. "الصبر والقوة"، هكذا قال الجميع، "الصمود والمقاومة". وهي مثل أغلب الشِّعارات، طعمها مُرٌّ حين تتذوَّقُها لاحقًا.

قبل عشر سنوات كان بإمكانهم الرَّحيلُ. كان يمكن لخفاجي أن يرحل مع سهير ومروج من أجل بدايَةٍ جديدة، ربما في السويد. لكنهم على نحوٍ ما اعتقدوا أن عصير البرتقال والجزر يمكنهما أن يداويا من السرطان. لقد احتاجوا إلى علاجٍ حقيقيٍّ، لكن ذلك لم تتوفَّر فُرَصُه.

يتطلَّع خفاجي ويحاول أن يبدو قويًّا: "والله يا نضال كلنا تشان المفروض نسافر من زمن".

يطلبان المزيد من الشاي ويجلسان في صمت. ويتابع الرجال في الغرفة شرب الشاي وتبادل الحديث وقراءة الصحف ورمي النَّرد.

حين يتطلَّع خفاجي يجد نضال يُخرِجُ أوراقًا نقدية طازجة فئة 1000 دينار ليدفع للشايشي. فيبدأ جدالًا حول دفع الحساب، لكنَّ الأوان قد فات.

يستمرُّ خفاجي في الاعتراض حتى يحتضِنَه نضال: "الجايَّة عليك أخويا. نشوفكم الثلاثاء عَ الغدا؟ هذي مها من هسه جاي تحضر الأكل. تعالوا من وقت إذا تريدون حتى نقضي اليوم سويَّة. ممنون لك عَ المساعدة".

"يمكن آجي لوحدي بالعيد".

يَسكُتُ نضال: "شلونها مروج؟".

"على حطّة إيدك. لا هرا ولا ورا[1]".

"الرَّبّ يحفظها".

"شنو دخل الله بالموضوع؟".

"هاي طريقتنا بالتَّعبير. خو إنت تعرف".

يَعبسُ خفاجي وهو ينظر إلى قُصاصَةِ الورق التي بِيَدِه؛ إذ لا يرى سوى اسمٍ واحدٍ.

"زبيدة رشيد؟ منو هاي؟".

يَهزُّ نضال كتِفَيْه بلا مبالاة: "هاي أستاذة سوسن، تشتغل ويَّاها".

"يمكن صورة سوسن تخلّي اللي نسألهم عنها يتذكّرون"، ويمدُّ نضال يده إلى محفظته، "عندي صورة من حفل التخرج مالتها". ويُقدِّم لخفاجي صورةً لها بالرِّداء الأسود وهي تحمل وروداً وشهادَةَ دبلومة، ويُحَملق إليها خفاجي. إنها فتاةٌ جميلة ابنةُ اثنين وعشرين ربيعاً، لها بَشرَةٌ زيتونيَّة وأنف طويل مستقيم. شَعرُها أسود كالغُراب، وعيناها خضراوان كحَجَرَيْن كريمَيْن. ولها شامةٌ بارِزَة على يمين فَمِها.

إنها صورةٌ طِبق الأصل من عمَّتها سهير حين كانت بعُمرِها.



(1) لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر.

مايو 2003

كان هـواء الصبـاح سـاخنًا حـين دفـع البـابَ فجـأة. رمـى كَومَـةً مـن الملابـس والأوراق عـلى الأرض، ومَـرَّ بي دون أن ينبـس ببِنـتِ شَـفَة. صعـدتُ السُّـلَّم وراءه إلى غرفـة النـوم، وشـاهَدتُه وهـو يُفتِّـش خزانـة الملابـس. لم يَقُـل ولـو كلمـة، بـل أخـذ كل قطعـة ملابـسَ وَجَدَهـا: الأقمصـة وربطـات العنـق والبناطيـل والسُّـترات والقُبَّعـات. كان فَكُّـه مُطبَقًـا بشـدَّة، حتـى أننـي ظَنَنـتُ أن أسـنانه سـتنكسر.

وأخيرًا التَفَت إليَّ كأنه لاحَظَ وجودي للتَّوِّ: "العفو. آني مستعجل".

"أقدر أساعدك؟".

"تشيِّك[1] الجيوب واتأكَّد إنه ما بيها شي".

"شدا تسوِّي؟".

يعبس: "لازم نخلص من كل شي".

خـلال السـاعة التاليـة جَمَعنـا كُلَّ شيء: مشـابك ربطـات العنـق والميداليـات والأحزمـة والأحذيـة. ثـم فتَّشـنا المكاتـب والخزانـات، نجمـع

(1) افْحَصْ. مُعرَّبة من كلمة Check بالعاميَّة البغدادية.

قصاصاتِ الـوَرَقِ وبطاقـات الهُويَّـة وجـوازات السـفر وشـهادات الميـلاد والشـهادات الدراسـية وشـهادات التكريـم. وكَدَّسـنا كل ذلـك عـلى السريـر.

أَمَـرَني بـأن أجلـب حقيبـةَ سَـفَرٍ، وكل مـا أجـده مـن أكيـاس. وحـين عُـدتُ وجدتـه أَعَـدَّ كَومَتَـيْن. وضـع إحداهـما في الحقيبـة، وحَـشَرَ الأخـرى في الأكيـاس البلاسـتيكية. ثـم ذهـب إلى المطبـخ وأحـضر الكيروسـين.

"هسـه أرجـع"، كان هـذا كل مـا قالـه قبـل أن يخـرج. بـدا مظهـره غريبًـا جـدًّا وهـو يحمـل كل تلـك الأكيـاس.

لم يَبْـدُ مُرتاحًـا مُطلَقًـا حـين عـاد لاحقًـا. تَجـاوَزَني مُجـدَّدًا وصعـد إلى الطابـق العلـوي. ولمَّـا دخلـتُ الغُرفَـةَ وجدتـه يُحَملِـقُ إلى الحريـق. رأيـتُ أعمـدةً كثيفـةً مـن الأدخنـة الحارقـة تختلـط بالريـاح. ظَنَنـتُ أن اللهـب قـد يطـول النَّخلَـةَ الصغـيرة، لكـنَّ الأَلْسِـنَةَ خَمَـدَت سريعًـا مثلـما ثـارت. وفي النهايـة، التفـتَ إليَّ وحـاوَلَ أن يبتسـم لأوَّلِ مَـرَّةٍ في ذلـك اليـوم.

سألتُه: "شكو؟ إش صار؟".

"ما أعرف".

"إش راح تسوِّي؟".

"ما أعرف".

"خلِّي ننتظر".

"إي، راح ننتظر حتى توضَح السالفة".

لم أره يبكي قبلَ ذلك اليوم.

الاثنين
24 نوفمبر 2003

يستيقظ خفاجي ويتمشَّى بالرَّدهَة إلى غرفة مروج، ثم يفتح الباب بهدوء. لم تتحرك مطلقًا منذ أن ألقى نظرةً خاطِفةً عليها بوقتٍ متأخِّر من الليلة الماضية.

يُشَغِّل الغَلَّاية الكهربائية ويذهب للبحث عن السجائر.

لم يَصُم خفاجي شهر رمضان أبدًا، وهذا العام ليس استثناءً. لم يُرِدْ أن يُعَدَّ ضمن مَن يصومون من أجل أن يُولِموا. وبالطبع لم يُرِد أبدًا أن يصوم لأن كتابًا أو شيخًا ما أمره بذلك.

رمضان يعني شهرًا من احتساء شاي الصباح في صَمتٍ تام. شهرٌ من ابتلاع دُخَانِ سيجارته الأولى وتَمنِّي ألَّا يلاحظ جيرانُه. شهرٌ مِن استراقِ الطعام من المطبخ حتى لا يسمعه أحد. الفاطِرُ فقط يعرف الجَلَبةَ التي يمكن أن يُحدِثَها إبريقُ الشاي خلال ساعات النهار. يمكن أن يسمعكَ المبنى كُلُّه لو لم تتَّبِعْ الطريقة الصحيحة لإعداده. تضع الغلَّاية برفق على الموقد وتجفل خوفًا حين يبدأ اللهب في الحسيس. تجفل في كلِّ مَرَّةٍ ترنُّ الملعقة داخل الكوب وأنت تُقلِّب السُّكَّر.

ومع ذلك فإنك لا تخدع أحدًا؛ فالجيران لا يقولون شيئًا أبدًا، لكنهم يعرفون.

لم يَجِد خفاجي إلَّا علبةَ رويال فارغة، وعلبة سومر 100 قديمة بالية. فيشعل سيجارةً وينتظر. يضع إبريق الشاي وكوبَيْن ووعاءَ السكَّر على الصينية، ويجرُّ قدمَيْه عبر غرفة المعيشة إلى الشرفة مثلما يفعل كلَّ صباح. ومثل كُلِّ صباحٍ يُحَملِق إلى الكارثة، إلى الفوضى المتفحِّمة بالشرفة. ويتذكَّر ذلك الصباح في أغسطس حين ارتجَّ المبنى بالكامل. تهشَّمَت نوافِذُ ذلك الجانب من المبنى. حتى الطِّلاء بدا أنه يشتعل. ومثل كل صباح، تخيَّلَ خفاجي ما كان ليحدث لو جلس في الشرفة ليحتسي الشاي في ذلك الصباح.

نالت الفيلَّا بالجهة المقابلة من الشارع نصيبَ الأسد من الهجوم، فلم يبقَ منها شيءٌ سوى هيكلها الخرساني. أصبحت حدائِقُها المدفونة تحت أكوامٍ من الحطام مكبًّا لنفايات المنطقة. وحوَّل غبارُ الإسمنت أشجارَ الشَّارع إلى اللون الأبيض الثلجيِّ. لن يعود لونُها الأخضرُ ثانيةً قبل أول هطولٍ للأمطار. لكن الأمور أصبحت أهدأ الآن. فمنذ ذلك اليوم، أُغلِقَت النَّوافِذُ بالورق المُقوَّى والأشرطة اللاصِقة والألواح الخشبية، وهُجِرَت الشُّرفَة.

يَضَعُ خفاجي الصينية في غرفة المعيشة، ويشعل سيجارة ويرتشف أوَّلَ رَشفَةِ شاي لهذا اليوم. يأخذ الصورة التي قدَّمها له نضال وينظر إلى سوسن، لكنه يتذكَّر فتاةً أخرى، وزمنًا آخر. يتذكَّر سهير في الجامعة، والامتحانات النهائية. كانت تحمل كومةً من الكتب. ليست كتبًا دراسيَّة، بل كتب. إنها كتب قديمة، كتبٌ أصرَّت على شرائها من حوانيت مغبَّرة بشارع المتنبِّي. تلوِّح بيديها بعنف حينما تتكلَّم، وتتأرجح الكتبُ جيئةً وذهابًا. أستمع إلى كلماتها لكنني أنظر إلى الكتب، إنها معلَّقة في الهواء. أنظر إلى جلد ذراعَيْها وكتفيها العاريتَيْن. لا أستطيع التوقُّفَ عن التحديق. تنتبه إليَّ وتتوقَّف عن الكلام.

وتبتسم ثم تهرع إلى أصدقائها. يتوقَّف الزمن وتتوقَّف سهير. وتلتفت لتنظر إليَّ، كأنها تبتسم بجسدها كلِّه.

يشعل سيجارةً ثانية وينظر إلى الصورة مرَّةً أخرى. دائمًا ما يصعب البقاءُ في اللحظة الحاضرة، وخصوصًا هذه اللحظة الحاضرة. ينظر إلى صورة ابنة أخِ زَوجَتِه، ويحاول ألَّا يرى سهير. ينظر إلى الحاضر ويحاول ألَّا يرى الماضي، وفي النهاية ينجح في ذلك.

حين يُنهي إبريقَ الشاي يعيده إلى الداخل ويقضي دقيقتَيْن في تنظيف الألواح والمقابض. لقد نظَّف معظم الزجاج المكسور الأسبوعَ الماضي. وبهذا المُعدَّل ستكون الشرفة جاهِزَةً للاستخدام مُجدَّدًا مع نهاية الاحتلال الأمريكي. أيًّا كان موعد نهايته.

يَشرَعُ بغسل وجهه والمياه تنقطع. ويرتدي ملابسه مُتمهِّلًا، ثم ينظِّف المطبخ ببُطء، آمِلًا أن تستيقظ مروج إن استغرق في ذلك وقتًا طويلًا كفاية. وفي النهاية يستسلم ويغادر. وقبل أن يرحل يفتِّش بأدراج خزانة ملابسه ويخرج مُسدَّسه "الجلوك 19" ويفحص المُشطَ، ثم يفكِّر مُجدَّدًا. يلتقط شارَتَه ويضعها في جيب سترته، فهذا يعني مشكلاتٍ أقَلَّ. يدخِّن سيجارةً أخيرة قبل الخروج من الباب، مُدرِكًا أنها ستكون الأخيرة قبل أن يعود إلى المنزل.

يستمع إلى جيرانه وهو يهبط السُّلَّم. لقد خلا المبنى تمامًا في شهر مايو بعدما غادر الآخرون كلهم. لكنه امتلأ مُجَدَّدًا الآن بشكلٍ ما. لقد حدث تَغيُّرٌ كامِلٌ للسُّكَّان. كانت عملية التَّغيُّر مُرعِبَةً، لكنها أيضًا بطيئة ومُنظَّمة على نحوٍ مُدهِش.

كان خفاجي في المنزل يوم اختبروا قُفلَ بابه. كانوا على وشك الدخول قبل أن يمنعهم. لم يَرَ وجوههم أبدًا. فقط تحدَّث إليهم عبر الباب السميك. ما قاله جعلهم ينصرفون، لكن على الأرجح ليس للأبد. بل كان ذلك كافيًا لجعله يريد أن يبقى في المنزل طوالَ الوقت،

وهـو شيءٌ أراده عـلى أيِّ حـال هـذه الأيـام. كانـت هنـاك أسـباب قليلـة جـدًّا لمغـادرة المنـزل، وأخـرى كثـيرة جـدًّا للبقـاء فيـه.

يتمـشَّى إلى سـاحة كهرمانـة ليسـتقلَّ سـيَّارَة أجـرة. وريثـما ينتظـر، يتمعَّـن بالنُّصْـبِ البرونـزيِّ للسـت كهرمانـة وهـي تصـبُّ الزيـت المَغـلي عـلى اللصـوص الأربعـين. وفي هـذه النسـخة الجديـدة، حسـبما يراهـا خفاجـي، فـإنَّ الزيـت هـو مـا جـاء اللصـوص مـن أجلـه، أو بتعبـيرٍ أدَقَّ، إنـه النفـط. فكيـف سـتنقذيننا الآن يـا كهرمانـة؟

تَقِـفُ سـيارة أجـرة ويسـتقلُّها خفاجـي. يأمـر السـائق بـأن يأخـذه إلى البوَّابـات الرئيسـية للجامعـة المسـتنصرية. ويخـرج الورقـة مـن جيـب معطفـه ويتمعَّـن بالاسـم الـذي قدَّمـه لـه نضـال: زبيـدة رشـيد، يبـدو الاسـم مألوفًـا. يفكِّـر في سـنوات عملـه بمديريَّـة الأمـن العـام. لكـن في غيـاب الرغبـة في التذكُّـر؛ لا يتذكَّـر الكثـير.

ينظـر إلى سـاعته، ويفكِّـر بشـأن قصـة الليلـة الماضيـة. إنـه في مسـعًى عقيـمٍ، وقـد نُصِبَـت في طريقـه نِقـاطُ تفتيـش.

يتطلَّـع عـبر النافـذة. الزحـام ليـس مريعًـا عنـد نقطـة التفتيـش الأولى. والجنـود الأمريكيـون، المختبئـون خلـف الحواجـز الخرسـانية والسُّـترات الواقيـة مـن الرصـاص والخُـوَذ السَّـميكة، يُلَوِّحـون لهـم بالتَّقـدُّم.

الشـوارع أكـثر ازدحامًـا هـذه الأيـام مـن ذي قبـل وحركـة سَـيْرٍ أكـثر كثافـة. توجـد سـيَّارات ڇيتَّـا البرازيليـة القديمـة، وسـيارات مرسـيدس وأَوْدي وبيچـو. لكـن هنـاك سـيارات جديـدة أيضًـا. يـرى السـائِقُ التَّعبـيراتِ عـلى وجـه خفاجـي ويُخمِّـن مـا يفكِّـر بـه. فيقـول: "هـاي أوبـل".

"وهاي السيارات إِلْها أسامي لوخ؟ مو صحيح؟".

"أكيـد، هـاي چِمـسي"، ويشـير إلى سـيارة چـي إم سي ضخمـة، "وهـاي بيـكاب مثلـما تعـرف. وهـاي مونيـكا، وذيتـش[1] بطَّـة. وهـاي الـلي تَوَّهـا عـبرت تمسـاحة".

"أنواع ما تخلص".

"غرقوا البلد بيها. هَم زين نقدر نسميها اللي نريده".

ويسـتمر السـائق بـسَردِ قائِمَتـه وهـما عالقـان بالزحـام: هيونـداي، لانـد روڤـر، إكسـبلورر، سـوبربان. يتذكّـر خفاجـي فـترةً أخـرى أُغرِقَـت فيهـا بغـداد بالسـيارات الحديثـة المُسـتَعمَلَة. كان ذلـك في أواخـر أغسـطس 1990، حـين بـدأت سـيارات الـسِّيدان الأمريكيـة تظهر في كل مـكان. كانت لوحاتهـا المعدنيـة منزوعَـةً، لكـن الجميـع عرفـوا أنهـا مـن الكويـت. لم يسـتمرَّ وجـود تلـك السـيارات طويـلًا.

تجعـل الطوابـير الممتـدَّة عنـد كل محطـة بنزيـن الطُّـرُقَ تبـدو مثـل مواقـف السـيارات. فيتفقَّـد خفاجـي سـاعته مُجـدَّدًا.

يُعَـدِّل السـائِقُ المـرآةَ ويقـول: "سـاعة ونوصـل بعـون اللـه"، ويقـرِّر إنهـاء المحادثـة بتشـغيل شريـط تـلاوةٍ قرآنيَّـة. في البدايـة كان صـوت خليـل الحـصري خافِتًـا، لدرجـة أن خفاجـي يخفـق في تمييـز مـا يَسـتَمِعان إليـه. يرفـع السـائق صـوت المسجِّل فتمـلأ سـورة الرحمـن آذانهـما. وتمـلأ أضـواء التابلـوه المُلوَّنـة عيونهـما، وهـو مـا أزعـج خفاجـي.

"خوش[2] سمّاعات".

يَردُّ السائِقُ الابتسامة: "سيستم صوت كامل".

تنطلـق أنـوار التابلـوه وتتراقـص مـع كلِّ آيـة، ومـع كل تَغيُّرٍ في نـبرة الصـوت. يغلـق خفاجـي عينيـه ويحـاول نسـيانَ المُؤثِّـرات البصريـة.

---

(1) تلك بالعامية العراقية.

(2) جيِّد بالعامية العراقية، وأصلها فارسي.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

أخَّرتهما نقطةُ التفتيش الثالثة عشرين دقيقة، وقد أمر المُترجِمُ خفاجي والسائق بالتَّرجُّل من السيارة قبل أن يُسمح لهما بالتَّحرُّك.

أمام البوَّابات الأمامية للجامعة، يدفع خفاجي للسائق ويعطيه سيجارَتَيْن على سبيل الإكرامية. يُومِئُ الرَّجُلُ ويدَّخِرُهما في صندوق التابلوه للمساء.

في البداية يبدو كُشْكُ الحراسة خاويًا. لكنَّ صوتًا ينادي حين يمرُّ خفاجي قائلًا: "على وين؟".

يتقدَّم خفاجي نحوَه ويُظهِرُ شارَتَه، فيستدير الرجل دون تعقيب. يتطلَّع خفاجي حوله في الفِناء الداخلي، وما يراه يجعله يتساءل إن كان قد ضيَّع وقته. هذا ليس مجمَّعًا جامعيًا، بل مقبرة من أشجار الكافور المحترقة، وحقلًا من العشب الميِّت، وأفدِنَةً من القراميد والخرسانة المنهارة. يلحظ مجموعةً من العُمَّال يملؤون أجولِةً بالأتربة والطُّوب وهو يتمشَّى إلى الداخل. يتقدَّم خفاجي إليهم ويسأل: "العفو، وين معهد التنظيم والإدارة؟".

يبدو أن واحدًا منهم فقط قد سَمِعَه. يرفع الرجل عينيه إلى رُكبَتَيْ خفاجي ويهزُّ رأسه. ثم يشير بمِعوَلِه إلى طريقٍ صغير. يشكره خفاجي ويتمشَّى حتَّى يجد نفسه أمام صَفٍّ من الأبنية الخرسانية المُتطابِقَة، كلٌّ منها يُعاني من آثار إصابة خطيرة بطلقات عيار 50 ملم. أحد الأبنية تُمَيِّزُه لافِتَةُ "الفنون الجميلة"، وكل نوافذه فارغة، وتُؤَطِّرُها آثارٌ سوداءُ ورَماديَّة؛ فقد طالت النيرانُ طوابِقَ المبنى الخمسة في يومٍ ما. يبدو البناءُ مثل تكوينٍ تذكاريٍّ، كأنه تِمثالٌ ضخم من المدرسة التَّصوُّريَّة.

يتقدَّم نحوه خفاجي ويخطو إلى الداخل. يتطلَّع عبر شبكة من الخرسانة المُنهارة وأسياخ الحديد الملتوية. هناك لوحٌ من البلاستيك

المُتجمِّد يتسرَّب من مكانٍ ما بالأعلى، يشبه شلَّالًا صغيرًا من الحمَمِ التي تَقزَّحَت ألوانُها. لم تصمد أي نافذة ولا باب، ولم يتبقَّ إلَّا أحشاءُ القذيفة. ويهبطُ بعينيه فيرى الأرض مُتشقِّقَةً وبها فُوَّهات.

يرى خفاجي بِركَةَ مياهٍ مُمتدَّة عاكِسَةً، ووراءها بناءٌ آخر، قد يكون هو ما يبحث عنه. تؤكِّد أشجارُ النخيل الميِّتة والشاحنة المهجورة في المياه أن تلك البركة ليست موجودةً لتُضفي مظهرًا جماليًّا. يسير حول المياه نحو المبنى، وهناك يجد المياه تتدفَّق من أنبوبٍ مكسور قرب المدخل الرئيسي. ويسيل الزَّبَد الأبيضُ على الدَّرجات الرخامية المكسورة بطول الممشى ويَصبُّ في البِركَةِ القَذِرَة. يحاول خفاجي أن يخطو فوق المياه، ويسبُّ حين يَغرَقُ حذاؤه الجلدي. لا يبدو المعهد بجدرانه الخرسانية العادية مُميَّزًا عن الأبنية الأخرى؛ إذ تنتشر الثُّقوبُ عليه من الخارج مثل كلِّ شيء آخر.

لكن حين يدخله يرى عالمًا مختلفًا. أرضيات رخامية نُظِّفَت حديثًا. وأشخاص يدخلون ويخرجون، مع أن هذا ليس أوانَ الدراسة. بعضهم يمسكون بمجلَّداتٍ، وآخرون معهم حقائب، والكل يحملون هواتِفَ جَوَّالة. رؤية البَذْلات المكويَّة جعلته يتردَّد. يُحَملِقُ إلى الأحذية اللامعة، وإلى العاملين ببِذَلِهم وصَنادِلهم البلاستيكية، وإلى اللفائف المفرودة من الأسلاك. يُحَملِقُ إلى الانشغال المُسَيطِر على كل الموجودين، وتطول حَمْلَقَتُه.

يشعر خفاجي بِيَدٍ ثقيلة على ذراعه: "العفو عمي. شلون أقدر أخدمك؟".

يستدير خفاجي ليرى رَجُلًا طويلًا تبدو ملابسه مألوفة. يرتدي البذلة الرخيصة التقليدية، والعُبوسَ المعتاد. وكذا لديه الرَّقَبة السميكة وربطة العنق السَّيِّئة. الأنظمة تتغيَّر، لكنَّ الزِّيَّ المدنيَّ لرجال الأمن لا يتغيَّر أبدًا.

ينجح خفاجي في رسم ابتسامةٍ ما وهو يتطلَّع إلى الرجل: "هذا معهد التنظيم والإدارة، مو صحيح؟".

يَدُ الرَّجُلِ كالمِجرَفَة الحديدية الثقيلة، وهي الآن تحفر في كتف خفاجي.

"مضبوط عمي. هذا مكان شغل. بس لازم أترخَّصك ترجع. روح للبوابة الرئيسية إذا تريد تسأل عن أي شي".

"شَكلَك مو فاهم الشَّغلَة"، قالها خفاجي وهو يظهر الشَّارة في جيبه.

يحاول الرجل أن يمسكها، لكن خفاجي يجذبها: "تقدر تشوفها. بس لازم تغسل إيديك لو تريد تلمسها".

قبل سنواتٍ، استغرق خفاجي شهورًا حتى يفهم حدودَ سُلطَةِ الشُّرطي في الدولة البوليسية. فعند المقارنة بالاستخبارات العسكرية، كان الأمن العام يُعتَبَرُ درجةً ثانية. لكن بالمقارنة بكليهما، كانت الشرطة المدنية أدنى مكانَةً بكثير. والطريقة الوحيدة لتعويض ذلك -حسبما تعلَّم خفاجي- هي ألَّا يَعلَمَ أحدٌ أنه مجرَّد شرطيٍّ مَدنيٍّ. ولم يكن خِداعُ فتيَةِ الشَّمال الريفيِّين -ذوي الأعناق السَّميكة- صعبًا.

يتطلَّع خفاجي ويرى الرجل يُحَملِقُ مصدومًا، أو غاضبًا.

لكنه لا يُضيِّع الوقت. "آني جاي أشوف ست زبيدة رشيد".

"لعد لازم تحجز موعد قبلها عمِّي".

"موعد سيدي".

"على كيفك يابا. آني ما أعرفك بس اللي أعرفه إن أيام العز راحت. تشيك تاريخ الباج[1] قبل ما تستخدمه مرَّة اللوخ".

---

(1) الشارة بالعامية العراقية.

يثبـت خفاجـي مكانـه ويتابـع الرجـل: "السـت زبيـدة مشـغولة هوايـة[1]. خابـر سـكرتيرتها بَلْـكي تحـدِّد لـك موعـد. ولـو مـا أظـن..."، وقبـل أن ينهـي عبارتـه، كان الرجـل قـد أشـار بالفعـل إلى الحُـرَّاس الآخرين ليأتـوا ويسـاعدوه.

"اسـمعني. راح تشـوفني. الشَّـغلَة إلهـا علاقـة بأحـد يشـتغل ويَّاهـا. بنيَّـة".

يضحـك الرجـل: "الشـغلة دايمًـا بيهـا بنيَّـة. مـو هيتـش؟ قـول غيرهـا يابـا".

"اسمها سوسن فرج. ما راح أطوِّل بالمقابلة".

تتعكَّر الابتسامة على وجه الرجل: "انتظر برا، ع الدَّرج".

يمثِّـل الحـارس الـذي عنـد البـاب أنـه لا يُراقِـب خفاجـي. وحـين يعـود الرجـل بعـد دقائـق، يجعـل خفاجـي يتقدَّمـه وهـما يصعـدان السـلالم الرخاميـة، التـي يبـدو أن درجاتهـا قـد نُظِّفَـت بعنايـة.

تفتـح سـكرتيرةٌ شـابَّةٌ بـابَ المكتـب، ويجـد خفاجـي نفسـه وحيـدًا على أريكـة مُتخَمَـةٍ. تمـرُّ نصـف سـاعة ولا يـأتي أحـدٌ. يتمنَّـى لـو أنـه جَلَـبَ سـجائره، ثـم يعيـد التفكـير في الأمـر. يَـرِنُّ جـرسٌ، وتأخـذه السـكرتيرة إلى مكتـبٍ فخـم. قـد تكـون هـذه الغرفـة الوحيـدة في العـراق التـي بـلا أثَـرٍ للخرسـانة. كل شيء مصنـوع مـن الأخشـاب والحريـر والزجـاج: الحوائـط والمكتـب، وحتـى الأرضيـة والسـقف- مصنوعـان مـن البلُّـوط، والسـتائر والسـجاجيد الحريريـة تُلطِّـف مظهـر الحوائـط. وتُزيِّـن الحُليُّ الكريسـتاليَّةُ طاولـةَ القهـوة في منتصـف الغرفـة.

ينادي صوتٌ أجَشُّ من وراء المكتب: "اتفضَّل؟".

(1) كثير بالعامية البغدادية، وأصلها منغولي.

"آني هنا حتى أشوف الست زبيدة رشيد".

"إي نعـم. آني هــي. منــو إنــت؟"، وتظهـر ضحكـةٌ عـلى شـفَتَيْها في صــورة ابتســامة متكلِّفــة.

"آني... الشَّغلة بخصوص..."، ويتلعثم خفاجي، "أكو شي يضحِّك؟".

تبـدأ ابتسـامتها في الانكـماش مـن طرفيهـا: "إنـت تشـبه أحـد أعرفـه. أو تشـنت أعرفـه. العفـو".

"اسـمي محسـن خفاجـي. مثـل مـا قلـت للرَّجَّـال عنـد البوابـة. جيـت أحـكي وياتـشي عـلى مـود[1] موظفـة عندتـش. بنـت أختـي، سوسـن".

"سوسن...؟"

"سوسـن فـرج. أعتقـد تشـانت طالبـة عندتـش بالمعهـد. وتشـانت تشـتغل عندتـش مـن...".

"طبعًا. سوسن بنت أختك؟ هاي مثل بنتي. شتريد تعرف؟".

"أي شيء. عايلتهـا ظَـلّ بالْهُـم عليهـا كلـش. مـا شـافوها صـار كـم يـوم، ومـا خابَرَتْهـم. قلـت أجـي هنـا وأشـوفها".

تتعثَّر أصابعها وهي تمتدُّ نحو علبة سجائر.

"هالحتشي كلش ضايقني. ما تشنت أعرف. وما أدري...".

تعود عيناها إلى خفاجي مُجدَّدًا، ثم ترمش مُبتَعِدَة.

"أنت أخو حسن، مو هيتش؟".

أصابع خفاجي هي التي ترتبك: "تِعرفين حسن؟".

لقـد افترقـا لفـترَةٍ طويلـة مـن حياتَيْهـما لدرجـة أن خفاجـي يتفاجـأ دائمًـا حـين يتذكَّـر أن لـه أخًـا. إنـه ليـس شـقيقًا حقيقيًّـا، بـل يكـون عـادةً

(1) بشأن بالعامية البغدادية.

ذكرى مدفونة في الأعماق. حتى يَنبِشَ أحدٌ ويُخرِجُها، مثل هذه المرأة الآن. يُحَملِقُ خفاجي بشرودٍ نحو التماثيل الكريستاليَّة التي على الطاولة أمامه. تمثال راقصة باليه وفيل وأسد وحصان وكلب بودل وزرافة ومُهرِّج يحمل بالونات. إنه سيركٌ كريستاليٌّ كامل، جاهز للانكسار.

يرفع خفاجي عينَيْه مُجدَّدًا. وحين يرى عينيها يتمنَّى لو أنه لم يفعل. إنهما عينان ذهبيَّتان مثل اللوز. ولها حاجبان مُقوَّسان ورموش سوداء طويلة. بشرتها داكِنَة وشفتاها حمراوان مثل النبيذ. تبتسم فتكشف عن دُرَرٍ مصفوفَةٍ وسط المرجان. تمرُّ دقيقة وهما يتبادلان النظرات.

تشعل الأستاذة سيجارتها أخيرًا. وتأخذ نَفَسًا وتلتفت نحو النافذة.

"الناس دايمًا تقول إحنا متشابهين..."، ويفقد صوتُ خفاجي زَخَمَه.

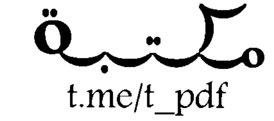
تَخفِضُ سيجارتها. وتَمُدُّ يدَها إلى حقيبتها وتُخرِجُ منديلًا. تمسح أنفَها بعِزَّةٍ شديدة لدرجة أن خفاجي يتمنَّى لو تفعلها مُجدَّدًا.

يتطلَّع خفاجي إلى السقف، ثم إلى حوائط المكتب. ولأوَّل مَرَّةٍ منذ وَطِئت قدماه هذه الغُرفَةَ يُلاحِظُ صورة عبد الكريم القاسم. يُتَمتِمُ لنفسه: "الله يرحمه".

تنحرف عيناها نحو خفاجي للحظة، ثم تميل إلى الأمام.

"تشرب تشاي محسن؟ مو صايم صح؟ شكلك مو جوعان؟".

تتحدَّث إلى جهاز الاتصال الداخلي دون انتظار. ثم ينتظران بصَمتٍ حتى تدخل السكرتيرة بطاقم شاي من البورسلين. تُقدِّم كوبًا إلى خفاجي، وتشير إلى وعاء السُّكَّر دون أن تنطق كلمة.



"التقيت حسن بجامعة إكستر. تشنت طالبة دراسات بالهندسة المدنية، وهو الأستاذ المشهور بقسم اللغة الإنجليزية. العراقي العبقري العظيم، الدارس اللامع لأعمال تي إس إليوت. تشانت زوجته إنجليزية، بس هو تشان يحبني هواية. من انولد ابنه الأول قال لي راح يعوفها. بس غيَّر رأيه بعدين: (لازم نكون منفتحين بهاي الشغلات)، دايمًا هيتش يقول. (لازم نكون منفتحين)، وظل الانفتاح سنين. وراها بفترة انتبهت لأي مدى هاي الشغلة صارت بشعة. ما تشان يترك زوجته، أو على الأقل، مو على مودي[1]. مع الوقت ما تشنت المرة الثانية الوحيدة بحياته. هو ظل منفتح ويَّا كل اللي حواليه. بس آني ما قدرت. الانفتاح تعبني هواية".

ينظر خفاجي إلى ملابسه القديمة، ويتمنَّى لو كان ارتدى شيئًا أفضل.

"كملت دراستي وعفت إنجلترا نهائيًا. تشنت راح أبقى، ردِتْ هالشي. بس ما تشنت أقدر أعيش بأي مكان قريب منه. ما تشنت أريد أشوفه ولو صُدفة. ما تشنت أريد أسمع طاريه[2] من الأصدقاء. لذلك رجعت للعراق، المكان الوحيد اللي متأكدة إني ما راح أشوفه بيه أبدًا".

تشعل سيجارة أخرى وتنظر إلى خفاجي. ثم ترمي العلبة على مكتبها باتجاهه، والقدَّاحةَ بجانبها.

"يلا. إنت كسرت صيامك اليوم أصلًا".

يضحك: "إذا تريدين تساعديني أكسر صيامي، لازم تشوفيني من وقت".

ترفع حاجبها: "تعرف، حسن متعوَّد مِن يجي طاريك يقول أخوي محسن. تشان لازم نلتقي من زمان آني وإنت. إنت أكثر واحد ردِت

(1) ليس من أجلي.

(2) ذِكره.

أشـوفه مِـن رَجَعـت العـراق. مـا أدري ليـش. بـس بمـا إنـه مـا أعرفـك شـخصيًّا، بـس رِدِت أشـوف إذا تشـان حسـن عنـده أخـو صـدق. إنـت الشـاعر، مـو هيتـش؟".

يحمَـرُّ خفاجـي خجـلًا: "شـاعر فاشـل. صـار لي سـنين مِـنْ كتبـت شي إلَـه قافيـة".

"كِلّـش فرحانـة إني لقيتـك أسـتاذ محسـن. أخـيرًا وصلـت والتقينـا. إنـت صِدِق تشـبهه".

تتبخَّر ابتسامتها وسط سحابة أخرى من الدخان وتنظر عبر النافذة.

"على مود بنت أختي سوسن، هي مو هنا؟".

"لا. سوزي تشتغل بغير مكان".

"سوزي؟".

"سوسـن. تمـر أيـام مـن غـير مـا أشـوفها. بـس نتخابـر طـول الوقـت. لذلـك مـا أفكّـر بهـا الموضـوع".

"بيا وقت آخر مرة شفتيها؟".

تُفكِّر لدقيقةٍ قبل الرَّدِّ: "الأسبوع اللي فات. يمكن الخميس".

"اتخابرتوا من وقتها؟".

"مو متأكِدة. لا".

"تعرفين وينها هسَّه؟".

"الشـغل يجـوز يودّيهـا أي مـكان بـأي يـوم. وإذا تشـنت مـا أعـرف مكانهـا، هـذا مـو معناتـه أي شي".

"بـس أهلهـا كلـش قلقانـين عليهـا. هـي غايبـة صـار أكـم مـن يـوم سِـتّ. بلـكي تقـولي لي شـنو تسـوِّي سوسـن ويّاتـش؟".

"أستاذ محسن، أريد أقول لك كل شي. دراستها الجامعية خَلّتها كلش مُهِمة. بس ما أقدر أقول لك أكثر، والأسباب أمنية".

يُومِئُ خفاجي، مع أنه غير راضٍ عن سَيْر هذه المحادثة. "يجوز هذا الشي يطمنهم شوية إذا عرفوا شغلها وياتش".

"ماكو داعي أذكِّرك بخطورة الموضوع. الوضع سيئ من يوم ليوم. وهَسَّه الباحثين بخطر، وخصوصًا الأساتذة".

"على مود إنتو أذكياء هواية يعني؟".

تنظر شزرًا إلى خفاجي قبل أن تبتسم مُجدَّدًا: "لا. على مود إحنا ضمير الأمة محسن. ما دا أقول هيتش تَفاخُر، بس هذا اللي دا يقولوه الأعداء. إذا خَلّصوا على المثقفين، راح يمحون تاريخنا مَحْيْ. ما راح يقدرون يبنون عراقهم قبل ما يزيحونا من طريقهم".

تشعل سيجارةً أخرى وتأخذ نَفَسًا عميقًا. وترمي العلبة على المكتب مُجدَّدًا.

يميل خفاجي إلى الأمام ويسأل: "ست. ما دا أقدر أفتهم شنو علاقة كل هذا بـ...".

تُقاطِعُه الأستاذة: "يعني المفروض نسلم بلدنا لِلّي جايين من برَّا؟ لا بالله. إحنا اللي بقينا وعانينا. لعنة على روحي إذا تركتهم يبيعون البلد لشركات النفط الغربية. لعنة على روحي إذا عفت الملالي ياخذون البلد من عندنا". ترى النظرة في عينَيْ خفاجي: "هاك، أخذ اللوخ".

تُمرِّر العلبة إلى خفاجي. ويُفتِّشها هو بحثًا عن سيجارة: "لعد شلون ندافع عن روحنا؟ لازم حلفاء، لازم نخلقهم. أعداء أمس يصيرون أصدقاء اليوم. وأصدقاء البارحة يصيرون أعداء اليوم".

تَزفـرُ وتَمـلأُ سـحابَةُ دُخـانٍ أخـرى الغُرفَـةَ. "العلاقـات تصـير معقَّـدة، يجـوز. بـس هـذا يخلِّيـني عميلـة محسـن؟".

يومِئُ خفاجي، ثم يُصحِّحُ نفسه: "طبعًا لا"، بنبرة تأكيدٍ قَويَّة.

تهـزُّ رأسـها وتُطفِـئ سـيجارَتَها: "شِـفِت التأمـين بـرًّا. إحنـا مـا دا نعـيِّن حـرس مسـلَّحين عـلى مـود إحنـا شـخصيات مهمَّـة، لا. إحنـا مضطريـن نعيِّنهـم. أكـو نـاس يعرفـون زيـن إنـه كل مثقـف يقتلـوه، راح يسـافرون عـشرة رأسًـا. نـص ذولي النـاس عبالهـم مِـنْ يِخلِّصـون علينـا، العـراق يصـير حُسَـينيَّة مبـاشرةً. والنـص الـلاخ عبالهـم العـراق راح يصـير محطـة بنزيـن لـو دكان صغـير. والاثنـين صح تـرى. هـذا البلـد مـا راح يصمـد مـن بعدنا".

"سـت زبيـدة، تقدريـن تقـولي لي أي شي عـن سوسـن يسـاعدني ألاقيهـا. خلِّيتـي وياهـا سـايق، صـح؟ أقـدر أحتـشي ويـاه؟".

حـين تَنظُـرُ إلى خفاجـي مُجـدَّدًا، يتخيَّـل أنهـا تتحـدَّث إلى شـخصٍ آخـر، عـلى الأرجـح حسـن. "سـوزي مثـل بنتـي. راح أخابـر السـايق وأوصلـك بيه. بلـغ العائلـة سـلامي وقلقـي مـن فضلـك".

تأخذ قلم حبر من على مكتبها وتسأله: "انطيني رقم جوَّالك".

"أخذي الرقم الأرضي".

ينظـر خفاجـي إلى كـوب شـاي البورسـلين الفـارِغِ بيـده وهـو يُـردِّد الأرقـام. وتعبـس الأسـتاذة وهـي تُـدَوِّن الأرقـام. وتمـرُّ دقائـق وهـو يتسـاءَلُ عـمَّا سَـيَلي ذلـك. ولا يحـدُثُ شيءٌ؛ فيضـع كوبَـه أخـيرًا عـلى الصِّينيَّـة وينهـض.

"ممنون على وقتش".

تهتـف وهـو يخـرج عـبر البـاب: "نتواصـل بأقـرب وقـت حسـن". ولا يُصحِّـحُ لهـا خفاجـي الاسـم، بـل إنـه حتـى لا يُمانِعَـه.

يونيو 2003

جـاؤوا في مُنتَصَـفِ اللَّيـل. كان الجـوُّ حـارًّا والكهربـاء منقطعـة؛ لـذا كانـت نوافذنـا مَفتوحَـةً عـلى مَصارِعهـا. سَـمِعتُهم حـين توقَّفـوا فجـأةً بشـاحناتهم الصغـيرة. يُمكِنُـكَ أن تراهـم عـبر الشِّـيش. حاوَلـتُ أن أرى بشـكلٍ أفضـل عـبر ثقـب البـاب وأنـا أُلـوِّح للأطفـال ليعـودوا إلى النـوم.

كُنَّـا نتوقَّـع ذلـك، الأمـر فقـط أنهـم اسـتغرقوا أكـثر مـن المتوقَّـع في الوصـول إلينـا.

لماذا نحن هنا؟ لأننا لم نجد مكانًا آخر نذهب إليه.

فمَن استطاعوا، رحلوا قبل سنوات.

بَقِـيَ ثلاثـة رجـال بالأسـفل عنـد المدخـل، وأطفـأ السـائقون مُحرِّكاتِهـم وأنوارَهـم. بالـكاد تسـتطيع تمييـزَ الشـاحنات وسـط الظـلام. مـشى اثنـان منهـم نحـو إحـدى نهايتـي الشـارع ومـشى آخـرون إلى الطـرف الآخـر، ثـم اختفـوا خلـف أكـوام الحُطـام. بـدا صـوتُ أجهزتهـم اللاسـلكية بِنَقرِهـا وخَشخَشَـةِ مَوجاتهـا مثـل طيـور صغـيرة. لم تَمُـرَّ أيُّ دوريَّـاتٍ في حَيِّنـا، لا في تلـك الليلـة ولا في أي ليلـة.

كان الظَّلام كاحلًا ووجوههم مُغطَّاة. لكن مع ذلك يُمكِنُكَ أن ترى عبر أقنِعَتِهم. لستُ بحاجَةٍ إلى أن أُخبِرَك بهُويَّتِهم. صعدَت مجموعةٌ منهم طابقًا تلو الآخر، وبقي واحِدٌ في كل طابق يَمرُّون به. أضاءت كشَّافاتُهم وانطفأت مُجدَّدًا. حبسنا أنفاسنا حين بدأ أحدهم بطَرقِ الأبواب بمؤخِّرة بندقيَّته. فلم يفتح أحد، ولم ينبس أحدٌ ببنت شَفَة.

يصعد خمسة رجال حتى الطابق الثالث. وفي الخارج يمكننا سماع المولِّدات المحمولة تَطنُّ وتسعل. ثم سُمِعَت طلقتان من طرف الشارع. أتذكَّر سماع مُحرِّك سيارة وطلقة أخرى، ثم سكون، سكون طويل. وعدنا إلى تهوية أنفسنا بينما ننتظر في ذلك الصمت، كأنَّنا تَذكَّرنا فجأةً مدى حرارة الجو.

حين صاحوا: "إبراهيم جبراوي، إطلع!" لم يتفاجأ أيٌّ مِنَّا. ما فاجأنا هو أنه فتح الباب. ثم وقع شجار وسمعنا صرخات ونحيب. لم أكن قريبًا كفاية لأسمع ما جرى بعدها، لكنَّ السَّاكِنَ بجواره مباشرة سمع كلَّ شيء. قال لهم إبراهيم إنه سيذهب معهم وطلب منهم أن يتركوا عائلته في سلام. ثم لم يُسمع سوى صوت العظام واللحم يضرب الخرسانة.

أتعرف كيف يتوقَّف الزمن حين تُصعق؟ هكذا شعرنا حين جلسنا هناك ننتظر في الظلام لمدَّة دقائق. شعر المبنى كله بالسكون كأنه تعرَّض للصعق. كان ذلك السكون سلكًا كهربيًّا ممدَّدًا على الأرض.

أخبروني لاحقًا أن بعض المُسدَّسات صوتها أعلى من البنادق. لكن ما أدراني بذلك؟

شَرَعَ الأطفالُ في الطَّابق الرَّابع بالبُكاء بعد الطَّلقَة الأولى مباشرةً. لم يَرَ أحدٌ شيئًا، لكن ذلك لم يمنعنا من رؤية كلِّ شيء. حتى هؤلاء الذين أبقوا جفونهم مُطبَقَة، رأوا كل شيء. ظَلَّ هؤلاء الأطفال يبكون حتى آخر طلقة، ثم غرقت البناية في الصمت.

بمجرَّد أن سمعنا شاحناتهم تصيح مُبتَعِدَةً، أضأنا الفوانيس وهرعنا. أمرنا النساء بأن يجلبن شراشف ودِلاءَ من المياه. ليس لأنها ستفيد بأي شكل، بل لأننا لم نُرِد لَهُنَّ أن يرين خمس جُثَثٍ تسبح في بِركَةِ دماء. اثنان من أصحاب الجُثَثِ كانا صغيرين جدًّا لدرجة أن الطلقات قطعت رأسيهما. بحلول عصر اليوم التالي، غادرنا جميعًا وجئنا هنا إلى الاستاد. يقولون إن أناسًا انتقلوا إلى شُقَقِنا يوم غادرنا. لا أعرف مَن يعيش هناك الآن، ولا يهمُّني.

مساء الاثنين
24 نوڤمبر 2003

عيدٌ مُبارَك. يوجد الكثير ممًّا يدعو إلى الامتنان في هذا العيد المُميَّز للعراق. في هذا العيد أصبح صدّام الدكتاتور، صدَّامَ الفارَّ من العدالة. في هذا العيد لا توجد مُخابرات. في هذا العيد يكسب المُدَرِّسون العراقيون كفايةً ليُطعموا عائلاتهم. في هذا العيد -ولأوَّل مرَّة- تعلمون أنكم ستحظون بدولة ديموقراطية، وتعرفون موعدًا مُحدَّدًا لذلك.

خطاب السفير بول بريمر إلى الشعب العراقي

تنقطع الكهرباء وهو يفتح الباب.

تنادي مروج في الظلام: "بابا هذا إنت؟ راح أجيب اللايت[1]".

يضع خفاجي أكياس التَّسَوُّق أرضًا ويتوقَّف.

"جبت إلنا خيار ولبن يا مَرُّوجي".

(1) المصباح بالعامية العراقية وهي تعريب light.

يرتعش الضوء مُجدَّدًا ويطفو خيال ابنته أمامه، وتتشبَّث هي بإطار الباب بيدين مُهتَزَّتَيْن.

"شلونتش؟".

تعرج وهي تحاول الوصول إلى الكرسي، ثم إلى الطاولة. يرى ابتسامةً مألوفة على وجهها وهي تقترب. ثَمَّة أسنان مثل اللآلئ، وعينان تلمعان مثل ضوء القمر على النهر.

"نفس الحالة. قمت مجبورة. ملّيت من قعدة الفراش".

"وشنو بعد؟".

"شوية دم. بس مو مثل قبل".

إنها صغيرة، مع أن وجهها لا يوحي بذلك. يَمدُّ يده إلى يدها. لا تزالان ناعمتان كيدَيْ فتاةٍ صغيرة. وفي الخارج يعلو صوت الأذان من المسجد بالشارع الرئيسي.

"جوعان بابا؟ أسوِّي لك عَشا؟".

"إذا أكلتي ويَّاي".

"أحاول بابا".

"خلِّي نشوف شنو عندنا". وتميل على والدها ويخطو كلاهما على السجَّادة، ثم على بلاط أرضية المطبخ الباردة. يعرفان أن الثلاجة فارغة؛ فقد فصلا عنها الكهرباء أخيراً الشَّهرَ الماضي. لكنهما يتفقدَّانها على أي حال. يفتحان الدواليب، ويَدَّعِيان المفاجأة حين لا يجدان أيَّ شيءٍ سوى عُلَبٍ من الصفيح وعُلَبٍ كرتونية وعبوات وجِرار. لا شيء يحتاج إلى ثلاجة ولا شيء قد يَفسَدُ. هناك ماكريل وتونة وسردين، وحمُّص وحليب مُركَّز، وشاي ومُقَرمشات وعصير. وأرز وسكر وحليب مجفَّف، ومشمش وخوخ وكرز حامض مُجفَّف، وزعتر وسمسم وهِيل وزعفران. وتمر وليمون مجفَّف ومشمش ولوز وجوز. ومخلل اللفت

والجـزر والقرنبيـط والخيـار. وجبنـة بيضـاء مالحـة وليمـون. وشَراب الرُّمَّـان وزيـت الزيتـون.

كانـت الأسرة تـأكل جيِّـدًا كلَّ يـوم لمَّـا كانـت سـهير عـلى قيـد الحيـاة. لا يهـم مـدى سـوء الأمـور، كانـوا دائمًـا يأكلـون غَداءَهـم المُتأخِّـر معًـا. لكـن ذلـك كان منـذ سـنوات. فحـين بـدأت مـروج تفقـد شَـهِيَّتَها، توقَّـف خفاجـي أيضًـا عـن الأكل. لم يُعِـدَّ أيٌّ منهـما مُنذُئِـذٍ أي شيء أكـثر تعقيـدًا مـن وعـاءٍ مـن الشـاي أو بعـض الأرز.

حـين يجلسـان ليـأكلا تنظـر مـروج إلى التقويـم وتقـول: "عيـدك مبـارك بابـا. مـا مصدِّقـة العيـد إجـه".

"أيامتش سعيدة مروج. شفت خالتش اليوم. دا ينتظرونا باتشِر".

"يا ريت أقدر. روح إنت بابا. بالنيابة عنَّا".

"حتشت ويَّاتش سوسن عن شغلها؟".

"إش وقت بابا؟ ما شفتها من الصيف. ليش دا تسأل؟".

"جاي أسأل بس".

"خلِّيهـم يجـون هـم بابـا. بلـكي يجـون الجمعـة. قـول لـسوسن تيجـي مـن الصبـح. خـلي تسـاعدني بالطبـخ".

"راح أقـول لهـم. صارلتـش هوايـة مـن سـويتي فسـنجون[1]. راح تطبخينـه؟".

"طبعًا بابا. قول لي شنو الشَّغلة اللي تحبها بالعيد؟".

"الصبـح يرجـع صبـح، والليـل نفـس الـشي. الـكل يرجـع عـلى طبيعتـه. وتخلـص هـاي الأسـطوانة الجايفـة مـن الصـوم والأكل".

---

(1) أكلة عراقية من أصل فارسي يكثر طهيها في النجف وكربلاء.

حين يرى التعبير على وجه مروج، يعتذر: "أحب أشوف الأطفال بلبسهم الجديد. راح أظل أحب هذا الشي. هواية ظلت أمك تدور وهي تشتري ملابس العيد مالْتِش. تِشنّا نحب نشوفتش وأنتي فرحانة بالملابس بالمنطقة. إنتي وعُدَيّ. هواي تشنا نفرح بلبسكم الجديد".

تشيح مروج بوجهها بعيدًا: "بابا، آخذ ماعونك[1]؟".

يُعيدُه صَوتُ مروج إلى الحاضر. فينظر أمامه ويرى الشَّوكَةَ بِيَدِه، ويجد طَبَقَه خاليًا.

"لا بابا. راح أنتظر تخلِّصين أكلتش مروج. حاولي تاكلين شوية بعد".

تضع قطعة خيار أخرى في فمها، لكنها تمضغ بلا حماس. وتشرب ما تبقّى من الرائب، ثم تمسح نكهة الدخان عن شفتيها. ينظر إلى الخارج ليرى الليل يبتلع الظلال. وينظر مُجدَّدًا إلى ساعته كأنها تقول له شيئًا ما.

تُصِرُّ مروج على غسل الأطباق، فيقف خفاجي بجانبها ويُجَفِّف ما تغسله. يستمعان معًا إلى الجيران يتحدَّثون ويضحكون. يبدأ إفطار الأُسَرِ بِجدِّيَّةٍ شديدة وهدوء. لكن مع كل قَضمَةٍ تَتحوَّل السُّفرَةُ إلى وليمة، ثم احتفالية. يُجفِّف خفاجي آخرَ الأطباق وهو يستمع إلى الثرثرة الصادرة من الناحية الأخرى من الشارع والطابق الأدنى، ثم أصوات أجهزة التلفاز التي تُشغَّل واحدًا تلو الآخر في الشُّقَق المتجاورة. وفي مكانٍ ما وراء ضوضاء التَّلفزَة يُميِّز صوت أذان آخر. ويسمع أصوات موكب على السُّلَّم وهو يَصُفُّ الأطباق والأوعية في الدولاب. لم يلحظ إلَّا وهو يطوي شُرشُفَ الأطباق أن مروج تجلس إلى مائدة المطبخ ورأسها بين يديها.

"شبيتش حبيبتي؟ أساعدتش تقومين؟".

---

(1) طبقك.

"بابا، تقدر تقرالي؟".

"أكيد حبيبتي. يَلّا آخذتش على الفراش".

يساعد ابنته لتصل إلى المرحاض ويغلق الباب برفقٍ خلفها. ينتظر في الرَّدهَة لدقائق وهي تحاول التَّبَوُّلَ. وتغسل وجهها ثم تفتح الباب. ينظر إليها وتهزُّ رأسها، ثم يَجُرَّان الخُطى معًا في الرَّدهَة المظلمة إلى أن تتمدَّد على سريرها. ويمد يده ليوقد الضوء.

"شتريدين تسمعين مروج؟".

"شي تحبه بابا".

يعود خفاجي إلى غرفة المعيشة ويأخذ كتابًا باليًا من على الرَّفّ. تقاطع نظرة متحيِّرة ابتسامةَ مروج حين ترى الكتاب بين يديه. تغلق عينيها ويبدأ والدها في القراءة. وتمرُّ الكلمات ثم المقاطع الشعرية.

قالوا الخُلود

ووَجدتُه ظِلًّا تَمطَّى في بُرود

فوقَ المدافِنِ حيث تَنكَمِشُ الحياة

ووَجَدتُه لَفظًا على بعض الشِّفاه

غَنَّته وهي تَنوحُ ماضيها وتُنزِلُه اللُّحود

غَنَّته وهي تَموت... يا للازدراء!

قالوا الخُلود، ولم أَجِدْ إلَّا الفَنَاء

دائمًا ما يأخذ شِعرُ نازك الملائكة خفاجي إلى طفولته؛ فقد كان الشِّعرُ عِمادَ منزل أُسرَتِه.

يصيح والده كلَّما سَمِعَ بَيتَ شِعرٍ جميل: "هذا نبيذ، بل أحلى النبيذ!" وكانت تلك الزجاجة الوحيدة التي شرب منها مُطلَقًا. كان

الشِّعرُ هو الكأس الذي يَصبُّه كُلَّ ليلة بعد عودته من عَمَلِه. ثم صَبَّ منه لولَدَيْه حين أصبحا كبيرَيْن كفاية ليحفظا الشِّعر. لقد علَّمهما أَفضَلَ الأبيات، ثم جعلهما يَصُبَّان له وهو مُمدَّد على الأريكة القديمة. كان يُصحِّح لولَدَيْه بعينَيْن مُغلَقَتَيْن حتى أتقنا طريقة تناول كُلِّ لؤلؤة يَجدانها في الكتب القديمة التَّرِبَة على الرفوف. حين تزورهم العَمَّات أيَّامَ الجمعة، كان يبعثهما إلى المطبخ ليُلقِيا نَوعَ الشِّعر الذي يجعل النساء تتورَّد خجلًا. فتهشُّ العَمَّاتُ الولَدَيْن إلى مجالس الرجال، لكن ليس قبل أن تحشين فَمَيْهِما بكعكات الهيل المُحلَّاة.

"بابا. إنت جاي تقول من ذاكرتك. أريدك تقرا".

يفتحُ عَينَيْه ويرى ابنته تُحَملِقُ إليه. ينظر إلى الابتسامة الخافتة على وجهها ويرفع الكتاب عن حِجرِه.

"تشنت أقرأ حبيبتي".

"لا بابا. تشنت تقول من الذاكرة. أريدك تقرا مو إلقاء".

يبتسم وهو يطوي صفحةً تلو الأخرى ليصل إلى حيث وصل بذاكرته. في يوم حين كان وأخوه صغيرَيْن، عادت أختهما رحمة من الجامعة تمسك بكتابِ شِعرٍ صغير عنوانه "شظايا ورماد". نظر والدهما إليه في ليلتها وهَزَّ كتِفَيْه قائلًا: "هذا مو شعر". لكن الولدان تَسابَقا لحفظ قصائد كاملة منه، وليس مجرَّد أبيات. لقد اكتسح شِعرُ نازك المَنزِلَ. كان كعناقيدَ جديدةٍ في حقل كروم قديم. اكتسحت نازِكُ كُلَّ ما عداها قبل حتى أن يستوعب خفاجي ما كانت تتحدَّث عنه.

"بيش دا تفكر بابا؟".

"أشوف وين وقفت. تريدين أقرا، مو هيتش؟".

"إي بابا. إبدأ من وين ما تريد. بس إقرأ".

تقـول لـه بعـد سـاعة حـين يتوقّـف عـن القـراءة: "شـكرًا بابـا. يـا قصيـدة تشـانت أمـي تحبهـا؟".

"تشانت تحب كل سطر كتبته نازك".

اكتسـب شِـعر نـازك شـحمًا ولحـمًا وأصبـح يتنفّـس حـين ظهَـرَت سـهير في حيـاة خفاجـي. علَّمَتـه مجـازاتُ نـازك مـا يرغـب فيـه، وأضحـى لِسـانُها لُغَتَـه الأُمَّ. بـدأ يُمَيِّـز الحـزن في لغـة نـازك مـع سـهير، ثـم الغضـب. واسـتمرَّ في التَّعلُّـم منهـا وهـو يكـبر. علَّمَتـه كيـف يَقبَـل التضحيـات، وكيـف يعـاني مـن الهزائـم. كيـف يكـون في مُتَوسِّـط العمـر، وكيـف يَكهَـل.

وفي عـام 1995 ماتـت سـهير، وحَزَمَـا كُتُبَهـما وانتقَـلَا مـن الفيـلَّا. اسـتمرَّ خفاجـي في القـراءة لـنازك، لكنـه لم يَعُـد يَجِـدُ راحـةً ولا سـلوى في كلماتها، بـل يجـد العكـس. كلُّ بيـت يسـتدعي حقبـةً أخـرى انتهـت للأبـد، مـاضٍ آخـر راح بـلا عـودة. يقـرأ نـازك، ولِلَحظَـةٍ تَتجسَّـد سـهير أمـام عينيـه. وبالسُّرعـة نفسـها تغـوص في محيـطٍ بـلا شـواطئ وتتركـه وقـد تقطَّعَـت بـه السُّـبُل.

"الموضـوع يختلـف مِـن تقـرا بابـا، صحيـح؟ لمَّـا تكـون الكلـمات بعقلـك يصـير إلهـا نفـس المعنـى دائمًـا. بـس مِـن تقراهـا تِنْطِيهـا سـياق جديـد".

ينظـر خفاجـي إلى ابنتـه ويبتسـم مُتفاجِئًـا. تسـتقرُّ يدهـا عـلى كُمِّـه ويبقـى كلاهـما ثابتًـا لدقائـق.

"راح أنـام بابـا. بلـكي تطفـي اللايـت"، ويهمـس مـن المدخـل والغرفـة تغـرق في الظـلام: "عيـدُ، بِأيَّـةِ حـالٍ عُـدْتَ يـا عيـدُ؟ بِمـا مَـضى أَمْ لِأَمـرٍ فيـكَ تَجديدُ؟/أَمَّـا الأَحِبَّـةُ فالبَيْـداءُ دُونَهُـمُ، فَلَيـتَ دُونَـكَ بِيـدًا...".

ويختفي ظِلُّه في الظلام مع كلمته الأخيرة.

يـأتي صـوت مـروج الخافـت مـن السريـر: "هـذه سـهلة. إنهـا للمتنبـي: أمَّـا الأَحِبَّـةُ فالبَيْـداءُ دُونَهُـمُ، فَلَيـتَ دُونَـكَ بِيـدًا دُونَهـا بِيـدُ! شـلون حزيـن هـذا البيـت بابـا! تصبـح عـلى خـير".

يَـدسُّ خفاجـي الكتـاب تحـت ذراعـه وهـو يسـير خارجًـا. يَضَعُـه بِرفـقٍ في غرفـة المعيشـة، ثـم يذهـب إلى المنضـدة الجانبيـة. يمـدُّ يـده وراء المزهريَّـات والتَّماثيـل الخَزَفيَّـة حتـى تجـد أصابعـه زجاجـة سـكوتش.

يسـمع طَرقًـا عـلى البـاب فيَضَـعُ العُلبـةَ حيـث كانـت بـلا صـوت. وينظـر عـبرَ عَـينِ البـاب فـلا يـرى شـيئًا سـوى كآبـة السُّـلَّم الخـاوي. يظهـر ضـوءٌ، ثـم يـرى وَلَـدَ جـارِهِ. فيهتـف وهـو يفتـح البـاب: "مَنـو؟".

"عيدكـم مبـارك! أبـوي وأمـي يسـألونك إذا تريـدون إنـت ومـروج تباوعـون[1] التلفزيـون ويانـا. السـتالايت رجـع يشـتغل وراح نشـوف الحلقـة الأخـيرة مـن المسلسـلة السـورية هسَّـه".

"هالو جعفر. خليها باتشر إذا أمكن".

ينفجـر صـوت: "لخاطـري. لازم تجـون!" ولِلَحظَـةٍ يَعجَـزُ خفاجـي عـن تحديـد هُويَّـة المتكلـم. "عينـي محسـن. هـاي ليلـة عيـد وإنتـوا جوارينـا. تعالـوا مـن فضلـك. عندنـا شـوية حلويـات. وأم عـلي سـوِّت كليتشـة[2] اليـوم العـصر. مـا تقـدر تقـول لا".

يظهـر والـد جعفـر عنـد بسـطة السُّـلَّم، ويتصافـح الرجـلان ويبتسـمان. أبـو عـلي رَجُـلٌ هزيـل، لا يَكـبُرُ وَلَـدُه النحيـف كثـيراً. نظَّارتـه السـميكة تجعـل عينيـه المنتفختـين تبـدوان أكـبر مـن حجمهـما الحقيقـي.

"اللـه يسـلمك عينـي أبـو عـلي! مـا أرى نسـوِّي زحمـة عليكـم. هـاي الليلـة خصوصًـا. بالقـرآن باتـشر...".

---

(1) تشاهدون بالعامية البغدادية.

(2) كعك بالتَّمر بالعامية البغدادية.

عندها يصيح صوتٌ آخر: "لا... ما يصير. الحلويات جاهزة وشغلنا الكِتلي[1] إلك ولمروج".

"الله يحفظكم. مروج نامت". ويبتسم أبو علي إلى أن يلين خفاجي.

يضم خفاجي إبهامه مع أصابعه ليطلب من أبو علي الانتظار. يعود إلى الداخل ليتفقَّد مروج ويخرج ويغلق الباب برفقٍ خلفه. يأخذ جعفر خفاجي من يده ويمشي به إلى الباب المجاور.

يقضي خفاجي أكثرَ من ساعَةٍ في ادِّعاء الاستمتاع بطبق الحلويات. يرتشف شاي الهيل المُحلَّى ويشيد باليد التي أَعدَّته. يشاهد المسلسل ويفتعل الاهتمام بعُقَدِه ومُنعَطَفاته.

يُقلِّد جعفر بصوته مذيعًا تلفزيونيًا على نحو سيِّئ: "الليلة يذيعون الحلقة الأخيرة، وسينكشف كل شيء!"، هو الوحيد الذي يلاحظ أن خفاجي ليست لديه فكرة عن الحَبكَة أو الشخصيات. فيغمز حين تلتقي عيناه بعينَيْ خفاجي.

إنها ليلة أخرى من تَجَنُّب الأسئلة. الجيران سكنوا هُنا حديثًا، ولا يعرفون عن البناية أكثرَ مِمَّا يعرفه أيُّ واضِعِ يَدٍ: أن هناك شُقَقًا شاغِرَةً. يعرفون أيضًا من التجربة أن الناس يمكن أن يقفزوا من حياةٍ إلى أخرى، وأن بِنايَةً كامِلَةً يمكن أن ترحل بين ليلة وضحاها. ربما حتى يعرفون أن مَن يَتَخلَّفون لديهم أسبابهم أيضًا. ويعرف أبو علي أنه يجب ألَّا يطرح الأسئلة، وكذا خفاجي.

يُومِئُ خفاجي حين يَسبُّ أبو علي صدَّام، لكن ليس بشَكلٍ مُبالغ. وحين يسخران من جُبن الجِنرالات والضُّبَّاط، يشارك خفاجي بضحكاتٍ صادِقَة. وحين يتحدَّثان عن أعضاء الحرس الجمهوري الذين أُطلِقَت

(1) غلاّية المياه بالعامية العراقية وهي تعريب Kettle.

عليهـم النِّيرانُ البارِحَـةَ عنـد نقطـة تفتيـش شـارع الجامعـة، يهـزُّ خفاجـي رأسَـه ويقـول: "أليـس علـى الباغـي تـدور الدوائـر؟".

لقـد تَقبَّلـوا خفاجـي منـذ البدايـة بالماضي الـذي قالـه لهـم. إنـه أمـين مكتبـة مُتقاعِـدٌ، يعيـش مـع ابنتـه. وهـو أرمـل، ولم تكـن ابنتـه طفلتَـه الوحيـدةَ دائمًـا. إنـه رَجُـلٌ مُسِـنٌّ فَضَّـل صُحبَـةَ الكُتُـب.

يتنفَّـس خفاجـي الصُّعـداء حـين تنقطـع الكهربـاء، فهـو الآن حُـرٌّ ليرجع إلى شَـقَّته. فيرجـع ويوقـد شـمعةً ويُخـرِجُ زجاجـة بـلاك ليبـل، يتجـرَّع الـكأس الأول سريعًـا ويصـبُّ آخـر. يشـعر ببعـض الحَـرِّ فيجلـس بكـرسيِّ قراءتـه ويسـتمع إلى الاحتفـالات بالخـارج. الأطفـال يضحكـون ويتبادلـون النـداءات في الشـارع. ويصـل إليـه مـن الشـارع المنكـوب صـوتُ ضَربـات السَّـوط والعجـلات المعدنيـة. يسـمع صَلصَلَـةَ عُبـوات الغـاز والصيـاح البعيـد لبائعـي الفاكهـة، ووقـع الأقـدام وهـي تصعـد وتهبط السـلالم. بينما تـتردَّد أصـوات فَرقَعـة وانفجـارات الألعـاب الناريـة والطلقـات بـين الحـين والآخـر كأنَّ بالمدينـة مائـة حفـل زفـاف، أو كأنَّ معركـةً جديـدةً تَنشَـب.

يجـد صـورة ابنـةِ نَسـيبِه بـين يدَيـه، فينظـر إليهـا مُجـدَّدًا، لكنـه ينـدم عـلى ذلـك. فقـد وجـد نفسـه مـرَّةً أخـرى ينظـر إلى سـهير. أبـدًا مـا يكـون الحـاضِرُ حـاضرًا كفايـة.

يضـع خفاجـي الصـورة عـلى الطاولـة ويدعـك عينيـه. يُمسِّـدُ شـارِبَه وينظـر إلى يديـه. يجـد تجاعيـد كفَّيْـه أكـثر حِـدَّةً وعمقًـا في ضـوء الشـفق. وتتمـدَّد أشـكال الأثـاث وتسـبح بطـول الغرفـة الغارقـة في الظُّلمَـة. ويجلـس هـو في بِركَـةٍ صغـيرةٍ مـن الضـوء الدافـئ. تسـتقرُّ قصائـد نـازك في حِجـرِه وهـو لا يـولي الكتـاب أيَّ اهتـمام، لكـن الكلـمات حَيَّـةً تَسـبحُ في الهـواء. وبينـما تحملـق عينـاه إلى ظـلال خزانـات الكتـب يسـمع صوتًـا:

وسأسمَعُ صَوتَكَ كُلَّ مساء

حين يغفو الضِّياء

وتلوذ المَتاعِبُ بالأحلام

وينام الطُّموح تنام المُنى والغَرام

وتنامُ الحَياةُ، ويبقى الزَّمانْ

ساهِرًا لا ينام

مثلَ صَوتِكَ، ملءَ الدُّجَى الوَسنانْ

صوتُكَ السَّهرانْ

في حنيني العميق

صَوتُكَ الأَبَديُّ الَّذي لا ينام

فهو يبقى معي سهرانْ

يغفـو خفاجـي مثلـما يفعـل كلَّ لَيلَـة. إذ تتحوَّل الحـروف إلى كلـمات، والكلـمات إلى أصـوات ثـم إلى صُـوَرٍ ثُـمَّ أحـلام ثـم لا شيء.

يحـدث تَصـادُمٌ في الخـارج، ثـم يُسـمع شيءٌ يُشـبِهُ الانفجـار بالأسـفل، وتعـود الكهربـاء. وفجـأة تصبـح الشَّـقَّة عارِيَـةً مكشـوفة. كل شيء لا يـزال في مكانـه، لكـن في عينيـه الدَّهِشَـتَيْن يبـدو كأنَّ الحيـاة قـد بُثَّـت بِـكُلِّ شيء. كأن كل شيء في الشـقة قـد تراقـص وهـو نائـم، ثـم قفـز عائـدًا إلى مكانـه وهـو يصحـو.

يرفـع خفاجـي نفسـه مـن مقعـده ويعيـد الزُّجاجـة إلى مَخبَئِهـا. ينغلق بـاب الخزانـة مثلـما تُغلِـقُ علامـةُ التَّرقيـم الجُملَـةَ، والآن يمكنـه تمييـز صـوت نَشـيجٍ في مـكان قريـب. فيغلـق عينيـه ويسـتمع.

تنطفـئ الأضـواء فجـأة وينخلـع البـاب الأمامـي. يندفـع إلى الداخـل رجـالٌ معهـم كشَّـافاتٌ وأسـلحة. يحـاول أن يحصيهـم، لكـن يبـدو أنهـم يملـؤون غرفـة المعيشـة والردهـة وينتـشرون حتـى بَسـطَةِ السُّـلَّم ومـا أبعد منهـا. الأضـواء تَخِـزُ عينيـه فيُغـشى بـصره. وتنقـضُّ الأيـادي عـلى خفاجـي

وتلـوي ذراعَيْـه. إنــه راقِـدٌ عــلى الأرض وخَـدُّه مُنضَغِـطٌ عــلى البـلاط الرُّخامـيِّ المُثلَّـج. يُلـوى ذراعـاه إلى الخلـف وتبـدأ كتفـاه في الـصراخ. هنـاك صِيـاحٌ وأسـلحة تنقـر وتُصَلصِـلُ، وأنـوار الكشّـافات تتأرجـح في الظـلام. يغلـق عينيـه ويتخيَّـل الشـارع كُلَّـه مليئًـا بهـؤلاء الرجـال، يتخيَّـل صفًّـا منهـم يمتـدُّ حتـى حافَّـة النهـر.

يتذكَّـر ابنتـه النَّائِمَـة ويفتـح عينيـه ويصيـح باسـمها: "مـروج!" فيجـد أحذيـةً تَركُلُـه، لكنــه يبحــث عــن العيــون. وحــين يجدهــا لا يــرى بهــا شـيئًا سـوى الخـوف. يأمُـرُ الرَّجُـلُ ذو القنـاع الأسـود خفاجـي بـأن يبقـى عـلى الأرض. ويشـدُّ أحَدُهُـم أربِطَـةً بلاسـتيكيَّةً حـول معصَمَيْـه وكاحِلَيْـه، ويتـسرَّب التنميـل إلى أصابعـه.

يقـول لنفسـه قبـل أن يغيـب عـن الوعـي: لا صالِـحَ لِمُسِـنٍّ مِثلِـكَ بِمُقاوَمَتِهـم.

يوليو 2003

مُذَكِّرَة إلى:

نائب قائد العمليات الخاصة بجيش الولايات المتحدة

قائد الفوج السابع والخمسين بجيش الولايات المتحدة

قائد مجموعة القوات الخاصة العاشرة

الموضوع: تقرير عَمَلِّياتي بتاريخ 10 يوليو 2003

بناء على المعلومة الاستخباراتية رقم (003Z2-INSCOM 02) المُتعلِّقة بهدفٍ رفيع المستوى (ملك السباتي[1]: عِزَّة إبراهيم)، حاصَرَت الوحدة "75 آر" ڤيلا في حَيِّ التشريع عند سعت مئتين. تَطَلَّب تأمينُ مُحيط الڤيلا الاستحواذَ على المَقرَّات السكنية المجاورة. وقد عُثِرَ في مَقرِّ الإقامة الرئيسي على موادَّ يُحتَمَلُ كونها مُتفجِّرة.

(1) أعدَّ الجيش الأمريكي بعد غزو العراق بطاقاتِ كوتشينة تربط الصّوَرَ الشخصية لأركان نظام البَعث الهاربين برموز الكوتشينة لمساعدة الجنود في التعرُّف عليهم. فكانت ورقة ملك السباتي من نصيب "عزة إبراهيم الدوري"، السادس على قائمة المطلوبين. ويُطلق على تلك الأوراق "مجموعة أوراق اللعب لأهم المطلوبين العراقيين".

تَبـيَّن عـدم وجـود إبراهيـم، ولا يـزال مَوقِعُـه غـيرَ معلـوم. بَـدَت المقيـمات بالڤيـلا مُنطَويـاتٍ، بينـما أظهـر الذُّكـورُ سُـلوكًا عدوانيًّـا، وقـاوَمَ ثلاثَـةٌ الاعتقـالَ؛ فاسـتُخدمت معهـم الأربطـة البلاسـتيكية وأغطيـة الـرأس. طَلَبَـت الوحـدةُ الدَّعـمَ عنـد سـعت مئتـين وخمسـة وعشريـن للتَّصـدِّي للتهديـد المُحتمَـل. ووصلـت مجموعـة القـوات الخاصـة العـاشرة عنـد سـعت ثلاثِمئـة، وبـاشَرَت الوحـدة "75 آر" تفتيـشَ الوحـدات السـكنية المجـاورة. وعنـد سـعت ثلاثمئـة وخمـس عـشرة، حـاول ذَكَـران تحـت السَّـيطرَة[1] الهـربَ. ونجحـا في مغـادرة المبنـى عـلى الرغـم مـن الجهـود المتكـرِّرَة مـن قِبَـل أعضـاء وحـدة "75 آر" لتقييـد حركتهـما. أصـدرت مجموعـة القـوات الخاصـة العـاشرة المنتـشرة بالمحيـط الخارجي للمبنـى تحذيـرًا للمُشـتَبَهِ بهـما للتوقُّـف حـالَ خروجهـما، لكنهـما تجاهلاهـا. فجـرى تعطيـل المشـتبه بهـما بالقـوة. حـاول المُسـعفون انعاشـهما قبـل إعـلان وفاتهـما في سـعت ثلاثمئـة وثلاثـين. وقـد وقـع شِـجارٌ مـع أقاربهـما خـلال تأمـين نقـل الجثمانَـيْن. وأُنهـيَ الشِّـجارُ بالقـوة في سـعت أربعمائـة وخمـس عـشرة، وعـدد الإصابـات المدنيـة غـير معـروف.

أقـرَّت المُعاينـة الأوَّليَّـة أن مَقـرَّ الإقامـة اسـتُخدِمَ كورشَـةٍ لإصـلاح المُولِّـدات المحمولـة. وقـد عرَّضَـت هـذه الواقعـة الهـدفَ الرئيسيَّ للعمليـة للخطـر. كـذا تعرَّضَـت أصـولٌ اسـتخباراتيَّةٌ بَشريَّـةٌ للـضَّرَر. نرجـو الإفـادة.

---

(1) "أشـخاصٌ تَحـتَ السَّـيطرَة" Persons Under Control (PUCs): مصطلـح عسـكري أمريـكي يُسـتَخدَم للإشـارة إلى المُعتَقلـين.

الثُّلاثاء – الأربعاء
25– 26 نوفمبر 2003

يحسُّ خفاجي بنبض في رأسه، لكنَّ صوتًا يقاطعه فجأة: "مُؤكَّد. إنه ثلاثة الديناري![1]".

خفاجي مُمدَّدٌ على ظهره وذراعاه مُقَيَّدان وكذا قدميه. يستطيع أن يسمع، لكنه لا يرى. يشعر بألَمٍ خافت حيث اعتادت عيناه أن تُوجَدَا، ويشعر كأنَّ أحدًا أشعل النار بجيوبه الأنفية. رأسه ملفوفٌ بكيسٍ مُبتَلٍّ، وتبدو ملابسه كأنها منقوعة بالمياه. تمرُّ الساعات ويشرع جسده في الاختلاج بلا سيطَرَةٍ منه بين الحين والآخر. أحيانًا لا يجد ما يستمع إليه سوى أنفاسه الثقيلة ونبضه القوي. أحيانًا يسمع موسيقا صاخِبَة مُدوِّية. ثم يتكرَّر كل ذلك من البداية. يسمعهم يجيئون دون كلام. يشعر بأصابعهم لكنه لا يستطيع أن يُوقِفَهم. يقلبونه فيرفعون قدميه إلى الأعلى وينزلون رأسه إلى الأسفل ببطء وبحذر. وفجأة يجد نفسه في دِجلَة، فجأة يجد نفسه يغرق. تغمُرُ المياه جيوبه الأنفية وتفحَصُ أصابِعُ مَعِدَتَه وصدره. ثم يغرق مُجدَّدًا، مرارًا وتكرارًا. يجد

(1) بطاقة "ثلاثة الديناري" في مجموعة أوراق اللعب لأهم المطلوبين العراقيين، وتحمل اسم "محسن خضر الخفاجي".

نفسه كلَّما خرج من المياه غيرَ واثق إن كان يشهق أم يزفر، أو إن كان حتَّى يتنفَّس من الأساس. يُكشف عنه غطاؤه ثم يُوضع مُجدَّدًا. يشعر بالألم في رأسه لكنه لا يرى شيئًا، ثم يهبط ظلامٌ تامٌ.

يَستفيقُ خفاجي بعد ساعاتٍ على صوتٍ آخر، ويجد نفسه مُلقًى على جانبه على سطحٍ خرسانيٍّ. "لقد قبضنا عليه يا سيِّدي. ليس أحد وجوه البطاقات، لكنه هدفٌ هامٌّ. لقد وصلتنا استخباراتٌ صحيحة وحالَفَنا الحَظُّ. نعم يا سيِّدي. شكرًا لك يا سيدي". يأتي آخرون ويذهبون. ويسمع صوتًا وهو يغفو، ويسمع صوتًا آخر وهو يصحو، وكلها أصوات أمريكية. يغفو هو شَخصيًا، لكنَّ الألَمَ لا يغفو أبدًا.

"كم الجائزة على رأس هذا الكلب؟ ماذا؟ باشر الأمر أيُّها الرقيب". ليس الصياح هو ما يوقظه، بل القشعريرة. فالأرض تحته أشبه بالجليد. لقد اختفت ملابسه، وأصبح يَشعرُ بدفء جلده، أو بسخونته. ويشعر كأن سكينًا يمرُّ بمنتصف دماغه.

"صباح الخير يا مَنْيَك. نعرف من أنت. أنت المدير، أليس كذلك؟ سأناديك من الآن بالمدير المَنْيَك المُعتَقَل، هذا أسهل نطقًا من اسمك الحاجِّي[1]. قد لا تكون الهدفَ الأهمَّ لأمريكا. لكنك موجود على قائمة المطلوبين أيها الكلب. أنت لنا الآن!".

يشعر خفاجي بحذاءٍ قُربَ أُذُنه، ويشعر بتنفُّس أحدهم. تمتدُّ يَدٌ لتشدَّ الغطاء عن عينيه، ويسمع صوتًا جديدًا: "ماذا بِحَقِّ الجحيم قد حدث لوجه هذا الموقوف؟" ثم سكوت طويل. يُهَمهِمُ الرجل لوهلة ثم يصيح بشخص آخر: "ثمَّة شيء غريب". ويستمع خفاجي إلى وقع الأحذية في الغرفة.

---

(1) "حاجِّي" مصطلح شائع في محادثات الجيش الأمريكي للإشارة إلى العراقيين خصوصًا والعرب عمومًا. يُستَخدَم في بعض السياقات على سبيل التحقير.

"لا تفهـم كلمـةً مِـمَّا أقـول، أليـس كذلـك؟ سـأُريك". يشـعر خفاجـي بركلـةٍ مُفاجِئَـةٍ إلى كليتيـه، ويسـقط في حُلـمٍ آخـر مُظلِـم.

بعـد بعـض الوقـت تُخلَـعُ العصّابـة عـن عينيـه، وتصفـع المِيـاهُ البـارِدَةُ وَجهَـه. وحينهـا فقـط يشـعر بالشَّريـط اللَّاصِـق عـلى فَمِـه وهـو يَلهَـثُ بَحثًـا عـن الهـواء. تخـرج صرخاتـه في هيئـة تَنَهُّـداتٍ مَكتومـة. ويشـعر كأنَّ كُلَّ هـواء الغرفـة لـن يكفـي رِئتَيْـه.

يَرتَجِـفُ جسـده العـاري كأنَّـه تحـت سـيطرَة شُـخصٍ آخـر. ويتشـنَّجُ جِلـدُه في كُلِّ مَـرَّةٍ يتذكَّـر الخرسـانة المُجمَّـدة. يحـاول أن يسـيطر عـلى نشـيجه لكنـه لا يسـتطيع. تتوقَّـف دُموعُـه تدريجيًّـا وتبـدأ أشـياء في التلويـح بالأفـق. إنهـا غرفـةٌ خاويـةٌ لهـا بـابٌ مَعـدنيٌّ. الطِّـلاءُ يتسـاقط عـن الحوائـط بسـبب الخرسـانة المتشـقِّقة، وثَمَّـة مكتـبٌ مَعدِنيٌّ وكُرسـيان مَعدنيَّـان مـن النَّـوع الحُكومـيِّ المُوحَّـد ويوجـد كـرسيٌّ آخـر خَشَـبيٌّ. توجد في الأعـلى مصابيـح الفلوريسـنت التـي تومِـضُ وتُخَشـخِشُ بعشـوائيَّةٍ. وهنـاك ألـواح قرميـدٍ مفقـودة في السـقف. كل شيء يبـدو مألوفًـا بشـكل مـا. حتـى المُتخصِّصـين بالأعـمال المكتبيَّـة مثـل خفاجـي يعرفـون هـذا النَّـوعَ مـن الغُـرَف. الأمـر فقـط أنـه لم يَرَهـا مـن هـذه الزاويـة المقلوبـة مـن قبـل.

يقـترب أمريـكيٌّ يُشـبِه السـلطعون مـن جانبـه، ذراعـاه أشـبه بـزوجٍ مـن المخالـب غـير المتناسـقة. يمـدُّ الرجـل ذراعـه ويضغـط عـلى شيء، فتتحـرَّر رِجـلَا خفاجـي. ثـم تبـدآن في الارتجـاف والإيـلام. ويَفـكُّ يـدَيْ خفاجـي مـن خلفـه ثُـمَّ يُقَيِّدهـما مُجـدَّدًا أمامـه. تتدفَّـق الدمـاء إلى كتفيـه حـين يبـدأ في تحريكهـما ويشـعر بوخـزٍ حـادٍّ، لكـن هكـذا تعـود الحيـاة إلى العضـلات والجِلـد. ومـع ذلـك فإنـه لا يـزال يشـعر بالخَـدَرِ في أطـراف أصابعـه. ينظـر بتَمَعُّـنٍ إلى الرَّجُـلِ الـذي أمامـه. وجهـه يُشـبِه الطبـق الـذي انكسر وجُمِّعَـت أجـزاؤه ولُصِقَـت. يَفُـكُّ الأمريـكيُّ الوَثـاقَ ويبتسـم

إليـه عـلى نحـوٍ حَميمـيٍّ كأنهـما تقابـلا مـن قبـل. يعـرف خفاجـي تلـك النظـرة. يتقـدَّم رجـلان آخـران وعسـكان خفاجـي مـن كتفيـه ويرفعانـه عـلى كـرسيٍّ خشـبي. يُحـدِثُ الكـرسيُّ صريـرًا ويسـكن تحـت وطـأة وزنـه. يرمـي أحدهـما بطانيَّـةً قَـذِرَةً عـلى كتفيـه، وينجـح خفاجـي في لَفِّها حـول جسـده.

لا يـدرك خفاجـي أن شـخصًا آخـر في الغرفـة إلَّا حـين يسـمع صوتـًا يعـرض عليـه سـيجارة، وهـو صـوتُ عراقـيٍّ.

"عيـدك مبـارك ابـن القحبـة. تعجبـك السـجاير الأمريكيـة؟ سـجاير (ڤيرچينيـا)؟ أعـرف إنـك تحبهـا. إنـت تقـول إنـك تكـره الأمريـكان بـس تحـب سـجايرهم أكـثر شي بالدنيـا". يشـعل أحدهـم سـيجارة ويضعهـا بـين شـفَتَيْ خفاجـي فيأخـذ نفسًـا ويسـعل حـين يبلـغ الدخـان أحشـاءه. يـشرع النيكوتـين في السَّريـان بدمائـه ولكـن ليـس بسرعـة كافيـة. وأخـيرًا يتراجـع الألم إلى الخلفيـة ويصبـح أقـلَّ حِـدَّة.

يبـدو الصـوت مألوفًـا لكـن هنالـك شيء غريـب. بالـكاد يسـتطيع خفاجـي أن يُميِّـزَ الرجـل القصـير الأصلـع في الزاويـة. هـو مـن الموصـل بحسـب لكنتـه، ويرتـدي بدلـةً إيطاليَّـةً وحـذاءً لامعًـا. لا بُـدَّ أنـه لا يضطـرُّ أبـدًا إلى السـير بشـوارعنا، ولـه رائحـة الجلـود، إنـه عطـر. ويبـدو وجهـه مشـهورًا إلى حـدٍّ مـا.

لكـن هنـاك شيء مُحـيِّر. لمـاذا لا يغطـي وجهـه؟ ثـم أدرك خفاجـي الإجابـة. لأنـه لا يهتـم. يـدرس خفاجـي وجـه الرجـل ليُشـتِّتَ عقلـه عـن الألم. الرجـل لـه بَـشرَةٌ وَرديَّـة ووجـهٌ حليـق باسـتثناء الحواجـب، ولـه عينـان زرقـاوان حادَّتـان. تمـرُّ دقائـق قبـل أن يـدرك أن الموصـليَّ يتحـدَّث إليـه.

"...وهـاي بـس البدايـة يـا حقـير. لمـا نلقـى أخـوك راح نحبسـه هنـا وباقــي العائلــة همــين[1]. وبقيــة عائلتــك أيضًــا. تريــد تشــوف إش راح نســوِّي ويَّاهــم؟ راح تشــوف وتبــاوع".

"وين بنتي ابن العير[2]؟".

يـضرب أحدُهـم وَجـهَ خفاجـي بالمكتـب مـن ورائـه ويصيـح: "يجـب أن تكـون أكـثر احترامًـا". وينـزع البطانيـة ويرمهـا عـلى الأرض.

يسـعل خفاجـي ويتهـوَّع. ويوضَـعُ كُـوبٌ بلاسـتيكيٌّ مـن المـاء عـلى الطاولـة أمـام خفاجـي، فيتجرَّعـه عـلى مـرَّةٍ واحـدة.

"زيـن". حـين يتكلَّـم خفاجـي، يُذهِلُـه صوتـه هـو شـخصيًّا. إنـه ضعيفٌ وبـارد. يطفـو وسـط الهـواء كأنـه جـاء مـن مـكان آخـر، مثـل طفـل يصيـح مـن داخـل غرفـة مُغلَقـة. أحـسَّ فجـأة أنـه يريـد أن ينظـر إلى نفسـه في المـرآة.

يُومِـئُ الأمريـكي إلى الموصـليِّ ويغـادر الرجـلان. ويجلـس خفاجـي وحيـدًا مـع أفـكاره مُجـدَّدًا. البطانيـة أبعـد قليـلًا مـن أصابـع قدميـه.

تظهر نازك وراءه وتهمس في أذنه:

ولا مُعتصِمَ أدعوه، لا فينا صلاحُ الدين

ننامُ اللَّيلَ، نصحو الفَجرَ مَجروحين

ومَطعونين، مَقتولين

فكَيفَ نُهادِنُ الطُّغيان؟

وكيفَ نُصافِحُ الشَّيطان؟

(1) أيضًا بالعامية العراقية.

(2) العضو الذكري بالعامية العراقية.

لسببٍ ما كان وَجهُ الموصليِّ هو ما أدّى بخفاجي إلى التفكير في هذه الأبيات.

يعود الأمريكيُّ إلى الغرفة، ويتبعه رجُلٌ بغطاء وجهٍ أسود. يجلسان على الكرسيَّيْن المعدنيَّيْن المُقابِلَيْن لخفاجي. يضع أحدٌ البطّانيَّةَ على كتفيه مُجدَّدًا، ويشدُّها خفاجي حول جسده قدرَ الإمكان.

يفتح الأمريكي ملفًّا بيده بينما يحملق خفاجي إلى الوجه المُغطّى. لكنَّ الرجل الآخر لا ينظر إلّا إلى السقف.

يلتفت الأمريكي إلى غطاء الوجه ويسأل بالإنجليزية: "هل هو محسن خضر الخفاجي؟".

يجيب الصوت من داخل غطاء الوجه: "إنتا محسن خضر الخفاجي؟".

"نعم".

يسأل الأمريكي بالإنجليزية: "هل يعمل رئيسًا بالحزب وقائدًا بميليشيا القادسية؟".

يبدأ المترجم: "منو يقول...؟".

يقاطعه خفاجي: "شنو؟ لا، آني من الشرطة مو من الجيش".

يتبادل الأمريكيُّ والمترجم النظرات، ويقاطعهما خفاجي مُجدَّدًا. أوَّلًا بالإنجليزية ثم مُجدَّدًا بالعربية: "إنتو جاي تدورون على واحد لاخ. صحيح؟".

ينهضان ويغادران على نحوٍ مُتعجِّلٍ. وحين ينفتح الباب مُجدَّدًا يرى خفاجي الموصليَّ ينظر إلى الداخل. يقف إلى جانبه رجلٌ هزيلٌ، يرتدي هو الآخر بذلةً وينتعل حذاءً مُلمَّعًا بإتقان، والشيء الوحيد المختلف هو أنه يعتمر غطاءَ الوجه. يتكلم الموصليُّ إلى الرجل ثم يشير بإصبعه. في البداية يومئ غطاء الوجه، ثم يَهزُّ كتفيه. يتخيَّل

خفاجي وجهًا ورديًا أصلع آخَرَ وراءَ القناع. تُغلِقُ يَدٌ البابَ ويصبح خفاجي وحده مُجدَّدًا. أصبح الألم في جيوبه الأنفية ورأسه غير مُحتَمَل. فيغلق عينيه ويحاول الاختفاء.

ليست هذه المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. ففي مرة قبل ذلك بكثير، وَرَدَت إشارةٌ رسمية بشأن ترقية. كانت مُوَجَّهةً إليه، محسن خضر الخفاجي. كانت ترقيةً هائلة، أشبه بقفزة واسعة عبر الصفوف وجداول الأجور. هرع خفاجي إلى المنزل بمجرّد أن رأى الرسالة ليُريَها لسهير. احتفلا بالعشاء في أحد المطاعم الجديدة على ضفَّة النهر، وانضمَّ إليهما أخو سهير وزوجته وشربوا جميعًا الكثير من العَرَق. كان ذلك يوم 16 يوليو. لا يستطيع خفاجي أبدًا أن ينسى هذا التاريخ. فقد أيقظته سهير في وقت متأخِّر من الصباح التالي واستمعا معًا إلى أخبار الانقلاب. وكان عارف قد استقلَّ طائرةً إلى لندن، وأصبح أحمد حسن البكر الرئيسَ الجديد. لقد أدرك وهو يسوِّي ربطة عنقه أمام المرآة في ذلك الصباح أن العالم كله قد تَغيَّر وهُما نائمان.

لكن هذه الرسالة كان يُقصَدُ بها شخص آخر، محسن خضر الخفاجي آخر. بعد فترة طويلة من تصحيح ذلك الخطأ، أحبَّت سهير أن تُداعِبَه بشأن الأموال التي أنفقوها للاحتفال. وفي عيد ميلاده التالي، أطَّرَت سهير صورةً لأربَعَتِهم في العشاء، منقوشٌ عليها كلمات "مبارك لك النجاح!". إنها واحدة من الصور القليلة التي لا يزال خفاجي يحتفظ بها من تلك الفترة. أصبح ذلك المساء، وذلك الخطأ، أحدَ ألمع لحظات حياتهما معًا.

حدث ذلك للمرة الثانية بعد حرب الكويت. إذ طرق فتًى يرتدي زيًّا نظاميًّا بابَهما. وحين فتح له خفاجي هُرِعَ الفتى إلى مُصافَحَتِه واحتضانه بدموعٍ ومشاعِرَ صادقة. منع الذهولُ خفاجي من مقاطعته. لم يَقُل الفتى الكثير في البداية، فقط عبارات ثَناء غامضة عن الشهداء.

وبحضور الشاي شرع بِحَكيٍ قصة طويلة عن صداقته بابن خفاجي. كانا أَخَيْن أكثر من كونهما صديقَيْن. تحدَّث عن أن وحدتهما بالكامل ترسل تحياتها. كان خفاجي في تلك اللحظة حائرًا جدًّا، ولم يعرف ما يجب قوله. فحين أُعدم عُدَي قبل ثلاث سنوات، لم يتلقَّ أي زيارات ولا تَعزياتٍ، ولم يستَعِد جُثمانَه. كذا لم تُقَم أي مراسم دفن ولا جنازة. بل وصلت الأنباء في وقتٍ مُتأخِّر من إحدى الليالي، وكانت شائِعَةً مَرَّرها أحد زملائه. كان الاعتراف الرَّسمي الوحيد بموت عُدَيّ في صورة عقوبة، أي السقوط المفاجئ إلى صفوف الشرطة المدنية.

عرف خفاجي منذ البداية في عام 1991 موضوعَ زيارة الجندي، لكنه استغرق بعض الوقت ليدرك سَبَبَها. وبعد ساعَةٍ أدركا سوء الفهم. فذلك المبعوث كان يجب أن يزور محسن خضر الخفاجي آخر. ومع ذلك ظلَّ المشهد يُعاد في ذهنه لأيام بعدها. وسمح خفاجي لنفسه بتخيُّلِ أن موتَ ابن الرجل الآخر يعني أن ابنه قد نجا بطريقةٍ ما، وأن عُدَيًّ قد نجح بطريقة ما في تَدبُّر بضع سنوات أخرى من الحياة في مكانٍ ما. كأنَّ ذلك قد يُذهِبُ بعضَ الألم.

كان أطبَّاءُ سهير في تلك الأثناء قد اكتشفوا للتَّوِّ أن سرطانها استشرى في جسدها. فلم يستطع أَيٌّ منهما استيعابَ تلك المعلومة التي جاءت بالخطأ عن وفاة شخص آخر. ولم يتحدَّثا بشأنها أبدًا.

حدَثَت مَهزَلَةٌ حين ظهر محسن خضر الخفاجي الآخر لأوَّل مرة في حياته. وكانت مأساةً حين عاد للمرة الثانية، والآن؟ يُطبِقُ خفاجي فَكَّه ويحاول تجاهُلَ الألم.

يعود الأمريكي والموصلي إلى الغرفة بعد دقائق ويبدو عليهما النشاط والجِدِّيَّة، ومعهما مُجَلَّدٌ بُرتقالِيٌّ سَميك. هذا هو أسلوب الاستجواب الوحيد الذي يعرف خفاجي؛ لذا يُمَيِّزُه في الحال، إنه المَلَفُّ

والمُجَلَّد"[1]. لم يهتمّا بالجلوس. وأصبح خفاجي يُمَيِّزُ الرَّجُلَ المُوصليَّ؛ فقد اعتادت صورته أن تظهر في الصُّحُف والتلفاز. إنه المتحدِّث باسم المَنفيِّين العراقيين، وأي شخص سيُمَيِّز هذا الوجه. لكنَّ لَكنَتَه هي ما أربك خفاجي، فحتَّى اليوم لم يسمعه خفاجي مطلقًا يتكلَّم بغير الإنجليزية. ولم يخطر بباله حتى أن الرجل يتحدَّث العربية، فما بالك إن تحدثها بِلَكنَةٍ عراقية.

يتحقَّق الآن حُلمُ الرَّجُل بالعقاب. الآن سيعتلي النَّقاءُ مَنصَّةَ الحُكمِ على الفساد، وسيحكُمُ مَن رحلوا على مَن تَخلَّفوا. ليس غريبًا أن يعتبر الكثيرون النَّفيَ أرخصَ صُوَرِ الوَطنيَّة.

ينظر الرَّجُلُ إلى الملف الذي أمامه، لكنَّه يوجِّه كلماته إلى خفاجي: "تقول إنك مو محسن خضر الخفاجي؟".

"هذا اسمي، بس إنتو لزمتوا الشخص الغلط".

"مو أنت محسن خضر الخفاجي اللي من القادسية؟".

"هذا شخص آخر". يسمع خفاجي كلماته تخرج منه ويَتفاجَأُ مُجدَّدًا بمدى ضآلَةِ صَوتِه. إنه مثل طائر جريح.

"إنت ضابط بجهاز الشرطة العراقية؟".

"آني محسن خضر الخفاجي. تولد كربلاء يوم 6 حزيران 1942. تشنت رئيس المفتشين بالشرطة العراقية ببغداد".

"رُتبتك بالحزب؟".

"عضو شعبة".

(1) الملف والمُجلَّد: أسلوب استجواب يستخدم بقصد إقناع السجين بأن المقاومة لن تفيده، عادةً لأن المُحقِّقين يعرفون كلَّ ما سيقوله ولا يحتاجون إلَّا إلى تأكيده. قد يُطلق على هذا الأسلوب أيضًا "الوثائق المُزَيَّفة".

"مكتوب هنا إنك عضو فرع".

"لا"، ويسكت لوَهلَةٍ، "هاي الرتبة مال أي واحد يشتغل بهذا المنصب. تشيك الفايل مالتي".

يُحَملِقُ الرَّجُلان إلى خفاجي، لكنهما لا يقولان شيئًا. يُدوِّن الأمريكيُّ شيئًا في دفتره سريعًا.

يسأل خفاجي فجأة: "وين بنتي؟".

"هممم؟" يُدوِّن الأمريكيُّ مُلاحَظَةً أخرى، "سنتطرَّق إلى هذا الأمر لاحقًا".

يأخذ صورةً ويرفعها في الهواء. يُدقِّق النظر إليها ثم إلى خفاجي، ثم إلى الصورة مُجدَّدًا. ويُدوِّن ملاحظة. يميل الموصلي على المكتب ويشير إلى خفاجي لينظر إلى عينيه. والضوء المنعكس على صَلعَتِه يُشتِّت الانتباه.

يدوِّن الأمريكي المزيد من الملاحظات، ثم يهمس إلى الموصلي: "يبدوان مُتشابِهَيْن كفاية". ويلتفت إلى خفاجي ويسأله: "كيف نتحقَّق من هويتك؟".

"تقدر تسأل أي واحد. باوع فايلي".

"لقد أحرقتموها".

"ما حرقنا السجلات إطلاقًا. ضميناها بعيد. أكيد وصلتوا إلها".

يتشبَّث الموصلي بِيَدِ خفاجي اليمنى قبل أن يتمكَّن خفاجي من شَدِّها، ويفحص كَفَّه وأصابعه. وحين يتكلم يطلق لسانُه عباراتٍ مألوفةً: "إبدؤوا بالبصمات مالته. وإحبسوه على ذمة التحقيق. التوصية بالحبس حتى نتأكد من هويته".

يحاول خفاجي استعادَةَ يَدِهِ لكنه يعجز، فقبضة الموصلي أشدُّ وأقوى ممَّا تبدو عليه. يعصر يَدَ خفاجي حتى يجفل: "هاي دمايا على إيدك يا بَلَّاع العير. دم منو هذا؟".

يلتفت الموصليُّ إلى الأمريكي: "لنبقه من أجل محكمة مجلس الحكم المؤقَّت[1]. اعزله عن الآخرين على الأقل حتى نعرف من هو. لا، هناك فكرة أفضل، ضَعه مع الجهاديِّين".

يُثبِّت خفاجي يَدَه المرتجفة ويتمعَّن بوجه الرجل المحلوق بعناية وحاجبيه المنحوتين وشفتيه برسمهما المُميَّز ولونهما الوردي، وبَشرَته الناعمة جدًّا كأنها لم تَرَ موسى حِلاقَةٍ من قبل. إنه كالفتى الأمرد أو الفأر الوردي.

فجأة، يسمع صوته مُجدَّدًا: "يُقالُ وَزيرُ النَّفطِ لَهُ ذَيلٌ يُخفيهِ!/ يُقالُ وَزيرُ النَّفطِ لَهُ ذَيلٌ يُخفيه بِكيسٍ أَمريكيٍّ/بكيس أمريكي!".[2]

قبضةُ الموصِليِّ ثقيلةٌ وسريعة. وتطرح خفاجي أرضًا. "إتعلّم شوية احترام يا دودكي[3]! اعرف ويَّا من تتكلم. خسرتوا وإحنا ربحنا. تشتم الخرا حولك؟ يا هلا بيك ببيتك الجديد. كومة زراب التاريخ".

حينئذ كانت جُمجُمَة خفاجي بين يديه، فضربها بالخرسانة مرَّةً واثنتين ثم فقد العَدَّ.

أصبح الرجل القصير بوجهه اللامع مُقابِلًا لوجه خفاجي، فيهمس له: "ما يهم إنت منو يا كلب البعث. بالأخير راح تدفع ثمن اللي

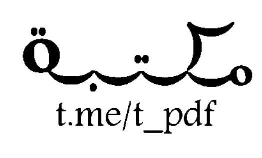
(1) محكمة جنائية عراقية تشكَّلَت في 10 أكتوبر 2003 بموجب القانون رقم 1 من قِبَل مجلس الحكم العراقي. وقد اختصَّت المحكمة نفسها بجرائم الإبادة الجماعية وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، وهي التي أصدرت لاحقًا حُكمَ إعدام صدام حسين.

(2) من قصيدة بحار البحارين للشاعر العراقي مظفر النواب.

(3) الرَّجُل الخَنيث بالعامية العراقية.

سَوِّيته". يُحَملِقُ خفاجي إلى حاجِبَيْ الرجل بشكلهما المثالي ويتخيَّله وهو ينتفهما أمام المرآة.

ثم يُدرِكُ خفاجي أنهم لا يعرفون شيئًا عنه مُطلَقًا. ويبدأ الصَّوتُ الغريب المُنبَعِثُ من حَلْقِه بالضحك. ويشرع بالغناء بكامل جسده، مع أنه يغنِّي كلماتِ مُظفَّر النَّوَّاب:


t.me/t_pdf

وحِزبُ المَخصيِّين يُطارِدُني

وحِزبُ المَخصيِّين يُطارِدُني

ابْحَثْ يا مَن تَبحَثُ عن بابٍ آخَرَ

ابحثَ يا مَن تَبحَثُ عن بابٍ آخر

وحزبُ المَخصيِّين يُطارِدُني

يتركه الموصليُّ ويَتراجَعُ خُطوةً. لا تزال أغنية خفاجي مُعلَّقة في الهواء بينما تباشر الأحذية الإيطالية عَمَلَها.

"إنت ميت، وشِعرك خرا"، وتنغلق عينا خفاجي بعد الركلات الأولى ويحسُّ بالنوم يقترب. يسمع صياحًا ثم يشعر بيَدَيْن تضعان الغطاء على رأسه. وثمَّة يَدان تُقَيِّدان رِجلَيْه، ثم تَجرُّه يَدان لأميال.

يعي خفاجي بعدَ مرور بعض الوقت أنه في غرفةٍ مع عِدَّة أشخاص آخرين. لا يزال ذراعاه مُقيَّدان أمامه، وينجح حينئذ في الانقلاب ليصبح مُستَلقيًا على ظهره، وفي خِضَمِّ ذلك يُزاحِمُ جَسدُه أجسادًا أخرى. يحسُّ بالأرض تحته بارِدَةً ورطبة وهناك أطراف أخرى عارية تحتضن رجليه وذراعيه. لكن لا يهم. فيستسلم للراحة والنوم، ويتذكَّر غطاء رأسه حين يحسُّ بظلامِ تَعصيبَةِ عَينَيه.

يستمع إلى مَن حوله ويشعر كأنه يطفو على بحرٍ هَيِّنٍ من الأصوات البشرية. يحسُّ بكُلِّ تَيَّارٍ من تياراته على حِدَة، وتتحرك التيارات معًا في دوَّاماتٍ حول أذنيه. أحدهم على اليسار مصريٌّ وآخر

علـى اليمـين مـن اليمـن وثمَّـة رَجُـلٌ سـودانيٌّ خلفـه. الأمـر أشـبه بالتحويـل مـن محطَّـةٍ إلى أخـرى عـلى مذيـاع للعـالم العـربي كلـه. يسـمع قصاصـات مـن أقـصى الغـرب، مـن المغـرب ومـن تونـس، ويسـمع الكثـير مـن ليبيـا. وآخـرون أقـرب إلى الوطـن، واحِـدٌ مـن حلـب وآخـر مـن الحجـاز، وكلهـم شـباب. ثـم يبتسـم خفاجـي لنفسـه حـين يأخـذه النـوم أخـيراً مـن يـده.

أغسطس 2003

كدنا ننتهي من العشاء حين سمع زوجي طَرْقًا على الباب. نهَضَ يزيد من على المائدة ليجيب. نهض من مقعده وهرع عبر الرَّدهة كأنه كان ينتظر أحدًا. كان يرتدي جَورَبًا فتزلَّجَ على أرضية الردهة مثلما يفعل دومًا. سمعنا جميعًا الباب ينفتح، وسمعنا يزيد يتحدَّث مع أحد. تقول أخته إنها سمعت صوتَيْن آخرين على الأقل. كانت المحادثة ودِّيَّة، وشقيقة يزيد واثقة أنه يعرف الولَدَيْن اللَّذَيْن جاءا.

لم نفكِّر بالأمر حين سمعنا الباب ينغلق؛ فقد اعتاد يزيد أن يختفي بعد العَشاء. وفي الصيف كان دائمًا مُتعجِّلًا ليلعب مباراة كُرَةٍ أخرى، أو ليذهب للعب ألعاب الڤيديو. ماذا كانت لعبته المُفضَّلة... "جراند أوتو"؟ ربما كان أيًّا من أصدقائه من الطوابق العُليَا. حتى أنه لم ينتعل حذاءً.

لم نتلقَّ أبدًا رسالة أو مُطالَبَة بِفِديَة، ولم يجد أحَدٌ جُثَّتَه. لم يأتِ أحد من أصدقائه ليخبرنا بأي شيء. لا أحد هنا سيتحدَّث إلينا. لقد استغرقنا الكثير من الوقت حتى نربط اختفاءه بما يحدث في الجامعة. توقَّفتُ عن الذهاب إلى العمل. وبدأ والد يزيد في الصلاة لأوَّلِ مَرَّةٍ في حياته. هو على الأرجح يُصلِّي الآن! حين يعمل الإنترنت

أتفقّد بريدي الإلكتروني. كنت أرسل لأشخاص في أوروبا لأرى إن كانت هناك أي وظائف جامعية شاغرة في الطب النفسي السريري. أسمعت عن أيٍّ وظيفة؟

الخميس
27 نوفمبر 2003

يجد خفاجي الغطاء قد أُزيل عن رأسِه حين يستيقظ، لكنَّه يحسُّ بالنبض في دماغه. يفرك صُدغَيْه ورقبته لدقيقةٍ قبل أن يُدرِكَ أن الأصفاد أيضًا قد فُكَّت. يطرَفُ ويَسعَلُ، ثم يرى مجموعةً مُتنَوِّعَةَ الألوان من الشباب. معظمهم لا يرتدي إلَّا بنطالًا قذرًا. يهبط بعينيه إلى جسده العاري ويرتجف. يحاول أن يغطِّي قضيبه بيدَيْه. ويُناوِلُه أحدٌ مِنشَفَةً قَذِرَة فيلفُّها حول خَصرِه قدر الإمكان بأصابِعَ خَدِرَة.

ينهض ويعرض عليه أحدُهُم كوبًا معدنيًّا من المياه. وهي ليست مياهًا، بل سائِلٌ فاتِرٌ، رائحِتَهُ نَتِنَة بتأثير الكبريت. فيشربه سريعًا ولا يبلعه بسهولة. يحسُّ بالنبض في رأسه مُجدَّدًا ثم بالدُّوار، فيتمدَّد أرضًا. وتلتقط الأيادي جسده ثم تُجلسه برفق على دِكَّةٍ مَعدنيَّةٍ بارِدَة.

يُتَمتِمُ: "شكرًا". لقد عاد صوته القديم، ولكن كأنَّه تآكل من أطرافه.

"الأخ عراقي. تشرَّفنا بيك".

"الشرف إلي". ويرفع يده اليمنى إلى قلبه.

يرفع خفاجي رأسه قليلًا ليرى وجوه مَن ساعدوه. وخلال لحظةٍ، تضربه رائحة عشرين رَجُلٍ يتغوَّطون ويتبوَّلون في دلاء. يغطي وجهه بيدَيْن وأصابِعَ قَذِرَة. لقد اشتمَّ هذه الرائحة من قبل، لكن ليس من هذه الناحية من الباب. يهبط بعينيه إلى رِجلَيْه المُبتَلَّتَيْن، إنه لا يشعر بالارتياح وقد أصبح الآن أكثر خَجَلًا.

يغلق خفاجي عينيه. لقد كان مُحِقًّا، كلهم شُبَّان ونصفهم فتيان. اثنان منهم ليسا كبيرين كفاية لِيَحلِقا لحيتَيْهما. إنهم يتحدَّثون ويحكون قصصًا عن عائلاتهم في ديارهم وعن إخوتهم، وعن رجال مشهورين. اثنان منهم رَكَّزا على مدى تكلفة المجيء لتحرير العراق المُسلِم. يُخمِّن خفاجي أن من بين هؤلاء العشرين، ربما كان واحد فقط مُدرَّبًا على فِعلِ شيء أكثر خطورةً من جمع الحبوب.

يَمرُّ اليوم في مُحادثاتٍ مُعقَّدَة، تُقاطِعها بشكل عشوائيٍّ الموسيقا الصاخبة التي تتفجَّر فجأةً في الزنزانة لدقائق، ثم تسكُت فجأةً. تُضاءُ الأنوار وتَنطَفِئُ بلا تحذير ولا نَمَطٍ ثابت. يتحسَّس رأسه ووجهه حين تكون الزنزانة مُظلِمَة، فيندهش من قَصَّةِ شَعرِه ونصف شاربه. ترتَفِعُ أصابعه إلى وجهه لتتحسَّس رُقَعَ الجلد التي أصبحت بلا شعر. لكنه ينسى ذلك سريعًا، فتكرِّر أصابِعُه الرِّحلةَ نفسها وتتحسَّس الجِلدَ على جُمجُمَتِه وشَفَتَيْه. وكلما ازداد النبض في دماغه، حفرت أصابعه في صدغَيْه.

تعوَّد الأنوار مُجدَّدًا. يُسَيطِرُ فضولٌ شديد على الأكبر سنًّا منهم لمعرفة ما يفعله رَجُلٌ مُسِنٌّ في زنزانتهم. يقول خفاجي إن اسمه عمر، وأنَّ عائلة زوجته من تكريت أصلًا. ويلمِّح إلى أنه قد قُبض عليه وهو يقود وحدة في محافظة صلاح الدين. إنها سلسلة من

الأكاذيـب، لكـن خفاجـي ليـس غـيرَ صـادقٍ تمامًـا. ثمَّـة فتيـان يُمطِرانِـه بالأسـئلة، وآخـرون لا يكترثـون.

تنطفـئ الأنـوار ويسـألون خفاجـي عـن مصـير العـالم. لمـاذا كان العراقيـون بطيئـين جـدًّا في حمـل السـلاح؟ مَـن بنـى هـذا السـجن؟ هـل تَعـاوَنَ الشِّـيعَةُ مـع الأمريـكان لأنهـم يكرهـون الإسـلام بشـدَّة؟ لمـاذا يُحِـبُّ الأكـراد إسرائيـلَ بِشـدَّة؟ ويقـول خفاجـي أقـلَّ مـا يمكـن أن يُقـال. لا شيء لإثـارة الآمـال أو لتثبيطهـا. لا شيءَ مُحـدَّد. لا شيءَ يمكـن التحقُّـق منـه. بعـد بضـع سـاعات يسـتنتج خفاجـي أنهـم جميعًـا قـد اعتُقِلـوا مـن أنحـاء الرمـادي. معظمهـم خـلال أيـام مـن وصولهـم إلى البـلاد. وبعضهـم خـلال سـاعات مـن وصولهـم. إن عـادوا إلى ديارهـم في يـومٍ مـا، سـتكون هـذه الزنزانـة هـي العـراق الوحيـد الـذي عرفـوه.

ثمَّـة نحيـبٌ خافِـتٌ للغايـة لدرجـة أن خفاجـي يسـتغرق وقتًـا طويـلًا حتـى يسـمعه. وحـين يعـود الضـوء يـرى الفتـى الـذي في الزاويـة. يبـكي، وقـد كان يبـكي لسـاعات. يـراه يبـول نفسـه أكـثرَ مـن مَـرَّة. يحـاول الآخـرون حولـه طَمأنَتَـه، لكنهـم أيضًـا يبتعـدون عـن البِركَـةِ الصغـيرة التـي يجلـس فيهـا. ولا يتوقَّـف جسـده عـن الارتجـاف.

يطلبـون مـن خفاجـي أن يَؤُمَّهـم في أوَّلِ مَـرَّةٍ يَسـتعدُّون فيهـا للصـلاة. يسـأل نفسـه، أَتَذكُـرُ كيـف تُصـلِّي؟ فيعتـذر، وحالتـه المُؤسِـفَة تَعـذُرُه، وفي المـرة التاليـة لا يطلبـون حتَّـى. يُـدرِك أنهـم لا يعرفـون الوقـت أكـثر منـه بعـد أن صَلُّـوا أربـعَ مَـرَّاتٍ في غضـون مـا يبـدو مثـل سـاعات قليلـة. قـد يكـون هـذا النهـار أو الليـل. يتذمَّـر فتًـى بشـأن الضـوء، ويجيبـه أحدهـم: "عـلى الأقـل يخـلي الحـشرات بعيـدة".

ثـم هنالـك ذلـك الصـوت الـذي لم يُميِّـزه إلَّا الآن. هـو ليـس صوتًـا، بـل يبـدو أكـثر كجَلَبَـةٍ بعيـدَةٍ مُتواصِلَـة بـلا ملامـح. إذ تغمـر الهـواءَ هَسهَسَـةٌ بَعيـدةٌ مـن مـكانٍ مـا في المبنـى نفسـه. مـا مـن صـوتٍ غيرهـا. لا تَصـدُرُ

أيُّ أصوات من الزنزانات الأخرى، ولا من الخارج. إنها همسةُ صَدَفةِ بَحرٍ ناعمة، بالكاد تُسمع. باستثناء أنَّكَ حين تستيقظ عليها، تحسُّ كأنها جلبَةٌ تصمُّ الآذان.

الكهرباء لا تنقطع هنا ولو لمرَّةٍ واحِدَة.

يغفو الآخرون واحدًا تلو الآخر. ويبيت الفتى المُنتَحِبُ في الزاوية بعد بعض الوقت الشخصَ الوحيد المستيقظ. يُومِئُ خفاجي له.

"حاس بتعب؟".

"آه. مانمتش من ساعة ما وصلت".

"للسجن؟".

"لأ. للعراق".

"صِدِق؟".

"آه. أكثر من كِدا كمان. من ساعة ما مشيت من بلدي".

"مصر؟ من إمتى؟".

"تلات أو أربع شهور تقريبًا. مش عارف. من زمان".

"عائلتك تعرف إنك هنا؟"، ويتمعَّن خفاجي بوجهه. أنفُه المُمتَدُّ ووجَنَتاه المستديرتان ورموشه الخفيفة، كُلُّها كأنَّها نُسِخَت من على حائِطِ مَعبَدٍ قديم. إنه كاتِبٌ فرعونيٌّ بعينين يُجافيهما النوم.

"أخويا وقريبي بس. هُمَّا ساعدوني أشتري التذكرة. ماحدِّش غيرهم يعرف. لو أبويا عرف، كان قتلني".

"بس راح يفتخر بيك وبشجاعتك".

"يمكن. بس الموضوع مش هيجيب غير المشاكل. هيقتلني".

"أكيد هو راجل زين لأن ربي زلمة حوك[1] مثلك".

"لحد ما خلُّوني بِت".

"شنو؟"، ويندم خفاجي في لحظتها على سؤاله.

"عَمَلوهـا معايـا. بَـرًّا هنـا في الطُّرقَـة. قلَّعونـا كُلّنـا. قالـولي إني بـت، وبعديـن عملوهـا معايـا. عملوهـا مَـرَّة واتنـين. قُـدَّام كل النـاس"، ويـشرع الفتـى بالبـكاء.

لا يعـرف خفاجـي مـا يقـول. يَمـدُّ أصابعـه ويضعهـا عـلى كتـف الفتـى. يميـل الفتـى عـلى كتـف خفاجـي وهـو يتنهَّـد عـلى دفء جلـده. ولا يـزال خفاجـي لا يعـرف مـا يقـول. تمـرُّ الدقائـق وهـما يجلسـان جنبًـا إلى جنـب في صمــت. حــين تنطفــئ الأنــوار مُجــدَّدًا فجــأة يتوقَّــف بــكاء الفتــى. ويبتعـد خفاجـي إلى ركـن آخـر بالزنزانـة.

يسأله الفتى: "بتجيلك أحلام؟".

"طبعًا".

"أقصـد، وانـتَ صاحــي؟ عمـرك شــفت أحـلام كأنهـا حقيقـة؟ وهــي حقيقــة. بــس بعديــن تســتوعب إنهــا كانــت في دماغــك؟".

"كل النـاس هيتـش. لمـن تكـون مريـض هوايـة. النـوم هـو الحـل. نـام وليـدي. نـام وانـسى أحلامـك".

"الأحلام دي من ربنا واللّا من الشيطان؟".

يهـزُّ خفاجـي رأسـه في الظـلام. يريـد أن يضحـك، لكـن فـات الأوان. فالحُـزن مُعـدٍ مثـل الضحـك. يبطـئ تَنفُّسُـه تدريجيًّـا إلى أن ينهـار جسـده.

تتبقَّــى ســاعات عــلى فتــح البــاب، لكــن يدخــل أمريكيَّــان وينظــران حولهــما في الغرفــة. يتحــدَّث أحدهــما فيدركــون أنــه امــرأة. ترمــى المــرأةُ

---

(1) شديد بعاميَّة أهالي صلاح الدين والمنطقة الغربية.

كومَـةً مـمًّا يَتَّضِـحُ أنـه ملابـس داخليـة نسـائية عـلى الأرض وتضحـك. ويصيب الجمـودُ الفتيـانَ في الغرفـة، ثـم يصبحـون مُنتَبِهـين وعـلى أهبـة الاسـتعداد. يأمـر الحـارس العراقـي الـذي يصاحبهـما فتـىً يمنيًّـا نحيفًـا بـأن يأخـذ الـدِّلاء إلى طـرف الردهـة. يجـد الفتـى الـدِّلاءَ مُمتَلِئَـةً وتـكاد تكـون أثقـلَ مـن أن تُحمَـلَ، فيحمـل كُلًّا منهـا بكلتـا يديـه. يتنـاثـر السـائل عـلى أصابـع قدميـه ويُخلِّـف وراءَه أثـرًا ممتـدًّا بطـول الأرضيـة الخرسـانية. ويعـود بعـد دقيقـة ويأخـذ الدَّلـو التـالي. ينزلـق صَندَلُـه البلاسـتيكي وهـو يـروح ويجـيء. وحـين انتهـى مـن كُلِّ الـدلاء كانـت نصـف أرضيـة الغرفـة مُغطَّـاةً بِبِركَـةٍ كبـيرة مـن القـذارة. ويتشـكَّل لحظيًّـا حـين يُغلَـق البـابُ صَـفٌّ مـن الفتيـان، وتنظـر وجوههـم بعيـدًا عـن الآخريـن الذيـن يُفرِغـون أمعاءهـم.

يُنقِّـبُ خفاجـي وسـط كومَـةِ الملابـس الداخليـة ويجـد شـيئًا يُمكِنُـه ارتـداؤه، ثـم يغفـو. يحلـم بـأن دِجلَـةَ قـد أصبـح بُحَـيرةً راكِـدةً نمـا عليهـا اللـونُ الأخـضر، بهـا قمامـة وفضـلات بَشَريَّـة ويتخمَّـر فيهـا النفـط والقطـران. يُحَملِـقُ إلى السـماء فتنفتـح ويبـدأ المطـر في الهطـول. يبتسـم لنفسـه، فقـد مـرَّت شـهورٌ منـذ أمطـرت سَـماءُ هـذه المدينـة. تجتـاح السـماءَ عواصِـفُ عَنيفـةٌ. وتطـير السـحب وترتخـي مثـل عَمائِـمَ أُرجوانِيَّـةٍ تَفُـكُّ نفسـها. تصطـدم طبقـاتٌ مـن الأمطـار بالنافـذة. وتهبـط الميـاه عـلى المـآذن في صـورة شـلَّالاتٍ صغـيرةٍ مُزبِـدَة. تمتلـئ الحـارات والشـوارع بالـبِرَكِ الصغـيرة. وتصبـح الحُفـرَة التـي في الخـارج بِركَـةً راقِصَـة. تعلـو تيَّـارات الميـاه عـلى الأرصفـة والطُّـرُق. ويجتـاح فَيضـانٌ الشَّـوارِعَ كُلَّهـا، ويحمـل معـه كلَّ الحطـام والفـوضى. وتَعلَـقُ سـياراتٌ صغـيرة في الغمـر، ثـم شـاحنات وحافـلات وحامـلات جنـودٍ ومروحيَّـات. أصبحـت الشَّـوارِعُ سُـيولًا تَجـرِفُ كُلَّ شيء إلى دجلـة. خفاجـي وسـهير يـأكلان المَسـكوف في مَطعَمِهـما المُفضَّـل. يمضـغ هـو ببُـطءٍ، ويُخـرِجُ أشـواك السـمكة مـن فمـه وهـو يشـاهد الدَّمـارَ المُتجَمِّـعَ. لكـن شـيئًا يَعلَـقُ في حلقـه ويَـشرَعُ

بالتَّهـوِّع، وسريعًـا يختنـق ويَبصُـق. وحـين يبـدأ التَّقيُّـؤ، تقفـز سـمكةُ شَـبُّوط ضخمـةٌ مـن فَمِـه إلى النهـر. يمـدُّ يَـدَه مـن أجـل كأسٍ مـن المـاء، لكـن المائـدة والمَطعَـمَ وسـهير أيضًـا يطفـون بعيـدًا عـن متناولـه. إنـه في دجلـة الآن وينجـرف مـع تيَّاراتـه. لم يَعُـد بُحَـيرَةً، بـل نهـرٌ سريـع وقـوي. تبـدأ التَّيَّـارات ببـطء في مُراكَمَـةِ سُرعَتِهـا، ويُجـرَف هو بعيـدًا. المياهُ نَظيفَةٌ وبـارِدَة وحلـوة عـلى شـفَتَيْه. يـشرب ويـشرب ثـم يُحَملِـقُ إلى الأعـماق الرماديـة الزرقـاء أسـفله. إنهـا المدينـة كلهـا، نظيفـة وثابتـة وهابطـة لمئـات الأمتـار تحـت جسـده الطـافي. إنهـا بغـداد الأطلانطسـية(1). فجـأةً تبـدأ نقـاطٌ صغـيرة في الارتفـاع مـن الشـوارع والأبنيـة بالأسـفل. أوَّلًا كُلُّ واحِـدةٍ أو اثنتـين معًـا مثـل بالونـات طليقَـةٍ، ثـم مثـل أسرابٍ مـن الإوَزِّ تطفـو مـن الأسـفل. يكـبُرُ حَجمُهـا إلى أن يتمكَّـن مـن رؤيتهـا بوضـوح: إنهـا حشـود مـن جُثَـثٍ مُنتَفِخـة تـزداد سرعتهـا وهـي تصعـد. ويكـسر كلٌّ منهـا السَّـطحَ مُحدِثًـا صوتًـا حـادًّا ورشَّـة ميـاهٍ. ويجـد خفاجـي نفسـه سريعًـا مُحاطًـا بأدغـال مـن الجُثَـثِ الهامـدة المُنتَفِخَـة جـدًّا لدرجـة أن بطونهـا اللامعـة تبـدو مثـل رؤوس البصـل الأخـضر العامـرة. وحـين تنقلـب الجُثَّـةُ المجـاورة لـه، يجـد عينَـيْ مـروج الميِّتَتَـيْن تحملقـان إلى عينيـه.

يسـتيقظ مذعـورًا، ويُحَملِـقُ إلى مصابيـح الفلوريسـنت حتـى يتحـوَّل شـعور الطَّفـو إلى ذلـك النبـض المُمِـلِّ. يتقلَّـب فيشـعر بالقـيء عـلى وجهـه وصـدره. لقـد أصبحـت مَعِدَتُـه ذئبًـا يلتهـم بقيـة جسـده. لا يسـتطيع تذكُّـر آخـر وجبـة أكلهـا. يقـول الآخـرون إن الطَّعـام وصـل وهـو نائِـمٌ وأنهـم أبقـوا لـه البعـض. ويأمرونـه بـأن يـأكل حـين يـرون وجهـه. يزحـف ويجلـس أمـام الطعـام، ويُمـرِّر قِطعَـةً مـن العيـش المُجفَّـف عـبر الحسـاء اللَّـزِج البـارد ويضعهـا في فمـه. ويبتلـع لُقمَـةً تلـوَ الأخـرى حتـى يُنهـي طَبَقَـه.

---

(1) أطلانطـس (جزيـرة أطلـس): قـارَّة أسـطورية مفقـودة ذكرهـا "أفلاطـون" في محاورَتَيْنْ مُسـجَّلَتَيْن لـه. وقـد قيـل إنهـا حَكَمـت العالَـم.

يتوقَّف جَسَدُه بمجرَّدِ أن ينتهي من آخر لقمة. وخلال ثانية، يضطرب ويتشنَّج ثم يُرجِع كُلّ ما أكله. وكُلَّما تَقيَّأ أكثر، شعر بالمزيد من الصفاء في رأسه.

لا يستطيع إيقافَ العَجلات بمجرَّد أن تنطلق. يلتفت بجسده المرتعش إلى الحائط، ويحاول أن يفعل ما يفعله دومًا وقتما يحسُّ بالمرض أو التعب أو الحزن. يُحاوِلُ أن يهرب إلى الموسيقا التي يحفظها عن ظهر قلب. إنها الشِّعر، أو المشروب نفسه الذي صَبَّه والدُه حين أراد أن ينسى. يريد خفاجي أن يحتسيه هو الآخر. يريد أن يشربه حتى العَمَى. اعتاد والده أن يقول إنَّ العرب يُطلِقون على الأوزان الشعرية "بحور"، لأنَّكَ تستطيع أن تُبحِرَ فيها، ويمكن أيضًا أن تغرق فيها.

يحاول أن يتذكَّر أبياتًا من الكتاب الذي كان يقرأه بالأمس لمروج. يتساءَلُ أين مروج؟ أكان ذلك بالأمس؟ لا. يُفكِّر بشأن القصائد، آمِلًا أن يطفو بَيتٌ أو جزءٌ من ذاكرته. تلك قصائد عرفها طوال حياته، إنها ما يُشَكِّله.

لكنه في هذه الليلة لا يتذكَّر شيئًا. كأنَّ أحدًا قد مسح ديوانَ حياتِه. لأوَّلِ مَرَّةٍ منذ سنوات، لا توجد ولو قصيدة لتُصاحِبَه. تسيل دُموعُه ساخِنَةً، لكنها ليست كافِيَةً لتجرف القذارة والدَّمَ عن وجنَتَيْه.

يجد بعد بعض الوقت يدًا تستريح برفقٍ على ذراعه، ويتطلَّع ليجد الفتى المصريَّ يجلس بجانبه. ويتبادلان النظرات إلى أن تنطفئ الأنوار مُجدَّدًا فجأة.

سبتمبر 2003

وليدي اسمه مُناضِل! الله يحرسه! هاي صورته. باع، هاي هوية الأحوال. هاي شهادة جنسيِّته. عندي أوراقه كلهن، كلهن ويَّاي.

العام قالولي هو يمكن بأبو غريب. بس مِن صدَّام أطلق سراح المساجين ما رَدّ للبيت. أكيد ما تشان هناك. على مود هيتش آني هنا. آجي كل يوم. إن شاء الله إن شاء الله الأمريكان يساعدوني ألقيه. إذا الأمريكان ما يساعدوني، تشا[1] منو يساعدني.

تشان خوش ولد. ما أذى أحد. يجوز سَوَّا إشي. بس ما تشان مجرم لا سمح الله. ما باج[2]، ما قتل. إش وقت تصريف الدولار أذى أحد؟ إش وقت صار جريمة؟ وين أكو عقوبة بالقرآن تقول اللي يصرِّف عملة يقطعون إيده؟ وين؟

تريد تعرف شنو الجريمة؟ الجوع والفقر والقتل. هاي هي الجرائم. لو صدَّام تشان يريد يحارب الجريمة، تشان اعتقل ذيك الشَّغلات، مو وليدي مناضل.

(1) إذًا بالعامية الجنوبية

(2) سرق بالعامية العراقية.

تقـدر تسـاعدني؟ تعـرف أحـد جـوا؟ أدري الأمريـكان إجـوا يسـاعدون. لـو يسـمعون قصـة ابنـي راح يسـاعدوني.

قـولي لي. ويـن أقـدر أروح همينـه؟ لـو مـا خلـوني أطـب أشـوفن أحـد اليـوم، راح أرد ردود باتـشر الصبـح. راح أظـل أجـي إلى أن ألقـى وليـدي.

الجمعة
28 نوفمبر 2003

ينفتح الباب المعدني في وقتٍ ما وينادي أحدهم: "مُسن الكوفيجي!".

يتقدَّم خفاجي إلى الباب ويأخذه جُنديَّان أمريكيَّان من ذراعيه، أحدهما قصير وأبيض والآخر طويل وبشرته نحاسيَّة. يبدوان بقَصَّتَيْ شَعرَيْهما كأنهما من الإنكشارية العثمانية[1]. يأخذانه دون أن ينبسا ببنتِ شَفَة عبر مَمرَّاتٍ طويلة صامِتَة. ويَصِلان في النهاية إلى حَمَّامٍ خرساني كبير بارد، حيث يُغلِقان الباب ويُطلِقان سَراحَه.

يدنو خفاجي من المرآة، فيجد الهزيمة تُحَملِقُ إليه عبر غشاءٍ من الأوساخ. يلمس قطعة الشارب القَبيحَةِ التي تركها آسِروه. ويَفرُكُ رأسه بكفَّيْه، فيشعر بخُصلات الشَّعر على مُؤخِّرة رأسه. يقف الجُنديُّ الأبيض بجوار خفاجي وهو يتفقَّد موسى الحلاقة البلاستيكيٍّ وقطعة الصابون. ويُسقِطُ شارب خفاجي بعد بضع جرَّاتٍ حادَّةٍ ومُؤلِمَة بالموسى لأوَّلِ مرَّةٍ منذ أربعين عامًا. ويحكُّ حوافَّ شَفَتَيْه بالشَّفرة

(1) الإنكشارية العثمانية: نُخبَة قُوَّات المُشاة بجيش الإمبراطورية العثمانية.

إلى أن تصبح نظيفةً وناعمة، ثم يشطف الشَّفرةَ تحت المياه الباردة. يحلق ذقنه ووجنتَيْه وينظر إلى نفسه. الشفرة الرخيصة ثَلِمَة، وقد تركت خطوطًا رقيقة حمراء من الدماء على رقبته. ثم يغسل وجهه ورأسه وينظُرُ مُجدَّدًا. يمسح المرآة لدقيقة، لكنه لا يزال يرى شخصًا آخر، أو شيئًا آخر.

يطلب فرشاةَ أسنانٍ، ويَهزُّ الجنديُّ الأبيض رأسه. يستدير خفاجي إلى الحائط وهو يخلع لباسه الدَّاخِليَّ، ويشيح الجنديُّ ذو البشرة النحاسية بنظَرِه وهو يستحمُّ. وبعد أن يُجفِّفَ نفسه، يُسلِّمُه حقيبةً بها بذلةً وملابِسَ داخلية. يرتدي خفاجي السُّترَةَ التي تزيد عن مقاسه برقمين، ولا تزال رائِحَةُ آخِرِ مَن ارتداها عالِقَةً بها، والذي قَبلَه أيضًا. ويجد صندلًا بلاستيكيًا في زاوية حوض الاستحمام فينتَعِله.

يتقدَّمون عبر ردهة خرسانِيَّة أخرى، ثم يفتحون زوجًا من الأبواب ليخرجوا. شمس الظهيرة تُعمي، ويحاول خفاجي أن يَحمي عَينَيه. يَجِدُ العالم يتوهَّج من حوله، ثم يتلاشى ليصبح ضبابًا. وحين تستسلم قدما خفاجي، يحمله الجُنديَّان من ذِراعَيْه عبر الفناء إلى حشدٍ من المقطورات البيضاء اللامعة. يتقدَّمون تحت صوت رَفرَفَةِ ويتطلَّع خفاجي فيرى عَلَمًا أمريكيًا. ينفتح بابٌ مَعدنيٌّ ثم ينغلق سَريعًا بصفعةٍ رقيقة. يَجِدُ خفاجي نفسه داخل غرفة تُغطِّي الألواح الخشبية أرضيَّتَها وحوائطها وتمتلئ بخزائن المَلَفَّات والمكاتب الخشبية. تتردَّد بها هَمهَمَةُ مُكيِّفات الهواء، ومع ذلك فإنها دافئة وخانقة.

يَصدَحُ صَوتٌ أمريكيٌّ: "هذا يكفي أيُّها السَّيِّدان. يمكنكما الانتظار بالخارج". وينهض الرَّجُلُ الضخم ذو البِزَّة العسكرية الأنيقة. وجهه كأنه قِطعَةُ كَعكَةٍ، وابتسامته كأنها عسل على كِريمة.

"صباح الخير يا سيد خضر. أعتذر عن كل هذا. يبدو أنك قد حَظيتَ بوقتٍ للاستحمام، آمل أنَّكَ تشعر بتحسُّن. من فضلك اجلس. أريد الحديث معك".

يبتسم الرجُلُ ابتسامته الحلوة ولا تفارق عيناه عيني خفاجي، ويشير إلى كرسيٍّ خالٍ. يشرع الرجل بتصفُّح كَومَةٍ من الأوراق على مكتبه بعدما يجلس خفاجي. ويبدأ الحديث بعد دقيقة. تخرج كلماته بطيئة جدًّا، إذ يلفظ كلَّ مَقطَعٍ بحَذَرٍ شديد. "أنت تفهم بعض الإنجليزية، هاه؟ جيِّد جدًّا يا سيد خضر. أتَوَدُّ أن تشرب شيئًا ونحن نتكلَّم؟ أنا أشرب القهوة. أتريد بعض القهوة؟ أم تُفضِّل الشاي؟".

في البداية لا يقصد خفاجي أيَّ شيءٍ بصَمتِه. تمرُّ دقيقة وهو يجول بنظره في المكتب ثم يلتفت إلى الرجل. تتلاشى الابتسامةُ أخيراً عن وجه الأمريكي: "أنت تتحدَّث الإنجليزية يا سيد خضر، صحيح؟ من الهامِّ جدًّا أن نتكلَّم. أوَدُّ أن نتواصل فيما بيننا".

"..."

"معذرة؟"

تَمُرُّ دقيقةٌ أخرى قبل أن يستسلم خفاجي. وحين تخرج كلماته، تكون بذلك الصَّوت البعيد مُجدَّدًا: "العفو. إي. أحتشي إنجليزي. أريد تشاي".

يتحدَّث الرجل في الهاتف ويطلب شايًا وبسكويت. يتطلَّع خفاجي حوله في الغرفة مُجدَّدًا. قال الرجل اسمه بسرعة جدًّا، ولا يطلب خفاجي منه أن يُكرِّرَه. هناك غابة من الصور على المكتب وأُطرُها مُوجَّهة إلى الجانب الآخر، لكن خفاجي يتخيَّل بها امرأةً وأطفالًا. توجد على الحائط صورَةٌ كبيرة مألوفَةٌ لِخَطِّ الأفق بإحدى المدن الأمريكية، وتحتها نَسرٌ يُصفِّر وثَمَّةَ كلمات. يُردِّد خفاجي العبارة مَرَّتَيْن مُتسائِلًا: "لن ننسى أبدًا"، قبل أن يُسكِتَ نفسه. الزِّينة الأخرى

الوحيـدة في الغرفـة هـي كُتلَـةٌ طافيـة مـن البالونـات اللامعـة، تُغطِّيهـا صـور احتفاليـة لقصاصـات وزهـور وعبـارة "عيـد ميـلاد سـعيد".

يمسـح الرَّجُـلُ حاجِبَـه وهـو يبـدأ الـكلام: "لنبـاشر موضوعنـا. نحـن نعـرف مَـن أنـت. نعـرف رُتبَتَـكَ ومـكان عملـك. هـذا ليـس بالكثـير، لكنـه كافٍ لنـا كبدايـة. مثلـما تـرى، نحـن بحاجـة إليـك الآن. هـذا البلـد بحاجـة إلى شُرطَتِـه. يجـب أن تعـود إلى العمـل".

يهزُّ خفاجي كتفيه بلا مبالاة: "فات الأوان. اتقاعدت".

يقـول الأمريـكي: "ليـس هـذا المذكـور هنـا". ينظـر مُجـدَّدًا إلى مكتبـه ويقـول: "مـا مـن إشـارة هنـا إلى تَقاعُـدِكَ. أنـتَ مـا زِلـتَ عـلى ذِمَّـةِ القـوات وفقًـا لهـذه الأوراق. كـذا لا توجـد أي تحذيـرات، لا أجـد هنـا إلا سـنوات مـن الخـبرة، ويذكـر المَلَـفُّ أنـك أدرتَ السِّـجِّلات".

يرجع خفاجي إلى الخلف ولا يَرُدُّ.

"اسـمع، أتَفَهَّـمُ أنـه ربمـا يكـون هنـاك بعـض اللَّبـسِ؛ لـذا دعنـي أُوَضِّح شـيئًا. لقـد حَلَلنـا الجيـش، لكـن مـن الواضـح أن هنـاك سـوء فهـم حـول كيفيـة تطبيـق ذلـك عـلى الشرطـة. بالتأكيـد كان مقصـودًا أن يُطبَّـق القـرار عـلى الشرطـة العسـكرية والشرطـة الوطنيـة. لكنـه لم يسـتهدف جهـاز الشرطـة العراقيـة، باسـتثناء القيـادات العليـا، ولا أظـنُّ أن ذلـك ينطبـق عليـك. بالتأكيـد توجـد بعـض المناطـق الرماديـة، لكـن...".

يسكت، ويمسح فمه بمنديل.

لقـد اختفـت الشرطـة العراقيـة حـين تحـرَّرَت البـلاد. أيـن ذهَبَـت؟ لا أحتـاج إلى أن أسـألك... أنـتَ تعـرف أكـثر منِّـي إلى أيـن ذهبـوا. لقـد اختفيتُـم حالَـمَا احتـاج بَلَدُكُـم إليكـم لأوَّلِ مَـرَّة. كان ذلـك خطـأً. وكُلُّنـا ندفـع ثمنـه".

ينظـر خفاجـي إلى الرجـل ويُومِـئُ بشـكل غامـض. ويتابـع: "دعنـي أخـبرك برؤيتـي للأمـر. عـلى الأرجـح لم تكـن رسـالتنا الأساسـية للأشـخاص الذيـن بموقِفِـكَ واضحِـةً كفايـة. ثـم أتى مجلـس الحُكـمِ المُؤقَّـت وردَّدوا كلامهـم الكثـير عـن تصفيـة الحسـابات. كنتـم مُحقِّـين في التسـاؤل عـمّا سـيحدث. لـو كنـت مكانكـم لاختفيـتُ أيضًـا".

يسـكت ويمسـح جبينـه: "مـا رأيُـكَ؟ يبـدو هـذا معقـولًا. لكنكـم لم تَعُـدْ لديكـم هـذه الرفاهيـة، أليـس كذلك؟".

ينظـر إلى خفاجـي بحِـدَّة ويسـكت ثانيـةً. ويهبـط خفاجـي بعينيـه إلى الكـوب الوَرَقـيِّ الـذي بيـده، ويبتلـع الشـاي الدافـئَ جَرعَـةً واحـدة، ويـذوب الطَّعـمُ السُّـكَّرِيُّ ويـترك وراءَه فـمًا جافًـا.

"أتريـد كوبًـا آخـر؟"، وقبـل أن ينطـق خفاجـي رفـع الرجـل السـماعة وطلـب كوبـين آخريـن مـن الشـاي. يُحَملِـقُ خفاجـي إلى البالونـات مُتحَيِّرًا. هـل يُزيِّـن الأمريكيـون حقًّـا مكاتبهـم بالبالونـات؟ ويعيـده صـوت الرجـل إلى الحـاضر.

"نحـن مُدرِكـون لحساسـية الوضـع يـا سـيد خـضر. لكنَّنـا أيضًـا لدينـا احتياجاتنـا الأمنيـة. وهـي تتزايَـدُ باضِّطـراد. العـراق بـلا جيـش ولا شرطـة ولا نظـام. وهـذا يعنـي الفـوضى".

يمسح الرجلُ جَبينَه ويميل إلى الأمام على المكتب.

"وبالتـالي، نحـن مُجبَرون عـلى اتخـاذ بعـض القـرارات الصعبـة. لا تُسْـئ فَهمـي. لا أَحَـدَ لديـه أي مصلحـة في العـودة بالزمـن. كـذا فإننـا لم نُحـرِّر العـراق يـا سـيد خـضر لنتفـرَّج عليـه وهـو يتحـوَّل إلى خـراب. وهـذا يعني أننـا يجـب أن نمـضي قُدُمًـا ونكمـل هـذا الطريـق إلى آخـره".

يومئ خفاجي ويتساءل عمَّا وراء كل هذا.

"يـا سـيد خـضر، لقـد درَسـتُ التاريـخ في الجامعـة. ويدفعنـي هـذا إلى النظـر إلى هـذا الموقـف في سـياقه التاريخـي المناسـب. وهـذا مـا أراه. أرى مجموعـةً مـن البلطجيـة أخـذوا دَولَـةً كامِلَـةً رهينَـةً. أرى بضعـة رجـال بأيْـدٍ مُلطَّخَـةٍ بالدمـاء. والبقيـة خاضعـة تحـت وطـأة الإرهـاب. هـل آمَـنَ أيٌّ مِنكُـم حَقًّـا بهُـراءِ البَعـث؟".

يَدعَـكُ صُدغَيْـه بإبهامَـيْن سـميكَيْن، ثـم يتابـع: "لقـد تبيَّن أننـا جئنـا إلى هنـا لنـضرب أشـباحًا وأوهامًـا. لقـد جِئنـا لنقـضي عـلى أيديولوچيـا لم تكـن موجـودةً بالأسـاس. لكننـي أنظـر إليـكَ، ولا أرى شـبحًا".

"يَصِـفُ مَلفُّـكَ شَـخصًا حقيقيًّـا يـا سـيد خـضر. أرى عنـد قراءته شـخصًا لم يَجِـد أمامـه سـوى خيـارات قليلـة جـدًّا. لديـكَ مَسيرةٌ مِهنيَّـةٌ قَويَّـة في مديريـة الأمـن العـام، وترقيـات منتظمـة. لقـد اتَّخَـذتَ ذلـك الطريـق حتـى يـوم مـا في عـام 1988، يـوم خروجـك. تلـك المُذكِّـرة تحديـدًا مفقودة مـن مَلفِّـي لسـببٍ مـا. لقـد نُقِلـتَ إلى الشرطـة المدنيـة بعـد سـنواتٍ مـن الخدمـة. مـاذا فعلـتَ؟ مَـن أغضَبـتَ؟ ثـم قضيـتَ سـنواتِكَ الأخـيرةَ تُطـارِدُ السَّـارقين والمُهَرِّبـين وتَجمَـعُ المُتسـوِّلين. أرى بالملـفِّ أنـكَ لعبـت دورًا في حملـةٍ لمُكافَحَـةِ المُخـدِّرات، ثـم قضيـتَ فـترةً في شرطـة الآداب. ثـم حُوِّلـتَ إلى مكتـبِ السِّـجلَّات. ويَـرِدُ هنـا أنـكَ المسـؤول عـن الأرشـيف".

لا تتحـرَّكُ سـوى يَـدِ خفاجـي. تمتـدُّ أصابعـه الخَـدِرَة إلى شَـفَتِه العليـا كأنهـا تُجـذب إليهـا. فقـد أصبحـت بَشرَتُـه ناعِمَـةً كأنهـا بـشرةُ امـرأةٍ.

"لم تَجِـدْ أمامَـكَ الكثـير مـن الخيـارات يـا خـضر، صحيـح؟ لا بُـدَّ أن الأمـر كان شِـبهَ مُسـتحيل أن تَتَّخِـذَ مـن إنفـاذ القانـون مِهنَـةً في هـذا الجُـزء مـن العـالم".

يضحك الأمريكي مُجدَّدًا: "الآن يُفترض أن تتحدَّث".

يهزُّ خفاجي كتفيه ويختفي بين ثنايا بذلَتِه.

"دعني أَصُغْ الأمرَ بشكلٍ مختلف. نحن مُتعجِّلون. أنا لا أحاول أن أكونَ صديقَك. ولا أريد أن أسمع قِصَّةَ حياتِك. كل ما أريده هو أن تعود إلى العمل".

تمرُّ دقيقتان وخفاجي يُحَملِقُ إلى المكتب. ويدخل رَجُلٌ بصينية عليها كُوبَا شايٍ ورَقِيَّيْن. تُمَزِّق أصابِعُ خفاجي المرتعشة كيسَيْ سُكَّرٍ ورقيَّيْن. وأخيراً يقاطع الأمريكيُّ الصَّمتَ. "ربّما لستَ الشَّخصَ الذي كانوا يبحثون عنه. لكن هذا لم يَعُد يَهمُّ كثيراً. لقد لفتَّ انتباه أحدٍ في مجلس الحُكمِ المُؤقَّت. وهم عادة ما كانوا ليهتمُّوا بتفاصيل قضيَّةِ شَخصٍ مِثلِكَ. لكنهم يفحصون المَلَفَّات القديمة. قد تكون هذه فرصة جيِّدة لك، أليس كذلك؟ فكلُّ المَلَفَّات معهم. بادئ ذي بدء، لديهم سجلَّاتُ شَمالِ العراق وتقارير هيومن رايتس واتش. أنتَ وأصدقاؤك في مديرية الأمن العام سجَّلتُم الكثير من الملاحظات وصُغتُم الكثير من المُذكِّرات. سيعرفون إنْ كُنتَ قد قضيتَ أيَّ فترةٍ هناك".

يَسكتُ الأمريكيُّ، غير متأكِّد إذا ما كان خفاجي مُنتَبِهًا إليه.

"لن يكون لديهم مُتَّسَعٌ من الوقت لسماع قصص اختيارات حياتك الصعبة إن عثروا عليك. ستكون محظوظًا إن سقَطَت قَضيَّتُكَ بين الشقوق. لكن حتى حينئذ لن تكون حُرًّا، بالتأكيد تفهم قصدي".

حين يتطلَّع خفاجي، يجد ابتسامةَ الرجل قد اختفت منذ وقت طويل.

تبدأ عينا خفاجي بالسِّباحة في الشاي. يتشقَّق الكوب الورقي بين يديه المضطربتين. ويتسرَّب السائل الدافئ على مُنفَرَجِ رِجلَيْه، لكنه لا يقول شيئًا.

"لا نستطيع تغييرَ الماضي يا سيد خضر. لكن بين الحين والآخر، تُتاح لنا فُرصَةٌ أن نُقرِّر أيَّ أجزائِهِ يهمُّ، وأيَّها لا يهمُّ؛ لذا أخبرني، هل أنت شُرطيٌّ جَيِّد؟ أم أنَّكَ تريد أن تكون شرطيًّا سيِّئًا؟".

"آني ما..."، صوت خفاجي بالكاد مسموع.

تهبط قَطراتُ العَرَقِ على صدغ الرجل، ويتجاهَلُها. "معذرة؟".

"لن أَعمَلَ مَعكُم".

يبتسم الأمريكيُّ ولا يقول شيئًا. ينظر إلى الأوراق أمامه ويتصرَّف كأن خفاجي ليس موجودًا. ويعود الجُنديَّان ويسحبان ذراعَيْ خفاجي وراء ظَهرِهِ بحركة واحدة ويُقيِّدان معصَمَيْه. لم يَعُدْ لديه ما يحميه من الضوء المُتوهِّج وهو يمشي بموكِبِه إلى الخارج.

أكتوبر 2003

تُنهي المُترجِمَةُ وَرديَّتَها وتُبدِّل ملابسها بملابِسَ مألوفَةٍ في الشارع. تمسح المكياچ عن شَفَتَيْها وجَفنَيْها وتُغطّي شَعرَها برفقٍ بحِجابٍ مختلف. تترك القاعدة من بوَّابَةٍ جانبية، وتَلحَقُ بأوَّل حافلة. لا يهمُّ أي حافلة، المهم فقط ألَّا تكون الحافلة نفسها التي استقلَّتها في اليوم السابق. وتنزل من الحافلة مُسرِعَةً وهي على وشك الخروج من المحطَّة الرابعة أو الخامسة، وتستقلُّ سيارة أجرة إلى وسط المدينة. هي شخصية لَبِقَة، لكنها لا تتحدَّث أبدًا أكثر من اللازم. تتمشَّى بمحاذاة آخر مربَّعٍ سَكنيٍّ لتصل إلى حافِلَةٍ أخرى. تلك الحافلة تقطع جزءً مُكرَّرًا من طريقها السابق في الاتجاه المعاكس قبل أن توصلها إلى حيِّها.

قيل لها أن تقول إنها "تعمل في الجامعة". ولا يطرح والداها وإخوتها المزيد من الأسئلة، حتى وإن كانوا لا يُصدِّقونها.

يُنادي شاب اسمها اليوم على بُعدِ مَبنَيَيْن من المنزل ويبتسم إليها. "زينب؟" وحين تردُّ الابتسامة، يُسلِّمها ورقة ويختفي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]

إلى: زينب حسين الكاظمي، العميلة القذرة لخنازير الأمريكان!

لقد أقسمنا على أنفسنا أمام الله ورسوله أن نصحِّحَ ما يحيق بأرضنا من المُنكَرات. ومَأرَبُنا أن نُطَهِّرَ هذه الأرض التي عرَّاها العُملاءُ والمُرتدُّون والمُجرِمون. ولقد عَلِمنا أنَّكِ تَعملين مُترجِمَةً لأعداء الله والإنسانية، الأمريكان الغُزاة المُغتَصِبين مُحتَلِّي بلادنا. ربما نَجَحتِ في إبقاء هذه المعلومة سرًّا حتى الآن، لكنَّ ضَوءَ الحقيقة قد سطع. خُذي العِبرَةَ من هذا التحذير وغادِري العراق فورًا. إن لم تغادري، فإنَّ الناس سيسامحوننا نحنُ وليس أنتِ على عاقِبَةِ ذلك بعدما يعرفون حقيقَتَكِ. لا تجعلي أُمَّكِ تَتألَّم لِفَقْدِ ابنتها.

جيش الحق، لجنة القضاء

(15 سبتمبر 2003)

تخاف زينب وتبقى في منزلها أسبوعًا. وحين تعود أخيرًا إلى العمل، تُضاعِف احتياطاتها. تنظر وراءها في كل خطوة. تضيف رحلة أخرى إلى طريقها المُعقَّد. "هذا راح يِزوِّد ساعة لوخ، بس هاي الطريقة الوحيدة"، هكذا تُتمتِمُ لنفسها، "لازم يساعدوني. يمكن شَغلة لجوئي راح يقبلوها هسَّه".

تنزل زينب من حافِلَتِها الأولى في الصباح بوسط المدينة. وتُرَكِّزُ جدًّا على توقيف تاكسي، لدرجة أنها لا تلاحظ الشابَّ الواقف بجانبها.

(1) [النحل: 118]

السَّبتُ
29 نوڤمبر 2003

يَنجَحُ خفاجي في النوم لساعَةٍ وهو مُصَفَّدٌ إلى الطاولة المعدنية. ويَجِدُ صُداعَه قد عاد حين يستيقظ. يرى صينيَّةً معدِنيَّةً قد تَرَكها أحدُهم على الطاولة أمامه. يتطلَّع إلى زُجاجَةِ المياه البلاستيكية وشطيرة الجُبن الجافَّة والمخلِّل وقطع الخيار قديمة. ويبتلع الطعام ثم يُنزِله إلى جوفه بالماء. يَغفو ثانِيَةً دون أيِّ نِيَّةٍ منه. ويجد عُلبَةَ سجائر وعلبة ثِقابٍ ومِنفَضَةً على الطاولة حين يستيقظ ثانِيَة. يتحسَّس طريقه بحثًا عن سيجارَةٍ، ثم ينجح بشكلٍ ما في إشعالها. يحاول أن يُدخِّنَ بسلامٍ وهو يستند إلى الطاولة. وحين ينتهي يرمي عُقبَ السيجارة على الأرض. يشعر بالإرهاق لكنه رائِقُ الذِّهن إلى حدٍّ ما.

يهتف بعد بضع دقائق: "أريد دخولَ المرحاض". يصيح ولكن بلا إجابة، وأخيرًا ينفتح الباب بعد بعض أصوات الحركة في الرَّدهَة.

يصطحب جُنديٌّ أبيضُ عَضليُّ البِنيَة خفاجي عبر الرَّدهَة بينما يقف آخَرُ بجوار الباب. أصفاد الكعب تجعل خطواته مُتشَنِّجَة وأقصر. وفي المرحاض يَقِفُ الرَّجُل بجوار خفاجي وهو يتبوَّل. يعاني

خفاجـي ليرفـع سَـحَّابَ بنطالـه، لكـنَّ أصابعـه المُهتـزَّة تفشـل في ذلـك. يحـاول أن يغسـل وجهـه أمـام الحـوض، لكـنَّ الجنـدي يقـول لـه "لا!" ويشـده بعيـدًا. يلاحـظ خفاجـي ظَهـرَ الكُرسيِّ المتحـرك وهـما عائـدان عـبر المَمَـرِّ، ثـم ظهـر الفتـاة الجالسـة عليـه. لا يحتـاج إلى رؤيـة وجهها ليصيـح: "مـروج! مـروج!".

يدفعه الجُنديُّ إلى داخل الغرفة.

يصيـح: "دعنـي أرى ابنتـي"، ويحـاول الفـكاك، فيتعـثَّر ويقـع. وخـلال لحظَـةٍ يجـد الجُنديَّـيْن يجلسـان عـلى ذراعيـه ورجليـه. ثَمَّـةَ يـدان تُمسـكان برقبتـه. ويسـمع صوتـًا بطيئـًا وعاليـًا: "لا تُقـاوِمْ وإلا سـتتأذَّى". يشـعر خفاجـي بركبَـةٍ في صـدره. "توقَّـفْ الآن، وإلا سـتؤذي نفسـكَ".

ليـس خفاجـي هـو مَـن يَتوقَّـف، بـل يوقِفُـه الألم. فيبـدأ باستنشـاقِ أنفـاس بطيئـة وعميقـة. وتمـرُّ دقيقـةٌ ويتكلـم الجنـديُّ الـذي عـلى صـدره مُجـدَّدًا: "سـأفُكُّكَ الآن. إن فعلـتَ ذلـك مُجـدَّدًا، سـنُقيِّدُكَ مُجـدَّدًا وسـيؤلمك ذلـك".

تظـلُّ الرُّكبَـةُ تحفـر في صـدره حتـى يومِـئَ ويقـول: "حسـنًا". يقـف الرجـل تـاركًا خفاجـي عـلى الأرض، رِجـلاه وذراعـاه لا تـزال مُصفَّـدَةً، ولا يتحـرَّكُ. يـرى مـن عـلى الخرسـانة البـاردة الناعمـة حـذاءً عسـكريًّا يَمُـرُّ بجانبـه إلى خـارج الغرفـة. وتَمـرُّ دقائـق قبـل أن يعـود الجنـديُّ الأبيـض إلى الغرفـة، وينـزل إلى ارتفـاع خفاجـي ويسـأله: "أتشـعر بتَحسُّـنٍ؟".

تَجـسُّ أصابـعُ رقبَـةَ خفاجـي وحَلقَـه. وينتفـض ويرفعـه الرَّجُـلُ عـلى مقعـده. يبـدأ خفاجـي السُّـقوطَ عـن المقعـد، لكـنَّ الرجـل يثبِّـتُ الكـرسي بالطاولـة. يتـوازَنُ خفاجـي في مكانـه حتـى ينفتـح البـاب مُجـدَّدًا، ويدخـل جنـديٌّ آخـر إلى الغرفـة ويدفـع الكـرسي المُتحـرِّكَ.

يتبـادل خفاجـي ومـروج النَّظـرات، لكنَّهـما لا يقـولان شـيئًا. يبـدو أن كِلَيْهـما لم يلاحـظ الجنـديَّ وهـو يغـادر. تبـدو عينـا مـروج مُتعبَتَـيْن

وحزينَتَيْن، لكن مع ذلك ابتسامتها لا تُمحَى. تبدو أكبر سنًّا، لكنها أيضًا أصغر. يَمدُّ يديه ليلمس ذراعها، ثم يوقف نفسه قبل أن يقع عن كرسيه. ترفع مروج نفسها وتضع يدها على خَدِّها، ثم تلمس شفته العارية من الشارب. تنظر إلى عينيه المُحتَقِنَتَيْن بالدماء ووجهه المكدوم، وتختفي ابتسامَتُها. وحين تبدأ بالبكاء، تبكي بلا دموعٍ ولا صوت.

"يا الله يا بابا. شنو مسوِّين بيك؟"، وتَشرَعُ بالسُّعال بلا سيطرةٍ منها وتسقط أرضًا. تمسح اللعاب عن شفتيها، ثم تستوي جالِسَةً مُجدَّدًا.

"آني هنا مروج، راح أصير زين".

"أذوك؟".

"لا. ما يعرفون يأذوني. إنتي شلونتش؟ سَوُّوا لتش شي؟".

"آني زينة بابا. رجعوا وقالوا لي إنك تريد تشوفني. جابوني هنا".

"إنتي زينة؟".

"ما تَحسَّنت، وما تعبت أكثر"، وتَسعَلُ مَرَّتَيْن وتهزُّ كتفيها.

"شكلتش تعبانة".

"لا بابا. إنت اللي تعبان".

صَمتٌ خفاجي ثقيلٌ، بل وصارخ. إنه أعلى من النَّفَسِ الجاري في أنفه.

"قول لي يا بابا. إنت زين؟". وترتجف وتمنع نفسها من الارتجاف مُجدَّدًا.

"آني زين مروج. ما يقدرون يأذوني".

"لعد شنو رادوا؟ شنو اللي دا يصير؟".

"ما أعرف... تشانوا يدورون على واحد. وهسّه يريدوني أشتغل ويّاهم".

"لا تشتغل ويّاهم بابا".

"ليش جابوتش هنا؟ قالوا لِتش؟".

"قالوا لي إنك تريد تشوفني؟ قالوا أقدر أجي وأشوفك. وأقدر أرجع بأي وقت، آني حُرَّة. لا يظل بالك عليًا. أعرف أتصرف".

"لا تصدقيهم. محتاج شوية وقت حتى أفكر".

"صدِّقني بابا. لا يظل بالك عَليًا". وتبدأ مروج في السعال وتنحني للأمام. وتتجمَّد تكشيرةٌ على وجهها حين تنتصب مجدَّدًا.

ينظر إليها والشَّكُّ بعينيه. "تشذابين يا مروج. جابوك هنا حتى أشوفتش. وهسَّه شوفتش. لازم نفكر باللي يريدوه".

ينفتح الباب ويسحب جُنديٌّ كُرسيَّ مروج المُتحرِّكَ إلى الوراء. يصرخ خفاجي بالرجل وهو يبتعد بها. ويظل يصرخ باسمها حتى بعد إغلاق الباب.

تَمُرُّ ساعة أو أكثر قبل أن يدخل ضابِطٌ آخر إلى الغرفة. بحلول ذلك الوقت كان خفاجي قد حسم أمره.

"سأفعلها. لكن بشرطٍ واحد".

"وما شرطك يا خفاجي؟".

"كُليَتَا ابنتي مريضتان. يجب أن تذهب إلى مستشفى حقيقيَّة. أتريدونني أن أساعدكم؟ يجب أن تساعدوا ابنتي. هذا لا يحتمل الانتظار".

يقف الرجل ويقول: "سأرى ما بإمكاننا فعله"، ثم يختفي.

يَمُرُّ بعض الوقت قبل أن يدخل جنديٌّ وضابط آخرُ الغُرفةَ. يَقصُّ الجنديُّ القَيدَ الذي على معصمي خفاجي ويغادر. يضع الضابط ملفًا على الطاولة ويشرع بالكلام: "ابنتك ستُؤخَذُ إلى مستشفى ابن سينا. وسيُفرج عنك تحت المراقبة. اذهب ورَتِّب شؤونك. يجب أن تحضر إلى مَقرِّ سُلطَةِ الائتلاف المؤقَّتَة غدًا. ستعمل مع سترون".

لم ينظر إلى خفاجي إلى أن سَلَّمَه ورقةً عليها أسماء وأرقام، وزوجٌ من الأختام: "أتريد أن ترى ابنتك؟ أحضِرْ هذه معك إلى نقطة التفتيش الثالثة. إنهم يتوقَّعون مجيئك عند الساعة التاسعة".

يطرف خفاجي ويُتَمتِمُ الرجل: "البوابة عند مركز المؤتمرات. سترى الطابور حين تصل. اذهب إلى المقدِّمة مباشرةً بهذه الأوراق. إن لم تَتَّبِع هذه التعليمات، سيمرُّ الكثير من الوقت قبل أن ترى ابنتك مُجدَّدًا".

وفجأةً يَصطَحِبُه جُنديٌّ آخر قصيرٌ إلى خارج المجمع.

ينتظر في إحدى الحاويات البيضاء عند البوَّابة بينما يُرَتِّب شخصٌ أوراقًا داخل خزانات. ويرتشف بين الحين والآخر المزيد من الشاي الدافئ في الأكواب الورقيَّة الرديئة نفسها. ويبتسم، ويغيب قليلًا مُتخيِّلًا رَوعَةَ شعور أن ينام في سريره.

يَرِنُّ الهاتف ويوقظ خفاجي. ويخبره موظف الاستقبال أن وسيلة نَقلِه قد وصَلَت. يخرج خفاجي ليجد عربة هامفي بالية. ويلوِّح جُنديٌّ فتًى ويفتح البابَ الخلفي. يركب خفاجي دون أن يقول شيئًا إلى الجنود الشباب الثلاثة بالداخل. يقول السائق: "اربطوا أحزمة الأمان. إلى أين سآخذكم؟".

يخبره خفاجي باسم شارعه. ويهزُّ الفتى الذي في المقعد الأمامي كتفيه: "أرِني على الخريطة".

ينظر خفاجي إلى خريطة لبغداد، لكنها ليست بغداد. ينظر حيث يُفتَرَضُ أن يكون حي الجادرية، فيرى كلمة هوليوود. يحاول أن يجد شارع السعدون، فلا يرى إلا مكانًا يُسمَّى مانهاتن. إنها بغداد، لكن كل حَيٍّ وكل شارع له اسم مختلف. يشير إلى حيث يَظُنُّ أنه يريد أن يذهب، وينظر الجُنديُّ إلى حيث تشير أصابعه ويقول: "عظيم. شيكاغو. هذا تقاطع ماديسون وماين".

يجبر خفاجي نفسه على الابتسام.

لا يرى الكثير عبر النوافذ القَذِرَة السميكة في المقعد الخلفي، والآخرون جامدون ومنتبهون. يسرع السائق ويبطئ بلا سبب واضِحٍ. وتنحرف العربة ذهابًا وعودةً دافِعَةً خفاجي بحزام أمانه في اتجاهات مختلفة. تُزمِّر السيارات وتَصرُّ مكابحها في الخارج مُشكِّلَةً الفوضى التي يُسبِّبها مرور عربة دورية وسط زحام المرور المدني. يسمع خفاجي لمرَّاتٍ عديدة أصواتًا مكتومة خافتة وأصوات أزيز مرتفعة، ويتخيَّل أشياءَ تضرب الجدران المعدنيَّةَ حوله. ثم يُعطِّل شيءٌ ثقيل العَرَبَةَ لوهلة. ولكنه يُحدِثُ صَريرًا مزعجًا ثم يختفي. يصرخ الفتى الذي بجانبه إلى النافذة: "فِيشْدُو[1]!".

يَلتَفِتُ إلى خفاجي ويهمس: "إنها اختصار (خرا. المصائب تحدث. تابع القيادة)[2]" ويضحك الآخرون.

يميل خفاجي ويتخيَّلُهم فجأةً وهم يُنزِلونه بعربة الدورية أمام مبناه. ويصيح: "توقَّف! أريد النزول".

يضحك السائق ويقول: "لا تقلق، سنوصلك إلى هناك قِطعَةً واحدة".

"لا. أرجوكَ، تَوقَّف. دعني أنزل".

(1) Fishdo!

(2) Fuck it. Shit happens. Drive on!

يمضغ الفتى بجوار خفاجي العَلكَة. وينظر إلى خفاجي ويهزُّ رأسه: "اهدأ يا حاجِّي. لا تقلق، نعرف كيف نتعامل مع حركة المرور".

يشرع الآخرون بالضحك. ويُشغِّل السائق موسيقا عالية. يهزُّون رؤوسهم جيئةً وذهابًا مع الإيقاع. ويحرِّك ماضِغُ العلكة قبضته في الهواء ويُردِّد كلمات الأغنية، حتى أن خفاجي لم يَعُد يستطيع أن يسمع أفكاره.

يَفُكُّ خفاجي حزام أمانه، فيُدفَع إلى حِجر ماضِغ العلكة. يصيح خفاجي ويتوسَّل: "توقَّف! أرجوكَ تَوقَّف! يجب أن أنزل!".

يصيح الأمريكان به: "اخرس يا حاجِّي".

يثبِّت ماضغ العلكة خفاجي في مقعده، بينما يصيح السائق: "لا نتوقَّف على هذا الطريق أيُّها المُسِنُّ. سنوصلك إلى نقطة تفتيش ويمكنك من هناك الذهاب إلى أيِّ جحيم يعجبك. ولكن إلى أن نصل إلى نقطة التفتيش، يجب ألَّا نتوقَّف".

يُحَملِقُ ماضِغُ العلكة إلى خفاجي، ثم يهزُّ رأسه وينظر عبر النافذة. ينفخ الهواء عبر أسنانه ويطلب من السائق أن يرفع صوت الموسيقا. وتتَّهم عيناه خفاجي في كل مرَّةٍ يضرب شيءٌ العَربَةَ.

يُنزِلون خفاجي عند نقطة تفتيش على طرف الكرادة. فيكتفي بالسير مُبتَعِدًا دون أن يقول شيئًا للجنود. يقف لوَهلَةٍ في نسيم الليل ويستنشقه، ثم يبدأ الجري مُبتَعِدًا عن ذلك المكان قَدرَ الإمكان. تتلاشى الأنوار الساطعة الخاصَّةُ بنقطة التفتيش. ويُهَروِلُ خفاجي عبر الشوارع المُظلمة والأبنية نصف المُضاءَة والشرفات المُغَلَّفَة بالظلال. تنقطع الكهرباء مُجدَّدًا. ولا يسمع عند شارعه إلَّا صوت بضع مُوَلِّداتٍ كهربائية.

يجد بوَّابَةً تَسدُّ شارِعَه، فيبدأ السير حولها حين تصيح أصوات: "منو هناك؟".

يخرج شابَّان من الظلال المُمتدَّة على الرصيف وسلاحاهما مُعلَّقان دون اهتمامٍ بجانبيهما. حينَئِذٍ يستطيع خفاجي أن يرى الكُرسِيَّيْن حيث كانا جالِسَيْن.

"أسكُن بهاي البناية. القاط الثالث". ويشير إلى الشُّرفة.

"إنت زين أخويا؟ شكلك...".

"افتح البوابة. هذا شارعنا". ويُحَملِقُ خفاجي إلى الرجل الذي يمسك بالبوابة.

"روح الله وياك". ويلين أخيرًا ويدع خفاجي يَمرُّ.

يدلف خفاجي إلى مدخل مبناه ويرى الكراسي المصطفَّة بطول الجدار المجاور للباب. يوجد ما يمكن وصفه بالحياة الجديدة في المبنى. تنتشر الأسلاك الكهربائية في كل مكان وتصعد السلالم وصولًا إلى سطح المبنى. كذا تسطع الأضواء، حتى تكاد تكون فاضِحَةً. يَتردَّدُ في المَمرَّات صدى التلفاز والمحادثات. وتعلو من القبو هَمهَمَةٌ رَقيقَةٌ تُصدِرُها المُوَلِّداتُ. يظنُّ وهو يخطو إلى الداخل أنه يرى ظِلَّ أبو علي على بسطة السلم بالأعلى. ويرى في الطابق الثاني الأنوار مُضاءَةً في الشَّقَّتَيْن لأول مرة منذ شهور. هناك جيرانٌ جُدُد لا يزالون ينقلون أشياءَهم، فمُتَعلَّقاتهم لا تزال على بسطة السُّلَّم. ثمة أريكة منتفخة تقليدية وكراسي سُفرَةٍ بالية. ويبتسم خفاجي إثرَ سماعه ضحك الأطفال بالداخل. إنها عائلات.

ينغلق باب أبو علي حين يصل خفاجي إلى الطابق الثالث. يمدُّ يده ليخرج مفاتيحه، فيتذكَّر أنه لا يزال يرتدي بدلة أَحدٍ آخر، وبها جيوبُ أَحَدٍ آخر. ثم يلاحظ أنه ليس بحاجَةٍ إلى مفتاح لفتح باب

شـقته. فهـو ليـس مُقفَـلًا، بـل إنـه ليـس مغلقًـا حتـى. يخطـو إلى الداخـل ليشــغل الأضــواء، ويشــعر بالزجــاج المكســور ينســحق تحــت صندلــه البلاســتيكي.

تَعرَّضَـت كُلُّ الغُـرَفِ باسـتثناء غرفـة مـروج للتفتيـش والنَّهـب. بعـض الأشـياء لم تتعـرَّض إلَّا للقَلْـبِ، لكـنَّ أشـياءَ أُخـرى تَعرَّضَـت للتمزيـق، أو للنـثر عـلى الأرض. هنـاك أشـياء أخـرى اختفـت: التلفـاز القديـم وأواني الصينــي الخاصــة بزواجــه وقــدورٌ وأَوانٍ وماكينــة الحلاقــة الكهربائيــة المُفضَّلـة لديـه. كـذا فـإن غرفـة الطعـام فارغـة. أحدهـم قـد أخـذ المائـدة وكل الكـراسي. يسـتوعب حينهـا فقـط سـببً أن الأثـاث الـذي في الطابـق الأول يبـدو مألوفًـا للغايـة.

لقـد صنعـوا مـن الكتـب أكوامًـا عـلى السـجَّاد في كلتـا الغرفَتَيْن. يلتقـط خفاجـي كتابًـا أو اثنـين، لكنـه يستسـلم. حينهـا فقـط يلاحـظ الرائحـة المريحـة الشـبيهة بالدخـان العالقـة في الهـواء. وهنـاك زجاجـة "بـلاك ليبـل" مكسـرة، وقـد أغرَقَـت محتوياتُهـا السـجَّاد. لـو رمـى أحـدٌ عـودَ كبريـت عـلى الأرض، سيشـتعل المـكان بأكملـه.

يُنقِّـب الفـوضى وقـد أصابـه اليـأس. ومـا يُدهِشُـه أنـه قـد وجـد مكافأتـه، فقـد نَجَـت أربـع زجاجـات وسـط الحطـام. فيذهـب ليسـتحمَّ لكنـه لا يجـد مياهًـا. وتتشـكَّل وجبتـه الثانيـة خـلال خمسـة أيـام مـن قِطَـعِ خُبـزٍ قديـم وزيتونـات خـضراء مَشـقوقَة، ابتلعهـا بكأسـين مـن السـكوتش الدافـئ. ومـع سـقوطه في السريـر غـير المُرتَّـب، كان قـد نَـسِيَ أمـرَ صُداعِـه.

المِنطَقَةُ الخَضراءُ

وَسَــيَبْكِي وَيَنُــوحُ عَلَيْهَــا مُلُــوكُ الأَرْضِ، الَّذِيــنَ زَنَــوْا وَتَنَعَّمُــوا مَعَهَــا، حِينَـمَا يَنْظُـرُونَ دُخَـانَ حَرِيقِهَـا، وَاقِفِـينَ مِـنْ بَعِيـدٍ لأَجْـلِ خَـوْفِ عَذَابِهَـا، قَائِلِـينَ: وَيْـلٌ! وَيْـلٌ! الْمَدِينَـةُ الْعَظِيمَـةُ بَابِـلُ! الْمَدِينَـةُ الْقَوِيَّـةُ! لأَنَّـهُ فِي سَـاعَةٍ وَاحِـدَةٍ جَـاءَتْ دَيْنُونَتُـكِ.

سفر الرؤيا (إصحاح 18) 9-10

الأحد
30 نوفمبر 2003

يَستَيقظُ خفاجي على وَقْعِ النَّبض برأسه. يجد المياه قد عادت فيغمر رأسه تحت الحنفيَّة الباردة إلى أن تتوقَّف عن إيلامه. ينظر إلى المرآةِ فَيَجِدُ بعض تَوَرُّماتِ وَجهِه وقد أصبحت أهدَأَ، لكنه يبدو كشخصٍ آخر. يحلق بعناية وببطء حتى تصبح فروة رأسه عارية مثل ذَقنِه وشَفَتِه. يستحمُّ سريعًا ويملأ أكبرَ عَدَدٍ مُمكِنٍ من الزجاجات. ويملأ حوض الاستحمام أيضًا، من باب الاحتياط.

يذهب إلى غرفة مروج ويفتح الباب بهدوء وببطء. ويستوعب كلَّ ما حدث حين يرى الغرفة الخالية، بما في ذلك الاتفاق الذي عَقَدَه. فيذهب إلى المطبخ ويُشغِّل الغَلَّاية. ويلاحظ وهو ينتظر غليان المياه أن باب الشرفة مفتوحٌ على مصراعيه، فيلقي نظرة على البيوت التي حوله. لقد ازداد عددُ أطباق الساتلايت المُعلَّقة بالشُّرفات والحوائط والأسطح منذ آخر مرة تَفَقَّدها، وكلها تركع صوب قبلة واحدة. وتملأ الشمس المُشرِقَة كلَّ طَبَقٍ بالظِّلِّ الهلالي نفسه.

يجلب صينية الشاي إلى غرفة المعيشة ويفحص الأوراق التي أعطاها له الأمريكان. يتذكَّر نقطة التفتيش الثالثة، ويُقرِّر تنظيف الفوضى بدلًا من الخروج من المنزل. يظلُّ لمُدَّةِ خمسٍ وأربعين دقيقة يصنع من الكُتُب أكوامًا أمام الخزانات، ثم يُقرِّر إكمال مَهمَّتِه لاحقًا. ويُنهي آخر كوب شاي قبل العودة إلى المطبخ لجلب المقشَّة. يكنس الشظايا والزجاج عن السجادة ثم يمسح بلاط الأرضية حتى أصبح كل شيء أنيقًا إلى حَدٍّ ما. يعيد المقشَّة والجاروف إلى المطبخ ويدرك فجأة أنه جائع.

يسمع طَرقًا على الباب وهو يغرف الزيتون من الإناء، فيمسح يده ويعود إلى الغرفة الأمامية. وتملأ رائحة العِطرِ الخَشبيِّ جيوبَه الأنفية قبل حتى أن يفتح الباب. ثَمَّةَ شابٌّ صغير يقف عند بسطة السلم، له ملامح ناعمة وخَدَّاه وَرديَّان وجبهته ناصعة ولحيته ناعمة ومُحدَّدة بأناقة. يرتدي سُترَةً خضراء ثقيلة من النوع الذي يُوزَّع في الشتاء، وتلتفُّ كوفيَّةٌ حول كتفيه. يعود صداع خفاجي، ولا يتمكَّن من فعل شيء سوى التكشير. لكن صوت الرجل رقيق كوجهه: "السلام عليكم".

"صباح الخير".

"إنت أخ محسن؟ آني علي". ويمدُّ علي يَدَه غير الناعمة على الإطلاق.

"إي!" ويحاول خفاجي الابتسام. "هالو علي! يا هلا. الحمد لله رجعت بالسلامة!".

يسمع خفاجي بمكانٍ ما بالأسفل شبابًا يتكلَّمون بأصوات رقيقة. يبدون كأنهم يتحدَّثون الفارسية.

"مشكور أخ محسن! تشنت كريم ويَّا أهلي. ممنون إلك. حتشوا عنك وقالوا شَغلات كلش زينة. الحمد لله إنك رديت سالم همين!". لكن خفاجي يلاحظ أن عينَيْ علي جامِدَتان كالحجر، مثل قِطعَتَيْن من العقيق. ينظر إليهما ولا يرى سوى انعكاسه في السواد. السكوت ثقيلٌ؛ لذا يحاول خفاجي أن يبتسم أكثر. تصبح قَبضَةُ علي حديديَّةً. ويسمع خفاجي أصوات أحذية على السُّلَّم.

"لمن جوي الأمريكان. قالوا لأبوي عنك وعن شغلك. بس ما صدَّقناهم".

"لا مو صدق. تشانوا يدوِّرون على...".

يقاطعه علي: "أكيد ما تشانوا يقولون الصدق. هاي إنت جيت، سالم غانم. بس بالأخير إحنا ما نريد مشاكل بالبناية. يا ريت تكون فهمت قصدي".

"أفهم شنو؟".

"عيني محسن، بعد كل اللي صار. لازم تطلع".

ينادي صوت من السُّلمَّ: "السلام عليكم!". يلتفت خفاجي فيرى شابَّيْن بلِحيَةٍ خفيفة وزِيٍّ عسكري. يصيح علي: "وعليكم السلام"، ويرجعان إلى السُّلَّم حين يُلوِّح لهما علي.

يتابع علي الحديثَ بصوته الرقيق: "يا أخوي محسن الشَّغلة إنه إحنا ما نعرف إنت منو. وما نريد مشاكل بالبناية".

يرد خفاجي: "بأي حق..."، لكنَّ النَّبضَ في رأسه يُسكِتُه.

يَرِقُّ صوت علي: "باوع على روحك. حالتك كلش تعبانة. عمومًا هذا مو قراري. هذا أحسن إلنا كلنا".

يحـاول خفاجـي أن يجـذب يـده: "شـلون تقـدر! هـذا بيتـي! إنتـوا الضيـوف مـو آني". ويـدُ عـلي لا تُفلِـتُ يَـدَه.

"صحيـح. يجـوز كلامـك صـح. بـس بـاوع حولـك. منـو بالبلـد يقـدر يميـز الضيـف مـن صاحـب الـدار؟".

يحـاول خفاجـي أن يبـدو قويًـا، لكـن الألم في رأسـه يتمكَّـن منـه في النهايـة. فيُطبِـقُ فَكَّيـه ويقـف مكانـه لمُـدَّةٍ بَـدَت كأنهـا دقائـق، مـع أنـه يعـرف أنـه قـد خـسر بالفعـل. لكنـه يتذكَّـر قبـل أن يستسـلم أن الهزيمـة لا تعنـي الاستسـلام.مكتبة سر من قرأ

"زين أقدر أطلب منك شَغلَة؟".

"أكيد. أخويا إنت".

"يعني مو إنسانية أنطرد بالشارع. إنطوني أسبوع".

"ويَّـاك للأحـد". الإجابـة سريعـة جـدًّا لدرجـة جعلـت خفاجـي يـدرك أنـه في مواجهـة خُطَّـة. يتابـع عـلي: "بـس مِـن تطلـع لازم تعـوف كل شي بالشـقة مثـل مـا هـو".

"أيا ابن القحبة".

"لا تقـول هيتـش أخويـا محسـن. أبـوي وأمـي يقولـون عنـك إنسـان راقـي ومثقـف. تقـدر تأخـذ ملابسـك. بـس هـذا كل شي. اتفقنـا؟".

يَرِنُّ الهاتف ويقول خفاجي: "لازم أرد".

يَرِنُّ الهاتف مُجدَّدًا.

"صار". ويفلت علي يده أخيراً.

يسـمع خفاجـي صـوت نضـال عـلى الخـط بمجـرَّد أن ينغلـق البـاب. قد كـرَّس الدقيقـة الأولى مـن المحادثـة للشـكوى مـن الإحبـاط وخيبـة الأمـل، ويعلـو الصـوتُ بهـا أحيانًـا. لكـن بعدهـا يسـتمع نضـال إلى خفاجـي.

"كسروا الباب وطبوا. احتجزوني وراها، عرفوا إنه أكو غلط بالموضوع".

"وخلُّوك تطلع بساع هيتش؟".

"ورا ما زيَّنوا شَعري ودمروا الشقة".

"شنو؟ إنت زين؟ ومروج وين؟".

"أخذوها لابن سينا".

"ليش؟".

"للعلاج".

"لا أقصد ليش سَوَّوا هيتش؟".

يسكت خفاجي.

"نقدر نزورها؟".

"لا، ما أعتقد. هي بالتشريع، بالمنطقة مال الأمريكان".

"وإنت شنو صار ويَّاك؟".

"إنطوني تصريح حتى أقدر أزورها. رايح إلها هسَّه".

"راح ندِزّ إلها شي ويَّاك مِن نشوفك. إنت زين؟".

"راح أصير أحسن. أزيِّن لحيتي بس".

"شنو؟".

"راح أقولك لمن نتشاوف. أكو خبر عن سوسن؟".

"لا".

"إي صدق. رحت لست...".

"وشنو لقيت؟".

"ماكو شي. ما قالت لك سوسن عن شغلها أبدًا؟".

"لا".

"لازم أحتشي ويَّا السايق. ما وصلت لشي. راح تقول إذا عرفت شي...".

"أكيد. إحنا قررنا مثل ما تعرف. مها وافقت أول ما..."، وينجرف صوته. "ماكو داعي ننتظر. خلي نتشاوف، هاه؟".

"إنطيني يوم حتى أرتاح".

"تريد أخلِّي مها تدِزّ لك شي تاكله؟".

"آني زين. أرجع أخابرك".

يُنهي المكالَمةَ ويضع وجهه تحت الحنفية مجدَّدًا. وتُسكت المياه الباردة في النهاية النبض في رأسه. يأخذ الأوراق التي أعطوها له وينتعل حذاءه ويغادر المنزل. يسمع الأصوات الناعمة مُجدَّدًا في الردهة بالأسفل، ويتساءل إن كانوا يتحدَّثون الفارسية. وحين يبلغ الطابق الأرضي يسكتون.

يصيح أحدهم بنبرة ودية: "السلام عليكم!".

يجيب خفاجي: "صباح الخير"، وقد وجد نفسه يتقدَّم وسط تجمُّعٍ من الشباب يسدُّ المدخل. يرتدون كُلُّهم الزِّيَّ المُوحَّد نفسه، ولهم اللحية الأنيقة نفسها. يرتشفون من أكواب الشاي، ويجلس اثنان عند الباب الأمامي ويحتضنان رشَّاشَيْ "إيه كيه 47" في حِجرَيْهما. ينهضان ويؤدِّيان ما يشبه التحية العسكرية حين يمرُّ بهما. ويومئ في نهاية شارعه حين يُحيِّيه الجنود الشباب عند البوابة. ويراهم يَردُّون التلويح إلى مدخل بِنائِه بعدما يَمرُّ بهم.

يتجاوز المُنعَطَفَ ويبدأ بالهرولة وسط القمامة. إنها في كل مكان، متراكمة في الأراضي الخالية ومُكدَّسة حول الأبواب والمداخل والحوائط. تمتدُّ بطول الشوارع وتملأ الحارات، بها خرسانة وقوالب طوب، وطلاء

وقطـع معدنيـة وأوراق وقمامـة، وأكـوام مـن الإسـمنت الأبيـض، وخبـز جـاف وعُلَـبٌ مـن الصفيـح وزجاجـات فارغـة وزجـاج مكسـور، وأشـواك أسـماك وعظـام دجـاج، وأكـوام مـن الأشـياء الرطبـة، ومـادَّة مُبلَّلـة، إنـه لحـمٌ مُتعفِّـن. يتعثَّر خفاجـي بجثـة كلـب، ويغطِّـي وجهـه بمنديـلٍ، لكـنَّ الرَّائِحَـة النَّتِنَـة تخترقـه. يصطـدم إصبـع قدمـه بـشيء، وترتفـع سـتارة سـميكة مـن الذبـاب فتكشـف المزيـد مـن الـكلاب. فيقفـز فوقهـا ويجـري بأقـصى سرعتـه. يتوقَّـف ليشـعل سـيجارة، فيجـد التبـغ القديـم بنكهـة الـورق المُقـوَّى. يتهـوَّع للحظـة، ثـم يجـبر نفسـه عـلى إنهـاء السـيجارة.

يحـاول مَسـحَ حـذاءَه بورقـة جريـدة. لكنـه يتطلَّـع حولـه ويُقـرِّر الاستسـلام. المدينـة بالكامـل -كُلُّ شـارع، وكُلُّ كومـة قمامـة وكل شِـبرٍ فيهـا- مُغطَّـاة ببحـر مـن زجاجـات الصـودا البلاسـتيكية. كل منهـا مـليء بلتريـن مـن الـلاشيء. وتتجمَّـع أكيـاسُ تَسـوُّقٍ بلاسـتيكية رقيقـة عنـد كُلِّ ركـن، وتتعلَّـق بفـروع الشـجر. فيدخـن خفاجـي بقيـة سـيجارته.

تتحـرَّك الأشـياء بإيقـاعٍ أثقـل مـن المعتـاد. فشـاحنات اللـوري تتقـدَّم بثِقَـلٍ شـديد، لدرجـة أنـك تسـتطيع أن تشـعر بهـا بقدميـك قبـل أن تراهـا. يسـمع صـوت المروحيَّـات يـتردَّد في الشـوارع حـين يصـل إلى مـكان مـا بوسـط المدينـة. ويخبِّـئ نفسـه وراء أحـد الأعمـدة الخرسـانية عـلى الرصيـف أو وراء سـيَّارَةٍ مركونـة حـين يسـمع صـوت سـيارة دوريـة. يتابـع المـشي مُتجـاوِزًا إحـدى نقـاط التفتيـش ثـم الأخـرى، بـلا اتِّجـاهٍ واضـح. يحـشر نفسـه بـين السـيارات كلَّ بضعـة أمتـار، بعضهـا مصفـوفٌ وبعضهـا مهجـورٌ منـذ وقـت طويـل. وفي مـرَّةٍ وهـو ينحنـي ليُبعِـدَ كيسًـا بلاسـتيكيًّا عالِقًـا بحذائـه، يـدرك إلى أيـن تأخـذه قدمـاه. إنهـا تأخـذه إلى البيـت.

يـرى خفاجـي أحيانًـا وجهًـا يعرفـه أو يتخيَّـل أنـه يعرفـه. ويتخيَّـل أنـه يـرى المزيـد مـن تلـك الوجـوه وهـو يخطـو عـبر سـاحة الأندلـس. يُلقـي التحيـة عـلى جـيران قُدامـى يراهـم في الشـارع، لكـن لا أحـدَ يَـردُّ التحيـة؛

فلا أحد يعرفه. يتجاوز آخر مُنعَطَفٍ ويقف لأول مرَّةٍ منذ سنوات أمام منزل أسرته القديم الذي لا يزال ملكهم. ويُقرُّ أنهم حتى لو لم يعيشوا هناك لسنوات، فإنه لا يزال منزِلَهم. لقد دفن سهير وانتقل إلى منزل جديد. لم يفعل شيئًا سوى إغلاق الأبواب وراءه، لكنه لم يَبِع المكانَ. ولم يتوقَّف المكانُ عن كونه بَيتَهم.

لم يتغيَّر أي شيء. إنه البيت نفسه، بالطوب البُنِّيِّ المُسنَّن، والبوابة الحديدية السوداء المُؤدِّية إلى الحديقة الداخلية، والنوافذ الزجاجية المُلوَّنَةِ. وهذه أشجار الياسمين والجَهنَّميَّة نفسها التي زرعها عُدَيّ ومروج. يبتسم خفاجي لنفسه، فقد تجنَّبَ البيتَ لوقتٍ طويلٍ، ولم يَعُد أبدًا لأنه أدرك مدى ابتذال الأمر. أكان ضروريًّا أن يقف هنا ويبكي مثل الشعراء القُدامى؟

لكن ها هو ذا، في صباحٍ مُبكِّرٍ مُشرِق، ينتحب على مرأى من البيت الذي عاش فيه معها، يَنتحِبُ أمام ذكرى الحياة التي عاشاها معًا. لماذا الأمرُ صادِمٌ هكذا أن ترى بيتَكَ القديم مثلما تركتَه تمامًا؟ لماذا الأمرُ مُزعِجٌ أن ترى أن لا شيء تغيَّر بعد كُلِّ هذه السنوات؟ لأن هذا يعني أنك لست ضروريًّا، حسبما يفكِّر خفاجي. يعني هذا أن الأمور تستمرُّ على حالها، بِكَ أو من دونِكَ.

ينظر خفاجي إلى المنزل ويحاول أن يَجِدَ السلوى في حقيقَةِ أنَّه لا يزال يعرف كُلَّ شيء عنه. يعرف أي نافذة تعلِّق. يعرف كيف يجد طفليه حين يختبئان في المخزن تحت السلالم. يعرف كيف يمنع حَنفيَّةَ الحَمَّام من التسريب. يعرف كيف يُعيد تشغيل مُكيِّفات الهواء بواسطة القواطِعِ الكهربائية.

يستغرق خفاجي وقتًا طويلًا حتى يلاحظ التغييرات. فأكاليل الأسلاك الشائكة تلمع أعلى الجدران، وتَلتَفُّ حول البوابة الأمامية، وثَمَّة أشوِلَة رَملٍ وسيارة "جي إم سي" في المدخل. ويحتسي رجالٌ الشَّايَ

عند البوابة بملابِسَ مُمَوَّهَةٍ وأحذية سوداءَ مُتطابِقَة ذات الرقبة. كذا لاحَظَ أَسلِحَتَهم، والرجل الواقف عند نافذة غرفة النوم الرئيسية في الطابق الثاني، والرجل الذي يخطو نحو الظلال.

عندها أدرك خفاجي أنه لم يَكُن يجب أن يأتي. الأمر مُحزِنٌ حين تعود لزيارة مكانٍ هَجَرتَه. والأمر خَطيرٌ حين تزور ذلك المكان بعدما أخَذَهُ أَحَدٌ آخَرُ وجَعَلَه خاصًّا به.

لا بُدَّ أن خفاجي كان يُحَملِقُ بغضبٍ إلى الرجال الجالسين عند البوابة؛ لأنهم وقفوا ومَدُّوا أيديهم إلى أسلحتهم واحدًا تلو الآخر. ولا يستيقظ من حُلمِ يَقَظَتِه إلَّا حين يسمع جلبة تكسُّرِ الأكواب والزجاج على الأرض. حينها فقط يستدير ويبدأ السَّيرَ مُبتَعِدًا، مثل مُمثِّلٍ صعد إلى المسرح الخطأ. يمشي ويمشي، ومع كل خطوة ينجح في نسيان شيء.

ينسى وينسى إلى أن يتذكَّر مروج.

ثم يتذكَّر موعد الساعة التاسعة عند نقطة التفتيش الثالثة. يَمدُّ يده إلى أن تتوقَّف سيارة بيجو عائِليَّةٌ قديمة. فيتقدَّم إليها ويفتح الباب.

ينظر إلى داخلها بتَشَكُّكٍ، ليس متأكِّدًا تمامًا إن كانت سيَّارَةَ أُجرَةٍ أم لا. ينفجر صوتُ الرجل مثل مدفع: "وين أوصلك؟".

يُعدِّل المرآة ويلتفت لينظر إلى خفاجي. ويتفاجَأ خفاجي لرؤية بريقٍ لا تُخطِئُه العينُ في عينَيْ الرَّجُل المحتقنتين بالدماء. كذا يلحظ لحيته الشعثاء البيضاء المُلوَّنَةَ بالبُنِّيِّ والأصفر حول فمه. ويبرز زَوجٌ من الأَرجُلِ النحيفة وقدمين مُسِنَّتَيْن من تحت دشداشته القديمة. ويختبئ زَوجٌ من الصنادل الجلدية القديمة عند عصا التعشيق.

"التَّشريع. أنزل عند مركز المؤتمرات".

"التشريع؟ مركز المؤتمرات. ماشي. إصعد".

يدفع الرجل عصا التعشيق إلى وضع الحركة وينطلقان. ينظر إلى خفاجي مُجدَّدًا: "آني أعرفك. مو هيتش؟".

"ما أعتقد".

تتقدَّم بهما السيَّارَةُ لدقيقَةٍ.

"المرور كلش ازدحام على جسر الجادرية بسبب فد شي. ناخذ الطريق الطويلة ونعبر جسر الأحرار. نوصل أسرع، بس عليك تباوع".

تمرُّ المقاهي على اليمين وينثني النهر على اليسار. ويتحسَّس نسيمُ الصباح البارد وَجهَ خفاجي عبر النافذة المفتوحة مثل كِريم ما بعد الحلاقة. يرى طائر النورس يصطاد على ضِفَّة النهر. يراه ثابتًا مثل تَمثالٍ، ويتذكَّر أنه ينتظر هكذا حتى يَنقَضَّ على سمكةٍ سَيِّئَةِ الحَظّ. ينتظر لساعات، بلا أيِّ حركة، ثم يضرب بسُرعَةٍ شديدة لدرَجَةِ أَنَّ لا أحد يراه، أو لا تراه السمكة على الأقل. إنه نموذج في الصبر والصمود، والموت.

ينقُرُ الرَّجُلُ ذِراعَ خفاجي للمرة الثانية، ثم ينحرف ليتفادى سيَّارَةً أمامه. ويمد ذراعه إلى الخارج مُلوِّحًا للسائق.

"فِلِح[1] مناويتش. صاعدين المرسيدس مثل ما يصعدون حميرهم. تعرف إنهم بالقرى ينيتشون الصالنصة[2] لمن نسوانهن تجيهن العادة؟ إيه بالله! شفتهم بعيني". يضحك على نُكتَتِه ويَلعَقُ شَفَتَيْه ويضرب عجلة القيادة.

تمرُّ دقيقةٌ وخفاجي لا يعرف ما يقوله.

(1) فلاحون بالعامية الراقية.

(2) عادم السيارات بالعامية البغدادية.

يمدُّ الرَّجُلُ يده: "آني كارل عبد الغفار".

يُصافِحُه خفاجي، لكنَّ عينَيْه لا تفارقان الطريق أمامهما.

"ما تتذكر إنك شفتني قبل؟ التقيت أحد مثل اسمي؟ أدري إنه ما صار. أبوي الله يرحمه تشان يحب أستاذه، الشيخ ماركس العجوز. تشان هيك يسميه. تشان شيوعي زمان أيام ما تشان أكو شيوعيين، تشانوا صدق زلم".

يَنحَرِفُ كارل عبد الغفار متجاوزًا سيارة أخرى، ثم يعدل مرآة الرؤية الخلفية مًجدَّدًا. "أبوي تشان أذكى واحد. تشان يقرا المستقبل. تشان يعرف اللي راح يصير. أقول لك شغلة. أول ما طبِّيت المدرسة، ودَّاني القاهرة. تعرف ليش؟ أقول لك. تشان يعرف شنو راح يصير. لمَّن تخرَّجت، اعتقلوه".

يُمَسِّدُ الرجلُ لِحيَتَه ويصيح: "الله يرحم روحك يابا!" ويومئ خفاجي ويحاول أن يبدو جادًّا.

"تشان يعرف إنه الأسامي مو قدر. لو تشانت قدر، تشان زماني مِتِت عشرين مرة. الله يرحم الشايب، والله يحمي الثورة".

يُحَملِقُ بتركيزٍ شَديدٍ لدرجة أن خفاجي يبدأ بالقلق. وفي النهاية يهزُّ رأسه قائلًا: "آني ألغي[1] هواية، أعرف. وِلدي دايمًا يقولون هيك. إذا ما يعجبك، أقدر أنزلك هنا".

يَلعَقُ شَفَتَيْه مُجدَّدًا قبل أن يضحك خفاجي أخيرًا. ثم يضرب عجلة القيادة.

يتابع كارل عبد الغفار حكايته وهما يتقدَّمان وسط السيارات. لقد عمل سائقًا وتقاعد بعد الحرب، وهو مُتَزوِّجٌ ولديه خمسة:

(1) أُثَرثِرُ بالعامية البغدادية.



ثلاثة أولاد وفتاتان، وأربع حفيدات، كُلُّهُنَّ بنات والحمد لله. وهنالك صُوَرٌ مُعلَّقة على التابلوه.

"ما اشتغلت على التاكسي على مود الفلوس. أريد أبقى برًّا البيت. إحنا الحمد لله بخير وكلنا ساكنين قريبين من بعض، الحمد لله. الوِلِد ما يريدون يشوفوني أسوق. قلت لهم: (لو هاي الشغلة، لو أتزوج النوب[1]!) بعدين من حقي أشوف اللي دا يصير بعيوني. فهمتني؟ شفت شغلات عمرك ما تصدقها. والدنيا جاي تصير أغرب. هسه كلها جاي تستعد للحرب اللي ما صارت بعد، حتى آني وإنت". وينقر صدره وينظر إلى خفاجي.

"عبالك تعرفني؟".

"اشتغلت بالمديرية. تشنت أسوق سياراتكم يا معاتيه".

"صار زمن على هالحتشي. خاف متوهم؟".

"شكلك كبرت هواية عن ذيتش الأيام. صرت أصلع. بس مثل ما إنت. تشنا دايمًا نحتشي عن الشِّعر. عمري ما أنسى".

يَدعَكُ خفاجي رأسَه وينظر عبر النافذة.

حين يَقتَرِبُ مَوكِبٌ عسكريٌّ على الجانب الآخر من الطريق ينعَطِفُ كارل عبد الغفار سريعًا إلى اليمين، ثم إلى اليسار نحو طريقٍ جانِبيٍّ يُؤدِّي إلى النهر. وينعطف كارل في كُلِّ مَرَّةٍ يقابلان زحامًا ليتجنَّبه. يَمُرَّان بنقطة تفتيش في شارع الرشيد قبل محطَّة سيارات الأجرة، وقبل عبور الجسر. يَمُرَّان بفندق المنصور ومحطَّة التلفاز والمتحف والوزارات، ويَجِدان بعضها مُدمَّرًا والبعض الآخر سليمًا.

---

(1) مُجدَّدًا بالعامية العراقية.

فجـأة يُلقـي كارل شِـعرًا، ويعجـز خفاجـي عـن منـع نفسـه مـن الابتسـام.

إذا أَيقَظتَهم زادوا رُقادًا

وإنْ أَنهَضتَهُم قَعَدوا وثادَا

فُسبحانَ الَّذي خَلَقَ العِبادَا كأنَّ القَومَ قَد خُلِقوا جَمادَا

وهل يَخلو الجَمادُ عن الجُمودِ

لا يتطلَّب الأَمرُ أَيَّ مَجهودٍ من خفاجي ليردَّ بالمقطع التالي:

إليكِ إلَيكِ يا بَغدادُ عَنِّي

فإنِّي لَستُ مِنكِ ولَستِ مِنِّي

ولَكِنِّي إنْ كَبُرَ التَّجَنِّي

يَعِزُّ عَليَّ يا بَغدادُ

أَنِّي أَراكِ عَلى شَفا هَوْلٍ شَديدِ!

يـضرب كارل عجلـة القيـادة ويضحـك ضحكـةً مَكتومَـةً: "مـا شـاء اللـه! بعـدك تتذكَّـر معـروف الرصـافي، تشـنت أعـرف إنـه إنـت. شـنو هاليـوم وبعدنـا بالظهريـة!".

تقاطُـع 14 تمـوز ودمشـق عبـارَة عـن فسـحة واسـعة مـن الخرسـانة. الأمـرُ مُريـحٌ بشـكلٍ مـا أن الأنقـاض والقمامـة منتـشرة للغايـة هنـا أيضًـا. وتوجـد مئـاتٌ مـن البراميـل الزرقـاء، مُرتَّبَـة في صفـوفٍ ومجموعـات. بعضهـا مَهجـورٌ ومُلقًـى عـلى جانبـه، وبعضهـا ملفـوف بلفائـف مـن السـلك الشـائك الـذي يلمـع في الضـوء. وتلـفُّ حُشـودٌ مـن البَـشَرِ كُلَّ شيء.

"مـن صعـدت مـا صدقتـك لمـا قلـت التشريـع. تخـدع منـو؟ هسـه إسـمها المنطقـة الخـضراء. تشـتغل وياهـم، مـو؟ مِنَّـا مدخـل الخـدم إذا

تريد تطب الاصطبل. إذا ما قدرت، تلاقيني قاعد بالقهوة ذيتش الصفحة من الشارع. قهوة دجلة".

يُخرِجُ خفاجي محفظَتَه.

يسحب كارل يده ويقول: "لا ما أقبل. كرْوِتي[1] وَصَلت".

يحاول خفاجي أن يعطيه المال، لكن كارل يُصِرُّ: "تقدر تعزمني على تشاي بالقهوة أي وقت". يمدُّ يده إلى جيبه ويجد ورقة بالية. ثم يُدوِّن رقم هاتف: "هذا رقم البيت. ما عندي جوال".

"ولا حتى آني يا شايب". فيبتسم خفاجي ويتصافحان.

عبور الطريق ليس مَهمَّةً بسيطة. إذ يشقُّ خفاجي طريقه وسط البراميل والأسلاك، ويمضي متجاوِزًا السيارات ومُتفاديًا الأطفال الذين يلعبون على العربات المهجورة. يرسم قوسًا طويلًا حول التَّقاطُع ويصل إلى مَمَرٍّ من الأسلاك الشائكة والخرسانة. ولافِتَة عليها: "قِفْ مَكانَك! أظْهِرْ بطاقة هُويَّة! اتبعْ تعليمات الحراس".

تتحرَّك يَدُ خفاجي بلا وَعيٍ لتتحسَّس الأوراق التي في جيبه. ويتخيَّل للحظة أنه قد نسيها. يوجد صَفٌّ من السيارات وراء حائِطٍ من السلك الشائك المتلألئ. ويبرز الجنود من وراء أشولة الرمل والجدران الخرسانية. يوجد رسمٌ مونوجراميٌّ لحَرفَيْ الصَّاد والحاء -إشارَةً إلى القائد الأعظم- يتكرَّر كُلَّ متر ونصف تقريبًا على الجدران الخرسانية.

ويبدأ الطابور عند نهاية سياج الحظيرة. أو بالأحرى، يبدأ الإسفين الذي يصنعه المُصطَفُّون من الرجال والنساء والذي ينحشر بين الخرسانة ولفائف السلك. هناك تُحلِّق أكياس التَّسوُّق البلاستيكية في الهواء. ويحتشد العشرات عند البوابة، يُلوِّحون بأوراق وهم يحاولون

(1) أجرَتي.

جـذب انتبـاه الجنـود. ثـم يتراجعـون أو يختفـون بالداخـل، واحِـدًا تلـو الآخـر. عـدد المنتظريـن يبلـغ مائـة أو يزيـد عـن ذلـك، ويسـتندون إلى الجـدار أو يجلسـون في الظـل. ويحمـل معظمهـم أظرفًـا ومُجلَّـداتٍ بالِيَـةً في أيديهـم.

يهـرول خفاجـي إلى الأمـام، مُلَوِّحًـا بأوراقـه أمامـه، لكـن الآخريـن يُرجِعونـه.

"العفو. آني هنا حتى...".

يدفعه الرجل الذي بجانبه ويصيح: "امشي منّا".

يجلـس خفاجـي ويسـتند إلى الجـدار، لكـنَّ نَتانَـةَ رائحـة البَـوْلِ تدفعـه إلى الوقـوف. ثَمَّـةَ امـرأةٌ بجانبـه لا تنظـر إلى عينَـيْ أحـد، وبعـد بعـض الوقـت تـشرع بنشـيجٍ رقيـق. ثـم تبـدأ بالغنـاء لنفسـها: "اللـه يحفظنـا، اللـه يحفظنـا، اللـه يحفظنـا". إنهـا متشـبِّثة بصورَتَـيْن: واحـدة لرجـل في أواسـط العمـر، والأخـرى لفتـى مُراهِـقٍ لـه شـارِبٌ خفيـف. ربمـا التُقِطَـت الصورتـان الباهتتـان بالأمـس، أو ربمـا منـذ عَقـدٍ، لا يبـدو الأمـر واضحًـا. وفي النهايـة يصبـح نواحُهـا عويـلًا. ولا تتدخَّـل النسـوة الأُخرَيـات قبـل أن تبـدأ بـضرب صدرهـا. النَّشـيج لا يتوقَّـف، حتـى بعدمـا بـدأت تحـكي قصصًـا عـن زوجٍ وابـنٍ اختفيـا منـذ خمـس سـنوات.

يـأتي مُصـوِّرٌ ويبـدأ بالتقـاط صُـوَرٍ للمَـرأةِ والحشـود حولهـا. فيصيـح بـه أحـدٌ مـن أعـلى الجـدار: "امـشي منّـا! امـشي منّـا!". يرفـع كاميرتـه ويصيـح: "صحفـي! صحافـة! ماكـو مشـكلة!"، ويُلـوِّح بِشـارَةٍ مُعلَّقـة عـلى رقبتـه ويتابعـه خفاجـي وهـو يبتعـد. يتوقَّـف بـين الحـين والآخـر لالتقـاط صـورة. صـورة لأطفـال يلعبـون عـلى السـيارات القديمـة المركونـة، وصـورة للسـلك الشـائك، وصـورة للفـوضى.

تلتفـت المـرأة إلى خفاجـي حـين يُرهِـقُ نَحيبُهـا الجميـع. كان حينئـذ يجلـس عـلى الأرض ويُمَـدِّدُ قَدَمَيْـه ويميـل بشـدَّة عـلى الجـدار. كان يَدَّعـي

النوم، فيُبقي عينيه مُغلَقَتَيْن لأطول وقت ممكن. ويركِّز على قرقرة بطنه؛ فهي تساعده في تجاهُل كل شيء حوله. يبدأ الحشد عند البوابة في التَّقلُّص؛ إذ يفقد الناس الأمل واحدًا تلو الآخر.

يُفكِّر خفاجي بالشِّعر. يحاول أن يستدعي أيَّ بيت لنازك لكنه لا يستطيع. بل يفيض عليه "رصافي" مثلما حدث في التاكسي:

أَطَلتُ وكاد يُعييني الكَلامُ

مَلامًا دون وَقعَتِه الحُسامُ

فما انتبهوا ولا نَفَعَ الملامُ

كأنَّ القَومَ أطفالٌ نِيامُ

تُهزُّ من الجَهالَةِ في مُهودِ

تضرب الأبياتُ ذاكِرَةَ خفاجي دون أن تُسَبِّبَ أيَّ أذى، مثل شفرةٍ باردة في قبضة مُسِنَّةٍ مُرتَعِشَة.

1955

"إنتـو مـو كبـار. بعدكـم صغـار". كان هـذا كل مـا قالـه والدُهـما حـين دخـلا مـن البـاب. ذهـب محسـن إلى المطبـخ وطلـب مـن أُمِّـه كوبًـا مـن المـاء. حَملَقَـت إلى الطـلاء المرشـوش عـلى كل ملابسـه. ورأى أخـاه يجلـس عـلى الكـرسي حـين عـاد. ثـم سـمع صـوت والـده: "اقعـد محسـن، إنـت همـين".

جلس محسن هناك لدقيقة، خائفًا من أن ينظر.

"ماكو داعي أقول لكم ليش أنا عصبي، صحيح؟".

"لا يا يابا".

"منو بيكم يريد يقول لي شنو الغلط اللي سوَّيتوه؟".

تكلَّم حسن أوَّلًا: "كلهم بالمدرسة تشانوا...".

"كلهـم طلعـوا بالشـارع. مـو غلـط نتظاهـر ضـد الملـك. بالعكـس، هـذا تـصرف وطنـي. تريـد تحـاول مـرة اللـوخ؟".

لم يَقُل الوَلَدان شيئًا.

"دورك محسن. قول لي شنو الغلط اللي سويتوه".

"رسمنا ع الحياطين؟".

"ولا هذا غلط همين". ثم وقع سكوتٌ طَويلٌ بينما ينتظر والدهما.

"زين. تريدوني أقول لكم شنو الغلط؟".

"إي بابا".

"باعوا روحكم. كلكم صبغ. منو شافكم وانتو راجعين، ها؟ مريتوا ع الخباز؟ لو رجعتوا من غير طريق؟".

"مرِّينا بالخبَّاز".

"لعد فات الأوان. بس هذا تشان غلط. خلّوني أقول لكم شنو الغلط اللي سوَّيتوه. مو اللي تشنتوا طالعين على موده، بس الطريقة اللي تشنتوا تسوون بيها شي مال كبار. سويتوه مثل الجهَّال[1]. روحوا سبحوا. وانطوا ماما ملابسكم الوسخة".

رَنَّ جرس الباب بينما كان محسن وحسن في المرحاض. سمعا صوت والدهما يتحدَّث إلى أحد في المدخل لمدة عشر دقائق قبل أن ينغلق الباب أخيراً.

"طلعوا هسه بابا".

عند ذلك كانت أختهما قد عادت إلى المنزل. رأى مُحسِنُ الخَوفَ في عينيها وهما يدخلان الغرفة. كان والدهما يُدخِّن، وقال بصوتٍ مَهزوزٍ: "تريدون تسوون اللي عبالكم إنه صح؟ على الأقل سووه بشكل صحيح. سمعوني...".

وأَشجَعُ مِنِّي كُلَّ يَومٍ سَلامَتي
وما ثَبَتَت إِلّا وفي نَفسي أَمرُ

(1) الأطفال

تَمَرَّستُ بالآفاتِ حَتَّى تَرَكتُها

تَقولُ أَماتَ المَوتُ أَمْ الذُّعرُ...

لم يَنبَس أحدٌ ببنت شَفَةٍ. تبادل محسن وحسن النَّظَرات، ثم نظرا إلى والدهما.

"قولوا لي شي عن هاي الأبيات".

ردَّ حسن أولًا: "الشاعر يقول لازم نكون شجعان؟".

"لا. محسن؟".

"الشَّاعر يقول لازم نكون حذرين؟".

"هاي الأبيات كاملة؟".

لم يَرُدَّ الوَلَدان.

"ليش تجاوبون وانتو مو متأكِّدين إذا الأبيات كاملة لو لا؟ خلي أختكم تجاوب. رحمة؟".

"هذا بَحرُ الطويل، والأبيات كاملة التفاعيل. بس أكو تفعيلة ناقصة. أعتقد البيت يقول: تَقولُ أَماتَ المَوتُ أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ؟ ممكن يكون هذا منطقي نظرًا للتوازي بالبيت. هيتش تكمل الفجوة العروضية".

ابتسم والدهما إلى ابنته: "جيد. شنو بعد؟".

"أعتقد المتنبي هو صاحب الأبيات أو عَ الأقل هيتش أشوف. عمومًا ممكن يقصد إنه أثناء القتال، لازم نتحلَّى بالحذر الجريء، والجرأة الحذرة. ساعتها ما ممكن تُقهر. هذا النوع من المفارقات شائع عند الشاعر".

تَطَلَّع محسن وحسن إلى أختهما ثم إلى والدهما.

"أحسنتي. تخمين زين. هذا من مدح المتنبي لعلي بن أحمد بن عامر الأنطاكي. حسن ومحسن، روحوا لغرفتكم وفكروا شلون واحدكم أثول[1]. تريدون تعبرون عن روحكم؟ لعد اتعلّموا شنو الفرق بين عبارة كاملة وعبارة غير كاملة. بذاك الوقت تصيرون جاهزين".

(1) أحمق.

الأحد

30 نوفمبر 2003

يَنكزُ حذاءٌ خفاجي فَيدعَكُ عينيه ويترنَّح إلى أن يقف على قَدَمَيْه. يبدو أنه غفا، وقد عاد إليه صُداعُه.

يشير الجنديُّ الأمريكي بسلاحه: "امشي منّا".

يصيح خفاجي: "هذه نقطة التفتيش الثالثة، صحيح؟ يُفتَرَض أن أحضر إلى هنا اليوم"، قالها وهو يدخل قميصه ببنطاله ويساوي ياقته.

"لماذا؟".

"أنا أعمل لحساب الأمريكان. هذه أوراقي".

يُدقِّق الجندي في الأوراق التي بيد خفاجي. ربما يكون سِنُّه ثمانية عشر عامًا، إنه شابٌ مثل عُدَيّ. يلمس السماعة التي على خوذته ويتحدث. ولا يتبين خفاجي ما يقوله. بهذه البشرة البنية، ربما يكون عراقيًا، هكذا قال خفاجي لنفسه.

يُصَحِّـح خفاجـي مـا قالـه: "أنـا أعمـل لحسـاب سـلطة الائتـلاف المؤقَّتــة".

"اجلـس هنـا إلى أن أعـود. لا تتحـرك". ثـم يبتعـد. ويتطلَّـع خفاجـي فـيرى ظـلًّا يتحـرَّك عـلى الجـدار بالأعـلى.

يعـود الجنـدي ويأمـر خفاجـي بـأن يتبعـه. ويبتسـم الفتـى لأول مـرة حـين يصـلان إلى البوابـة: "طريقـك مـن هنـا".

تنفتـح البوابـة بمـا يكفـي ليدفـع خفاجـي نفسـه عَبرَهـا ثـم تنغلـق مُجـدَّدًا. يجـد نفسـه مُتقدِّمًـا عـبر مَمَـرٍّ ضيـق بـين جداريـن واقيـن مـن الانفجـارات. النبـات الوحيـد الـذي يـراه هـو مجموعـة مـن أشـجار النخيل الطويلـة، والخرسـانة تحتهـا مغطَّـاة بتَمـرٍ جـافٍّ.

يصيح صوت: "أوراقك". فيسلِّم خفاجي أوراقه إلى الرجل.

"اخلع سُترَتَكَ". فيخلع سترته ويضعها برفق على الأرض.

"ارفع قميصك". فيرفع قميصه، ثم قميصه الداخلي.

"استدِرْ"، فيستدير.

"ضـع يديـك عـلى رأسـك وباعـد بـين رجليـك". ويتحسَّـس الجنـديُّ جَسَـدَه.

يُومِـئُ الرجـل إلى خفاجـي: "إنـه تفتيـش روتينـي يخضـع لـه الجميـع، ولقـد انتهينـا. اجلـس عـلى الدكـة".

يُحَمِلـقُ خفاجــي إلى الإعــلان المُعلَّـق عـلى الحائــط أمامــه. انتبـاه: إن كانـت لـك حقـوقُ مِلكيَّـة يعـود تاريخهـا إلى مـا قبـل وصـول قـوَّات التحالـف إلى هــذه المنطقــة، ربمــا تكـون مسـتحقًّا للتعويـض. أحـضرِ بطاقـة هُويَّتِـكَ ونسـخة مـن عقـد الإيجـار (أو سـند الملكيـة)، مـع أي صـور للممتلـكات والأبنيـة، واذهـب إلى المجلـس المحـلي بجـوار محكمـة أبـو غريـب.

وفوقها مباشرة يوجد الاختصار صاد حاء مجدَّدًا في شكل قالَبٍ خرسانيٍّ.

يرى خفاجي الرَّجُلَ عائدًا، ثم يُغلِّف بطاقة هويته وأوراقه داخل جرابٍ شَفَّافٍ عليه كلمة "زائر".

"عَلِّق هذا برَقَبتِكَ حتى تحصل على بطاقة التعريف الدائمة".

يجد خفاجي على الجانب الآخر من البوابة الثانية أمريكيًا متوسط العمر ببدلة مَدَنيَّة ينتظره تحت غطاء من شِباك التمويه. يبتسم الرجل ويَمدُّ إليه يده. وحين يفتح فمه، تخرج منه لُغةٌ عربية: "السلام عليكم يا سيد محسن. أهلًا بك في العراق الحُرِّ".

إنها لغة عربية فصحى، على الرغم من اللمسة المصرية. يده كأنها حَجَرٌ بارد ناعم، وله ذَقنُ نَجمٍ سينمائي، وعينان عميقتان تدرسان خفاجي بتمَعُّن. ربما لا تتحرَّك شفتاه النحيفتان، لكنَّ فَكَّه لا يتوقَّف أبدًا عن مضغ العلكة.

"يَسرُّني لقاؤك. أنا هانك سيترون، ضابِطُ اتِّصال. كُنَّا بانتظارك مُبكِّرًا هذا الصباح".

"حاولت، بس...".

"إنهم يعملون على حَلِ المشكلة، لكن هذه هي الطريقة الوحيدة مؤقَّتًا لدخولك. نصيحتي لك أن تَصِلَ مُبكِّرًا قدر الإمكان. لن نبدأ مُتأخِّرين مُجددًا، اتَّفقنا؟".

يأخذه سيترون من ذراعه قبل أن يتمكَّن من فِعلِ أي شيء. لا يتحدَّثان مُطلَقًا وهما يتمشَّيان عبر الساحة الشاسعة من الأبنية الضخمة على الطراز البابلي البَعثيِّ والشوارع والأرصفة المكسورة واللافتات التي أحدَثَت بها الطلقات ثقوبًا. في البداية يرى خفاجي أشجار السنط والكينا الجافَّة التي يسيطر عليها اللونُ البُنِّيُّ أكثر من

الأخضر. ويجد نصف أشجار النخيل مقطوعةً من أعلاها، وأسفلها مُغطًّى بأكوام من أشياء تُشبِهُ الصراصير الميِّتَةَ أكثر ممَّا تُشبِه التَّمر. وتنتشر مقصوراتٌ وأكواخُ الحديقة وراء أَسيِجَةٍ مُهمَلة، ويمشي أشخاصٌ مُنفَصلين وفي مجموعات صغيرة، وتتدلَّى الأسلحة وراء ظهور بعضهم بلا مبالاة. وثمَّة سُحُبٌ من الطيور الصغيرة تدور حول منصَّة سميكة من الشجيرات وتملأ الهواء زعيقًا.

يرفع سيترون صوتَه ليغلب ثرثرة الطيور المتزايدة: "أَتُفَضِّلُ الإنجليزية يا سيد محسن أم العربية؟" وذقنه لا يتوقَّف أبدًا عن الحركة.

يُقرِّر خفاجي أن يَتملَّق الرجل: "شكلك تحتشي عربي زين. أصلك عربي؟". تزداد زَقزَقَةُ الطيور لتصبح صياحًا، وتمتد ظلالها بطول خطواتهما.

"درَستُ اللغة العربية في الكُلِّيَّة. ثم درستها أكثر بعد أن أَسلَمتُ".

يعتقد خفاجي أنه يجب تَجنُّبُ مُجادَلَةِ أيِّ شخص قَرَّر التحوُّلَ إلى الإسلام. فيومئ مُجدَّدًا ويحاول أن يبدو جادًّا.

يبدأ العشب في النُّموِّ كلَّما اقتربا من القصر الجمهوري، ثم يجدان حديقة الأشجار المُقلَّمة ثم الورود. بَدَت المدينة كأنها على بُعدِ كيلومترات حين وصلا إلى القصر. ولا يسمع خفاجي إلَّا نبضًا رقيقًا من مكانٍ ما أو من كل مكان.

يبدأ سيترون بالإفضاء إليه: "تَرَكتُ عملي لآتي إلى العراق. اعتَبِرْ الأمرَ شعورًا شخصيًّا بالواجب. أنتم أيها العراقيون بحاجَةٍ إلى أي مساعدة مُمكِنَة خلال هذه الفترة الانتقالية. وبصفتي مُسلِمًا، لديَّ دورٌ خاصٌّ لألعبه".

في الأفـق، يُسـمَع أذان ثـم أذان آخـر ثـم آخـر. وتسـكت الطيـور فجـأة كأنهـا كانـت تنتظـر إشـارَةً واحـدة.

"أعتقد إنت تعرف موضوع بنتي؟".

"نعم، نعم يا سيد محسن".

"أقدر...؟".

"بالتأكيد يمكنك. لكن أولًا ربما تكون جائعًا".

"آني صدق جوعان".

ينظـر الأمريـكي إلى سـاعته ويقـول: "لـو تريـد طعامًـا عراقيًـا، يمكنـك دائمًـا أن تجلـب شـيئًا مـن مَحَـلِّ الحاجِّـي، لديهـم بيتـزا أيضًـا. لكننـي أقـترح عليـك أن تذهـب إلى بي إكـس، ليـس بعيـدًا ويمكننـا أن نُعَرِّفَـكَ عليـه".

يُظهِـرُ سـيترون شـارَتَه إلى الحُـرَّاس ويأمـر خفاجـي بـأن يُقلِّـدَه حـين يصـلان إلى بنـاء قصـير مـن الخرسـانة والرُّخـام ولـه قُبَّـة. يخـرج سـيترون سـلاحًا لامعًـا عيـار 357 ملـم مـن جِرابـه ويضعـه عـلى الطاولـة وهـو يتقـدَّم عـبر كاشـف المعـادن، ثـم يعيـده إلى مكانـه.

لم يرفـض قَـصرٌ أبـدًا مالكيـه الجُـدُد، حتـى وإن أعطـوا انطباعًـا بأنهـم هَمَـج. إذ تصطـفُّ عـلى جانِبَـيْ القاعـة أدغـالٌ مـن الأثـاث المُنجَّـد والعُلَب الكرتونيـة. ولا تـزال الثُّرَيَّـاتُ القديمـة تتـدلَّى تحـت الأسـقف المَطليَّـة والمنقوشـة مـع أن كريسـتالاتها قـد اختفـت منـذ زمـن.

توجـد عـلى الجـدران صُـوَرٌ طبيعيـة مُلوَّنـة، حَجمُهـا أكـبر مـن المعتـاد. وثمَّـة غابـة كثيفـة عـلى أحـد الحوائـط يقطعهـا جـدوَلٌ أبيـضُ هـادِرٌ. وهنـاك أوديـة مُزهِـرَةٌ يُؤَطِّرهـا جرانيـت تُغطِّيـه الثلـوج عـلى حائـط آخـر.

وآخر عليه شاطئ استوائي. كذا توجد لافتات ملوَّنة: "حقن الإنفلونزا، مبنى 121"، "الحرية ليست مَجَّانِيَّة!"، "هيا أيُّها الباتس![1]".

يشقُّ خفاجي طريقة وسط حَشدٍ ويُحدِّد السِّمات المشتركة بينهم: كلهم شباب جدًّا، ولا أحدَ يمشي بيدين فارغتين، وكلهم يحملون أكوابًا ورقية لها أغطية بلاستيكية، وأجهزة إلكترونية.

يمرُّ خفاجي وسيترون عبر باب مُزدَوَجٍ في نهاية الرَّدهَة.

"داخل الفقاعة[2]، نطلق على هذا المكان اسمَ ديفاك، اختصارًا لمنشأة تناول الطعام[3]. ستجد كلَّ شيء تحتاج إليه هنا. كل شيء طازج ومشحون من الوطن".

تُغطِّي أحدَ الحوائِطِ شاشاتٌ تلفزيونيَّةٌ كبيرة تَعرِضُ القناة الرياضية نفسها، إلَّا شاشةً واحدة مُتمرِّدة تعرض حالة الطقس. ويعرف خفاجي خلال دقيقَةٍ نتيجة مباريات كرة القدم الأمريكية والطقس في سنغافورة وبرلين وواشنطن العاصمة. الشاشات مكتومة الصَّوت، وتُهرَع الكلمات أسفل كلِّ شاشة وتختفي.

"نأخذ الصواني من هناك"، يوضِّح سيترون وقد غَيَّر لُغتَه إلى الإنجليزية، "والخدمة هنا ذاتِيَّة. الطعام الساخن هناك. والسلطة والشطائر هنا. المشروبات غير الكحولية في البار".

يقف خفاجي وقد شَلَّه التفكير. يوجد لَحمٌ مُحمَّر ولحمٌ بارِدٌ، وخضار مُسوًّى بالبخار وأرز ومعكرونة وأنواع من الشوربة والحساء والسلطة والخبز والمشروبات والكعك وحلوى البودينج والمُثلَّجات. ويُقرِّر في النهاية أن يأكل شيئًا يبدو مثل لحم الضأن. يقترب منه

(1) عبارة تشجيعية معروفة خاصة بفريق "نيو إنجلاند باتريوتس" لكرة القدم الأمريكية.

(2) الفقاعة: أحد الأسماء المتداولة للمنطقة الخضراء.

(3) Dining facility وتُختَصَر إلى DFAC.

سـيترون ويُعلِّـق: "لـن تَـوَدَّ أن تـأكل ذلـك. تعـال هنـا وسـأريك مـكان اللحـم الحـلال".

يهـزُّ خفاجـي كتفيـه بـلا مبـالاة ويتبعـه، ثـم يحـاكي إيمـاءات سـيترون واحِـدَةً تلـو الأخـرى: يأخـذ تـلًّا مـن اللحـم المقلـي ثـم آخـر مـن سـلطة الكرنـب وكوبًـا كبـيرًا مـن الثلـج. يجلسـان إلى طاولـة مُربَّعـة. ويضـمُّ سـيترون أصابعـه ويُتَمتِـمُ شـيئًا بـين يديـه قبـل أن يلمـس الطَّعـام. ويبـدأ خفاجـي الأكلَ بالشَّـوكة. لكنَّـه يُقلِّـد سـيترون حـين يـراه يـأكل بيديـه.

تَمتلِـئُ الكافتيريـا بالنـاس. وبـين الحـين والآخـر يُلـوِّح أو يُومِـئُ أحدُهـم إلى سـيترون ويتفـوَّه ببضـع كلـمات. العُـمَّالُ في حركـة مُسـتمرَّة، يُزيلـون أغلفـة الطعـام ويمسـحون المناضـد، ويجمعـون الأطبـاق والأكـواب الفارغة. لا تتوقَّـف أياديهـم أبـدًا. ويلاحـظ خفاجـي أن كلهـم هنـودٌ.

"الحمـدُ للـرَّبِّ عـلى مـا أنعـم بـه مـن رزق"، قالهـا سـيترون بالإنجليزيـة وهـو يُمسِّـدُ بَطنَـه. ثـم يمسـح فمـه ويتفقَّـد سـاعته: "مـا رأيـك إن أخذنـا الحلويـات والقهـوة وذهبنـا إلى المكتـب مباشرة؟ سـنتحدَّث هنـاك".

"كـما تحـب"، ويلاحــظ خفاجــي أن فَــكَّ سـيترون أصبـح مشـغولًا مُجــدَّدًا. يأخــذه سـيترون إلى مائــدة كبـيرة مُمتَلِئَــة بالكعـكات ويأخــذ واحــدة. ويقــول خفاجــي: "تشــاي مــن فضلــك".

لا يوجد شاي في البار.

يعبَـسُ سـيترون ويُعلِّـق: "معـذرة لذلـك. يفـترض أنهـم يُقدِّمـون كُلَّ شيء. إنهـم لا يمنعـون شـيئًا". ويلقـي نظـرة خاطِفَـةً فـوق رؤوس العاملـين.

"شاي؟".

يتطلَّـع خفاجـي لـيرى رجـلًا أسـمر البـشرة لـه شَـعرٌ أسـودُ مَفـرودٌ ينظِّـف ماكينـات القهـوة. "سـأُحضِر كوبًـا مـن الشـاي في الحـال يـا سـيدي. لكنهـم أضافـوا إليـه السَّـكَّر والحليـب. آمـل ألَّا تكـون هـذه مشـكلة".

يراقبه خفاجي يدور حول المنضدة لينضمَّ إلى تَجمُّعٍ من الرجال ذوي البشرة البُنِّيَّة يسترخون على كراسٍ معدنيَّة. يلمح موقد كيروسين قديم عليه إبريق شايٍ نحاسيٍّ بالٍ يستقرُّ وراء مجموعة من الخِرَق وزجاجات المُنظِّفات والمكانس والمسَّاحات. ويعود الرَّجُل بكوبٍ وَرقيٍّ به شايٌ ساخنٌ، بالحليب، ويرتشفه خفاجي. سُكَّرُه زائِدٌ، لكنَّه شايٌ، وعليه حبَّهان. يعلِّق الهندي: "لدينا شايٌ دائمًا يا سيدي. تعال واطلبه في أي وقت. نحن في خدمتكم".

يجذب سيترون خفاجي من ذراعه مُجدَّدًا، ويمشيان بطول قاعة أخرى. وقبل أن يغادرا المبنى، يصيح رجل: "أما زِلتَ تُراهِنُ بخمسين يا سيترون؟ أَواثِقٌ أنَّكَ تريد الرهان ضد الباكرز[1]؟".

يصيح سيترون في المقابل: "ما كنتُ بهذه الثِّقَة قَطُّ!".

يمشيان لخمس دقائق قبل أن يَصِلَا إلى المبنى. "إنه القصر الجمهوري"، ويعجز خفاجي عن إخفاء الصَّدمَة في صوته.

"لا يحظى فريق إعادة الإعمار إلَّا بالأفضل. على أي حال، كان هذا الشيء الوحيد تقريبًا الذي اتَّفق عليه جارنر[2] وبرَيْمَر[3]، ومَن قد يختلف على هذا؟ أخرِجْ بطاقَةَ تَعريفِكَ، ستحتاج إليها هنا وفي أعلى الدَّرَج".

يتقدَّمان عبر نقطة تفتيش ويُخرِجُ سيترون مُسدَّسَه مُجدَّدًا. يقع المكتب في الطابق الثاني، والأمر فقط أنه ليس مكتبًا تقليديًّا. بل يبدو المكان في أغلبه ككهفٍ خاوٍ تحت سقفٍ تُغطِّيه أوراق الذهب،

---

(1) فريق "جرين باي باكرز" لكرة القدم الأمريكية.

(2) جاي جارنر" عسكري أمريكي متقاعد كان مشرفًا على أول هيئة لإعادة إعمار العراق عقب الغزو الأمريكي.

(3) بول بريمر" دبلوماسي أمريكي كان رئيسًا للإدارة المدنية المُشرفة على إعادة إعمار العراق بين عامَيْ 2003 و2004، وقد جاء خلفًا لـ "جاي جارنر".

وبه بضعة حواسِبَ وصَفٌّ طويل من خزانات الأوراق. وبغَضِّ النظر عن الحِزَمِ المُلَوَّنة من الأسلاك المُلصَقة بالأرض، لا توجد أمارات كثيرة على أن أي شيء ذي أهمية يحدث في هذه الغرفة.

ينهض رَجلٌ أَصهبُ في عشريناته من أمام أحد الحواسب حين يدخل خفاجي وسيترون. يُمسِّدُ بذلته الزرقاء بكلتا يديه ويعُرِّف نفسه. لكنه يتكلَّم بسرعة جدًّا لدرجة أن خفاجي لا يُميِّز اسمه.

يجمع سيترون ثلاثة كراسٍ حول طاولة صغيرة. ويضع العلبة البلاستيكية الشفَّافة التي بها الكعكة أمامه. يتقدَّم المساعد ليضع ملفًّا على الطاولة بجوار الكعكة. "لنجلس جميعًا. أيُّها المفتش خفاجي، دعني أبدأ بتكرار ما قلتُه لكَ في البداية: نحن حريصون على البدء. ليس لديَّ أي مواعِظَ لكَ؛ فأنت تعلم كم يحتاج هذا البلد إلى النظام والقانون. لقد تحدَّثتَ بالفعل إلى زملائنا؛ لذا أنتَ تعلم ما ننوي القيام به".

يسكت وينظر إلى عينَيْ خفاجي. يبدو وجه سيترون مختلفًا في الضوء، ولون عينيه أغمق. يبدو فَكُّه الآن أكثرَ استرخاءً بعدما توقَّف عن مضغ العلكة. أذناه أيضًا تبدوان صغيرتَيْن بالنسبة إلى رأسه. ويتساءَل خفاجي إن كانتا قد أضيفتا لاحقًا بعد تفكير. تعبث أصابِعُ سيترون بالعُلبَةِ البلاستيكية حتى تنفتح أخيرًا مُحدِثةً فَرقعَةً عالية.

"أريد أن أوضِّح شيئًا قبل أن نبدأ. بعضٌ مِمَّن نعمل معهم كانوا مُتَردِّدين بشأن العمل مع الجيش الأمريكي؛ لذا دعني أَقُلْ هذا من البداية، نحن لسنا الجيش. أنتَ لستَ مُجنَّدًا، ولستَ مُضطرًّا إلى حلف أيِّ قَسَم. هذا ليس الجيش الأمريكي أو حلف الناتو أو أي شيء من هذا القبيل".

"إذًا فمن أنتم؟".

"سُـلطَة الائتـلاف المُؤقَّتـة هـي الحكومـة المدنيـة العراقيـة. نسـتمدُّ سُـلطَتَنا مـن الأمـم المتحـدة، ولفـترةٍ مَحـدودَةٍ فقـط. وسَـنَحقِبُ أشـياءَنا ونرحـل بمجـرَّد أن تكـون لديكـم حكومـة؛ لـذا حـين تعمـل معنـا فإنَّـكَ تعمـل لحسـاب العـراق كـما كُنـتَ في المـاضي. أنـتَ مُوظَّـفٌ لـدى دولـة العـراق".

"حسنًا. ماذا تريدونني أن أفعل؟".

"مكتبنـا مُكلَّـفٌ بإعـادة بنـاء جهـاز الشرطـة العراقيـة بصفتـه قُـوَّة مدنيـة تحـت قيـادة مدنيـة منفصلـة تمامًـا عـن الجيـش والأمـن. وجهـاز الشرطـة العراقيـة مُسـتَقلٌّ بالكامـل، ومَـدنيٌّ بالكامـل، وعراقـيٌّ بالكامـل".

يبـدأ خفاجـي في إدراك مـدى شـعوره بالإرهـاق. يُحـاوِلُ أن يُركِّـزَ، لكـنَّ الصُّـداعَ لا يسـاعده. يَطـرَفُ بِشـدَّة، ثـم يتطلَّـع حولـه فـيرى مجموعـةً مـن أوراق اللَّعـب مُكدَّسَـة عـلى المكتـب حيـث كان الشـاب الأصغـر يجلـس. تبـدو كمنـزلٍ هَـشٍّ مائِـل.

"أيُّهـا المُفتِّـش خفاجـي، أَتَفهَـمُ لمـاذا يجـب أن يكـون جهـاز الشرطـة العراقيـة مُؤسَّسـة مَدنيَّـة بالكامـل؟".

"أريـد أن أعـرف سـبب حاجَتِكـم إلى شرطـة وأنتـم لديكـم بالفعـل جيــش".

"سأسَـعدُ بِخَـوضِ هـذا النقـاش الفلسـفي لاحقًا. لكـن أولًا دعنـي أُخبرَك بمـا يحـدث حاليًـا بمـا أن هـذا هـو سـبب جَلبِـكَ إلى هنـا. ستنتهي شركـة كيـه بي آر خـلال الأسـابيع القادمـة مـن بنـاء مخفَـرِ شُرطَـةِ بغـدادَ الرَّئيسـيِّ الجديـد. لم يُبْخَـلْ بـأيِّ نفقـات عـلى المخفـر الجديـد، وسيحتوي عـلى كُلِّ شيء قـد تحتـاج إليـه قُـوَّةُ شُرطَـةٍ في القـرن الحـادي والعشريـن. يقولـون إنـه سـيكون جاهـزًا للاسـتخدام بحلـول الأول مـن يونيـو، وهـذا حقيقـي".

"لا توجد شرطة. مَن تَظنُّون أنه سيعمل في المبنى الجديد؟".

"هنـا يـأتي دَورُكَ أيُّهـا المُفتِّـش. ستسـاعدنا في تجنيـد وإعـادة تدريـب أفضـل رجـال يمكننـا الوصـول إليهـم".

"لن يأتي أفضل الرجال للعمل لحسابكم".

"لقـد أتيـتَ أنـتَ، أليـس كذلـك؟ ولدينـا أسـباب للاعتقـاد بأنـك جَيِّـدٌ في عَملِـكَ".

"لم يقع الاختيار عليَّ لهذا السبب".

"لا يهم كيف وقع الاختيار عليك، المهم أن لديك ما يلزم".

"إذًا فأنا مسؤول عن التجنيد؟".

"ليـس في هـذه المرحلـة. سـتبدأ بفحـص المَلَفَّـات وتحديـد مَـن لا يـزال موجـودًا، وكيـف نجعلهـم يعـودون إلى العمـل. مـن دونِـكَ لـن نعـرف مَـن لديـه اسـتعدادٌ للعـودة".

يضحك خفاجي: "وتظنُّون أنني أعرف؟".

"اسـمَعْ أيُّهـا المُفتِّـش. هـذا مـا نريـده منـكَ. نريـد أن نُحـدِّدَ الرجـال المحترمـين وأن نقنعهـم بالعـودة إلى العمـل. لا نريـد أيَّ ثِمـارٍ فاسـدة. ولا نريـد أحـدًا مـن القسـم الخـاص[1] ولا أحـدًا مـن الجيـش. نريـد بصـورَةٍ أساسـيَّةٍ عنـاصِرَ مـن الشرطـة العراقيـة، وربمـا بعضًـا مـن عنـاصر الأمـن العـام إن كانـت سِجِلَّاتُهم نَظيفـةً كِفايَـة. وأنـتَ ستُسـاعِدُنا في تحديـد مَـن يَسـتمرُّ مِنهُـم. أنـتَ سَـتُراجِعُ القوائِـمَ اسـمًا اسـمًا، ونحـن سـنعمل معـكَ، ونَضمُّهـم إلى قائمـة مَـن ينتظـرون الجولـة الثانيـة مـن المُراجَعَـة".

يأخـذ سـيترون قَضمـةً مـن الكعكـة عـلى الطاولـة ويَمضُغُهـا قبـل أن يتابـع حديثـه: "لـن تكـون لدينـا قُـوَّةُ شُرطَـةٍ كامِلَـة بحلـول يونيـو. لكنَّنـا

(1) القِسـم الخـاص: فـرع أمنـي مُنبَثِـق عـن "جهـاز الأمـن الخـاص"، تـولىَّ مراقبـة الدوائـر اللصيقـة لصـدام حسـين، ويشـمل ذلـك: الكهربائيـين والجزاريـن والخياطـين والسـائقين والمصوِّريـن، وغيرهـم مـن العاملـين في القصـور الرئاسـية.

نأمل أن يكون لدينا ما يكفي من الضُّبَّاط في الشوارع بحلول ذلك الوقت لترى بغداد أن الشرطة قد عادت".

يضحك خفاجي مُجدَّدًا: "تريدني أن أجد لكم قائدًا جديدًا أيضًا؟".

يجيب المساعد: "لقد وجدنا أحدًا بالفعل لهذا المنصب. إنه عراقيٌّ أصليٌّ، وُلِدَ في بغداد. لم يصل بَعدُ، لكنَّه مِثاليٌّ لهذه الوظيفة. لقد عمل مع الشرطة في شيكاغو لعشرين عامًا. ويتحدَّث العربية بطلاقة، ويعرف كيف يعمل مع قادة الأعمال. لا أستطيع الإفصاحَ عن المزيد حتى يُصبِحَ الأمرُ نهائيًّا".

يميل هانك سيترون للخلف في مقعده، ويمضغ الكعكة بتكاسُلٍ. ينظر إلى مساعده ويأخذ نَفَسًا عميقًا ويمسح فمه. ينظر إلى خفاجي مُجدَّدًا وتهبط نبرة صوته: "هذا كلُّ ما تحتاج إلى معرفته حاليًا أيُّها المفتش خفاجي. إنَّ عَملَكَ قد حُدِّدَ لَكَ سلفًا، وأنا أحسدُكَ على ذلك. قليلون منَّا يكونون في المكان والتوقيت المُناسِبَيْن لإحداث تأثيرٍ تاريخيٍّ مُشابِهٍ لما ستفعله. لن يكون عَملُكَ في الأشهر القادمة سهلًا، لكن على الأقل أنت تعرف أنَّكَ تفعل الصواب". يُقاوِمُ خفاجي النومَ بصعوبة، لكنَّ المُحادَثَةَ أشبَهُ بِحَبَّة مُنَوِّم. يُحملِقُ إلى البطاقات مُجدَّدًا، لكنَّ عينَيْه تَعجزان عن التركيز. وأخيرًا يضع نهاية للمُحادَثة: "أعتذر، لَكِنَّني حقًّا مُتعَب. لقد طَلبتُ أن أرى ابنتي سابقًا. أيمكنني أن أراها الآن؟".

يُومِئُ سيترون: "بالتأكيد. كان يجب أن آخُذَكِ إلى هناك أولًا. اذهَبْ لترى ابنتَك، واحضِرْ مُبَكِّرًا غدًا لنبدأ بجدٍّ، حسنًا؟".

ويناول المُساعِدَ ورقةً من المُجلَّد الذي بين يديه. فيبتسم المساعد: "سأتَّصِلُ لترتيب زيارَةٍ لكَ الآن يا سيد خفاجي".

يقف سيترون ويُزيحُ الفُتاتَ عن بنطاله. وينظر إلى ساعته ثم إلى المساعد: "يجب أن أذهب قبل أن يقفلوا. سأعود بعد قليل".

تمـرُّ دقائـق ويغـادر المسـاعِدُ أيضًـا. ويتطلّـع خفاجـي مُتمعِّنًـا بالبيـت الورقـي الضئيـل وقـد أصبـح مُجـرَّدَ كَومَـةٍ عشـوائيَّةٍ مـن أوراق السـباتي والكوبـة والبسـتوني والدينـاري[1].

بعـدَ رُبـعِ سـاعَةٍ، يعـود سـيترون ومعـه حقيبـة دفـل[2] حمـراء. تُحـدِثُ صَوتًـا مكتومًـا يَـشي بالثِّقَـل حـين يتركهـا مـن يـده. فيعبـث بجَيبِـه بحثًـا عـن المفاتيـح، ثـم يفتـح دُرجًـا تحـت مكتبـه ويضـع الحقيبـة فيـه.

يتطلّـع سـيترون إلى خفاجـي بعدمـا تَذكّـر أن أحـدًا آخـر في الغرفـة، وقـد عـاد فَكُّـه إلى المَضـغِ بِشَراسَـة. يبتسـم ويقـول: "خفاجـي، كنـتُ أفكّـر للتَّـوِّ في أننـا سـنُوَفِّر لـكَ مكانًـا داخـل الفقاعـة. سيُسَـهِّل ذلـكَ حياتَـكَ كثـيراً، وحياتنـا أيضًـا".

"أين؟".

"هنا. داخل المنطقة الخضراء".

"نعم من فضلك، سيكون هذا مفيدًا".

"سـتتوفَّر بعـضُ المسـاكن في الحـي الجديـد الـذي أضيـف مؤخَّـرًا إلى المنطقـة الخضـراء. سيسـتغرق الأمـرُ بِضعَـةَ أيَّـامٍ حتـى نُرتِّـب ذلـك، ويعنـي هـذا أيضًـا أنـك سـتخضع لتحرِّيـاتٍ أكـثرَ دِقَّـة. وحتـى ننتهـي مـن ذلـك أقـترح أن نُرتِّـبَ لـك توصيلـةً صباحيَّـةً، وأخـرى مسـائية؛ فتَحَرُّكاتُـكَ سَـتُمثِّل بعـضَ الخطـورة".

"أظنُّ أن الأكثر أمانًا لي أن أتَّبِعَ ترتيباتي الخاصَّة للوقت الراهن".

"إن كُنتَ تريد سائقًا، يمكننا المساعدة في ذلك أيضًا".

---

(1) التَّسـميات العربيـة لأوراق الكوتشـينة: السـباتي (clubs)- الكوبـة (hearts)- البسـتوني (spades)- الدينـاري (diamonds).

(2) نوعٌ من الحقائب أسطوانيُّ الشَّكل، ومَصنوعٌ من قُماشٍ خَشِن.

يومئ خفاجي.

يصافحه سيترون: "لقد سَعِدتُ بلقائِكَ أيُّها المُفتِّش خفاجي. نحن مُمتنُّون للغاية لانضمامِكَ إلى فريقنا الصغير. سيُرافِقُكَ لويس الآن إلى المستشفى. لقد تَجاوَزنا ساعاتِ الزِّيارة، لكنَّهم يتوقَّعون مجيئك".

يتقدَّم خفاجي عبر القاعة مع المساعد ويَمُرَّان بغرفةٍ ضَخمَةٍ مُطابِقَة للَّتي كانوا فيها. يتطلَّع خفاجي ويتخيَّل أنه يرى الموصلي يجلس وظهره إلى الباب. صوت الموصلي هو ما يجعله يُبطِئُ. لكن ما يجعله يتجمَّد في مكانه هو الرجل الجالس قُبالَةَ الطاولة يُدخِّن ويشرب الشاي كأنه يجلس في بيته. يسكت الرَّجلُ في منتصف جُملَةٍ ويتَطلَّع إلى خفاجي الواقِفِ عند الباب. وحين يستدير الموصلي، كان خفاجي قد اختفى.

يمشيان لنصف ساعة، أوَّلًا عبر ظِلالِ القصر، ثم يخرجان إلى شوارع المنطقة الخضراء الخاوية. يسمع خفاجي والمساعد أكثرَ من مَرَّةٍ أشخاصًا في الأنحاء القريبة ينثرون المياه ويصيحون ويُغنُّون. لا بُدَّ أنها حفلةٌ حولَ مسبَحٍ. ينادي المُساعِدُ شخصًا في الظلام ويضحك إلى نفسه.

يلوِّحان بالبطاقَتَيْن التَّعريفيَّتَيْن عند باب المستشفى ويدخلان. ويصافح المساعدُ خفاجي في المدخل ويختفي. يتطلَّع خفاجي حولَه ويَجِدُ ممرِّضَةً تنظر إليه بارتيابٍ قبل أن تأمره بالصعود إلى الطابق الرابع. يضغط على زِرِّ استدعاء المصعد، لكنه يستسلم بعد الانتظار لعدَّة دقائق. يتقدَّم عبر مَمَرٍّ مُعتِمٍ وطويل بعد صعود السلالم. ويسمع المُمَرِّضَة الأمريكية وهي تشرح عند مكتب الاستقبال: "هذه الناحية لمرضانا. الناحية الأخرى للمدنيِّين العراقيين. بالتأكيد ابنَتُكَ هناك".

يبـدأ السـيرَ نحـو الأضـواء السَّـاطِعَةِ في الناحيـة الأخـرى مـن الرَّدهَـةِ الطويلـة. ويمـرُّ بِصَـفٍّ مـن الغُـرَف أبوابهـا مُغلَقَـة وخارجهـا حُـرَّاسٌ. يُحَملِقـون إليـه فيمُـدُّ الخُطـى. يَمـرُّ بغُـرَفٍ مُظلِمَـةٍ أبوابُهـا مفتوحـة عـلى مصراعيهـا. يسـمع مـن داخـل بعضهـا تَنَفُّسًـا مُضطَرِبًـا أو حفيـفَ الأغطيـة أو الطَّنـين الإلكـتروني للشاشـات. ومـن داخـل غُـرَفٍ أخـرى، لا يسـمع شـيئًا مُطلقًـا، لكنـه يـرى الوجـوهَ الجانبيَّـةَ الجامـدة لمُرافقـي المـرضى بجانـب الأَسِرَّة.

المستشـفى لا يـزال اسـمه ابـن سـينا، لكنـه ليـس ابـنَ سـينا نفسـه الـذي عَرَفـه مـن زيـارات سـهير؛ فالنوافـذ مُغلَقـةٌ، والأبـواب مُقفَلَـة، وعليهـا حراسـة، والخِزانـات تبـدو مُمتَلِئَـة بالأدويـة، والأطبَّـاء والمُمرِّضـات أمريكيُّـون، وأَلبِسَـتُهم المُوحَّـدَة نظيفـةٌ ومَكوِيَّـة. كـذا فـإن وجـود المُوَلِّدات الكهربيَّـة يعنـي أن الكهربـاء لا تضطـرب أبـدًا.

حـين يصـل خفاجـي إلى مكتـب الاسـتقبال في الطابـق الرابـع، يخـبره المُوظَّـفُ بـأن سـاعات الزيـارة قـد انتهـت. ينظـر خفاجـي وراءه إلى الغُـرَف التـي بنهايـة الرَّدهـة. وينظـر إلى ألـواح الكتابـة التـي عـلى المكتـب لـيرى إن كان يُميِّـز أيَّ شيءٍ عليهـا.

"أيُمكِنُكَ أن تُخبِرَني أين ابنتي؟".

"مَعـذِرة؟ آه، هممـم. لا يمكننـي كشـف المعلومـات الخاصَّـة بمرضانـا. يجـب أن تعـود خـلال سـاعات العمـل".

"لكننا اتصلنا للتو".

"لا أعـرف أيَّ شيء عـن ذلـك. أنـا آسـف". وبعـد بضـع دقائـق يُجـري الرَّجُـلُ مُكالَمـةً ويأمـر خفاجـي بالانتظـار. يقـرأ خفاجـي ملاحظـات عـلى لـوح إعلانـات عـلى الحائـط.

"زمالة مُدمني الكحول، مجموعة التعافي برمال بغداد، اللقاءات أيام الاثنين والخميس، الساعة السابعة والنصف مساءً. صفوف السالسا، من الثلاثاء إلى الجمعة. الساعة السادسة مساء بالمبنى الملحق 1". تمرُّ خمس دقائق قبل أن يظهر جُنديَّان من المدخل، ويُصِرَّان على مرافقة خفاجي إلى البوَّابة الأمامية.

في طريقه إلى البيت بسيارة الأجرة يُغلِقُ خفاجي عينيه ويعود إلى المشهد الذي رآه في مقرِّ قيادة سلطة الائتلاف المُؤقَّتة، لقد كان عزت إبراهيم الدوري" يشرب الشاي مع المنفيين. كيف يُعقل ذلك؟ يُفترض أنه يختبئ مع صدام. ويُطلِقُ زَفيرَ استنكارٍ كُلَّ بضع دقائق، وفي كل مرة يُحَملِقُ السَّائِقُ به.

1960

هَبَـطَ المُعلِّـم بعينَيْـه إلى الكتـاب المَـدرسيِّ الـذي عـلى المكتـب، ثـم تحـدَّث إلى الفصـل: "القصيـدة التاليـة في كتابنـا هـي تُحفَـةُ ابـنِ الرُّومـيِّ عـن دَمـار الحـرب. يَصِـفُ في هـذه القصيـدة كيـف أن الزِّنـجَ قـد أَحلُّـوا الدَّمـار بمدينـة البـصرة العظيمـة، وكيـف دَمَّـر الثُّـوَّار مَدارِسَـها ومسـاجدها. والآن سـتلاحظون تَناقُضًـا بـين الصـور الجميلـة في الأبيـات وقباحَـةِ موضوعهـا، وهـو المـوت والدمـار. فكِّـروا في هـذا".

امتـدَّ صِيـاحُ الطُّبشـور بطـول السَّـبُّورَة بعدمـا شَرَعَ المُعلِّـمُ في كتابـة أبيـاتٍ مـن منتصـف القصيـدة. فغطَّى مَعظَـمُ الطُّلَّابُ العسـكريُّون آذانَهم وهـم يتبادلـون نظـرات الاسـتنكار، مثلـما يفعلـون في كل دَرسِ شِـعر. بينـما رَكَّـز محسـن عـلى الكلـمات المُطَبـشَرَة وهـي تُرسَـمُ عـلى اللـوح الأسـود.

بُدِّلَت تِلكُمُ القُصورُ تِلالًا

مِن رَمادٍ، ومِن تُرابٍ رُكامِ!

سُلِّطَ البَثْقُ والحَريقُ عَلَيها

فَتَداعَت أَركانُها بِكُلِّ انْهِزامِ

لم يُـدرِك محسـن أن فمـه يتحـرَّك حتـى خرجـت الكلـماتُ منـه: "تَقصِد بانْهِـدامٍ، مو؟".

اسـتدارَ المُعلِّـمُ بِبُـطءٍ وحَملَـقَ باسـتنكارٍ. تَحـرَّكَ فَـمُ مُحسـن مُجـدَّدًا: "أسـتاذ، دا تقصـد، فتَداعَـت أَركانُهـا بانْهِـدامٍ؟".

تـرك المُعلِّـمُ الطُّبشـورَ وخَطَـا إلى مَكتَبِـه. لمَسَـت أصابِعُـه بحركَـةٍ عفويَّةٍ قِمَّـةَ كابِـه النِّظامـيِّ قبـل أن يتكلَّـم: "بلـكي الطالـب العسـكري محسـن يريـد يقـول إلنـا ليـش قاطَـع درس اليـوم؟".

"سـيدي، إذا مـا خانتنـي الذاكـرة، الكلمـة الأخـيرة بالبيـت هـي بانْهِدامٍ. مـا أقصد الإسـاءة سـيدي".

نظـر المعلـم إلى كتابـه المـدرسي ثـم تطلَّـع إليـه مُجـدَّدًا، وقـد بـدا الغضـبُ أكـثرَ حِـدَّة عـلى جبينـه: "تشـنت راح أسـامحك لـو كلامـك صحيـح. بـس لـو باوعـت للكتـاب، راح تلقـى الكلمـة هـي بـكل انهـزامٍ".

نظـر الطَّلَبـة الآخـرون إلى الصفحـة ثـم إلى محسـن: "العفـو سـيدي. بـس أعتقـد أكـو خطـأ بالكتـاب".

"ليش يعني؟".

"ما دا تناسب بحر الشعر سيدي".

تَحوَّلَـت أصابِـعُ المُعلِّـم أمـام الصَّـفِّ إلى عَـدَّادٍ غريـب وهـو يقـرأ البيـتَ بِبُـطءٍ وبصـوتٍ مُرتَفِـع.

"لا، تناسبه كلش. شكرًا للطالب العسكري. أمَّا بعد".

"الصَّراحـة مـا تناسـبه سـيدي. هـو بحـر الخفيـف، مـو هيتش؟ اسـمع". ولاح الخطـأ في الكتـاب وهـو يقـرأ الكلـمات عـلى الصَّفِّ.

"كلمـة بانهـدام مـو بـس أكـثر منطقيَّـة لسـياق المعنـى، هـي همـين تناسـب البحـر الشـعري بهـاي الحالـة سـيدي. وهـذا جـزء أسـاسي مـن التناقـض بالقصيـدة. اسـتخدام بحـر الخفيـف بحـدث تشـبير مثـل هـذا".

جلـس المعلـم في مقعـده وقـد احمـرَّ وَجهُـه، وأغلـق الكتـاب: "إنـت لازم تتعلـم أساسـيات الاحـترام يـا محسـن، أيهـا الطالـب العسـكري، حتـى لـو عبالـك وجهـة نظـرك صحيحـة. اتفضَّـل لمكتـب المديـر".

الاثنين
1 ديسمبر 2003

يستيقظ خفاجي بصُداعِه، ويؤذي ضوءُ المِرحاضِ عينَيْه فيطفُئه ويَحلِقُ في الظَّلام.

يغادر سريعًا دون أن يعدَّ الشاي، وقبل أن يسمع أيًّا من تَحرُّكات جيرانه. يلقي التحية على اللحى الجالسة عند باب البناية. لقد كان الرِّجالُ بالِغي الأدَبِ حين وصل ليلةَ البارحة، وهؤلاء أكثر منهم أدبًا؛ إذ يقفون له ويُحيُّونه وهو يَمرُّ. ويشعر بالارتياح حين يصل إلى نهاية الشارع.

يتجوَّل خفاجي كثيرًا قبل أن يبحث عن تاكسي. وحين يصل إلى البوابة الأمامية، تخبره الحشود الصغيرة أنه بحاجة إلى أن يُبكِّر أكثر من ذلك. كان جائعًا؛ فأَكَلَ شطيرةَ فلافل سميكة بصلصة العمبة[1] في مطعم حيدر دابلز.

(1) صلصة حارَّةُ الطَّعم،شائعة الاستخدام في الطعام العراقي، تُصنَع من ثمرة المانجو. جلبها للعراق التُّجَّار اليهود العراقيُّون من الهند عبر تجارتهم ما بين بومباي والبصرة.

أخذ خفاجي معه هذه المرَّةَ كتابًا من أجل أوقات الانتظار. ويدرك حين يحتلُّ مكانه في الطابور وينظر إلى الغلاف أنه أخذ الكتابَ الخطأ من الأكوام التي على الأرض. هذا ليس ديوان "الجواهري"، وليس حتى كتاب شعر. بل هو تأريخ لثورة القرامطة ضدَّ الخلافة. شرَعَ خفاجي بانزعاجٍ وبلا حماس في قراءته عن الأفارقة والفارسيِّين الذين -وفقًا للمؤلِّف- أنشؤوا دولةً طوباوِيَّةً استمرَّت لأكثر من مائة عام. تبدو قراءة النثر أحيانًا كأمرٍ مُرهِقٍ حتى من دون الصُّداع، وإن كانت القصة جيِّدة، وهذه المرة ليست استثناءً؛ فالكلمات تَتَهزهَزُ وتتلوَّى على الصفحة، وتعجز عينا خفاجي عن متابعتها. فيغلق الكتاب ويفرك صُدغيه. لا يتذكَّر سببَ امتلاكِه لهذا الكتاب من الأساس. لكنه ينظر إلى عنوانه فيتذكَّر. كان ذلك في ربيع عام 1985، قبل عامين من تجنيد عُدَيّ. يحكي الحضور في حفلة عشاء كيف أن لا شيء تغيَّر، ولا شيء سيتغيَّر أبدًا. إنه نوعٌ مألوفٌ من المحادثات المُشفَّرة عن كيف أنَّ لا شيء من الداخل يمكنه أبدًا أن يُزيح النظام، وكيف أن لا أحد من الخارج سيكون غبيًّا كفايةً ليُجرِّبَ ذلك. تُجرَى محادثاتٌ مثل هذه عادَةً داخل الأُسَرِ فقط أو بين الأصدقاء المُقرَّبين. لكن هذه المرة مختلفة؛ فقد حضر أستاذُ تاريخٍ من دمشق في تلك الليلة. وبدأ كُلُّ ذلك بسؤاله إذا ما كان النظام بالفعل مُحصَّنًا ضدَّ الانقلابات مثلما يُقال. وأمام استفزازاته والخمر، سابت الأَلسِنَةُ التي تعتاد التَّحفُّظ.

سأل أحدُهم الأستاذَ الجامعيَّ عن عمله فبدأ مُحاضَرَةً عن القرامطة. ظلَّ يُصرُّ على أنهم أوَّلُ مُسلمين بأيديولوچيا مُناهِضَة للإمبريالية. فروى أحدُهم القصصَ الشَّائِنَة عنهم. مثل الحكايات عن تدنيس الحرم، وارتكاب مذابح ضدَّ قوافل الحُجَّاج، وعِبادة النار. لكنَّ الأستاذ اعترض: "لا لا لا! هيدي كلها أكاذيب الدولة العباسية!"، ولم يَتوانَ عن التوضيح: "اسمعني منيح، الإسلام هو الدين الوحيد اللي

اتأسَّس كدولة. وشو بتعمل الدول؟"، ونظر حوله إلى الآخرين الذين يحملون كؤوس النبيذ والسكوتش.

"بتتمدَّد وتغزو، وتحتل وبتضم. وتمحي ياللي بيتجرأ ع المقاومة".

"دا تقول إنه الإسلام تشان إمبريالي؟".

"مو متل البريطانيين والأميركان. كان ممكن الإسلام يصير متلن لو ما تعرَّض للهجوم والتخريب من جوًّا. هاي الحركات اللي متل الزنج والقرامطة إلْهُن مَهمَّة معيَّنة، هدولي كانوا أول مسلمين تحدَّوا الشخصية الإمبريالية للدولة الإسلامية. القرامطة تشاركوا ممتلكاتهم مشاعي، وقرارهم اتخذوه جماعي. وما بين محاولة قمع ثورة العبيد بالجنوب ومحو القرامطة بالخليج، صارت الجبهة الشمالية للدولة العباسية مفتوحة بالكامل على مصراعيها ومعرضة للهجوم. بنتذكر المغول؛ بس بننسى إنهن ما كانوا يقدروا يغزوا بغداد لو ما كان العباسيين مشغولين بحملات مكافحة التمرد بالجنوب".

"لعد زين، ماكو شي عدل حتى نشكرهم عليه. مو هيتش؟". كانت سهير هي مَن عارَضَت الرَّجُلَ بهذه النقطة، "أقصد ليش نحتفي بيهم إذا تشانوا مسؤولين عن تدمير مدينتنا بعد مجدها؟".

دفع الأستاذُ نظارته على منخاره وتابع: "إحنا متعودين كتير نحتفي بالعباسيين للدرجة ياللي بتنسينا الواقع اللي خلَّى إنجازاتهم مُمكنة. عم ننسى الشرطة السرية والانقلابات وقمع المعارضة. القرامطة كانوا ناس مضطهدين بنوا كوميونة ظلت أكثر من مائة سنة. لهيك شي لازم ندرسهم ونتذكرهم. العباسيين سقطوا وهم عم بيحاولوا إخماد حركة ديمقراطية شعبية، وإحنا لازم نحزن ونحس بالأسى كِرمالْهُن؟ الشَّغلة كلها إذا بِدْكُن تحتفوا بالخلفاء القوايا وجيوش العبيد تبعهن، أنا عن حالي بفضَّل أحتفي بهوليك ياللي ناضلوا منشان عالم أفضل".

اقـترح أحدُهـم نَخبًـا مـن أجـل ثُـوَّار الأسـتاذ الدمشـقي، ورفـع الجميـع كؤوسـهم وابتسـموا. بعدهـا شـعر الجميـع بالإحـراج، أو عـلى الأقـل خفاجـي. لكـن في الأسـبوع التـالي وجـدت سـهير نسـخة مـن كتـاب الرَّجُـل وقرأتهـا. ثـم كتبـت في صفحـة العنـوان: "احتفـاءً بماضينـا المناهـض للإمبرياليـة!"، وأعطتـه لـخفاجي. واليـوم شَـقَّ الكتـابُ طريقـه إلى يَـدَيْ خفاجـي، إنهـا قـراءة مثاليـة لأي شـخص يقـف عـلى بوابـات إمبراطوريـة.

يتحـرَّك الطابـور سريعًـا ويضطـرُّ خفاجـي إلى رفـع عينيـه عـن الصفحـة كلَّ بضـع دقائـق ليتقـدَّم خطـوة. وفي وقـتٍ مـا يعـود المُصـوِّر نفسـه الـذي كان البارحـة، يتبخـتر عـلى الناحيـة المُقابِلَـة مـن الشـارع ويلتقـط صـورًا للسـيرك الـذي يُنصـب في أنحـاء الميـدان مـن زحـام المـرور والباعـة وعرباتهـم والأطفـال اللاهـين عـلى أكـوام الحُطـام وطابـور مُقدِّمـي الطلبـات عنـد البوابـة. وبعـد بضـع لحظـات يظهـر أحـدٌ أعـلى المتاريـس ويأمـر المُصـوِّر بالمغـادرة. فيختفـي مثلـما ظهـر.

يخلـع خفاجـي معطَفَـه عنـد البوَّابـة الخارجيـة ويمـرُّ. ويجـد بطاقـة تعريفيـة في انتظـاره عنـد البوابـة الثانيـة.

يقول له الرجل: "عَلِّقها حول عُنُقِكَ دائمًا".

تبـدو المنطقـة الخـضراء في نـور الصبـاح ظمآنـةً ومُهمَلَـةً أكـثرَ مـن اليـوم السـابق. ويمـرُّ خفاجـي بـبروزٍ صَخريَّـة، ثـم قَفَـصٍ كبـير مهجـور، فيقـف ويشـعل سـيجارة.

"حديقـة حيـوان القـصر. فاتتـك شـوفة الفهـود يـا أخويـا". يسـمع خفاجـي اللغـة العربيـة فيسـتدير ليبتسـم للرجـل الواقـف وراءه. إن كانـت بذلتـه الأوفـرول وخُفُّـه البلاسـتيكي لا يَشِـيان بأنـه البسـتاني، فـإن المِجَـزَّات التـي يحملهـا بالتأكيـد تكشـفه. يشـعل خفاجـي لـه سـيجارة.

"تشـنت هنـا يـوم شردت الحيوانـات، تصـدق؟ تشـانت جوعانـة. ظلـت تعـوي عبالـك واحـد شـق بطنهـن عقـب مـا ظلـن بلايـا أكل أسـابيع. أكـو

فـد واحـد فتـح البوابـة وشِردَن بالبسـاتين ووصلـن القـصر، وراهـا ماكـو أحـد شـافهن تشـم أسـبوع. بأيـار، الأمريـكان لزمـوا[1] اثنـين منهـن عنـد المسـبح واحتفظـوا بجلودهـن تـذكار".

يبتسـم خفاجـي ويشـكره. كان بالـكاد قـد وصـل إلى ابـن سـينا حـين سـمع أحـد ينـادي: "أيهـا المُفتِّـش خفاجـي!"

يلتفت فيرى سيترون يرتدي سروالًا قصيراً وحذاءَ جَرْيٍ.

"السـلام عليكـم أيهـا المفتـش خفاجـي! أنـا سـعيد بهـذه المُصادَفـة. سـأحضر إلى المكتـب سريعًـا فهنـاك شيء يجـب أن أخـبرك بـه. الأمـر عاجـل".

ينظر خفاجي إلى مدخل المستشفى ثم إلى سيترون.

"أيمكن أن ألقاك بعد أن أزور...".

"لا، هذا لا يحتمل الانتظار".

حـين يصـل خفاجـي إلى المكتـب لا يجـد سـيترون هنـاك ولا مسـاعده. بـل يجـد جُنديًـا بالـزِّيِّ المُوحَّـد يجلـس وراء مكتـب فـارغ بجـوار البـاب. ويقـف حـين يدخـل خفاجـي ويصافحـه بقـوَّةٍ جـدًّا لدرجـة إيلامِـه.

"نعم، أنا المفتش خفاجي".

يتحدَّث الرَّجُلُ بسرعة شديدة لدرجة أن خفاجي لا يُميِّز اسمه.

"سيترون يريدك أن تبدأ بهذه".

"لقد قيل لي إنه يريد مُقابَلتي".

"سـيصل في أي لحظـة"، ويشـير الرَّجُـلُ إلى كَومَـةٍ مـن الملفَّـات عـلى أحـد المكاتـب، ثـم يُسـلِّم خفاجـي مفتاحًـا ويشـير إلى مجموعـة مـن

(1) أمسكوا باللهجة العراقية.

خزانات الملفَّات الطويلة، "حين تنتهي من الملفَّات التي على مكتبك، ابدأ من هناك على اليسار. أخبرني إن احتجت إلى أي شيء".

يقضي خفاجي ساعةً في فحص ملفَّات الضُّبَّاط مُتوسِّطي الرُّتَب من الأَفرُعِ المختلفة بالشرطة والأمن. ولا تساعده هذه المَهمَّةُ في التَّغلُّب على شعوره بالنبض في دماغه. معظم الأسماء لا يعرفها مُطلَقًا، وبعضها يعرفها بالسُّمعة. وهناك آخرون عمل معهم. يجد نفسه يغفو ويصحو أكثر من مرَّة، وتبدأ الصور والمعلومات الشخصية في التسرُّب من الصفحات والانتشار مثل البقع على أنحاء المكتب. أين هم الآن؟ الصُّوَر أغلبها منذ سنوات. أغلبهم لديهم شوارب والبعض يرتدون النظارات، وهناك اثنان مُصابان بالحَوَل، لكنْ تَجمَعُهُم كُلَّهم النَّظرَةُ نَفسُها إلى الكاميرا. إنها النظرة التي تشي بفراغِ أَعيُنِهم، أكان ذلك خوفًا أم تَحدِّيًا؟ لكن هذه هي صُوَرُ الضُّبَّاط الذين اختفوا. إنهم مئات من الضباط، لقد رحلوا أو أُجبِروا على الفرار أو احتُجزوا أو اختفوا.

يَفرُكُ خفاجي عينيه ويعيد التركيز على الملف التالي: يزيد العامري، إنه مُلازِمٌ بجهاز الأمن الخاص. يُثنِي الملفُّ على لياقته البدنية، وقد أتمَّ ثلاثَ دورات تدريبية في مدرسة الإعداد الحزبي. له مقالان: واحِدٌ عن العراق، بوصفه القائِدَ الطبيعيَّ للأُمَّة العربية، والآخر عن الصهيونية. تُظهر الصورة الأولى من السبعينيات رجلًا صغيرًا نَحيلًا له شَعرٌ أسود كثيف، وشارِبٌ رقيقٌ، وعينان سوداوان لامعتان. يميل إلى الأمام باتجاه الكاميرا وتمتدُّ رَقَبتُه وذقنه نحو العدسة. تعود آخِرُ صورَةٍ إلى عام 1995، وتُظهِرُ الرَّجُلَ النحيل نفسه، ولكنه أكبرَ سِنًّا ولم يَعُد يميل باتجاه الكاميرا. يرجع آخر تحديث إلى يناير، ويُوَضِّح أنه يخدم في مدينة الكرمة بمحافظة الأنبار. إن كان هذا صحيحًا، فإنه لم يَعُد صحيحًا الآن. لا شيء بوجه العامري يشي بالمكان الذي قد يذهب إليه. كلُّ واحِدٍ من هؤلاء الضُّبَّاط ذهب إلى مكانٍ ما. بعضهم ذهب

إلى أماكِنَ لا يستطيع أحد تَتبُّعَهم إليها. لَكِنْ لِحَظِّي أنا، حسبما يقول لنفسه، كان يمكن أن يوجد أحدٌ آخرُ في هذا المكتب اليوم، ينظر إلى صورتي وملفِّي ويطرح التساؤل نفسه.

ينتهي من كومة الملفات ويأخذها إلى الخزانات ويحاول أن يعيدها إلى أماكنها. لكن الأمر ليس بهذه البساطة؛ إذ يبدأ بفحص تسميات الملفَّات آمِلًا أن يفهم طريقة ترتيبها. توجد مَلفَّاتٌ من جهاز الشرطة العراقية مُختَلِطَة بملفَّاتٍ من مديرية الأمن العام وبعض ملفَّات الأمن الخاص، بالإضافة إلى مَلَفَّيْن من الاستخبارات العسكرية. لا يبدو الترتيب منطقيًّا، ليس فقط لأنه يبدو عشوائيًّا، بل لأن أيًّا مَن رَتَّب هذه الملفَّات قد عمل بجدٍّ ليُرَتِّبَها بهذه الطريقة تحديدًا. يترك خفاجي مُلاحَظَةً وينظر إلى ساعته، ويضع رأسه على مكتبه للحظة.

يستيقظ خفاجي بمجرَّد أن يدخل سيترون والمساعد.

"صباح الخير أيُّها المُفتِّش! ما أخبار العمل؟".

يَفركُ عينيه ويبتسم. وبعد دقيقة يجيب: "قراءة مُمتِعَة".

"تَوقَّعتُ ذلك. تحتاج إلى بعض القهوة؟".

"لا شكرًا، أنا مستيقظ".

"وجدتَ شيئًا؟".

"لن أستطيع أن أجد شيئًا حتى أعرف المزيد عن مصدر هذه الملفَّات".

يذهب المساعد إلى مكتبه ويفتح حاسوبه.

يجذب سيترون كرسيًّا بجوار خفاجي.

"ماذا تقصد؟".

"يجب أن أفهم سبب ترتيبها بهذا الشكل".

"لقد قيل لنا إن المَلَفَّات جاهزة للفحص، أليست كذلك؟".

"لكنَّ الملفَّ لا يعني الكثيرَ بمُفردِه. تحتاج إلى فَهمِ الأرشيف كفِكرَةٍ عامَّة قبل أن تتمكَّن من قراءة الأجزاء المُكَوِّنة له".

يضحك سيترون: "ها نحن ذا إذًا، نخوض هذا النِّقاشَ الفَلسفيَّ في النهاية. سأنقل أسئلتك إلى من أعطونا السجلات. لكن في تلك الأثناء، أريدك أن تُركِّزَ على قراءتها على حالها".

يفهم خفاجي أن سيترون يريده أن يوافق، بل يحتاج إلى موافقته؛ لذا يومئ بالموافقة. ويأتي المساعد ويجلس ثم يُمرِّرُ يَدَه تحت ربطة عنقه الحمراء.

قال سيترون: "البارِحَةَ سألتَني لِمَ تحتاج إلى قُوَّة شُرطَةٍ إن كان لديك جيش".

"لا، سألتُكَ لِمَ تحتاجون أنتم إلى الشرطة...".

"أتعتقد أن العراقيِّين قادرون تمامًا على حُكم أنفُسِهم ديمقراطيًّا؟".

يهزُّ خفاجي كتفيه: "بالتأكيد".

"أتعرف أن في بلدنا أشخاصًا كانوا مُعارضين لفكرة أن نُحرِّرَكم من الاستبداد؟ بعضهم قال -ولا يزالون يقولون- إن الثقافة العراقية غير مُتوافِقَة مع الديمقراطية".

"هذه مشكلتهم".

"هناك أُناسٌ في بلدي يريدون لهذه التجربة الفشلَ أَيُّها المُفتِّش، وآخرون في بَلدِكَ أيضًا. بعض الأشخاص في بلدي يقولون إن الديمقراطية الغربية لا مكانَ لها في مُجتَمَعٍ إسلاميٍّ، والبعض في بَلدِكَ يقولون الشيء نفسه".

"يا للمُفارَقَة".

"يجب أن نُثبِتَ للمُشَكِّكين خَطَأَهم. يجب أن نُرِيَهُم أنَّنا على حَقٍّ. يجب أن نُثبِتَ أن العراقيين يمكنهم أن يَحظَوا بالديمقراطية أيضًا، يجب أن نُحقِّق انتصارنا".

يتدخَّلُ المُساعِدُ: "سيد خفاجي، لدينا في بلدنا شيءٌ يُسمَّى بالسوق الحر. نعتبر وجوده مَضمونًا مُعظمَ الوقت، ولا نُفكِّر حتى في مدى عَظَمَتِه. نحن محظوظون لأننا نستطيع اعتبارَ وجوده مضمونًا. وسيبدأ العراقيُّون حين يجرِّبونه بالشعور بأن العراق بلدهم، على الأرجح لأوَّلِ مَرَّةٍ في حياتهم. حينها سيعرفون شعور الحرية".

يُقِرُّ خفاجي: "ما فكَّرت بهذا قَطُّ"، ثم يندم على الفور؛ فالخُطَبُ الرَّنَّانةُ لا تنتهي إلا حين يُصَدُّ قائِلُها.

"وكل هذا يبدأ بالنظام والقانون. لا يهم كيف ترى الأمر، مفتاح الأُحجِيَة دائمًا هو سيادة القانون؛ لهذا من المِحوَرِيِّ للغاية أن تُقرِّر أن تكون مُؤثِّرًا. فمن دونك ما من فرصة لاستعادة هذا البلد. نحن نفهم ذلك، والإرهابيُّون أيضًا يفهمونه؛ لهذا يُركِّزون هجماتهم على الشرطة. وبمجرد أن تقف الشرطة على قدميها، ستغادِرُ قُوَّات التحالف. وكلَّما رأى العراقيُّون هذا بسرعة، كلَّما أدركوا أن بلدهم قد عاد إليهم. وهذا هو بيتُ القصيد، أن يعرف العراقيين أن من الآن وصاعدًا هم المسؤولون. وسيَفهَمُ العراقيُّون حين يرون الشرطة العراقية في الشوارع أن سُلطَةَ الائتلاف المُؤقَّتة تعمل لصالحهم وليس لصالح الأُمَمِ المُتَّحِدَة أو أمريكا، أو أيٍّ كانت المُؤامَرَة التي يتخيَّلونها بشأننا".

يميل سيترون إلى الأمام ويتابع: "هذه هي الصورة الكبيرة التي يجب أن تكون في عَقلِكَ. يُعاد تصميم نظام العدالة بالكامل من قِمَّته إلى قاعه. لدينا خبراء يتأكَّدون من أن القانون الجنائيَّ بالكامل مُتوافِقٌ تمامًا مع الشريعة. ولدينا مستشارون مُتَخصِّصون بتقليل

الروتين وضبط القانون الإداري. سيكون العراق مَركَزَ القُوَّة الاقتصادية في المنطقة. والآن أصبح دَورُك وسط كلِّ هذا واضحًا أيُّها المفتش".

"شكرًا على الشرح"، يلتفت خفاجي إلى المساعد ويقول: "أهذا ما أردتَ أن تُحدِّثَني بشأنه بشكلٍ مُلحٍّ للغاية؟".

يتنحنح سيترون ويخفض صوته: "في الواقع لا. نحتاج إلى أن نخبِرَكَ بشأن شيء ما طرأ أيُّها المُفتِّش. إحدى مُتَرجِماتِنا اختفت. وفي ضوء كلِّ ما يحدث، لا تُساوِرُنا أيُّ آمالٍ بشأن العثور عليها، لكن...".

يُسلِّم المساعِدُ خفاجي صورةً لِوَجهٍ مُشرِقٍ مُحجَّبٍ. "زهرة بستاني كانت واحِدَةً من أولى المترجمات اللاتي عَيَّنَّاهُنَّ". وللمَرَّة الثانية خلال أسبوع، يُحَملِقُ خفاجي إلى صورة شابَّةٍ جميلة. ثم يرفع عينيه مُتحَيِّرًا.

"زهرة شابَّة وذكيَّة. لقد انضمَّت إلينا لأنها أرادت أن تساعد بلدها. كذا جَعَلَت بضعًا من صديقاتها يَنضَمِمنَ أيضًا. من دون أشخاصٍ مِثلهنَّ؛ لن نُحقِّق أي شيء".

يمسح فمه مُجدَّدًا: "مرَّت عشرة أيام منذ آخر مرَّةٍ جاءت فيها زهرة إلى العمل. وتخبرنا الفتيات الأخريات أن عائلتها لم ترها منذ أسبوع. على الأرجح تعرَّضَت للخطف، وعلى الأرجح ليس بوسعنا فعل شيء، لكن علينا المحاولة. مُتَرجِماتُنا يُعَرِّضنَ حياتهن للخطر يوميًا. لا يستطيع مُعظَمُهنَّ حتى أن يُخبِرنَ عائلاتِهنَّ بما يفعلنه حين يغادرن منازِلَهنَّ. يجب أن نعرف ما حدث. وإن ارتُكِبَت جريمة؛ نريد تقديم مرتكبيها للمحاكمة".

يغلق سيترون الملفَّ الذي أمامه ويرفع عينيه إلى خفاجي: "اسمع، نحن لسنا أغبياء. توجد حربٌ دائرة هنا. ونعرف أن كثيرين يختفون لأسبابٍ لا حصرَ لها، لكن علينا المحاولة. ندين بذلك لكلِّ عِراقيٍّ يعمل معنا. نحن نهتمُّ بأُناسِنا".

يُقدِّمـان لــخفاجي المزيـدَ مـن المعلومـات. تخرَّجَـت "زهـرة" مـن الجامعـة مُؤخَّـرًا. وذهبـت للعمـل لحسـاب الأمريـكان في أواخـر مايـو، ومنذُئـذٍ اسـتقدَمَت خمـس فتيـات مـن أصدقائهـا ليَنضَمِمــنَ إليهـا.

يَفحَـصُ خفاجـي الصُّـورَة لبعـض الوقـت. ويلاحـظ حـين يرفـع عينيـه أن فَـكَّ سـيترون يعمـل بسُرعَتِـه الجنونيَّـة: "سـأبحث بالأمـر مـن أجلِـكَ. ألَدَيـكَ شيءٌ آخـر يمكننـي بَحثُـه؟".

يجيب المساعد قبل أن يُنهي خفاجي عبارته: "لا للأسف، لا شيء".

يُصفِّـق سـيترون برفـقٍ مُعلِنًـا انتهـاء المحادثـة: "اقـضِ يَومَـيْن فقـط في البحـث ولا تَـزِد عـن ذلـك. اذهـب واسـأل المُترجِـمات الأُخرَيـات عَـمَّا يعرفنـه. إنهـنَّ يعرفـن أنهـا مفقـودة. وربمـا يُشـعِرُهُنَّ الحديـث عـن الأمـر بالتَّحسُّــن. سـيُخَفِّفُ مـن قَلَقِهـنَّ أن يعرفـن أنـك تولَّيـتَ القضيَّـة".

إن كان هنـاك مـكانٌ يُعبِّر عـمَّا فَقَدَتـه بغدادُ خـلال سـنوات العقوبات، فإنـه سـيكون مستشـفى ابـن سـينا. اسـتمرَّ النـاسُ في وصفـه بالمستشـفى حتـى بعـد فـترة طويلـة مـن نفـاد الأدويـة بـه. ظـلَّ يُعتبر مستشـفًى لا لِسَـبَبٍ سـوى أن المـرضى ظَلُّـوا يـتردَّدون عليهـا، لكـنَّ الأَهَـمَّ أن الأطبـاء أبقـوه مفتوحًـا. لقـد كان المـرضى أوَّلَ مَـن اكتشـف مـدى الـتَّردِّي الـذي وصَلَـت إليـه البـلاد. لم يكـن هنـاك سـبيلٌ لِتَجنُّـب ذلـك. ومـا كان خفاجـي ليعـرف بهـذه السرعـة لـو لم تظهـر أعـراض السَّرَطـان. لقـد تغـذَّى عـلى مَعِـدَة سـهير وأجبرهـما عـلى الذهـاب مـن مستشـفى إلى مستشـفى أمـلًا في إيجـاد عـلاج، أو إيجـاد الراحـة إن أمكـن. لكـن المستشـفيات التــي ذهبـوا إليهـا كانـت تذبُـلُ وتمـوت أمـام أعينهـما.

كان عَقـدًا أُغلقـت فيـه أبـواب المستشـفيات واحـدًا تلـو الآخـر. لكـنَّ أبوابًـا أخـرى كثـيرةً أُغلِقَـت أيضًـا. فأبـواب المُسـكِّنات أُغلِقَـت. وأبـوابُ المُطهِّـرات أُغلِقَـت. وأبـوابُ البنسـيلين أُغلِقَـت. لكـنَّ أبـوابَ ابـن سـينا لم تُغلَـق أبـدًا، وهـذا لا يعنـي أن بقـاءَه مفتوحًـا أحـدث فارقًـا كبـيرًا. لكـن

يظلُّ الأطبَّاء الذين بقوا فيه بمنزلة القِدِّيسين. لقد بقوا واستمرُّوا في تقديم كل ما بإمكانهم. فعالجوا المرضى حتى بعدما فقدوا التَّخديرَ والمُضادَّات الحيوية والأسبرين، لكنهم ما فقدوا الأمل قَطُّ.

يتقدَّم خفاجي عبر الردهة ويصعد السُّلَّم إلى الطابق الرابع. ويلاحظ حين يصل أن المصاعد الآن تعمل. يَسلُكُ المَمرَّ ويتفقَّد الغُرَفَ ذات الأبواب المفتوحة. الكثير من الأَسِرَّة خالٍ هذا الصباح، بالتأكيد أكثر من الليلة الماضية. والردهات نظيفة ومُلَمَّعة، حتى أنه يرى انعكاسَ الأنوار على الأرض وهو يمشي.

وعند مكتب الاستقبال وجد المُمرِّضة وَدودةً ومتعاوِنة قبل حتى أن يُظهر بطاقة هُويَّته.

"إنها هنا وبخير"، وتبتسم المُمرِّضة وتَطلُبُ منه أن يُسجِّلَ دخوله. وبعد لحظة تقوده عبر الردهة إلى آخر باب على اليمين. يتمنَّى خفاجي فجأةً لو أنه جلب معه شيئًا؛ كتاب أو ورود أو شيء قابِلٌ للأكل، أو أي شيء.

لكن حين يرى ابتسامة مروج يختفي قلقه. تعتدل بجلستها على سريرها العريض وتتطلَّع يمينًا وهو يدخل. كأنها عرفت أنه سيدخل في تلك اللحظة. لا يقولان شيئًا، لكنَّ يَدَيهِما تتشابكان، ويتبادلان النَّظراتِ لدقيقَةٍ طويلة. وفي النهاية يحتضنها ويكسر الصمت: "شلونتش مروج؟".

"آني زينة بابا. زينة".

"دا يعاملونتش...؟".

"آني زينة بابا. هم حَبَّابين[1]".

(1) طيِّبون بالعامية البغدادية.

"أدري. آسف، آني...".

"لا تتأسَّف بابا. آني هنا وزينة. لحد هسَّه ما مصدقة اللي سَوّوه بيك".

تمدُّ مروج يدها وتلمس شَفَةَ خفاجي العلويَّة: "راح أتعوَّد على شكلك هذا"، هَمَسَتها وهي تجذب المُلاءاتِ عليها.

ينظر خفاجي حوله، ولا يلاحظ قبل الآن أن هناك سَريرًا آخَرَ ومَريضةً أُخرى في الغرفة. يعود خفاجي بعينيه إلى مروج التي تبتسم: "هي كلش حبّابة. أنام هواية وهي همين. ما قعدنا سوية هواية".

يتمعَّن بالأجهزة التي تُجاوِرُ سرير مروج. ثمَّة أضواء تومض وخطوطٌ تَتحرّك في شكل موجات. وهناك أرقامٌ تومِضُ وتتغيَّر. تبتسم مروج وتقول: "هذا جهاز غسيل الكُلى بابا. أول يوم هنا استخدموه ويَّاي. واليوم بعد. دا يقولون راح أقدر أتحسن هواية. جبت شي تقرالي إياه؟".

ينظر خفاجي إلى يديه ويعتذر بسبب الكتاب الذي يحمله: "قولي لي شتريدين أقرالتش وأجيبه ويَّاي".

تنظر إليه مروج وتقول: "نازك؟".

"أكيد راح أجيب الديوان. راح نقراه هواية. لحد يمتى قالوا لازم تظلِّين هنا؟".

"دا يسوُّون التحاليل بابا".

"ما تحتاجين تحاليل، مو هيتش؟ إحنا نعرف شنو المشكلة".

"قالوا يمكن تصير مضاعفات ويريدون يتأكدون".

"بس تقدرين ترجعين البيت بساع، صحيح؟ بس تستقر حالتش. نقدر نكمل علاج بالبيت".

"بابـا، الأطبـاء يريـدوني هنـا حتـى أسـوِّي تحاليـل بعـد، ومـا قالـوا شي عـن رجعـة البيـت".

"عَ الأقـل معناتهـا إنهـم جايـين يديـروا بالهـم عليتـش زيـن". ونظـرةُ الألم عـلى وجـه خفاجـي تجعـل مـروج تشـدُّ عـلى يـده.

يعـضُّ شَـفَتَه ويقـول: "راح آجـي كل يـوم أشـوفِتش. نقـرا نـازك مـن الجلـد للجلـد. قصيـدة ورا اللـوخ، وبيـت ورا بيـت".

"يا ريت بابا".

"خالْتِتْش مها وخالِش نضال يسلمون عليتش. شلونه الأكل هنا؟".

"زين بابا. يِنْأَكَل".

عنـد ذلـك، يدخـل طبيـب أمريـكيٌّ إلى الغرفـة ويبتسـم إلى مـروج: "شـاكو ماكـو؟" فتنتـزع ابتسـامةً وتقـول بصـوتٍ مُتعَـبٍ: "صافيـة دافيـة". يلتفـت ليقـدِّم نفسـه إلى خفاجـي، ويبـدو مُمتَنًّـا بصـدقٍ لمُقابَلَـةِ والِـدِ مَريضَتِـه: "ليـس لدينـا الكثـير مـن المُترجِمـين هنـا؛ لـذا إن لم تكـن تُمانِـع، قـد أطلـب مسـاعدتك لأعـرف المزيـد عـن حالـة ابنتـك". ثـم يسـتدعي المُمرِّضَـةَ ويطلـب مـن خفاجـي أن يقـول لمـروج إنهـم سيُجرون فحوصًـا أخـرى عليهـا اليـوم، وكذلـك جولـة أخـرى مـن غسـيل الـكُلى.

"إنهـا محظوظـة لأنهـا وصَلَـت إلينـا حـين وصَلَـت يـا سـيد خفاجـي. مـا يـزال الطريـق أمامهـا طويـلًا لكنَّنـي مُتفائِـلٌ. إنهـا مُقاتِلَـة".

"قالت ابنتي إن هناك مُضاعفات".

يحـاول الطبيـب أن يظـلَّ مُبتَسِـمًا وهـو يتحـدث: "يمكـن القـول إن لديهـا كل أعـراض المَرحَلَـة الخامسـة مـن الفشـل الكلـوي بالمعايـير الأمريكيـة: البَـولُ الدَّمَـوي، وفَقْـرُ الـدَّمِ المَوضِعـيِّ، ونقـص كالسـيوم الـدم. أنـت تعـرف مُسـبَقًا بشـأن الجَفـافِ والبـول الدمـوي وتقلُّصـات العضـلات

والحَكَّة والدُّوار. نتوقَّع رؤية هذا النوع من اليوريميا(1) في أي حالة مُزمِنَة لم تُعالَج. لقد كانت مريضةً لخمس سنوات، صحيح؟".

يومئ خفاجي: "ربما أكثر. نحن لم نحصل على التشخيص مُباشَرَةً".

"الآن نستخدم غسيل الكُلى إلى أن تستقرَّ حالتها. يجب أن نفعل هذا قبل أن نُحدِّد الوضع الحالي. أَوَدُّ أن أرى بعض التَّحسُّن قبل أن نمضي قُدُمًا ونعتبرها في المرحلة الخامسة. أملي أنه سيكون قابِلًا للعلاج. نُجري الفحوصات -على القلب والأوعية الدموية-؛ لنُحدِّد المضاعفات التي ربما حدثت".

مكتبة
t.me/t_pdf

"إذًا، فالحالة مُتقدِّمة؟".

"نعم، يُمكِنُ قَولُ هذا".

يُتَرجِمُ خفاجي، وتبتسم مروج مُجدَّدًا بلا نِيَّةٍ للابتسام.

"ألديكم أيُّ أسئلة قبل أن نبدأ اليوم؟".

يهزُّ خفاجي ومروج رأسيهما. ويغادر الطبيب الغرفة بينما تتشابك يديهما ويتبادَلان الوداع. يُقبِّل جبهتها: "راح أرجع باتشر وياي نازك. خليتش قوية بابا".

"صار بابا. قول لي بيت قبل ما تروح".

يُفكِّر خفاجي للحظة: "ولَستُ بِمِهْيافٍ يُعَشِّي سَوامَهُ، مُجَدَّعَةً سُقْبانُها وهيَ بُهَّلُ / ولا جُبَّأٍ أَكْهَى مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ، يُطَالِعُها في شَأنِهِ كَيفَ يَفعَلُ / ولا خالِفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ، يَروحُ ويَغدو..."(2)

تُفكِّر مروج وتسأل: "بحر الطويل؟".

(1) يوريميا: ارتفاع نسبة اليوريا في الدم نتيجة فَشَلِ الكُلىَ في التَّخلُّص منها عبر البول.

(2) الأبيات من لامِيَّة العرب.

يُومِـئُ خفاجـي. تُغلِـقُ مـروج عينَيْهـا وتُخمِّـنُ: "داهِنًـا يَتَكَحَّـلُ؟ ولا خالِـفٍ دارِيَّـةٍ مُتَغَـزِّلٍ، يَـروحُ ويَغْـدُو داهِنًـا يَتَكَحَّـلُ".

يضحك خفاجي: "إي صحيح. طلعتي مو كلش مريضة لعد".

يسـتقلُّ خفاجـي المصعـد بـدلًا مـن السُّـلَّم، ثـم يغـادر الرَّدهَـة ويمـدُّ يَـدَهُ إلى سـجائره، وتلمـس يـده شـيئًا فيتفقَّـده، يَجِـدُ صـورةَ المُتَرجِمَـة التـي أعطاهـا لـه سـيترون. فيسـتدير ويعـود إلى المستشـفى ثـم يهبـط السُّـلَّم إلى القبـو.

تسـتدعي مُمرِّضَـة المَشرَحَـة مُشرِفَهـا، وفي لحظـةٍ يظهـر الطبيـب الشرعـي، إنـه رجـلٌ ضَخـمٌ مُفعَـمٌ بالحيويـة ولـه عينـان زرقـاوان ولا يتوقَّـف أبـدًا عـن الحركـة: "كيـف أُسـاعِدُكَ؟"، يفاجـئ الـدِّفءُ الـذي بِيَـدِ الرَّجُـلِ خفاجـي ويجعلـه يحـسُّ بـبرودة الغرفـة. يعـرض عـلى خفاجـي كوبًـا مـن الشـاي، ويجلسـان ويتحدَّثـان عـن الطبيـب الشرعـي السـابق، وهـو رَجُـلٌ عرفـه خفاجـي. يُقـدِّم لـه خفاجـي سـيجارةً، فيرفضهـا، لكنـه يُشـجِّع خفاجـي عـلى التدخـين كيفـما يُحـبُّ. يسـير الطبيـب نحـو أحـد المكاتـب ويفتـح دُرجًـا مليئًـا بعُلَـب روثمانـز ومارلبـورو غـير المفتوحـة. ويدعـو خفاجـي إلى أخـذ مـا يريـد: "لمـن توصـل هـاي الشـغلات للمعمـل مالتـي، أصحابهـا مـا يحتاجونهـا بعـد. ماكـو أحـد راح يفتقدهـن".

يُخـرج خفاجـي صـورة زهـرة بسـتاني مـن سـترته ويمدُّهـا برفـق إلى الطبيـب الـذي يميـل رأسـه نحوهـا. ويفتش خفاجـي في الـدُّرج ويُخـرِجُ كُلَّ علـب روثمانـز ويمـلأ بهـا جيـوب سـترته وقميصـه وبنطالـه، بينـما يتمعَّـن الطبيـب بوجـه الفتـاة. ويـردُّ الصَّـورةَ إلى خفاجـي حـين ينتهـي. ينظـر إلى لـوح كتابـة ويلقـي نظـرة عـلى الثلاجـة. ويمشـيان بجـوار الأبـواب الصَّدِئَـة المصنوعـة مـن الصُّلـب. ويتوقَّـف الطبيـب ليُخـرِجَ دُرجًـا مـن الصَّـفِّ السُّـفليِّ، فتخـرج جُثَّـةُ امـرأة شـابَّة، جـروح رأسـها مُنظَّفـة ومملـوءة جزئيًّا. وجههـا قابِـلٌ للتَّمييـز إلى حـدٍّ مـا. يُنعِـمُ خفاجـي النَّظَـرَ إليهـا ويُقـرِّر أنهـا

ليست زهرة بستاني. يكشف درجٌ ثانٍ امرأةً في أواسط العمر فقَدَت قدميها، وهي ليست زهرة بستاني. وهذه مُراهِقَة لديها جروحُ طَلَقٍ ناريٍّ في بطنها، وليست زهرة بستاني. وبعد المزيد من الفحص يرى جُثَّةً مُحترِقَة بشكلٍ بالِغٍ، ولكن يتبيَّن أنه جَسَدُ فتًى وليست فتاة. وبالتأكيد هو ليس زهرة بستاني.

يتوقَّف خفاجي وينظر حوله إلى بقية الأدراج. يُشعِلُ سيجارة ولا يجد الدُّخان حلوًا فقط، بل ومريحًا أيضًا. يغادر الطبيب الغرفة ويتيح لخفاجي لحظةً للتفكير. وحين يعود يمشيان بطول صَفِّ الأدراج. يتوقَّفان بين الحين والآخر لفتح أدراج النساء اللاتي يُشبِهن الفتاة التي يبحث عنها خفاجي. وكلهن لسن زهرة بستاني.

بعد عشرين جُثَّة، يُعلِّق خفاجي: "ليش كل هالجيفة؟ ما أتذكر شفت هيتش جثث من قبل".

"كل هذا بالأساس على مود طفية الكهرباء". ويتحوَّل وجه الرجل إلى العبوس: "الثلاجة تنطفي ساعات هواية. دا نحاول نسوي اللي نقدر عليه ونكتفي باللي عندنا. على كل حال إحنا ما نفتح البوب هواية. أكيد اللي نحتاجه هنا هو المولدة. بس صعبة نقول إنه إحنا نحتاجها أكثر من اللي بعدهم عايشين فوق".

يضحك ويتابع: "لا يظل بالك. قالوا لي راح نحصل عليها وراهم رأسًا". يشعل خفاجي سيجارةً أخرى ويضحك هو الآخر. وكلَّما دَخَّن أكثر، شَمَّ قدرًا أقل من الفورمالديهايد.

يُصافِحُ خفاجي الطبيب مُجدَّدًا ويتفاجأ مرَّةً أخرى بدفء يده. يكتب اسم سيترون على ورقة ويقول: "بلكي تبلغنا لو شفت جثة ينطبق عليها هذا الوصف".

يبتسم الطبيب ويقول: "راح أخابرك كل يوم صديقي".

تنقَطِعُ الكهرباء حين يبلغ خفاجي السُّلَّم؛ فيقف في الظلام يستمع إلى حَفيفِ الأجساد التي على قيد الحياة. يسمع خطوات أقدامٍ وأنفاسٍ ومُحادَثَةٍ، بل ويسمع ضحكًا أيضًا. ثم يسمع احتكاك الثِّقاب وحسيسَ فوانيس الغاز. يعرض أحدهم أن يقود مجموعةً صغيرة ليصعدوا السُّلَّم ويخرجوا إلى الردهة. وينضمُّ خفاجي حينئذ إلى الحشد المُتدفِّق إلى الخارج، تاركين المبنى لأطبَّائِه ومرضاه، الذين بالأعلى والذين بالأسفل.

1965

شَـعَرَ خفاجـي بالتِّيـه التـام في أول مـرَّة تَسـلَّم فيهـا عـددًا يُغطِّـي مكتبـه مـن تقاريـر المُخبِريـن.

لم يَقُل له العقيدُ سوى: "هاي مجموعة بغداد (ب)".

"إبـدأ الشـغل. عنـدي اجتـماع بالتشريـع الظُّهريَّـة كلهـا. باتـشر الصبـح أريـد تقريـر موجـز، عندنـا مشـكلات لازم نرصدهـا".

رَدَّ خفاجي: "صار سيدي. تريدني أدور على شي معين؟".

ضيَّـق الرَّجُـلُ عينيـه ناظـرًا إلى خفاجـي وهـو يرتـدي معطَفَـه وكابـه: "المفـروض إنـك ضابـط ذكي".

"نعم سيدي. هاي المجموعة كاملة؟".

"المفـروض. الـلي أريـده إنـك تخـبرني بالـلي موجـود بهـاي التقاريـر"، ونظـر إلى سـاعته وأضـاف: "عنـدك أربعطعـش سـاعة".

جلـس خفاجـي يقـرأ طـوال السـاعات الأربـع التاليـة قبـل أن يبلـغ قـاع كَومَـةِ التقاريـر. نهـض ووجـد علبـة سـجائر أخـرى في سـترته، وجلـس يفكِّر بمـا قـرأه للتَّـوِّ. التقاريـر واردة مـن كل أنحـاء المدينـة، ومليئـة بحكايـات

مُتنوِّعـة عـن الغـدر والاحتيـال والخيانـة. بـدا كأنَّ المجتمـع بالكامـل بحاجـة إلى أن يوضـع تحـت المراقبـة. لكـن مـع ذلـك هنالـك شيء مُريـبٌ؛ فهـذه التقاريـر لا تتضمَّـن إلَّا معلومـات، وتفتقـد إلى أيِّ نظـام أو ذكاء. وبينـما ذهـب زُمـلاءُ خفاجـي إلى منازلهـم بنهايـة يومهـم، بقـي هـو يرسـم الدوائـر حـول الأسـماء والكلـمات والعبـارات التـي تتكـرَّر، لكنهـا لا تـزال لا تعنـي شـيئًا. اتَّصـل بـسـهير ليوضِّـح سـبب تأخُّـره وتَقَبَّلَتـه: "مـو مشـكلة، راح أروح لبيـت نضـال. خلِّـص شـغلك وأشـوفك وقـت الـلي تقـدر ترجـع".

قاطَعَتـه سـهير وهـو يُودِّعهـا: "فاقْنَـعْ بِمـا قَسَـمَ المَليـكُ، فإنَّمـا قَسَـمَ الخَلائِـقَ بَينَنـا عَلَّامُهـا / وإذا الأَمانَـةُ قُسِّـمَت في مَعشَرٍ أَوفَى بأَوفَـرِ حَظِّنا...".

لم يَحتَـجْ خفاجـي للتفكـير في الأمـر مُطلَقًـا: "بأوفـر حَظِّنـا قَسَّـامُها. وإذا الأَمانَـةُ قُسِّـمَت في مَعـشَرٍ أَوفَى بِأَوفَـرِ حَظِّنـا قَسَّـامُها. هـذا لبيـد(1). أحبتـش سـهير. أرجـع البيـت بـأسرع وقـت".

بقـي خفاجـي مـع بقيـة التقاريـر، عازِمًـا عـلى أن يبحثهـا كُلَّهـا حتـى يتوصَّـل إلى نَمَـطٍ ثابـت. كأنَّمـا يحـاول التَّوصُّـل إلى قافيتهـا، أو بَحرِهـا الشِّـعري.

تمكَّـن خفاجـي مـع ظهـور العقيـد مُجـدَّدًا في الصبـاح مـن إثبـات أن أهميـة التقاريـر ليسـت في محتوياتهـا فقـط، بـل في طريقـة تَسـليطِها للضـوء عـلى كيفيـة عمـل الشـبكة. كانـت هنـاك مجموعـات عنقوديـة مـن المُخبِريـن، الذيـن يُفـترض أنهـم غـير مُتَّصلـين، تُقـدِّم مَزاعِـمَ مُتشابِهَةً بشـكل ملحـوظ، وأخـرى مُتَّصِلَـة لكنهـا تُنتِـجُ تقاريـرَ مُتفاوِتَـة.

"هـاي المحاولـة الأخيرة تشـانت ضربـة قويـة كلـش لذيتـش الشـبكات. وهسـه صـارت مليانـة ثغـرات".

(1) الأبيات من مُعلَّقة الشاعر لبيد بن ربيعة.

اكتفى العقيد بقوله: "اشرح".

"الثَّغرات مثل أبيات الشعر اللي فُقِدَت نهاياتها. وأكو أبيات كاملة مفقودة همين. لازم نعرف وين راحت هاي النهايات والأبيات".

نظر العقيد إلى خفاجي، مُتحيِّراً.

"سيدي، قصدي هاي مو مجموعة كاملة من الفايلات إطلاقًا وهذا الشي مهم. ما نقدر نعرف شنو وراها قبل ما نجمع الأجزاء المفقودة". ورسم خفاجي خريطةً للمُخبرين تُوضِّح تَراتُبَهم ومواضع المعلومات الناقصة أو المُكرَّرة أو الفاسدة في هذا التَّسَلسُل.

"ما أقدر أقول لك المعلومات اللي المفروض تكون موجودة بالأماكن الفارغة، بس أقدر أقول إنها ما موجودة. هذي أنواع سيدي. بالشعر أكو قافية، اللي هي البحر الشعري. تخليك تقدم تخمينات محسوبة عن الشغلات الناقصة. كل تقرير بهاي المجموعة يشبه بيت الشعر، بس ما تشانت مرتبة وكل نهاياتها مفقودة. بالأول تشان لازم أعيد الأبيات لترتيبها الصحيح، وراها أقدر أوصل لأماكن القطع الناقصة. وراها سويت...".

حَملَقَ العَقيدُ وتابَعَ خفاجي الشَّرح.

الاثنين
1 ديسمبر 2003

يُلوِّح أحدُ الرجال الهنود إلى خفاجي من وراء المنضدة في الكافتيريا فيذهب خفاجي إليه. يبتسم له الرَّجُل ويقدِّم كوبًا من الشاي السَّاخِن الحلو. يَشكُرُه خفاجي ويذهب إلى مائدةٍ خاوية حيث يجلس وحده. يتابع مناقشة عن رياضةٍ أمريكيَّةٍ على التلفاز وهو يأكل. يتابع كُلَّ كلمة لكنه لا يفهم شيئًا. ينتهي سريعًا ويمدُّ يَدَه ليُخرِجَ سيجارة ويشعلها. ينظر حوله بحثًا عن مِطفَأةٍ لكنَّ أحدًا يصيح: "التدخين ممنوع! معذرة، لا يُسمح بالتدخين هنا!".

ينهض خفاجي بعدما شعر بالإحراج والغضب ويسير نحو أقرب باب. يسمع صوتًا مُتَوتِّرًا من ورائه وهو يتقدَّم عبر الردهة: "خفاجي! خفاجي!".

يجذب المساعِدُ ذِراعَه ويقول: "سيترون اتَّصل وهو يريدك الآن. يجب أن تطفئ هذه".

يرمي خفاجي السيجارة على الأرض ويخطو عليها ويَهزُّ المساعِدُ رأسه استنكارًا. يُهَروِلان عبر ردهة أخرى ومجموعة ضيِّقة من السلالم.

يـكادان يركضـان، والمسـاعد يتحـدَّث بصـوتٍ مُتعجِّـل: "لقـد وجـدوا شـيئًا للتَّـوِّ في أحـد المنـازل الآمنـة. لقـد وجـدوا جُثَثًـا. سـيترون في طريقـه إلى هنـاك وهـو يظـنُّ أن مترجمتنـا المفقـودة قـد تكـون بينهـم. إنهـم يطوِّقـون المـكان وفـقَ بروتوكـول مسـارح الجرائـم، وهـو يُريـدُكَ أن تـرى مـا يمكـن أن تجـده هنـاك. أحدهـم سـيأتي ليوصِلَـكَ إلى هنـاك الآن".

يَنتَظِـران في زُقـاقٍ إلى أن تَصِـلَ عربـة هامفـي. يتقـدَّم المُسـاعِد نحوهـا ويُظهِـرُ بطاقـةَ تَعريفِـه ويبـدأ الحديـثَ إلى السـائق. ثـم ينفتـح البـاب وتُشـير يَـدٌ إلى خفاجـي ليركـب. يوجـد رَجُـلان أسـمران في الأمـام، وفتًـى أبيـض في الخلـف. فينزلـق خفاجـي إلى الكـرسي الشَّـاغِر ويربـط حـزام الأمـان قبـل أن يأمـروه بذلـك ثـم ينطلقـون. يشـاهد خفاجـي مـن النافـذة نُصْـبَ قَـوسِ النَّـصر. يبـدو كأنـه يلـفُّ ويـدور وهـم يتحرَّكـون حولـه. يسـتطيع رؤيـةَ عضـلات النُّصْـب المُنتَفِخـة وهـم يقتربـون بالعربـة. السَّـاعِدان يَقبِضـان عـلى سـيفيْن عِملاقَيْن. ويهبـط بعينيـه إلى قَدَميْـه وهـو يشـعر بـشيء مـن الإحـراج.

يخرجـون مـن بوَّابـة صغـيرة إلى شـارع دمشـق، ويُسرِعـون نحـو شـارع المتنبِّـي، ثـم ينحرفـون يمينًـا عنـد شـارع المنصـور. وحـين يبلغـون نهايتـه يَنحَرِفـون يمينًـا إلى شـارع الرابـع عـشر مـن رمضـان. لا يرفـع خفاجـي عينيه قـطُّ ومُرافِقـوه هادئـون جـدًّا. يقـرأ الجنـديُّ الجالـس في الكـرسي الأمامـي الاتِّجاهـاتِ ويَـرُدُّ السـائق عليـه لكـن بصـوتٍ خفيـض جـدًّا، لدرجـة أن خفاجـي لا يُميِّـز كلمـة مـمَّا يقولانـه. أمَّـا الجنـدي الجالـس بجـواره فإنـه ينظـر عـبر النافـذة طـوال الوقـت. مـع أن خفاجـي قـد نظـر إليـه بضـع مـرَّات، فإنـه لم يَـرَ وجـه الرجـل ولـو لِمـرَّة. العربـة هادئـة والشـوارع غـير مزدحمـة وهـم يسرعـون.

يـكاد قلـب خفاجـي ينفجـر حـين تُـضرَبُ العرَبَـةُ. ليـس مـرَّةً، بـل عِـدَّة مـرَّات. في البدايـة يبـدو الصَّـوتُ كأنَّهـا رصاصـات ويتخيَّـل الأسـوأ. لكنـه

يُلاحِظُ أن لا أحدَ غيره أتى بردِّ الفعل هذا، ولا بِرَدِّ فِعلٍ قريب منه حتَّى. يُشغِّل المُوجِّه مُسجِّلَ العَرَبَة. ويُحَملِقُ خفاجي عبر النَّافذة لأوَّل مَرَّةٍ فيرى حشدًا يتقهقر وراءهم من الأولاد الذين يقذفون كُتَلًا طينيَّةً وزجاجات. ويُبقي عينيه على الأرض بعد انحرافهم يسارًا عند شارع الرابع عشر من تموز.

يتحدَّث خفاجي حين يواجهون زحامًا: "شارع الموصل أسهل". ينظر المُوجِّه إليه مُتحيِّرًا، فيتفقَّد خفاجي الخريطة ويشير عليها: "هذا شارع ميشيجان، صحيح؟ سيكون أسهل".

تقف ناقِلَتا جنود عند طرف الشارع وتقف ثالِثَة لِتَسدَّ الطرف الآخر. يتحرك خفاجي ليَخرُجَ لكنَّ يَدَ الجندي الجالس بجواره توقِفُه. يرفع الرَّجُلُ سلاحَه إلى كتفه وهو يخرج ويمشي إلى الهامفي الأخرى المُتوقِّفة أمام صَفٍّ طويل من الڤيلَّات. يُحَملِقُ خفاجي إليها ويُفكِّر في مدى تَشابُه هذا الشارع بشارِعِه.

يخرج رقيبٌ بُنِّيُّ البَشرَةِ من العربة الأخرى ويتحدَّث الرَّجُلان لدقيقة. ثم يعود الجنديُّ ويُلوِّح لخفاجي. فيقترب خفاجي ويُصافِح الرقيب. إنه شابٌّ وَدود وله عينان خضراوان ثاقبتان. يوضِّح الموقف: "كان مُخبِرونا يبلغون عن هذه الڤيلَّا منذ أسبوعين. إنها مهجورة منذ أشهر، ثم فجأةً أصبح رجال يتردَّدون عليها ليلًا ونهارًا، وهم جِهاديُّون. أردنا التأكُّد مِمَّا نحن بِصَدَدِ مُواجَهَتِه؛ لذا وضعنا المكان تحت المراقبة على مدار الساعة. البارحة علا صَوتُ الثَّرثَرة؛ لذا قرَّرنا الاقتحام. كانت ليلتهم صاخبة في المنزل. لا بُدَّ أنها كانت حفلة!".

يضحك ويهزُّ رأسَه تَعِبًا. "انتظرنا قدرَ الإمكان ثم اقتحمنا مع صوت أَوَّل أذان. معظمهم كان قد غادر بالفعل، ومع وصولنا كان بالداخل أربعة منهم فقط. اثنان قُتِلَا إثر تَبادُل إطلاق النار، والآخران مُصابان بشدَّة".

يومِئُ خفاجي وينظر حوله في الشارع مُجدَّدًا. لا يوجد ولو شخصٌ واحِدٌ في الأفق. يُخرج الرجل الآخر علبة سجائر ويقدِّم واحدة لخفاجي، ويشعل خفاجي السيجارتين.

يسأل خفاجي أخيراً: "أين سيترون؟".

"كان من أوَّلِ الواصلين إلى الڤيلَّا، لكنَّه استُدعِيَ. لقد رأينا الكثير من البشاعات هنا، لكنَّنا لم نَرَ شيئًا كهذا من قبل. هؤلاء هم الأشرار. إنهم يختطفون الفتيات من أجل الجنس أو الفِديَة. لا بُدَّ أنهم قتلوا ضحاياهم الليلة الماضية، لكن هذا ليس شأننا. لقد تلقَّينا تعليمات بأن ننتظر حتى تصل".

"إلى أين أخذوا الأسرى؟".

"المُعتَقلين؟ بدا أنهم سيأخذونهم إلى المستشفى قبل إرسالهم إلى الجحيم. تحتاج إلى أي شيء آخر؟ لا؟ سنغادر".

يُصافِحُ الرَّجُلُ خفاجي ويضرب قِمَّةَ عَرَبَتِه الجيب ويغادر. ينظر خفاجي حولَه ويدرك أن الجنود الآخرين ليسوا أمريكان. ليس واضحًا حتى إذا ما كانوا جنودًا من الأساس. الشِّعار على ناقلة الجنود خاصَّتِهم هو "ميتيوريك تاكتيكل سولوشينز".

يلتفت خفاجي ويلاحظ أيضًا أن العربة التي أوصلته قد غادَرَت سريعًا. ويبدأ الجيران في الخروج من منازلهم مع مُغادَرَةِ العربَتَيْن.

يُلوِّح خفاجي ببطاقة هويَّته إلى الرِّجال المُسلَّحين عند البوابة ويدخل. لا يطلب جولةً في المكان لأنه يعرف بالفعل هذا النوع من المنازل. هناك مَجلِسٌ للرِّجال ومجلس للنساء، وحمَّامان، ومطبَخٌ، ثم السُّلَّم.

كادت الرائحة في الغرفة الأمامية تجعله يتقيَّأ. لم يضطر إلى أن يبحث كثيرًا ليعرف أن مَصدَرَها حمَّامُ الطابق السُّفليِّ. تُرى كم عدد

الرجـال الذيـن كانـوا يعيشـون هنـا حـين توقَّـف المِرحـاضُ عـن العمـل؟ يُشـعِلُ سـيجارة ويبقيهـا عـلى شَـفَتِه ليصـدَّ الرائحـة النَّتِنَـة. يلقـي نظـرة عـلى المطبـخ فيجـد سِـلالَ المُهمـلات تفيـض بالقمامـة، وثمَّـة أكـوام مـن الأكيـاس وزجاجـات "كوكاكـولا" بلاسـتيكية عـلى المناضـد، وهيـاكل دجـاج مشـويٍّ وقِطَـع مـن الخبـز الجـاف عـلى الأرض. الثلاجـة مفتوحـة عـلى آخرهـا. ولا يوجـد شيء في الخِزانـات. إنـه مجـرَّد هيـكل منـزل.

إن كانـت غُرفَـة المَعيشـة تبـدو مثـل ثُكنَـة قَـذِرَة فهـذا لأنهـا بالفعـل ثُكنَـةٌ قَـذِرَة. فالبطانيـات والملابـس مُبَعـثَرة عـلى الأرض والأرائـك القديمـة الباليـة. يتقـدَّم خفاجـي عـبر غرفـة طعـامٍ مُمتَلِئَـة بـأسِرَّة نقالـة مُتَّسـخة. يوجَـد أكـثر مـن دستَةٍ مـن الأَسِرَّة ومصبـاحٌ وحيـدٌ عـارٍ. لا يُضيـفُ الفحصُ السَّريـع للفنـاء شـيئًا، ورائِحـة المرحـاض تجعـل خفاجـي يتجنَّبـه تمامًـا. يلتفـت نحـو السُّـلَّم لكنـه يتوقَّـف عنـد البـاب المفتـوح. يفتحـه ويُغلِقُـه ويفحـص مـن كثـب أقفـالَ البـاب السـميكة ذات الشـكل الغريـب. يُمكِـنُ أن يكـون مُقفَـلًا مـن الجانبـين، حسـبما يقـول لنفسـه. فينقـر عـلى المعـدن السـميك ويتسـاءل عـن سـبب وَضـعِ بـابٍ بهـذا الثِّقَـل هنـا.

يبلغـه صـوتُ الذبـاب قبـل حتـى أن يصعـد إلى الطابـق الثـاني. وينـادي صـوتٌ مـن الأسـفل: "مرحبًـا يـا حاجِّـي! تعـال إلى هنـا! قـف واسـترِح".

يلتفـت خفاجـي فـيرى رجُـلًا أشـقرَ لـه ابتسـامَةٌ حُلـوَة. ينحـشر وجهـه المُمتَلِـئ تحـت بيريـه أزرق ضيِّـق. وينضغـط صـدرُه المُمتَلِـئُ داخـل تيشـيرت أسـود.

"هـذه منطقـة عسـكرية مُغلَقَـة يـا حاجِّـي. قـف. نعـم هكـذا. والآن اسـترِح". لكنَـةُ الرَّجُـل مُميَّـزة. إنهـا لغـة إنجليزيـة، لكـن اللكنـة ليسـت بريطانيـة: "مـاذا تفعـل هنـا؟".

يعبث بأصابعه بشارة الهُويَّة المُعلَّقة برقبة خفاجي.

"مـا هـذا؟" يُزيلُهـا، ويرفـع الصـورة إلى جـوار وجـه خفاجـي. وقـد اختفـت ابتسـامةُ خفاجـي.

"اسمع. أتتحدَّث الإنجليزية؟".

"أتتحدَّثها أنتَ؟".

يتوقَّـف الرجـل ويتراجـع خطـوة: "مهـلًا يـا حاجِّـي". وينظـر إلى بطاقـة هُويَّـة خفاجـي مُجـدَّدًا، ثـم يبـدأ الحديـث ببُـطءٍ بشـكل مقصـودٍ كأنَّ خفاجـي طفـل: "أنـت في المـكان الخطـأ يـا حاجِّـي. هـذه منطقـة مؤمَّنـة مثلـما تـرى. ولقـد ظهـرتَ فجـأة. مـاذا تفعـل بحـقِّ الجحيـم؟".

"لقد أُرسِلتُ إلى هُنا لأُحقِّق".

"أنت بحاجة إلى التوضيح يا حاجِّي، لا أعرف شيئًا بهذا الشأن".

"لقـد كنـتُ أُوضِّـح. إن كنـتَ لا تفهـم إنجليزيَّتـي تحـدَّث مـع سـيترون". وخـلال ربـع السـاعة التاليـة، سـيتعرَّف خفاجـي عـلى نـوع سـجائره الجديـد.

"...حسـنًا، يبـدو سـبب سـؤالنا واضحًـا. لا نعـرف حتـى إن كان المـكان مُؤَمَّنًـا. كنَّـا نعـرف أنـك سترسـل أحـدًا، لكننـا لم نتوقَّـع أنـه محـليٌّ".

يفحـص الرَّجُـلُ خفاجـي مـن أساسـه إلى رأسـه، ثـم يلتفـت بعيـدًا: "حسـنًا إذًا، لا تُرسِـلْ أحـدًا بملابـس مدنيـة".

"سأدعه يُكمِلُ ما يفعله".

يحـاول الرجـل أن يعقـد سـلامًا مـع خفاجـي عـبر تقديـم واحـدة مـن سـجائره، لكـن خفاجـي يتجاهلـه. يُخـرج واحـدة مـن سـجائر روثمانـز خاصَّتـه ويشـعلها في طريقـه إلى الأعـلى. أصبحـت سـحابة الذبـاب تطـنُّ

بصوتٍ أَشرسَ، وباب غرفة النوم الرئيسية مفتوح نتيجة كَسرِه. يسحب خفاجي منديلًا ورقيًا مُتَّسِخًا ويفتح الباب على آخره. أول ما يراه هو ثلاث بقع طرطشة في منتصف الحائط. ثم ثلاث نساء مُلقَياتٍ ووجوهُهنَّ إلى الأرض، عليهنَّ جلابيبُ فلّاحِيَّة طويلة وفضفاضة مرفوعة ومفتوحة لتكشف عن أَرجُلٍ وأفخاذٍ عارِيَةٍ وملابِسَ داخليَّة مُمزَّقة. المشهد غير لائق، فيجذب خفاجي ملابسهن لتتجاوز رُكَبَهُنَّ، ويلاحظ أن مَعاصِمَهنَّ مجروحة بعُمق. لقد كُنَّ مُقيَّدات في مرحلةٍ ما، ثم فُكَّت قُيودُهنَّ. ينظر حوله ويجد بعض الأصفاد البلاستيكية على الأرض وتُغطِّيها الدماء. يهبط ليلتقط واحدة، فيبدأ نعله الجلدي بالانزلاق داخل بركة لزجة زلقة نصف مُتجمِّدة. ويرمي الأصفاد في كيس وسادة فارغ.

كلُّهنَّ تَعرَّضنَ لإطلاق النار من وراء أعناقهن بسلاح صغير. فقد كان من الممكن أن يصبح المشهدُ أكثرَ فَوضويَّةً. لا بُدَّ أن القتلة قد أجبروهنَّ على الوقوف ومواجهة الحائط قبل إطلاق النار عليهن. كانت مَعاصِمُهنَّ ما تزال مُقيَّدة حين تَعرَّضنَ لإطلاق النار. والقاتل طويل، طويل كفاية ليحمل مسدسًا ثابتًا ويطلق النار على أعناقهن بحيث تنطلق الطلقة لتستقر في جذوعهن. يقول خفاجي لنفسه إنها طريقة غير كفؤة لفعل الأشياء وقد خلَّفَت الكثير من الفوضى. لكنها أسكَتَت الصَّخَب.

يدخل إلى غرفة نوم أخرى، فيكتشف جُثَّةً رابِعَةً مُمدَّدةً على سرير. تستقرُّ هذه الجُثَّة وسط بِركَةٍ من القذارة ولديها عَّدةُ جروحٍ قَطعيَّةٍ في العنق والجِزع. تملأ الغرفة رائِحَةٌ نَتِنَة نتجت عن إفراغ الأمعاء. لا بُدَّ أنها رأت مهاجميها وأن الموت لم يأتِها سريعًا. تتشبَّع الملاءات والمَرتَبة بالدماء والخراء والبول، إنها ولميةٌ للذُّباب. هذه الجُثَّة وجهها للأعلى وتُحَملِق إلى السَّقف، إنها صغيرة السِّنِّ، وعيناها البُنِّيَّتان صغيرتان، لكنهما جميلتان ويحيط بهما الكُحلُ الثقيل وتَظليلُ

العيـون الأزرق. وشـفتاها المُلَوَّنتـان بالأرجـواني رائِقتـان بشـكل غريـب. يتفقَّـد خفاجـي معصَمَيهـا الهَشَّـين الشَّـاحِبَين ويسـتنتج أن هـذه الجُثَّـة لم تُقيَّـد أبـدًا. فيرفـع يدهـا اليمنـى ويتركهـا لتسـقط. لقـد بـدأ التَّخشُّـب للتَّـوِّ بالحلـول بجسـدها. ينظـر إلى أصابعهـا ويلمـح دمـاءً وجلـدًا تحـت أظافرهـا، لكـنَّ قـذارَةَ المَشـهَدِ تجعـل التَّيقُّـنَ مِـمَّا تحـت أظافرهـا صعبًـا.

يجـذب عِقدَهـا، ويُحـرِّك بطاقـة التعريـف البلاسـتيكية المُعلَّقـة برقبتها. إنهـا شـبه مُطابِقَـة لِلَّتـي حـول عنقـه. يجـد عليهـا صورتهـا واسـمها، وقـد كُتـب عليهـا بالإنجليزيـة: "سـالي ريـاضي. مـن إصـدار الجيـش الأمريـكي". يأخـذ البطاقـة ويذهـب إلى المرحـاض ليَشـطُفَها. وينظِّـف يديـه بـرِداءِ حَـمَّامٍ وَرديٍّ، ثـم يضـع البطاقـة في كيـس الوسـادة.

يعـود إلى الجُثَـثِ الأخـرى ويَقلِبهـا واحِـدَةً تلـو الأخـرى، وقـد بـدأن جميعًـا في التَّخشُّـب. يتخيَّـل أن إحداهـن دافِئَـة بعـض الـشيء ثـم يفحصها مُجـدَّدًا. يجـد الأولى تُعَلِّـق بطاقـةَ تَعريـفٍ فيخلعهـا. ويجـد الصـورة مُطابِقَـةً للوجـه، وثَمَّـة اسـمٌ: كانـدي فـردوسي. لا يجـد بطاقـة تَعريـفٍ عـلى الفتـاة التاليـة، لكنـه ينظـر إليهـا ويُذهِلُـه مـدى جَمالِهـا. بـل ومـدى جمالِهـنَّ جميعًـا، وتَزَيُّنِهِـنَّ كأنَّهـنَّ قـد خَرَجـنَ للرَّقـص.

ينـدم خفاجي بمجرَّد أن يقلب الجثة الثالثة.

ينـدم عـلى قدومـه إلى هـذا المنـزل. ينـدم عـلى التعامُـل مـع الأمريكان. ينـدم عـلى اضطـراره لرؤيـة كل هذا.

لا يحتـاج إلى قـراءة بطاقـة الفتـاة ليعـرف هويتهـا. بـل يـرى وجه سـهير يُحَمـلِقُ إليـه للمـرَّة الثانيـة خـلال ثلاثـة أيـام. إنهـا تنظـر إليـه بعيونهـا وابتسـامتها الباهتـة وشـامَتِها وجمالهـا، لكنـه الآن بـارِدٌ ومُتخشِّـب.

ينهـار أرضًـا، ويـضرب الأرض الإسـمنتية حتـى تدمـى مَفاصِلُـه. يبـكي أوَّلًا عـلى سـهير، ثـم عـلى سوسـن ابنـة أخيهـا التـي لم يقصـد أبـدًا أن يجـد جُثَّتهـا. ثـم ينتحـب عـلى الفتيـات الأخريـات.

يستند إلى الحائط ويستوعب المشهدَ ثانِيَةً. ويرى حينئذ فقط مدى أناقة الغرفة لو استبعدنا الجُثَثَ والدم المنثور. كانت تلك لتكون كغرفة أي فتاة غَنيَّة. ثَمَّة أريكة مُتخَمَة، ووسائِدُ، وسَتائِرُ، كلُّها باللون الأرجواني. وهناك مُلصَقٌ لكاظم الساهر. يمسح عينيه ويضع بطاقة سوسن في الكيس مع بقيَّةِ البطاقات. ثم يبدأ باستكشاف الغُرَفِ الأخرى في الطابق الثاني. يُميِّز كلٌّ منها تَرَفُ المَواخير الذي قد تراه في منزِلِ أيِّ عضوٍ رفيع المستوى بالحزب؛ إذ يجد درجات اللون الوردي الأنثوية الشهوانية، ودرجات الفوشيا واللاڤندر. ويحسُّ بملمس المخمل والساتان والدانتيل. وحين يفتح باب إحدى الخزانات، يقوده إلى سُلَّمٍ مُنفَصِلٍ على الناحية الخارجية من المبنى.

كل طابق من المنزل يحكي قصَّةً مُنفَصِلَة؛ إذ يَدلُّ كل شيء في الطابق السفلي على أنه منزِلٌ آمِنٌ للمُسلَّحين. ويبدو الطابق العلوي كأنه ماخورٌ بَعثيٌّ مُتكامِل بجُثَثِه. ثم يضع أذنه على الخرسانة وينقر بلا داعٍ. يستطيع تَخيُّلَ عُدَيّ ومروج في طفولتهما، يلعبان ويختبئان في ذلك المخزن.

يحاول قبل أن يغادر أن يُخبِرَ الجندي بشأن المخزن. ينظر الرجل إليه حائرًا ويأخذه خفاجي إلى المدخل الذي في الحمام. ويكتم خفاجي أنفاسه حتى يخرج مُجدَّدًا. ثم يشعل سيجارة روثمانز أخرى ويتنفَّس الهواء النقي. ويرى الجيران في الخارج وراء الجدار يحاولون الحديث مع الرجال في حاملات الجنود.

يُقِلُّون خفاجي لاحقًا إلى نقطة تفتيش في الكرادة، وهناك يهزُّ الرجل الجنوب أفريقي رأسه ويقول: "يا إلهي. كان ذلك مخزنًا ضخمًا. لقد ظَنَنَّا أننا فتشنا المنزل كلَّه من قِمَّته إلى قاعه".

"إن أرَدتَ العُثورَ على المُتفجِّرات، يجب أن تُحضِرَ كلابَ التفتيش".

يُصرُّ الرجل على مصافحة خفاجي قبل أن ينزل ويخترق الليل.

1975

من: القسم السياسيِّ بمكتب الشُّعبة الخامسة

إلى: مديريَّة الأمن العام

بخصوص: التحقيق بشأن حزب الدعوة وتَوصيَة

يرسل مدير فرع المعلوماتِ والعمليَّاتِ بالقسم السياسي هذه الرسالة ليؤكِّد الآتي:

أثناء التحقيق بشأن الاضطرابات التي تَلَت إلغاءَ الزيارات الطائفية إلى كربلاء، توصَّل مَكتَبُنا إلى المعلومة التي أدَّت إلى كشف قيادة حزب الدعوة في العاصمة. وممَّا يُدلِّل على احترافيَّتنا الفائقة وانتباهنا بلا كَلَلٍ إلى أدق التفاصيل أن ضُبَّاطَنا قد تمَكَّنوا من ذلك بالاعتماد بالكامل على تقاريرَ شُرَطيَّة ثانوية وَرَدَت من النجف. فقد نشط العُملاءُ الإيرانيون الذين سقطوا خلال الجولات الأولية من الاعتقالات قبل تحقيقاتنا بثِقَةٍ غير عادية وبحَصانَةٍ كاملة. وقد خَلُصَت الاستجوابات في المَقرِّ الرئيسي للشعبة (بمحافظة المثنى) إلى المزيد من المعلومات التي يمكن استخدامها ضدَّ شبكة العدو، ونحن نعتقد أن هذا السُّمَّ قد طُرِدَ الآن بالكامل من جسد الشعب العراقي العربي.

نَـودُّ توجيـه ثنـاءٍ خـاصٍّ للمُفتِّـش محسـن خـضر الخفاجـي لبحثـه الـدؤوب ولمتابعتـه لأدِلَّـةٍ تَعرَّضَـت للتَّجاهُـل خـلال التحقيـق الأَوَّلي الخاص بمكتـب النجـف. مـن دون مهـارات المُفتِّـش محسـن في تمشـيط جبـالٍ مـن المعلومـات التـي سـبق تَحليلُهـا؛ لكانـت هـذه الشَّـبكَة الأجنبيَّـة التخريبيـة مـا تـزال تَسـتَهدِفُ أمـنَ وسَـلامَةَ الشـعب العراقـي العـربي. كـما نُـوصي بمَنحِـه شـارَةَ الحـزب والتكريـم الحِـزبيِّ الكامـل والمكافـأة الرسـمية عـن جهـوده وإنجازاتـه. إنـه لَمَفخَـرَةٌ لمُديريَّـة الأمـن العـام، ونحـن بانتظـار ترقيتـه في الوقـت المناسـب.

ودُمتُم للنضال.

محمد الدليمي

الثُّلاثاء

2 ديسمبر 2003

يستيقظ خفاجي فيجد الصُّداعَ قد عاد، وبدَرَجةٍ أسوأ. يتذكَّر نظريَّته بأنهم حين يعبثون بالجسد فإنهم يعبثون بالرأس. وهذا هو بيت القصيد، فقد أدرك ذلك في الماضي واختار أن يكون مُجرَّدَ مُوظَّفٍ مَكتبيٍّ.

يمسك خفاجي رأسه تحت الماء البارد إلى أن يزول الألم. ثم يحلق في الظلام ويقضي نصف ساعة يبحث عن الكتاب من أجل مروج قبل أن يستسلم. يلتقط كتاب مختارات شعرية ويخرج ويقفل الباب. يرى شابَّيْن يجلسان عند الباب الأمامي يرتشفان الشاي، ويستقرُّ بجوارهما رشَّاشاهما من طراز "إيه كيه 47".

"السلام عليكم!".

يدعوان خفاجي ليشرب معهما الشاي، وينسى هو أن يَعبَسَ أمامهما. إنهما مُهذَّبان وودودان كحال فِرَقِ التأمين الأخرى.

يشـعر خفاجـي بنقـرَةٍ عـلى كتفـه بينـما تلمـس قَدمُـه الرصيـف. يبتسـم أحـد الرجلـين مُعتـَذِرًا ويُسـلِّمه ورقـة قائـلًا: "العفـو أخويـا. بـس لازم أنطيـك هـاي مـن تنـزل".

يقـرأ الورقـة وهـو في طريقـه إلى شـارع أبـو نـواس: "بسـم اللـه الرحمن الرحيـم. تحيـاتي أيُّهـا الأخ محسـن، رجـاءَ مُـرَّ بالشَّـقَّة اليـوم. أريـد كلمـة معـك بشـأن موضوعنـا السـابق. حفظـك اللـه. أخـوك عـلي".

يضـع خفاجـي الورقـة في جيبـه ويمـشي إلى زاويـة الشـارع. ويتجاهـل سـائق التاكـسي الشـاب الـذي يحـاول أن يشركـه في مُحادَثَـة. فيرفـع الشـاب صـوتَ الموسـيقى في السَّـمَّاعات حـين يـدرك أن خفاجـي لـن يتحـدَّث. وتنقـر أصابعـه مـع اللَّحـنِ بينـما يعلـو صـوت مغنِّـي البـوب المـصري بأغنيـة حـب. ورأس خفاجـي يوشـك عـلى الانفجـار.

يعبس ويقول: "إلى من نستمع؟"

يُتَمتِمُ السائِقُ اسمًا لم يسمعه خفاجي من قبل، ثم يرفع الصوت.

يقـضي خفاجـي سـاعة عنـد البوابـة يتصفَّـح الكتـاب الـذي بـين يديـه، ولا يسـتطيع القـراءة بسـبب صُداعـه.

الجميـع هادئـون في الطابـور اليـوم والـكُلُّ في حالـه؛ لـذا يبـدأ خفاجـي في إدراك مـدى تَوَتُّرِهـم. ينظـرون أعـلى السـلك الشـائك كأنهـم ينتظـرون ظهـورَ أَحَـدٍ فوقـه. ويحملقـون إلى السـيارات المقتربـة كأنهـم ينتظـرون واحِـدَةً ستدهسـهم. وحـين يخلـع خفاجـي سُـترَتَهُ وحزامـه، يشـعر بالارتياح لأنـه سـيترك ذلـك الطابـور وراءه. ويصيـح الحُـرَّاسُ بشَـخصٍ ليبتعـد عـن الجـدار الخارجـي بينـما يعـبر هـو البوابـة الأولى.

تُمَيِّـز واحـدة مـن الحُـرَّاس وجـه خفاجـي، وتنظـر إلى شـارَتِه وتحـاول أن تنطـق اسـمه. لكنهـا تستسـلم وتسـأله: "أيُمكِـنُ أن أناديـك مـو؟".

ولا يفعـل خفاجـي شيئًا سـوى الضحـك: "مـو؟ حسـنًا. ومـاذا يجـب أن أناديـكِ؟".

"أنا فلوريدا ناشيونال جارد، وتبتسم ابتسامة عريضة.

يردُّ الابتسامة: "حسنًا يا فلوريدا!".

حـين يدخـل خفاجـي المكتـبَ يَجِـدُ سـيترون في الداخـل ويُسـلِّمه كيسًـا بلاستيكيًّا.

"السـلام عليكـم أيهـا المُفتِّـش! قبـل أن أُهَنِّئَـكَ، أريـدُكَ أن ترتـدي هـذه".

ينظـر خفاجـي بالداخـل ويـرى بِـزَّةً مُمَوَّهَـةً. فيخرجهـا ويرفعهـا قُبالَـةَ جَسـدِه، لكنهـا أكـبرُ منـه بمقـاس، أو اثنـين.

"هـذا أقـرب مقـاس وجـدوه. اذهـبْ لِتَغيـير ملابسـك في المرحـاض أيُّهـا المُفتِّـش. لم نعـرف مقـاسَ حِذائِـكَ، لـولا ذلـك لَكُنَّـا جلبنـا لـك البِـزَّةَ كامِلَـةً. يمكننـي الذهـابُ مَعـكَ لاحقًـا لجَلـبِ الحـذاء العسـكري المناسـب".

يعود خفاجي إلى الغرفة وهو يبدو مثل فَزَّاعَةِ الحَقل.

يضحـك سـيترون: "مـا شـاء اللـه! لـن تضطـرَّ لارتدائـه لمـدَّة طويلـة. يُفـتَرَضُ أن يصـل زِيُّ الشرطـة العراقيـة الجديـد خـلال أسـبوعين. هـل أَرَيتُـه لـكَ؟ نحـن سـعداء بالنتيجـة النهائيـة".

يُـرِي سـيترون خفاجـي صـورةً لِرَجُـلٍ أبيـض يعتمـر كابَ بيسـبول، ويرتـدي بنطـالًا أسـود وقميصًـا أزرق أنيقًـا وقـد نُقِشَـت عليـه كَلِمَتـا "الشرطـة العراقيـة" بالعربيـة والإنجليزيـة. وفي صـورة أخـرى تسـتعرض امـرأةً نُسـخَةً نسـائيَّةً مـن الـزي كامِلَـةً بالحجـاب.

يبتسـم سـيترون بفَخـرٍ ويسـأل: "مـا رأيـك؟ تعاوَنَّـا مـع المُصَمِّمـين لنحـرص عـلى مراعـاة الحساسـية الثقافيـة".

يومئ خفاجي: "إنه... هممم حسَّاس للغاية".

"يجب أن ترتديها من الآن فصاعدًا خلال ساعات العمل". ويُعَدِّلُ الياقة على قميص خفاجي قبل أن يضيف: "لديَّ اجتماعٌ بالأعلى. سأراك بعد قليل".

يلقي خفاجي نظرة على خِزانات الملفَّات وقد أصبح وحيدًا. فيبدأ بفتح الأدراج ويبحث عن أي أنماط في تسميات الملفَّات، أو أي شيء قد يخبره بكيفية عمل مجموعة المَلَفَّات هذه. يظلُّ يكتب قوائِمَ بالأسماء والشُّعَب والأقسام لمُدَّة ساعتين. حينئذ كان قد بلغ الأدراج التي بمنتصف الغرفة.

"ليست هذه المَلَفَّات. سيترون يريدك أن تبدأ بتلك التي في الخلف". يستدير خفاجي فيجد الموظَّفَ نفسه الذي كان البارحة وهو يُشيرُ إلى الخِزانات التي فحصها خفاجي البارحة. لا بُدَّ أنه دخل الغرفة في وقتٍ ما.

يلاحظ خفاجي لعبة سوليتير التي على شاشة حاسوب الرجل ويقول: "شكرًا لك".

يُخرج خفاجي كَومَةً من المُجلَّدات ويشرع بقراءتها. يجعله أَلَمُ رَأسِه يُغلِقُ عينيه بين الحين والآن. وحين يُغلِقها، لا يرى إلَّا ابتسامةَ سوسن البارِدَةَ. يفتح عينيه ويُلقي نظرةً على الرجل الذي يلعب الأوراق. إنه وحيدٌ تمامًا، وبعيدٌ جدًّا عن وطنه.

يدخل المساعِدُ المَكتبَ بعد بعض الوقت، وهو يقود مجموعةً من الشباب وراءه. كلهم يرتدون ربطات عُنُقٍ وسُترات رياضية وأحذية قتالية. يَجذِبُ المساعد ذراع خفاجي مازحًا ويصيح: "انتبهوا جميعًا! أخبروا برَيْمَر أنني مَن وجدت طارق عزيز، وأنه كان يعمل هنا! أريد المليون دولار الآن! من أين آخُذُها؟"، ويربتُ على ظهر خفاجي.

الـكل يضحـك. ويُغلِـقُ خفاجـي عينيـه، فيجـد عينَـيْ سوسـن المُجمَّدَتَيْن تُحَملِقـان إليه.

"لا، حقًّـا، هــذا الرجــل هــو النَّجــم الجديــد بفريقنــا. سيســاعدنا في اســتوفاء الكوتــا، لكــن هــذا لم يَكُــن الحــال منــذ البدايــة".

يُصافِحُهـم خفاجـي واحـدًا تلـو الآخـر، بينـما يحـكي المُسـاعِدُ كيـف أن خفاجـي قـد اعتُقِـلَ بصفتـه أَحَـدَ أَهـمِّ المطلوبـين. ويضيـف: "هـذه قصة رائعـة أُحِـبُّ أن أحكيهـا".

"اسـمع، لدينـا شيءٌ لنفعلـه في بروسـبيرتي. سـأعود إلى المكتـب بعـد الغـداء".

"حسنًا، سأراك حينها".

يتوقَّـف مباشرة قبـل أن يخـرج مـن البـاب: "اسـمع، أخـبَرَني سـيترون بمـا حـدث البارحـة. إنـه عَمَـلٌ مُذهِـل. هـل تحدَّثـتَ مـع المُعتَقلـين؟".

"همممم؟" ويُضيِّقُ خفاجي عينيه ويحاول أن ينسى الألم الذي في رأسه.

"لقـد حُوِّلـوا إلى ابـن سـينا. حجزهـم سـيترون هنـاك حتـى نتمكَّـن مـن الحديـث إليهم".

"أيجب أن أذهب للحديث إليهم؟".

"نعم، أنت وسيترون. هذا ما قاله".

"حسـنًا. سـأنتظر رؤيتـه إذًا". ويعـود خفاجـي إلى الملفَّـات التـي عـلى مكتبـه. يمـدُّ يـده إلى جيبـه بحثًـا عـن سـجائره مـن بـاب التَّعـوُّد، لكنـه يـدرك أنهـا في سُـترَتِه. فيمـدُّ يـده ويخـرج علبـة روثمانـز وصـورَةً لـزهرة بسـتاني، ولا يُعلِّـق الجنـديُّ الجالـس أمـام الحاسـوب. يجـد خفاجـي كـوب قهـوة عـلى مكتـب المسـاعد ويسـتخدمه كمطفـأة. يُدَخِّـن ويغلـق عينيـه ويجـد سوسـن مـا تـزال هنـاك تنظـر إليـه مبـاشرة. فيطـرف ويـشرع بالتحديـق إلى صـورة زهـرة بسـتاني بـدلًا مـن ذلـك. يحـدِّق حتـى تنتهـي

سيجارته، وقد ذهب صُداعُه تقريبًا. يتساءل بصوتٍ عالٍ: "هل يوجد مكتب للمُتَرجمين؟".

يَردُّ الجندي دون أن يرفع عينيه عن الشاشة: "دعني أسأل". يرفع الهاتف ويقول بعد لحظة: "مجموعة المترجمين لها مكتب في مقطورة عند القِلَل الغربية. لن يكون الوصول إليهم صعبًا إن ذَهَبتَ إلى هناك وسألت".

ينظر خفاجي إلى ساعته ويُقحِمُ السجائر في جيب قميصه ويُعلِن أنه سيعود خلال ساعة تقريبًا. ينظر إلى حذائه الجِلديِّ المشقوق وهو يهبط السُّلَّمَ ويتخيَّل مدى غرابته أسفل بِزَّتِه.

يشعل سيجارةً ويَتجوَّل بجانب القصر إلى أن يصل إلى نهايته، ثم يبدأ رحلته مشيًا. وحين يصل إلى وجهته يجد دستةً من المقطورات البيضاء المُستَقرَّة خلف تجمُّع من أشجار الكينا والجوجوبا. تطلَّبَ الأمرُ بَعضَ البحث، وسيجارةً، قبل أن يجد المقطورة الصحيحة.

تَفاجَأ خفاجي لرؤية بَشَرٍ يجلسون أمام المكاتب، ربَّما لأن الرَّجُلَ ذا القِناعِ الأَسوَد كان هو الصورة الوحيدة في باله عن المُتَرجِمين الذين لا يرتدون أيَّ أقنِعَةٍ الآن. يُظهر بطاقَةَ هُويَّتِه للأمريكي عند مكتب الاستقبال، ويسأل إن كان هناك مترجمون يمكنه الحديث إليهم.

يشير الرَّجُلُ إلى مجموعةٍ صغيرة تجلس وراء مكتب ويرتشفون الشاي.

يُحيِّيهم خفاجي ويصافحونه. إنهم خمسة -ثلاثة رجال وامرأتان- وكلهم في أوائل العشرينات.

"آني محسن الخفاجي. جيت أسأل عن زميلتكم زهرة البستاني".

"أوكيه؟".

يُقـرِّر خفاجـي أن يبـدأ مـن البدايـة: "أكـو زميلـة إلكـم مختفيـة. تشـنتوا تعرفـون؟".

يَهُـزُّ اثنـان منهـم رأسـهما. ويجيـب أحدهـم: "ماكـو أحـد مختفـي مـن جماعتنا".

"أو عَ الأقل ما سمعنا هالشي".

يُريهم صورة زهرة ولا يُعلِّق أحدٌ في البداية.

عَلَّقَـت امـرأةٌ منهـم: "آني أعرفهـا. أعتقـد تشـانت تشـتغل ويَّانـا، بـس قبـل مـا آجـي. آني متأكِّـدة هـي تشـتغل ويَّـا الجيـش هسَّـه".

أومأ الآخرون وسأل خفاجي: "ويَّا مِن تشتغلون؟".

"إحنا مجموعة سلطة الائتلاف المؤقَّتة".

يعبـس خفاجـي، فيوضِّـح أحـد الرجـال: "الجيـش عنـده مجموعـة خاصـة مـن المترجمـين، المارينـز همـين. والـدول الثانيـة وشركات الأمـن".

"وين مكاتبهم؟".

"غالبًا بالمعسكرات. شويَّة يظلون ببروسبيريتي".

يسأل خفاجي: "وين؟".

"قصر السلام[1]، مركز قيادة الجيش. بس يبقونا منفصلين".

تنظـر الفتـاة الأخـرى إلى خفاجـي مباشَرَةً وتضيـف: "إحنـا نشـتغل ويَّـا مترجمـين مـن المجموعـات الثانيـة. عـلى مـود هيتـش نلتقـي بيهـم. بـس هـم يخلـون المجموعـات منفصلـة عـن بعـض"، ويومـئ الآخـرون.

"ليش؟"

---

(1) قصر السلام: كان أحد القصور الرئاسية في عهد صدام حسين، لكن قوات التحالف سيطرت عليه واتخذته قاعدة لها بعد الغزو.

يُعلِّق الرَّجُلُ: "هم كلش صارمين بموضوع الأمن".

"مستحيل يخلونا منفصلين تمامًا. بين فترة وفترة نتصادف بالكافتيريا لو بالطريق، وقتها نتحاتشى".

"بس مو أكثر من اللازم".

"إي. عمومًا أقدر أميِّز مترجمين من المجموعات الثانية، بس مو معناتها إني أقدر أقول لك الأسامي الحقيقية".

حين يرى النظرة على وجه خفاجي، يوضِّح أحدُ الشباب: "شوف. إنت ما جاي تستخدم اسمك الحقيقي، مو هيتش؟ ليش إحنا؟".

تقول امرأة: "اسمعني. شغلتنا خطرة. منو أول ناس تتعرّض للاغتيال، إحنا".

يتابع آخر: "أكو طريقتين يستهدفون بيها المترجمين. الأولى عند السيطرات والمفارز".

تَنهَضُ إحدى المرأتين وتعود بسُترَةٍ واقِيَةٍ من الرصاص وقِناعٍ أسود: "على مود هيتش المترجمين يتمتعون بآخر موضة، حتى قبل الأمريكان".

"وشنو الطريقة الثانية؟"

"الاختراق. يزرعون جوّانا واحد لو اثنين. وينتظرون ياهو اللي يحتشي أكثر من اللازم".

"مثل ما تحتشي ويّاي؟".

"لا. هذا مو شي. إنت ما تعرف شي عني، ماكو خطر".

"لعد إنتي تقولين إنهم هنا فعلًا، وأي شي تقوليه يوصل إلهم مباشرة".

"كل شي. ع الأقل الأشياء اللي يريدون يعرفونها. إنت منو؟ وين تعيش؟ منو عائلتك؟".

يضيف شابٌّ له شَعرٌ طويل ونظّارات: "أكيد صعبة إنه ما نحتشي. لمّن تشتغل ويا أحد فترة طويلة، لازم تحتشي وياه عن حياتك".

يُخرج خفاجي سيجارةً ويَنقُرُها على رُكبَتِه وهو يتفقّد ملاحظاته ويقول أخيراً: "زين. خلّوني أتأكد إني فهمتكم". ويلتفت إلى المرأة الأولى: "إنتي تعرفين هاي البنية. هي مترجمة مثل ما تقولين. يمكن تشتغل ويا الجيش؟ ومتأكّدة إنها ما تشتغل ويا سلطة الائتلاف المؤقّتة؟".

"إي".

"زين. هسّه نيجي للصّعب. لو قلت لتش إنه اسمها زهرة بستاني، هذا مو معناه أي شي لو تشنتي تعرفيها؟".

يَرُدُّ آخران في الوقت نفسه: "تمام". ويُضيف آخَرُ: "ماكو أحد بينا يستخدم اسمه الحقيقي أبدًا".

ينظر خفاجي إلى ملاحظاته، ثم يُدوِّن بعض الأسئلة: ما اسم زهرة بستاني الحقيقي؟ مَن يعرف أسماءَهُنَّ الحقيقية؟ أيعرف أحَدٌ هذه الأُمورَ؟ أيعرف سيترون بذلك؟ إن كانت زهرة بستاني لا تعمل لحساب سُلطَةِ الائتلاف المؤقَّتَة، فماذا أفعل أنا بالسؤال عنها؟

حين يرفع خفاجي رأسه يرى خمسة وجوه شابّة تفحصه بقلق.

فجأةً يضحكون جميعًا معًا، حتى خفاجي. إنها ضِحكَةٌ مَشحونة، تلك الضحكة العفويَّة التي تنطلق حين تتحدَّث مع أحدٍ عن مشكلاتك، وتُدرِك أن حياته خَرِبَةَ أكثر من حياتك. إنهم يضحكون معًا، لكنَّ الطريقة التي ينظرون بها إلى خفاجي تجعله يرتبك.

لقـد عـاد النبـض إلى رأسـه؛ فيُقـرِّر إنهـاءَ المحادثـة بـأسرع مـا يمكـن: "إذا مـا بيهـا زحمـة. راح أقـرأ قائمـة أسـامي. بلـكي تخـبروني أي اسـم مـر عليكـم قبـل؟".

يُقلِّـب صفحـات المُفكِّـرة ويقـرأ: سـالي ريـاضي، ويسـمع سـكوتًا. كانـدي فـردوسي، لا شيء. "سوسـن فـرَّاج"، لا شيء مُجـدَّدًا.

ينبـش خفاجـي جيبَـه يائِسًـا ويُخـرِجُ صـورة سوسـن. يُمَرِّرهـا أمـام المجموعـة فتشـهق فتـاةٌ وتَزفَـرُ: "هـاي أعرفهـا. اسـمها سـوزي".

تومئ الفتاة الأخرى: "إي. تشتغل ويَّا الجيش".

يقـول أحَـدُ الرِّجـالِ مازِحًـا: "الجيـش يحـب المترجـمات"، لكـن لا أحـدَ يَضحَـكُ.

يسأل خفاجي مُجدَّدًا: "إنتن مُتأكِّدات تعرفوها لهاي البنية؟".

تُومِئان وتُتَمتِمُ إحداهما: "كلش متأكِّدة".

"شلون؟".

"مثـل مـا قلـت، بـين فـترة وفـترة نلتقـي صدفـة. شـفتها تشـم مـرَّة بالقاعـدة مـال الجيـش. دائمًـا تحتـشي ويانـا، دائمًـا. متأكِّـدة زيـن إنهـا اشـتغلت ويـا مجموعـة الجيـش".

يَنبـشُ خفاجـي جيبـه قبـل أن يتذكَّـر أنـه تَـرَكَ بطاقـاتِ تَعريـفِ الفَتيـاتِ الأخريـات في شَـقَّته. فَيُـدَوِّن مُلاحَظَـةً ليعـود إلى هـذا المكتـب بتلـك الصُّـوَر.

1988

كان "تـوب زاوا" مُعَسـكرًا شاسـعًا، وقـد بـدا أكـثرَ كمُسـتَودَعٍ بنزيـن مُزدَحِـم. لقـد تجمَّـد هـواء بدايـات الربيـع في رئاتهـم حـين خرجـوا لمُقابَلـة الواصلـين الجُـدُد. هـذه قريـة تـل جيـار في قضـاء قـره داغ، وقـد انفتحـت شـاحنات الماشـية وارتفـع البخـار الصـادر مـن الحشـد الـذي بداخلهـا. دفع الجنـود الصَّـفَّ الأوَّلَ مـن القرويـين، وسـقَطَت امـرأةٌ عَجـوزٌ في الوحـل. رفـع شـابَّان بنطاليهـما الفضفاضـين وهبطـا لمسـاعدة الآخريـن.

جُمِـع الرِّجـال وعددهـم سـتُّون في أحـد الجوانـب، وأُخِـذَت النسـاء والأطفـال إلى مـكانٍ آخـر بعيـد. ثـم بـدأت العمليـة فجعلوهـم يتخلَّـون عــن كل شيء: سـاعاتهم وخواتمهـم وقُبَّعاتهـم وشـالاتهم وأحزمتهـم وأحذيتهـم. صَنَعَـت أشـياؤهم كَومَـةً عـلى غطـاء قـماشي، ثـم حُـزِم الغطـاء وأُخـذ بعيـدًا.

وفي النهايـة حـين قُيِّـد الرجـال معًـا في أزواج، رَكَـنَ الضُّبَّـاطُ أكـوابَ الشـاي وبـاشروا مَهامَّهـم. فـشرع ضابـط المخابـرات التكريتـي بتجريـد الرجـال مـن محافظهـم وبطاقـات تعريفهـم، بينـما يُطابِـقُ الرَّجُـلُ الجالـس عنـد الطاولـة كلَّ بطاقـة بقوائـم الأسـماء التـي معـه.

"عمر عسكري. اسم الأب: أوزير. واسم الأم: خديجة".

"تعرف إش سويت. تمام؟".

"لا سيدي، ما سويت شي".

"لقوك بمنطقة محظورة".

"هاي قريتنا. وهذا بيتي".

يصفع الضَّابِطُ الفتى فيسقط أرضًا: "إنتو عُصاة[1]".

"لا سيدي، إحنا مزارعون".

التفت الضابط إلى الرجل الجالس أمام المكتب وقال: "هذا بشمرجة[2]. اللي بعده!".

أُغمي على رَجُلْ عجوز وأمر الضابط بأن ينهض. حاول المراهق المُقيَّدُ إلى العجوز أن يتوسَّل: "بعده يعاني لما اشتمّ الـ...".

لم يَجِد الفتى فُرصَةً ليُنهي جملته؛ فقد شرع ضابِطُ المخابرات بضرب الرَّجُلَيْن ورَكْلِهما بوحشيَّةٍ، حتى سقط كلاهما بلا حراك.

ربت رَجُلُ الأمن العام بعد بعض الوقت على كتف ضابط المخابرات قائلًا: "عوف لي ذولي الاثنين".

(1) التَّسميَة التي أطلقها نظام صدام حسين على المتمردين الأكراد.

(2) قوَّات "البشمرجة" هي القوات غير النظامية المُقاتِلَة باسم القبائل الكردية في شمال العراق. وتُرجِعُ الرِّواياتُ التاريخية عَداءَها مع نظام "صدام حسين" إلى مُسانَدَتِها للجيش الإيراني في الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات؛ رغبةً في توسعة أراضي كردستان العراق الخاضعة لسيطرتها. وقد قَرَّر النظامُ العراقيُّ الانتقامَ عبر ما سُمِّي بـ "حَمْلَة الأنفال"، وهو هجومٌ بالأسلحة الكيماوية أرضًا وجوًّا على قرى الأكراد قبل تهجيرهم. وقد أشرف على هذا الهجوم "علي حسن المجيد"، ابن عم "صدام حسين"، وأطلق عليه خصومُه لاحقًا لقب "علي الكيماوي" إشارة إلى دوره في تلك الحملة. وقد اتهم النظام العراقي إيران بالوقوف وراء هذا الهجوم.

ابتعـد التكريتـيُّ بتأثـيرِ شيءٍ مـا في طريقـة قَولِـه لهـذه العبـارة. جثـا الرجـل عـلى ركبتـه في الوحـل، وطلـب أن يجلـب أحـدٌ لهـما المـاء. وحـين تمكَّـن مـن الوقـوف مُجـدَّدًا، مـشي معهـما إلى المكتـب حيـث شربـوا الشـاي السـاخن وتحدَّثـوا بأصـواتٍ خافتـة. جلـب لهـما وجبـاتٍ سـاخِنَةً، ثـم سـجائر. ويـأتي التكريتـي بـين الحـين والآخـر فيُلـوِّح لـه أن يبتعـد مُجـدَّدًا. لقـد راجـع رجُـلُ الأمـن العـام الأسـماءَ التـي في القوائـم مرتـين قبـل أن يـترك السـجينين يخلـدان إلى النـوم. وحـين وجـد أن الفتـى يسـتطيع القـراءة، صرف الرَّجُـلَ العجـوز. فشـارك الوثائـق التـي في المُجلَّـد مـع الفتـى وقـرآ الأسـماء معًـا بصـوت مرتفـع.

تابـع مُحادَثاتِـه مـع الفتـى في اليـوم التـالي. لم يسـتجوبه ولم يُهـدِّده. بـل تابـع القـراءة فقـط والفتـى إلى جـواره. بحلـول الليـل كانـت معـه أسـماء كُلِّ عنـاصر الحـزب الديمقراطـي الكردسـتاني في القريـة، بينهـما اسـمان يعمـلان لحسـاب المخابـرات أيضًـا. بعـد ذلـك انهـارت المُقاوَمَـة في قـره داغ، وأولاه رجـالُ تكريـت المزيـدَ مـن الاحـترام.

بعد ظُهرِ الثُّلاثاء
2 ديسمبر 2003

يُحـاوِلُ خفاجـي أن يُحَملِـقَ إلى أحـد المُجلَّـدات بعـد عودتـه إلى المكتـب. لكنـه لا يـزال يشـعر بالنبـض في رأسـه، فيميـل إلى الخلـف في كرسـيِّه. يبحـث عـن أي تشـتيتٍ مـن أي نـوع فيتحسَّـس محتويـات محفظتـه. يُصادِفُ رقـم الرجـل الـذي أوصلـه بالتاكسي. فيتَّصِل بـه وقـد انتابتـه رغبـة مفاجئـة بـأن يعـرض عـلى الرجـل وظيفـة. ويَـردُّ الرَّجـلُ قبـل أن يعـرف خفاجـي مـا سـيقوله.

"مساك الله بالخير كارل. آني محسن. وصلتني قبل يومين".

"عـاش مـن سـمع حسـك. بعـدك عايـش؟ شـلونهم جماعتـك الأمريـكان؟".

يضحـك خفاجـي. ويتذكَّـر أن سـيترون لم يـأذن لـه ليُعـيِّنَ سـائقه الخـاص. يقـول عـلى نحـوٍ مُبهَـم: "أريـدك بسـالفة إجـت عـلى بـالي. بيهـا راتـب ثابـت ومشـاوير".

يطلـق كارل ضحكـة مكتومـة: "سـايق خـاص، هـاه؟ الكـروة تدفعهـا بالـدولار؟".

"يمكن. نتقابل ونحتشي؟ يمتى يناسبك؟".

"باتشر. بثمانية بالليل، عند قهوة دجلة. بره البوابات. تلعب طاولي؟".

"محبوسة والخسران يدفع. أشوفك هناك".

يتمشّى خفاجي إلى مبنى ديفاك ويأكل غداءً متأخّرًا. الطعام ثقيلٌ ودافئٌ، ويدرك خفاجي أنه لن يساعده على البقاء مستيقظًا من أجل العمل، لكنه يُشعِرُ رأسه بالتَّحسُّن. يتابع شاشات التلفاز الكبيرة على الجدار وهو يأكل، لكنَّ أحدَهم يُغيِّر القناة فتختفي الرياضة. يُعرَض الآن تقرير عن هبوط الدولار، ويُقدِّم المُعلِّقون تصريحاتٍ مُقتَضَبَةً تدور بعرض أسفل الشاشة: "مستثمرون متوتِّرون"، و"مخاوف بشأن التأثير على أسواق النفط". يُقرِّر خفاجي وقد مَسْمَرَتْهُ الأنباءُ في مكانه أن يظلَّ يُتابِعُها حتى بعدما أنهى غَداءَه. يصبُّ كوبًا من القهوة الأمريكية، ويحصل على قطعة كعك. ويرى في الأخبار مع عودته خبرًا عن مَعركَةِ شَوارِعَ وقعت البارحة في سامرَّاء، حيث قُتِلَ أكثر من خمسين شخصًا في تَبادُلٍ لإطلاق النار إثر محاولة عصابة اختطافَ شاحِناتٍ تابِعَةً للجيش الأمريكي، عليها حمولَةٌ من الدنانير العراقية المطبوعة حديثًا.

يرتشف خفاجي القهوة التي تشبه الماء ويبصقها في الكوب. يعود إلى منضدة الطلبات ويطلب كوب شاي، فيجلب له الرَّجُلُ كوبًا ورقيًّا من ذلك الاكتشاف ذي السُّكَّر والحليب. يبتسم خفاجي ويعرض عليه سيجارة، لكنَّ الرَّجُلَ يربت على صدره براحة يده ويعود إلى عمله.

يتمشّى خفاجي إلى ابن سينا، ويتذكَّر كتاب المختارات الشعرية الذي جلبه ليقرأه لمروج، ويتذكَّر أنه الآن يَستَقِرُّ على مكتبه في القصر. يُسَيطِرُ عليه الذُّعرُ، ويتطلَّب الأمر بضع سجائر ليفهم سببَ

ضيقه الشديد. ولا يتَّضِحُ إلَّا حين يسأل نفسه عمَّا سيتحدث بشأنه مع مروج.

كان قد قَطَعَ على نفسه عهدًا في وقتٍ ما من اليوم السابق بألَّا يُخبِرَ ابنته بأي شيء، وألَّا يتحدث عن اتفاقه مع الأمريكان، ولا عن طرده من شَقَّتِهما، وألَّا يتحدَّث عن المُتَرجِمات، لا مَن يأتين إلى العمل ولا مَن يختفين فجأة، وألَّا يتحدث عن الفتيات اللاتي لَمسَ جُثَثَهُنَّ الباردة. لم تَحتَجْ مروج إلى سماع أيٍّ من هذا. والآن فقط يَخطُرُ على باله أنه في وقتٍ ما سيضطر إلى إخبار مروج بشأن ابنة خالها.

يتقدَّم بطول الردهة الممتدَّة في الطابق الرابع من الجانب الأمريكي إلى الجانب المدني العراقي، ويمرُّ بالغُرَف ذات الحراسة في المنتصف التي تفصل بين الجانبين.

حين يدلف إلى غرفة مروج يجدها مُظلِمَة. يسعل، لكنَّ لا أحدَ يستجيب. يستغرق الأمر بضعَ لَحظاتٍ حتى تعتاد عيناه على إضاءة الغرفة. يجدها مُستَلقِيَةً وقد رُفِعَ ظَهرُ سريرها. عيناها مُغلَقتان، وذراعاها ممدَّدتان على جانبيها. يمشي إلى الكُرسيِّ المجاور لسريرها ويجلس. ولا يُقاطِعُ هدوءَ الغرفة إلَّا إشاراتُ وتكتَكاتُ الأجهزة الطِّبِّيَّة. فينظر إلى الأسلاك والأنابيب الموصلة بذراعي مروج ويغلق عينيه فيغفو في الحال.

يستيقظ بعد ساعة على أصوات أنينٍ وحركة مفاجئة. يطرف ويتفرَّج بينما تعتني مُمَرِّضتان بالمريضة الأخرى في الغرفة. وحين يلتفت يَجِدُ مروج تتطلَّع إلى وجهه. يبتسم كلاهما ويَمدُّ خفاجي يدَه إلى يدها بحركةٍ لا إرادية. يجلسان بصَمتٍ بينما تتحدَّث المُمَرِّضتان بنبرة خافتة ويعطيان المرأة الأخرى شيئًا يُهَدِّئها. وحين تُغادران تَكسرُ مروجُ الصَّمتَ: "هالو بابا. ما تشنت متأكدة راح تجي. شوية وأنسى وجهك".

يُمرِّر خفاجي أصابِعَه على شفته العليا بلا تفكير: "آني هنا أكيد. وكل يوم راح آجي". صُداعُه لا يزال موجودًا، لكنه ليس بالسوء نفسه.

"جبت لي ويَّاك شعر؟" تقولها مروج وتُغلِقُ عينيها، ويعود الذُّعرُ إلى خفاجي.

حين تفتح عينيها مُجدَّدًا تلاحظ النظرة المُتألِّمة على وجهه: "شبيك بابا؟".

"ماكو شي مروج، ماكو شي. وجع راس شوي مو أكثر. عفت الكتاب مالتش ع الميز[1] مالتي".

"ما صار شي. خلينا نحتشي".

"إي بابا. خلي نسولَف".

يطبِقُ عليهما صَمتٌ ثقيل وهما يستمعان إلى تَنَفُّس المريضة الأخرى.

"إحنا بابن سينا، أدري. مكتبك قريب؟".

ينظر خفاجي إليها، لكنه يَعجَزُ عن الكلام.

"بابا شبِيك؟".

"آسف بابا مروج. ما أقدر أحتشي عن الموضوع. أحس روحي مكسور".

"ماشي بابا. مو ضروري نحتشي عن أي شي".

يجلسان يدًا بِيَدٍ لدقائق حتى يتراجع خفاجي: "الشَّغلة صعبة. هذا كل شي".

(1) طاولة المكتب بالعامية العراقية، وأصلها أسباني.

لا تجيب مروج، ويتابع: "يطلبون مني المستحيل. بس ما بيدي اختيار".

تشدُّ مروج على يده وتقول: "مو ضروري نحتشي بالموضوع بابا".

يعود الأَلَمُ إلى رأسه، ويتحدَّث عن الأمر على الرغم من نِيَّتِه. يتصوَّر في حالته تلك أنه إن كان يستطيع تقييدَ نفسه بالحديث عن الأمور السهلة، فإنه لن يُضطرَّ إلى حَكْيِ أي شيء عن الأمور الصعبة. فيشرع بإخبارها عن العمل المكتبي والملفَّات: "اللي يريدوني أسويه إنه أقرا آلاف الفايلات".

"شكل الشغلة مثل رأيك عن الجنة بابا!"، وتَتدبَّرُ نِصفَ ابتسامة.

"إي يا حظي. هاي وظيفة العمر ومع أعظم مديرين بالعالم. مو سيِّئين لهاي الدرجة، هم بس متوهِّمين. منو اللي يتصورونه راح يجي ويشتغل بالشرطة مالتهم؟".

تُعلِّق مروج بعد سَكتَةٍ: "واحد عنده بنيَّة مريضة أكيد".

يتطلَّع إليها خفاجي، لكنها تبتسم قبل أن يقول أيَّ شيء: "تقدر تضحك بابا. ما ريح يصير شي من تضحك".

"كل شي راح يصير تمام مروج. ما دا يطلبون مني شي يعرِّضني للخطر، غير إني أروح الدوام بس".

حينَئِذٍ تضحك مروج: "ممنونة لهالشي بابا. آني ظل بالي هسه لأنك صرت عميل حقيقي".

"خليتش بحالِتْش"، ويُبادِلُها الضحك. "آني أداوم بغرفة يحرسها جيش".

"وغرفتي يحرسها جيش همين".

ويسكت خفاجي مُجدَّدًا، وتسأله مروج: "معقولة؟ كل اللي يريدوه منك إنك اتشيك فايلات".

"لحد هسَّه، إي. بس أعتقد راح نتواصل ويا الضباط اللي يريدوهم يرجعون للشغل. منو اللي راح يوافق بس؟".

تَنهَض مروج مُستَنفَرَةً: "ليش أكو ناس تشتغل ويا الأمريكان بابا؟".

"هي هاي المشكلة. الناس المُهدَّدين، اللي يقدرون يبتزُّوهم، اللي عندهم حسابات يريدون يخلصها، واللي عنده طموح. ترى أكو ناس مؤمنين بالقضية من صِدِق. وراها أكو ناس تنضم إلهم لأنهم يريدون يدمرون الشغلة كلها".

"لعد المشكلة مو بالأشخاص".

"صحيح، ممكن. المشكلة بتحديد الدافع الحقيقي إلهم"، ويُتابِعُ بعد سَكتَةٍ: "دوافعهم وهويَّاتهم. شلون نعرف إنه اللي دا يقولوه صدق؟".

يجلسان مُمسِكَيْن يدًا بِيَدٍ لبضع دقائق قبل أن يُتَمتِمَ خفاجي: "سَتُبدِي لَكَ الأيَّامُ ما كُنتَ جاهِلًا/ ويَأتيكَ بِالأخبارِ...".

"مو ضروري تقول لي أبيات سهلة بابا. مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ، هاي من قصيدة طَرَفَة: سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلًا، ويَأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ. تشان المفروض تقول لي البيت الثاني، هو أفضل: لَعَمْرُكَ ما الأَيَّامُ إِلَّا مُعارَةٌ فَما اسْطَعْتَ مِن مَعروفِها فتَزَوَّدِ".

يُقَبِّلُها خفاجي ويَعِدُها بأن يعود في اليوم التالي.

في طريقِه عائدًا، يُحيِّيه أحَدُ الحُرَّاس خارج غرف منتصف المَمَرِّ. فيُقَرِّر أن يُجَرِّبَ حَظَّه ويُظهر بطاقته التعريفية: "سيترون أرسلني

لأتكلم مع الاثنين اللي اعتقلوهم البارحة. هما موجودان هنا، صحيح؟".

ينظر الرجل إلى بطاقة خفاجي، ثم إلى خفاجي.

"أنا أعمل لحساب سيترون. يمكنك أن تتأكد إن أردت".

يَتفقَّد الرَّجُلُ لَوحًا عليه أوراق، ثم يفحص بطاقة خفاجي مُجدَّدًا.

وفي النهاية يُدَوِّنُ رقمًا ويُفسِحُ الطريق: "حسنًا، إنهم لك. على فكرة، كان الأطباء يحاولون الوصولَ إليكَ هذا الصباح ليعرفوا إلى متى هم محتجزون. هناك طلب على هذه الأَسِرَّة".

"يُفترض أن أعرف حين أنتهي منهم".

يدخل خفاجي ويرى رَجُلًا مُسِنًّا وآخر شابًّا. الرجل الذي على اليسار عُمرُه ستون عامًا وربما أكثر. تَعلَّقَت ذراعه داخل جبيرة ثقيلة، فيما عدا ذلك يبدو أن جسده لا يزال قِطعَةً واحدة. وذراعه الأخرى مُصفَّدَة إلى القضيب المعدني الخاص بالسرير. يبدو التعب على عينَيْ الرَّجُل، لكن خفاجي يُمِيِّزُ نظرةَ الازدراء فيهما. تمتدُّ يدا خفاجي، الذي أصبح واعيًا بذاته فجأة، لتُمَسِّدَ بِزَّتَه الفضفاضة.

يبدو الرجل الآخر أصغَرَ كثيرًا، ربما في الخامسة والعشرين. ولكن يستحيل التَّيَقُّن، فنصف وجهه غير المَخفيِّ وراء قناع الأكسجين مَكدومٌ ومُنتَفِخ. ويُحدِثُ تَنَفُّسُه صوتَ هَسهَسَةٍ مكتومة. الصوت الآخر الوحيد في الغرفة هو همهمة الآلات المُتَّصلة به. يضطرب جفناه قليلًا بينما يقترب خفاجي ثم يَهبِطان مُجدَّدًا. وكِلَا معصميه مُصفَّدان إلى السرير.

يبدو واضحًا أن هذان الرجلان ليسا جهادِيَّيْن؛ فشارباهما وقَصَّتا شَعرَيْهما تكشفهما. إنهما رَثَّا الثياب وقذران، وهما على الأرجح من

فدائيِّي صدام. إنهم الأوغاد المُسلَّحون الذين اضطرَّ الجميعُ للاحتراس منهم، خصوصًا الضُّبَّاط.

تمرُّ الدقائق وخفاجي جالسٌ يُحملِقُ إليهما. ويتردَّد؛ فهذا شيء لم يَكُن أبدًا ماهرًا فيه. أَعطِهِ مَكتبًا وأَعطِهِ مَلفَّاتٍ؛ وسيجعل العالَمَ كُلَّه يتكلم. أَعطِه سيناريو مُسبَقًا للاستجواب، وربما يَتمَكَّن من الارتجال قليلًا. لكن أن يستخلص المعلومات عبر الحديث وجهًا لوجه؟ كان هذا دور أشخاص آخرين.

"ها رفاق. أريد أسألكم عن اللي صار البارحة".

صَمتٌ.

"ما عندي مشكلة إذا ما تريدون تحتشون". وقد تَذكَّر سَماعَه أنَّ التَّوقيتَ المُناسِبَ للكلام هو مَربَطُ الفَرَس. فيُمسِكُ لسانَه، ويعود إلى وضع الصمت. وتصبح الأمورُ أثقلَ وأَغرَبَ. يشعل سيجارَةً ويُلاحِظُ البريق في عينَيْ الشَّابِّ السوداوين. إنه مُدخِّن.

يلتَفِتُ خفاجي إلى المُسِنِّ ويقول: "يابا، تريد وحدة؟". يُحَملِقُ الرَّجُلُ إلى خفاجي، لكنه لا يقول شيئًا، "عندي روثمانز بس. بلكي ما بيها مشكلة". يُشعِلُ خفاجي سيجارة ويضعها بين شَفَتَيْ الرجل. ولا يُبعِدُ المُسِنُّ عينيه من على خفاجي، بينما يحاول خفاجي أن يرفع ذراعَه المكسورة. يجفلُ من الألم وتَسقُطُ يَدُه إلى حِجرِه. وعيناه لا تفارقان عينَيْ خفاجي، ثم تنفصلان أخيرًا. يَبصُقُ الرَّجُلُ السِّيجارَةَ من فَمِه بكل قُوَّته، وتكاد تتجاوز السَّريرَ لتهبط على الأرض. لكنها تسقط وتتدحرج لتعود إلى حِجرِه، وتبدأ في حَرقِ المُلاءَةِ بِبُطءٍ.

أصبح لدى خفاجي الآن سيناريو للاستجواب، حتى ولو كان صَعبًا. فيترك السيجارة تحترق ويلتفت إلى الشاب: "تريد وحدة همين؟ خلي أشيل هاي حتى تقدر تدخن".

يُزيل خفاجي قِناعَ الأكسچين ويضعه على حِجْرِ الشَّابِّ.

"مرتاح هيتش؟"، ويستعرض خفاجي وهو يُمَسِّدُ المَخدَّات والمُلاءات على سريره. ثم يُخرِجُ سيجارةً أخرى بِبُطءٍ ويُشعِلُها، ثم يضعها بين شَفَتَيْ الشاب. الهلع الذي في عينيه يجعل خفاجي يلتفت بعيدًا. ويمدُّ ذِراعَه ويُطفِئُ جهاز الأكسچين. وفي أثناء ذلك كانت عينا خفاجي على المُسِنِّ.

حين تضرب أولى روائح القُماش المُحترِق جيوبَ خفاجي الأنفية يقول دون أن يلتفت: "شلونك هناك يابا؟".

يحاول الشَّابُّ أن يُحَملِقَ إلى خفاجي، لكنَّ خفاجي يُمسِكُ بوجهه: "هيتش أحسن. دا تحس إنك مرتخي؟ تريد جلاس[1] ماي؟".

يتركه خفاجي ويَهدَآن لبضع دقائق. ويلتفت أخيرًا فيرى ألسنة لَهَبٍ صغيرة ترتجف بين فَخِذَي المُسِنِّ. فيمسك بلَوحِ كتابة بلاستيكي ويشرع بالضَّرب على رجليه وبطنه. ومع احتراق وتَمزُّق قماش الملاءة، يلاحظ أن اللهب قد أحرق الضمادات التي على رجليه ولامس جلده الدامي. فينظر إلى الرَّجُل ويُبادِلُه الرَّجُلُ الحَملَقَة. لم يطرف خفاجي أبدًا، لكنه يدرك الآن مدى تجاوُز هذا الموقف لقدراته.

يلتفت إلى الشاب ويقول: "اسمعني، ما يهم منو إنت. وما يخصني شنو سويت بالأمريكان. أريد أعرف بس تفاصيل عن جريمتكم. ليش قتلتوا ذولي البنات؟".

وللمرَّة الثانية لا يسمع إلا صمتًا مُحرِجًا طويلًا. فيُقرِّر أن يغير طريقته: "كلش زين تعرفون إنهم راح يذبوكم[2] بأبو غريب من أخلص وياكم. إذا عبالكم راح تظلون هنا وأنتو ساكتين، ترى غلطانين.

---

(1) كوب بالعامية العراقية وهي تعريب كلمة glass الإنجليزية.

(2) يرمونكم بالعامية العراقية.

إذا تريدون تسكتون، طبكم مرض[1]. راح تروحون بالزَّلق[2]. لو قالوا إنكم مجرمين، هذا يكفي حتى تصيرون مجرمين".

"بس لو راح تجاوبوني، راح أخلِّيهم يتساهلون وياكم. أخليهم يجيبوا إلكم هنا تلفزيون أو فد شي".

أخيرًا يكسر المُسِنُّ الصَّمتَ: "لعنة على شرفك يا عميل. شنو الجريمة إنه ندافع عن وطنّا؟ وين العار إنه نوقف زلم؟ إنت اللي لازم تجاوب".

يتمنَّى خفاجي لو كان أمام مكتبه الآن. فالأوراق لا تستطيع أبدًا أن تُزعِجَك هكذا. ثم يشعر خفاجي بقبضته تخترق وجه الرجل قبل أن يدرك ما يفعله. وتتدفَّق الدماء من منخاره وتُغطِّي صدره وحِجرَه.

يمسح يده في الملاءات قبل أن يُخرِجَ سيجارَةً أخرى. يُدخِّن دون أن ينبس ببنت شفة، ثم يفتح النافذة وينقر عقب السيجارة نحو السماء: "ما دا أحكي عن هذا. دا أحكي عن اللي سوِّيتوه بالبنات. منو خطفهن؟ اللي راح يجاوب الأول راح أساعده".

صمت. "منو قتلهن؟".

صمت. "منو اغتصبهن؟".

يحاول الشاب أن يتحدَّثَ، لكنَّه يرتَجِفُ مُتألِّمًا. يحتاج إلى دقيقة قبل أن يتمكَّن من الهمس: "منو ذولي؟ يا بنات؟".

يُحَملِقُ خفاجي عبر النافذة: "البنات اللي تشانوا فوق، تشانوا أربعة. صعب تنسوهن أكيد ".



(1) أصابكم مرض بالعامية العراقية.

(2) بالمنزلق، تعبير عن سوء الخاتمة بالعامية العراقية.

ينظـر الشـاب بتَوَتُّـرٍ إلى المُسِـنّ، ثـم يلتفـت مُجـدَّدًا إلى خفاجـي. ويُغلِـقُ العجـوزُ عَينَيْـه ويتحـدَّث الشـاب: "مـا نعـرف شي عنهـن. وصلنـا البيـت وقالـوا لنـا نبقـى جـوا. والأوامـر إنـه مـا نصعـد".

"شنو بعد؟".

"لمـن وصلنـا قالـوا لنـا ظلـوا بالقـاط[1] الـلي جـوًّا. مـا نعـرف ليـش مـا يصـير نصعـد. الـلي أعرفـه إنـه لازم نسـمع التعليـمات. وآني التزمـت بيهـا".

"مـا شـفت منـو تشـان بالقـاط الـلي فـوق؟ مـا سـمعت أي شي؟ أربـع بنـات انضربـن طلقـات وانتـو هنـاك ومـا سـمعتوا شي؟".

"تشـنا نعـرف إنـه أكـو نـاس فـوق. هـي شـقة منفصلـة وتشـان عندهم حفلـة. سـمعنا صـوت أغـاني، بـس مـا سـمعنا طلقـات ومـا صعدنـا. تِشـنًا تعبانـين، اتعشـينا ونمنـا. عمومًـا مـا تشـنًّا راح نبقـى هنـاك أكـثر مـن ليلـة".

"بس إنتو ما تشنتوا فوق لمَّن بدت المداهمة؟".

"ما تشان أكو وقت".

"أقصـد مـن بـدا الرمـي[2]. أكـو أحـد صعـد فـوق حتـى يطفـر[3] لـو... تشـنتو أربعـة بالبيـت. أكيـد أكـو أحـد طلـع فـوق بنـص الفـوضى".

يميـلُ الشَّـابُ إلى الأمـام مُتألِّـمًا: "مسـتحيل"، وينجـح في إطـلاقِ قَولِـه بـلا تفكـير قبـل أن يفقـد صوتَـه إثـرَ نَوبَـةِ ضيـق تَنفُّـس. فيمـدُّ خفاجـي يـده ويُشـغِّل جهـاز الأكسـجين مُجـدَّدًا، ثـم يضـع القنـاع عـلى وجـه الرجـل.

يتكلَّـم المُسِـنُّ: "تِشـنًّا كلنـا بـرًّا مـن اقتحمـوا البـاب. تشـان المفـروض ألـزم حراسـة بـس نمـت. مـا تشـان أكـو تحذيـر وماكـو أحـد مـن عندنـا

---

(1) الطابق بالعامية العراقية.

(2) إطلاق النار بالعامية العراقية.

(3) يهرب بالعامية العراقية.

سـمع شي. تشـانوا غاطًـين بالنـوم وسـلاحهم بالغرفـة اللـوخ. ومـا صـار تبـادل إطـلاق نـار".

يميل خفاجي إلى الأمام: "لعد ليش صار رمي؟".

"صار رمي، بس ما تشان متبادل".

يُعيـدُ خفاجـي المُحادَثَـةَ إلى موضوعهـا: "لعـد شـنو الـلي صـار لخاطـر القـواد؟".

"صار اللي صار".

يبدو الرَّجُلُ صادِقًا، لكن هذا لا يفيد.

"اسـمع، أربـع بنـات إنرمـوا بالقـاط الـلي فـوق بالبيـت الـلي تشـنتوا بيـه. أكـو أحـد مقيِّدهِـنْ ورمـى عليهـن وفكهـن. كل هـذا صـار وأنتـو بالبيـت. مسـتحيل ينقتلـون وأنتـو مـا تعرفـون شي، أو تسـمعون ع الأقـل".

يسـمع صَمتـًا تامًّا. ينظـران إلى خفاجـي كأنـه يتحـدَّث عـن بَلـدٍ بعيـد للغايـة. ومـن دون تفكـيرٍ يُضيـف خفاجـي: "وحـدة منهـن بنـت أختـى".

مـن المفاجـئ أن تلـك الكلـمات قـد حسَّـنَت نَـبرَةَ المُحادَثَـة. إذ بقـي معهـما خفاجـي لسـاعَةٍ أخـرى يراجـع التفاصيـل نفسـها مـرارًا وتكـرارًا. وعـلى الرغـم مـن شـكوكه فإنـه يـدرك أنهـما يقـولان كلَّ مـا يعرفانـه، أي لا شيء. وفي كل مـرَّة يسـأل سـؤالًا، يُقدِّمـان الإجابـة نفسـها تقريبًـا. قصَّتُهـما مُتَّسِـقَة، حتـى ولـو كانـت لا تتوافـق مـع الحقائـق التـي رآهـا. ومـع أن خفاجـي لا يروقهـما، فإنهـما لم يعـودا يُظهِـران أيَّ تَـردُّدٍ في الحديـث عـن تفاصيـل هـذا الحـدث. فهـو بِنَظَرِهـما، لا أهميـةَ لـه.

يُغـادِرُ خفاجـي وهـو غـير راضٍ. وفي طريقـه إلى الخـارج يتوقَّـف للحديـث مـع الطبيـب: "غـيّروا البانـدج مالتهـم. خلـوا إلهـم تلفزيـون بالغرفـة. ذولي مسـاجين مهمـين. كلـش مهمـين".

يُومِئُ الرَّجُلُ ويُطَمئِنُ خفاجي على أنَّه سَيُنفِّذ ذلك. ويروق رأس خفاجي لأول مرة منذ ساعات.

يمشي عائدًا إلى المكتب. لا يجد سيترون هناك لكنَّه ترك مُلاحَظة طلب فيها من خفاجي أن يلتقيه في الصباح للحديث عن مشكلة السكن. ولا يزال الجنديُّ يجلس أمام حاسوبه ويلعب سوليتير. يُخرِج خفاجي ملابسه المدنية ويذهب إلى المرحاض ليرتديها. وفي طريقه إلى خارج القصر يقوده جوعُه نحو الكافتيريا. لقد أُغلِقَ المَكانُ، والعُمَّالُ الهنود يُنظِّفون المناضد العديدة. يرى أحدهم خفاجي ويشير إليه ليأتي. يعرض عليه أن يصنع له شطيرة، فيقبل. يُسَلِّمها له الرجل في كيسٍ وَرَقيٍّ مع زجاجة كوكاكولا بلاستيكية. ويعرض عليه خفاجي سيجارةً فيأخذها ويُعلِّقها وراء أذنه ويعود إلى العمل. يُخرج خفاجي الشطيرةَ ويأكلها وهو يتمشَّى عبر ظلال حدائق القصر نحو البوابة.

يخرج خفاجي من المنطقة الأمريكية ثم يتجاوز عِدَّةَ أَبنِيَةٍ قبل أن يبحث عن توصيلة. ويجد الوقت قد تأخَّر مع وصوله إلى البوَّابة في نهاية الشارع. تأخَّر على زيارة علي، وهو لم يكن يريد زيارَتَه على أيٍّ حال. يبتسم الحُرَّاسُ لخفاجي وهو يصعد السُّلَّم ويدعونه لاحتساء الشاي معهم.

1988

"الحمد لله إنك رجعت البيت".

نظر خفاجي إلى سهير، ثم دفن وَجهَهُ في رقبتها واستنشَقَ رائِحَتَها. تشبَّثَت به وهي سعيدةٌ، لكنَّها حائرة: "ما اتصلت وما تشنَّا نتوقع جيِّتك".

قاطَعتها مروج وهي تهبط السُّلَّم بسرعة وترمي نفسها على والدها.

"بنيِّتي، بنيِّتي! اشتاقيت إلكم هواية".

"إحنا كلش فرحانين برجعتك".

لم تُفلِت مروج والدها، ولا حتى حين هبط على رُكبَتِه ليفُكَّ رباط حذائه العسكري. ونشر قطعًا سميكةً من الطين الجاف على أرضية الغرفة الأمامية وهو يخلعه. ثم خلع الجَوربَ الذي كان جامدًا بسبب العَرَقِ المُتراكِم، فشعر بالبلاط البارد تحت أصابع قدمه.

أشارت مروج: "ريحته خايسة، خايسة! طلعوه منّا!".

أخـذت سـهير الحِـذاءَ والجَـوربَ ووضعتهـما في الخـارج. أغلَقَـت البـابَ واسـتدارت وابتسـمت: "محيسـن، لحـد يمتـى إجازتـك هالمـرة؟".

اكتفـى خفاجـي بِهَـزِّ رأسـه. ودخَلَـت سـهير المطبـخ وهـي تنـادي وراءهـا: "مـروج، تعـاي جيبـي فـد شي لبابـا. تعبـان وعطشـان. إسـأليه شـيريد يـشرب".

ركَضَـت مـروج نحـو والِدَتِهـا ثـم دارت حولهـا: "شـتريد أجيبلـك بابـا. باعنـي شـلون سريعـة!".

حاوَلَ خفاجي أن يَبتَسِمَ لكنَّه فَشل: "أي شي. ماي كافي".

حـين عـادت مـروج ورأت حـالَ والِدِهـا هرِعَـت إلى المطبـخ وعـادت تَجُـرُّ أُمَّهـا مـن يدهـا.

"إطلعي إلعبي برَّا مروج. إرجعي ع العشا، ماشي؟".

"صار ماما".

احتضَنَته سهير لدقائق قبل أن ينظر إليها أخيراً.

"وصلتش شي من عدي؟".

"شكو محسن؟".

"يمتى آخر مرة وصلتش رسالة منه سهير؟".

"شـنو علاقتـه؟ خابـرني بشـباط الـلي فـات يمكـن. مـا يقـدر يخابـرني عـلى مـود هـو بالجبهـة. بـس يـدِزّلي رسـايل كل أسـبوع بالربيـع. تشـانت توصلنـي رسـالة منـه كل خميـس. بـس مـا وصلتنـي منـه رسـالة صـار أسـبوعين".

"راويني أي رسالة. أريد أشوف وحدة".

"ليش؟ شكو؟".

"انطيني أي رسالة بس. جيبي آخر واحدة، لو أي واحدة".

عادت سهير ومعها كَومَةٌ من الأظرف. وتَفقَّدَها خفاجي ظرفًا تلو الآخر.

"ما راح تفتحها؟ آني احتفظت بكل شي".

"فصلوني سهير. ما قالوا ليش، بس ركّبوني الباص وقالول لي أبقى بالبيت لحد ما تجيني الأوامر".

"قصدك نقلوك؟".

"ما متأكد إذا فصلوني لو نزلُّوا رُتبتي لو نقلوني. بس الشغلة مو زينة. أكيد عقاب على فد شي. التعليمات إجت من فوق. طول الطريق بالباص جاي أفكر شنو السبب. وكلما فكرت يظل بالي على عُدَي".

حينها فقط لاحظت سهير البُقَع الخالية على صدره وكتفيه حيث كانت الشارات والميداليات. ومدَّت يدها لتمسك بذراعه.

"شنو علاقته بعدي؟".

"باعي الأختام مال البريد يا سهير، مو ع الجبهة. معناتها مو بالوحدة".

غَمغَمَت سهير: "الله يحفظه". ونظر هو عبر النافذة وأضاف: "ويحفظنا".

التفت إليها فجأةً وسألها: "هي هاي الرسايل كلها؟ لازم نخلص منهم هسَّه".

أومأت وشَرَعَا بالعمل.

صباح الأربعاء
3 ديسمبر 2003

يستيقظ خفاجي مُتأخِّرًا، ويتذكَّر الحُلمَ الَّذي أيقظه قبل الفجر مباشرةً وهو يُعدُّ إبريق الشاي. كان كابوسًا مُتنكِّرًا في هيئة استعراضٍ غنائيٍّ مصريٍّ. تَستَهِلُّ الفرقةُ الاستعراضَ بأغنية، وتظهر فجأةً فَتاةٌ راقصة في وسط ساحة الرقص. ويرى من كثب ابتسامتها التي تكشف أسنانًا بيضاءَ تَمضُغُ العَلكة بشراسة. تدور راقصاتٌ أُخرَياتٌ حولها وهي تتقدَّم نحو الموائد الدائرية الصغيرة حيث يجلس الجمهور ويشرب النبيذ ويُدخِّن السجائر. تستدير الفتاة سريعًا وتختفي بقيَّةُ الفتيات في جوانب الساحة. تتلاشى أصوات الكمان فجأةً ويَحِلُّ مَحلَّها إيقاع الطبول. دوم تاك، تاك دوم تاك. دوم تاك، تاك دوم تاك. يرى خَصرَ الفتاة وهو يهتزُّ بهيستيريا مُتزايِدَة. تدور وتدور بعنف، ويستمرُّ دَورانُها بينما تبلغ الموسيقا أَوجَ سُرعَتها. ثم يرى صورًا متتالية للعازفين الغاضبين. هذا عازِفٌ ينفخ بشراسَةٍ في قصبة الناي، وذاك يضرب أوتار العود، وذاك يرطم يده بالدف. وفي النهاية تنهار الفتاةُ مُتكوِّمَةً في منتصف ساحة الرقص. ويتصدَّر وجهها المَشهدَ مُجدَّدًا، حيث تتلوَّى

شـفتاها نشـوةً وألمًـا. ثـم ينفجـر الجمهـور بتصفيـقٍ حـادٍّ وتُحمَـلُ الفتـاة إلى خـارج السـاحة.

يبـدأ المشـهد مـن جديـد بعـد توقُّـفٍ قصيـر عـلى المسـرح نفسـه مـع فتـاةٍ أخـرى ورقصَـةٍ أخـرى وانهيـار آخـر. تكـرَّر المشـهدُ خَمـسَ مـرَّاتٍ إجـمالًا، كل فتـاة لهـا سِـماتُها الخاصـة وألَقُهـا. إحداهُـنَّ رياضيـة وتـركل بِرِجْلَيْهـا عاليًـا في الهـواء عـلى نحـوٍ مفاجـئ. وتقلِـبُ أخـرى معصميهـا وأصابعهـا مثـل معبـودَةٍ هندوسـية. وتلـوي أخـرى شـفتيها مثـل غجريَّـةٍ أندلسـية. وتهـزُّ الأخـيرة بَطنَهـا الممتلئـة وهـي تلـفُّ أوراكهـا بهـزَّاتٍ خفيفـة.

لم يـدرك خفاجـي أن وجـوه الفتيـات الأربعـة الأوائـل هـي وجـوهُ الفتيـات الميِّتـات إلَّا لاحقًـا في الصبـاح. ثـم جـاءت الرقصـة الختاميَّـة التـي اقتلعتـه مـن نومـه. في البدايـة بَـدَا جَسَـدُ الرَّاقِصَـة الأخـيرة مثـل جَسَـدِ سوسـن، أو سـهير. وهـي تـدور حـول مائـدة خفاجـي لكنـه لا يـرى وجههـا. تَجـذِبُ ربطـة عُنُقِـه وتتمايـل أمامـه، لكنـه لا يـزال لا يَـرَى وجههـا. ثـم تلتفـت إليـه فجـأة حـين تـشرع بالهَـزِّ والانحنـاء، وهـي قريبـة جـدًّا لدرجـة أن خفاجـي يشـعر بأنفاسـها عـلى وجهـه. إنهـا زبيـدة رشـيد.

عـاد إلى النـوم. وشـعر بالإرهـاق حـين اسـتيقظ مُجـدَّدًا، لكـنَّ صُداعَـه كان قـد اختفـى.

يُقـرِّر وهـو يُعـدُّ الشـاي أن يخبر نضـال. فيغسـل وجهـه ويحلـق ببُـطءٍ ويرتـدي ملابسـه. يتذكَّـر بطاقـات الهُويَّـة التـي كانـت بالڤيـلَّا وهـو في طريقـه إلى الخـارج، فيذهـب ليبحـث عـن كيـس الوسـادة. ثـم يحـشر البطاقـات في جيبـه ويخـرج مُغلِقًـا البـابَ وراءَه.

لا يجـد أحـدًا في مدخـل البنايـة لأوَّلِ مـرَّةٍ منـذ أيـام. ويُحيِّـي الحُـرَّاسَ عنـد بوابـة الشـارع ثـم يمـشي ببـطء في مسـار مُتعـرِّج عـبر الحـي، في الطريـق المُعاكِـس لطريـق البارحـة. ينظـر وراءه أكـثر مـن مـرَّةٍ قبـل أن

يتَّجِـهَ إلى ميـدان كـمال جنبـلاط حيـث سيسـتقلُّ التاكسـي. يتلـو العنـوان الواقـع في شـارع السـعدون، ويـردُّ السـائِقُ الشـابُّ بِصَـوتٍ مُهـذَّب: "مثـل مـا تريـد". يسـكت الشـاب ثـم يسـأل: "أقـدر أشـغل أغـاني؟".

يردُّ خفاجي: "على راحتك".

يُطلِقُ السـائق ضحكـةً مَكتومَـةً، ويُزلِـقُ شريـطَ كاسـيت قديمًـا داخـل المُسـجِّل، ويُـسرُّ خفاجـي بمـا يسـمعه. إنهـا الأغـاني الخالـدة لفـيروز، فيغلق عينيـه ويسـتمع إليهـا. وكلَّـما اسـتمع أكـثر؛ يبـدو المـاضي حـاضرًا أكـثر، ويملـؤه ذلـك بشـعورٍ دافـئ. يقابـلان نقطـةَ تفتيـش تُحـوِّلُ حركـةَ المرور، فتضيـف التَّحويلَـةُ عشريـن دقيقـة إلى رحلتهـما. وكلَّـما مَـرَّا بمحطَّـة وقـود يتوقَّـف تَدَفُّـقُ السـيارات ثـم ينفـرج بعدهـا.

يعلـو صَخَـبُ الحيـاة مـن البنايـة التـي ينـزل أمامهـا خفاجـي؛ إذ ينتشر الأطفـال في كل مـكان، ويلعبـون في الشـارع أمـام البنايـة وفي الجـراج. وتمـلأ أصواتُهـم الضَّاحِكَـةُ بِئرَ السُّـلَّم.

تُخمِّـن مهـا زوجَـةُ نضـال الخـبرَ الـذي يحملـه بمجـرَّد أن تـراه عنـد البـاب، فتنهـار عـلى الأرض. تُنهِضُهـا نسـاء المنـزل الأخريـات إلى الأريكـة فيُغمـى عليهـا ثانيـة. يَحثُّنهـا عـلى الانسـحابِ إلى غرفـة النَّـوم، فتختفـي مـع واحِـدَةٍ مِنهـنَّ. ويعـود نضـال إلى البيـت بعـد ربـع سـاعة يحمـل كيسًـا بلاسـتيكيًّا بـه خبـز طـازج. يسـمع زوجتـه ويـرى خفاجـي ويـدرك في الحـال أن ابنتـه ميِّتَـة. يجلـس عـلى الأريكـة بجـوار زوج أختـه، وتَسـتَقرُّ يَـدُ خفاجـي برفـقٍ عـلى كتفـي الرجـل المضطربتـين. ثـم يتطلَّـع خفاجـي فـيرى حشـدًا مـن الأطفـال يتجمهـر حولهـما.

يُتَمتِـمُ خفاجـي: "نزلـوا لعبـوا". فيأخـذ الإخـوة الكبـار يـدَ الصغـار ويختفـون.

تمـرُّ دقائـق قبـل أن يسـتعيد نضـال رباطـة جأشـه. يمسـح عينيـه بمؤخِّـرة يـده ويقـول: "خلصـت السـالفة. راح نهاجـر".

ينظر خفاجي بعيدًا لكنه يُبقي يَدَه على كتف نضال. يلاحظ صَفَّ حقائب السفر الممتلئة فوق سعتها بطول الحائط.

بعد سكتَةٍ طويلة، يَشدُّ نضال يدَ خفاجي إلى أن يُصبِحا مُتقابِلَيْن.

"ليش؟".

"آسف نضال. ما عندي إجابة".

"لعد قول لي شنو اللي صار. لقيتها؟".

"أول البارحة".

يضيِّق نضال عينيه وينظر بعيدًا. يتابع خفاجي وقد أحسَّ بالحرج: "تشان أكو ثلاثة غيرها، مقتولات".

يسكت خفاجي لدقيقَةٍ ليعطيه الفرصةَ لاستيعاب ما قاله: "أعتقد تشانوا مخطوفات. على مود فدية أو لأن تشانوا يشتغلون ويا الأمريكان. انقتلن أول ما ظهروا الأمريكان".

يُحاوِلُ خفاجي اللحاقَ بِعَينِ الرَّجُل، لكن نضال الآن هو مَن ينظر بعيدًا: "أخذوا جُثَّتها لمستشفى اليرموك، مثل ما قالوا. أول ما تكون مستعد أقدر آخذك إلها".

يتسرَّب سيلٌ جديد من النحيب من غرفة النوم.

يسأله خفاجي أخيراً: "تشنت تعرف إنه سوسن تشتغل ويا الأمريكان؟".

"اللي أعرفه إنها تشانت تستلم راتبها بالدولار، بس ما تشانت تحتشي عن شغلها. شكينا بالموضوع. شنو قالت أستاذتها؟".

"ما قالت شي. اللي قال لي واحد ثاني. بصراحة سوسن ما سوَّت شي يختلف عن اللي يسوِّيه غيرها من الصغار. يشتغلون بالترجمة".

وأضاف بعد سَكتَةٍ: "الصغار يقدرون يسوون شغلات أسوأ هواية. افتهمت قصدي أكيد".

يَهزُّ نضال رأسه: "مثل شنو؟".

"لا تفتهمني غلط. بس ماكو طرق هواية حتى تستلم راتب زين. شنو المشكلة لو اشتغلت ويا الأمريكان؟".

يهزُّ نضال رأسه ويَضحَكُ بمَرارَة: "جاي تتشاقى[1]؟ شنو اللي جابك هنا؟".

"ما دا أتشاقى...".

يَرمُقُ خفاجي بنظرَةٍ غاضبة ويتكلَّم في آخرها: "لعد شنو تشانت تترجم سوسن؟".

"شنو قصدك؟".

"قصدي شلون تترجم للأمريكان وهي ما تعرف إلا إنجليزي قليل؟".

كان هذا دَورُ خفاجي ليَرُدَّ النَّظرَةَ الغاضِبَة.

"كلهم يعرفون هالشي عن سوسو. ما تشانت فالحة باللُّغات. دايمًا تشانوا إخوتها يصنِّفون[2] عليها لأن ما تشانت تفتهم عليهم مِن يحتشون لغات، وما راح تفهم عليهم".

يضحَكُ ويَتمخَّطُ، ويَهزُّ رأسه مرارًا وتكرارًا.

"مغفل اللي يشغل سوسو مترجمة. لقيت البنية الغلط".

لا يعرف خفاجي ما يجب أن يُفكِّرَ به، فيستعرض وهو يتفقَّد ساعَتَه ويُقرِّر الرحيل. يقف ويقول لنضال: "بيش أحلف لك نضال

(1) تمزح بالعامية البغدادية.

(2) يسخرون بالعامية البغدادية.

إنـه الجثـة الـلي لقيتهـا تشـانت جثـة بنتـك. أدرى الشـغلة مـو منطقيّـة ويمكـن أكـون غلطـان، بـس وعـد منـي راح أعـرف الحقيقـة".

يبـدأُ خفاجـي التَّفكـيرَ في احتماليـة أن هنـاك خَطـأً مـا وهـو يَهبِـطُ السُّـلَّمَ ويخـرج إلى الشـارع. لكِنَّـكَ رأيتَهـا بـأُمِّ عينَيْـكَ. يَدعَـكُ عينيـه الغائِمَتَـيْن ويـترك الإجهـادَ يتدفَّـقُ إلى أنحـاء جسـده. ويعـود الصُّـداع سريعًا.

ينتـشر الأطفـالُ حـول خفاجـي وهـو يتقـدَّم بالشـارع. وفجـأةً يُزعِجُـه ضحكهـم. وتـضرب كُـرَةٌ حُفـرةً في الشـارع وتَرتـدُّ إلى خفاجـي. يحـاول أن يَرُدَّهـا ركلًا لكنـه يَخفُـقُ. فيصيحـون ويجـرون وراءهـا فجـأةً، بينـما يلعـن هـو بـلا صـوتٍ تقريبًا.

1988

إلى: جهاز المُخابَرات العراقية، المديرية الرابعة

بخصوص: عدي محسن خضر الخفاجي

هـذا التوضيـح الرسـمي مدفـوعٌ بمُقابـلات مـع ضُبَّـاط مـن المديريـة الرابعـة (بتاريـخ: 30 تمـوز) وهيئـة الاسـتخبارات العسـكرية (بتاريـخ: 22 تمـوز) بخصـوص انشـقاق ابـن أخـي، عُـدَي محسـن خـضر الخفاجـي. ليكن معلومًـا أننـي قابَلـتُ ابـن أخـي بضـع مـرَّاتٍ فقـط، وأن علاقتـي بأسرتـه غـيرُ وَثيقـة مـن قبـل ارتكابـه لجريمتـه بفـترة طويلـة. صحيـح أن ابـن أخـي حـاوَلَ لشُـهورٍ عِـدَّة أن يتواصـل معـي عـبر البريـد، لكـن يجـب تأكيـد أن هـذه اللفتـة مـن جانبـه لم تكـن بدعـوةٍ مِنِّـي، وقـد توقَّفَـت منـذ أكـثر مـن ثـلاث سـنوات. أعتقـد أن ذلـك كان بدافـع رغبتـه في مُمارَسَـةِ لُغتِـه الإنجليزيـة أكـثر مـن شـعوره بـأي صِلَـةِ قرابَـةٍ بي.

لـن يَصعُـبَ عليكـم إثبـاتُ ذلـك، وحسـب التعليـمات، فإننـي لم أحفـظ إلَّا علاقـة وديـة بأقـاربي في العـراق منـذ انتـدابي في جامعـة إكسـتر. أعتقـد أن المُراجَعَـة العادلـة لأفعـالي سـتُعفيني مـن أي مسـؤوليَّةٍ أو صِلَـةٍ بهـذه القضيـة، وقـد امتنَعـتُ عـن التواصـل مـع أخـي منـذ أُخطِـرتُ بإعـدام

ابـن أخـي. أخـشى أن أتجـاوَزَ حـدودي، لكننـي سـأكون مُقـصِّرًا إن لم أُقـدم التماسًـا بالنيابـة عـن أخـي، محسـن خـضر الخفاجـي. لقـد فَهِمـتُ مـن مقابـلاتي أنـه قـد أُعفِـيَ مـن المنصـب الـذي تـولّاه لأكـثر مـن عَقـد، وهو ما يبـدو لي كخطـأ. أعـترف بأنـني لسـتُ بعيـدًا عنه لدرجـةِ فُقدانِ كُلِّ مشـاعر الأُخـوَّة تجاهَـه، ومـع ذلـك فـإن تفكـيري يظـلُّ موضوعيًّـا ويبقـى دافِعـي عَمليًّـا. إن سُـمعَةَ أخـي في الجهـاز نموذجيَّـة. فيُعـرف عنـه أنـه مُحقِّـقٌ مُجتَهِـدٌ ومُشَـغِّل موهـوب للشَّـبَكات ونُظُـمِ المعلومـات. إن وجدتـم أن التزامـه تجـاه حِزبنـا المجيـد يظـلُّ غـيرَ مُتَزَعـزِعٍ، وأن ولاءه للقائـد الأعـلى (حفظـه اللـه) يظـلُّ راسِخًا في أعقـاب هـذه الحادثـة؛ فإنَّنـي أوصي بإعـادَةِ تأهيلـه. بـل قـد أضعـه بالاعتبـار لشَـغلِ مَنصـبٍ في مكتـب المعلومـات والسِّجلّات. فكـما يقولـون: الأرشـيفُ بكفـاءَةِ مَـن يعتنـي بـه.

دُمتُم للنِّضال.

حسن خضر الخفاجي

بعد ظهيرة الأربعاء
3 ديسمبر 2003

كانت الشَّمسُ عالِيَةً في كَبِدِ السماء مع وصول خفاجي إلى المنطقة الأمريكية، وكذلك الأَلَمُ في رأسه. الهواء دافئٌ على غير المتوقَّع، بل ساخِنٌ. ويبدو طابور الانتظار عند البوابة مُحبِطًا، فينسحب إلى مقهى دجلة. يشرب كوب قهوة وينظر إلى الجانب الآخر من الطريق، مُمتنًّا لأنه لا يقف هناك.

يفكِّر أولًا في الجلوس بالخارج في الهواء. لكنَّ أَلَمَ رأسه يُجبِرُه على الانتقال إلى الظِّلِّ. يَعجُّ الميدان في تلك الساعة بالناس والسيارات، مئات السيارات والشاحنات مُعظَمُها في اتجاهها نحو الغرب، إلى خارج المدينة. وتصطفُّ بِضعُ سيَّاراتٍ لينضمَّ قائِدوها إلى طابور الدخول. ويَمُرُّ المُشاةُ بذلك الحَشَدِ من جميع الاتجاهات. لا يبدو الواقفون في الطابور مُختَلفين عن الأكياس البلاستيكية التي تُرَفرِفُ عالِقَةً بلفائف السِّلكِ الشَّائِك عند مُراقَبَتِهم من مسافةٍ بعيدة. يأخذ خفاجي بعض الجرائد التي تركها أحدُهُم ويَشرَعُ بقراءتها. تَمتلئُ الصفحات الأولى بافتراضاتٍ عن الإسبان السبعة الذين قُتِلوا قرب مدينة الحِلَّة. أكانت تلك المخابرات العسكرية الإسبانية؟ أم وكالة الاستخبارات المركزية؟

أم الموساد؟ ثم يقرأ بالصفحات الداخلية عن مَقتَلِ رقيبَيْ شُرطَةٍ في الموصل. يثني الجريدة ويتركها على الطاولة؛ إذ يؤلمه رأسُه للغاية؛ فلا يقوى على متابعة القراءة. ثم ينهض ويُقرِّرُ اختبار حَظِّه عند البوابة.

كاد يصل إلى الجانب الآخر من التَّقاطُع حين انطلقت الفوضى. كانت الطَّلقاتُ النارية أولى علاماتِ أَنَّ هناك مشكلة. بعدها غَطَسَ الكُلُّ فجأةً، ووثب المُشاةُ وراء العربات الكبيرة. حاول رُكَّابُ السيَّارات في البداية النُّزولَ تحت التابلوهات والمقاعد، ثم فتحوا أبواب السيارات وهربوا. توقَّفَت الطلقات، لكن الجلبة مُستَمِرَّة عند البوابات. تنطلق صفارات الإنذار ويظهر الجنود عند المتاريس. ويصيح مُكبِّرُ صَوتٍ بالتعليمات، لكن الصَّوتَ مُشوَّشٌ لدرجةٍ تُعيقُ فَهمَه. لكن رسالته البسيطة لا تستغرق الكثير من الوقت حتى تُفهم: غادروا المنطقة حالًا.

يُهَروِلُ خفاجي عائدًا إلى المقهى ويطلب شايًا. وفي خلال دقيقة تمتلئ الطاولات حوله بأشخاص يراقبون الشارع بقَلَقٍ. يتدفَّق المُشاةُ مبتعدين عن البوَّابة. وتتراجع السيارات والشاحنات والحافلات ثم تنطلق مسرعة. أصبح الشارع خلال عشرين دقيقة خاويًا إلَّا من بعض السيارات المهجورة. وبين الحين والآخر ينطلق النداء المُشوَّشُ عبر مُكبِّر صوت بعيد. يسمع خفاجي كلماتٍ لكنَّ الرِّياحَ تذرو معانيها. ويُقرِّر استغلال الفرصة حين يلاحظ أن الطابور قد اختفى.

يرى وهو يقترب فنطاسًا كبيرًا مصفوفًا أمام البوابة مباشرة. وأبواب كابينة السائق مفتوحة على آخرها. وثَمَّة رَجُلٌ يرتدي بذلةً مُدرَّعةً سميكة يدور حولها ببُطءٍ ويفحص أجزاءً منها بين الحين والآخر. يبدأ صوتٌ في الصِّياح على يمين خفاجي قائلًا: "امشي منّا! امشي منّا!".

يستدير خفاجي ويرى واحِدَةً من الحُرَّاس المعتادين عند البوابة. يبتسم لها ويرفع يديه فوق رأسه: "مرحبًا يا فلوريدا! هذا أنا، مو!". يتقدَّم ببُطءٍ: "آسف يا فلوريدا. لم أفهم ما يقولونه، أكل شيء بخير؟".

تتمعَّن المرأة بوجه خفاجي للحظة ثم تلاحظ بطاقة التعريف المُعلَّقة برقبته. وأخيرًا تومئ بعدما تَذَكَّرَته.

"ما الأمر؟".

"لدينا مشكلة. يُحتَملُ وجود قنبلة في تلك الشاحنة. إنها ضخمة، تعال هنا". وتتكلَّم في لاسلكي ثم تُلوِّح لخفاجي ليأتي. يفصلهم عن الشاحنة من هذه الزاوية مائة مترٍ ولَوحٌ خرساني بعُلوِّ الكتف. تمرُّ الدقائق بطيئةً وهما يتابعان فرقة المفرقعات وهي تفحص الشاحنة. يُمرِّر الرجل ذو البذلة أصابِعَه بطول معدن الخزَّان اللامع، ويستشعره ويستمع إليه، ويخطو بضعَ خطوات، ثم يستشعره ويستمع إليه مُجدَّدًا. تَمرُّ رُبع ساعة من المُراقَبَة قبل أن يلاحظ خفاجي الجَسَدَ البَشَريَّ المُتكوِّمَ قرب الكابينة. إحدى قدميه ترتجف وتركل. فيلتفت ويلفت نظر الجندية التي توضِّح قائلة: "لقد شَقَّ هذا الرجل مُقدِّمَةَ الطابور؛ ما جعل السيارات الأخرى تشرع بالتزمير. وبعدما جذب ذلك انتباهَ الجميع، وخرج أحدٌ ليرى ما يحدث، فَرَّ السائق وترك المفتاح بالسيارة. لقد فَرَّ راكضًا لكنه لم يبتعد كثيرًا".

يتفرَّج خفاجي بينما يخلع الرجل ذو البذلة خوذَتَهُ المعدنيَّةَ السميكة ويُلوِّح بكلتا يديه بضع مرَّاتٍ ويبتعد. وبعد بضع دقائق، يُخَشخِشُ لاسلكي الجُنديَّة. لقد تَمَّ الفحص وهذه ليست قُنبُلَة. يخرج مُسعِفان من البوَّابة، ويهرعان نحو الرجل الذي على الأرض. لكن حينئذ كان جَسَدُه قد توقَّف عن الحركة. يتتبَّع خفاجي الجندية تاركًا مسافة تقارب 20 مترًا وراءها، يُحرِّكه الفضول، لكنه غيرُ واثِقٍ بشأن ما يجب أن يفعله. يومئ أحدُ الجنود الآخرين حين يَلوحُ

خفاجي. ثم يرى خفاجي مُتَرجِمَيْن اثنين بينهم، وهما الآن يرتديان بزَّةً عسكريَّةً وتَدريعًا جَسديًا سميكًا. يتقدَّم خفاجي بدافِعٍ من فضوله إلى حيث يقفون. وخلال بضع دقائق يحتشد رجالٌ ونساءٌ ببزَّاتٍ عَسكريَّة حول الفنطاس. ويقف بينهم أوَّلُ جنديٍّ واجه السائق. "خرا! لقد كان انتحاريًّا!"، ويرتعد الرَّجُلُ خوفًا وحماسًا. يحاول زملاؤه تَهدِئَته، لكنه يَظلُّ يروح ويجيء صائحًا: "ما هذا الذي رأيته!".

يُحدِثُ الهَواءُ المكتومُ صَوتَ هَسهَسَةٍ حين يفتحون سدَّادات الفنطاس. يضع جنديٌّ وجهه داخل الفتحة وينظر إلى الظلام. الحرارة تجعله يخرج وينتظر للحظة قبل أن يُدخِلَ وَجهَه مُجدَّدًا. يعبس ويدعك منخاره ويطلب كشَّافًا، فيقذف أحدهم كشَّافًا إليه. يُصوِّبه الجندي إلى داخل الفنطاس وينظر مُجدَّدًا. ينظر لوقت طويل ثم يصيح داخل الفتحة. وفي النهاية يصيح قائلًا: "أيُّها الرقيب، الأفضل أن تصعد وتتفقَّد هذا، هناك رِجالٌ بالأسفل. هذا أشبه بالفُرن. الأفضل أن تجلب المُسعِفين".

يصعد أحدُ المترجمين سُلَّمَ الصهريج ويشرع بالنداء في الظلام. ينادي وينادي، ويصبح صوتُه محمومًا، ثم ضعيفًا. يلوح له الجندي ليبتعد ثم يجلس على قِمَّة الفنطاس. ويهبط المُتَرجِمُ السُّلَّم على جانب الصهريج مُتَمتِمًا: "هناك عشرون بالداخل، كأنهم نيام. عشرون رجلًا نائمًا".

يُقرِّر خفاجي أن يبتعد بأقصى سرعة. يستدير ويمشي نحو البوَّابة الخارجية ولا يجد أحدًا هناك؛ فيمرُّ دون توقُّفٍ. وحين يَصِلُ إلى البوابة الداخلية يوقفونه ويطلبون منه أن ينتظر جانبًا حتى يتلقَّوا الأوامِرَ بإعادة فتح البوَّابة. فيجلس بجوار صندوقٍ معدني له فتحة في جانبه. وتنبعث رائِحَةُ بارود قويَّة من الداخل. ثم يشعل سيجارة ويقرأ إجراءات تأمين السلاح على جانب الصندوق.

بعـد ربـع سـاعة يسـمحون بمـروره وآخريـن مـن البوابـة الثانيـة. فيتقـدَّم ولا يُبطِـئُ إلَّا حـين يَمـرُّ بكاشـف المعـادن في ديفـاك. يأخـذ كـوب شـايٍ وَرَقـيٍّ مـن الكافتيريـا، ويُقـدِّم للعامـل سـيجارةً في المقابـل. يُعـرِّف الرَّجُـلُ نَفسَـه بلُغَـةٍ عربيـة عرجـاءَ باسـم نعـمان. ويتبعـه خفاجـي عـبر المطبـخ إلى بـاب رصيـف التحميـل. يذكـر نعـمان أنـه تعلَّـم قليـلًا مـن العربيـة في الريـاض:

"قضيتُ هناك عشر سنوات. سَوِّيت العمرة مرتين والحج مرة".

يسأله خفاجي: "شلون تشانت؟".

"ماذا؟".

"الرياض، شلون تشانت؟".

"في طُـرُق سريعـة ومسـاجد، وطـرق سريعـة ومولـز[1]"، ويضحـك. "لا أعـرف. شـغل كتـير ومـا في متعـة". يسـكت ويضيـف: "راتـب سـايق كاديـلاك عـشر سـنوات يسـاوي شـقة في ديلهـي".

يُدخِّنـان في صمـت، ثـم يهمـس نعـمان: "مـو كتـير سـيِّئة لحـد الحـرب. سـاعتها مديـر راح لأوروبـا سـتة أشـهر وفصـل كل العاملـين إلا أنـا. فصـل بسـتانيين وطباخـين وشـغالات. اللـه بـس يعـرف ليـش خلُّـوني. عملـت بسـتنة وصيانـة وتنظيـف والسـيارة، وكل شي! عملـت وظائـف عـشرة أشـخاص. ولمَّـا رجـع، شـاف ممكـن يوفـر أمـوال. فوفَّرهـا للأبـد. ومـا بقـى غـيري بعدهـا. مـا كان عنـدي لحظـة راحـة بعـد الحـرب! نـو أوفنـس بـس ريتـه صـدام كان يصـوب أحسـن. يمكـن مديـر مـا كان رجـع!".

يضحـك ويُـصِرُّ عـلى مصافحـة خفاجـي. فيعطيـه خفاجـي سـيجارَتَيْن أُخرَيَـيْن. في البدايـة يحـاول نعـمان أن يضـع كلتيهـما وراء أذنـه، ثـم يُزلِقُهـما داخـلَ جيـب قميصـه.

---

(1) مراكز تَسوُّق.

مساء الأربعاء
3 ديسمبر 2003

يَشعُرُ خفاجي بالصُّداع يعود إليه حين يصل أخيراً إلى المكتب. أول ما يلفت نَظَرَه هو كتاب الشِّعر المُستَقِرُّ على مكتبه حيث تركه، ثم الرَّجُلان ذَوَا العنقين السميكين والبذلَتَيْن اللامعتين. يلاحظ خفاجي صدريهما الضَّخمَيْن ويتوقَّف للحظة. وحين يلمح سلاحَيْهما، يجد أحدهما يدفعه نحو كرسيٍّ، بينما يختفي الآخر في الردهة. يجلس خفاجي لمدة خمس دقائق على كرسيٍّ سيترون ويد ذلك الغريب على صدره. يومئ ويسأل: "جاي تدور على سيترون؟"، ولا يجد إجابة.

يضيف: "هو مو هنا. خلي أجيبه إلكم".

يَدفَعُه الرجل بقُوَّةٍ ويقترب من وجهه، ثم يهمس بصوتٍ بالكاد يُسمَع: "اخرس".

يجلس خفاجي وضيفه وجهًا لوجه وتتبادَلُ رُكَبُهما القُبَل. يحاول أن يبتعد بنظره عن عينَيْ الرجل دون أن يكون ذلك واضحًا جدًّا. فينظر يمينًا ويسارًا، ثم تستقرُّ عيناه على النافذة. يجد الستائر

مُنسَدِلَة مثل كُلِّ يوم. فيتمعَّن بخزانة الملفَّات، ثم يغلق عينيه ويذهب للبحث عن سوسن.

يعود الرجل الآخر من مشواره بعدَ بعض الوقت. كان خفاجي حينئذ قد درس المَشهَدَ وخمَّن الخيارات التي أمامه. ولا يتفاجأ حين يدخل الموصليُّ بِبُطءٍ عبر الباب، والذي يبدو وجهُه جادًّا كأنه على بوَّابَةِ استفتاءٍ شعبي. يُظهر الرجل الآخر قِرابَ مُسدَّسٍ مُعلَّق بكتفه وهو يعدل سترته. لو تحرَّك خفاجي سريعًا لتمكَّن من أخذ مسدس الرجل. لكن الموصلي يجلس ويُمَسِّدُ بدلته بيدين ناعمتين طريَّتَيْن. وينظر خفاجي إلى حذاء الرَّجُل فيجده لا يزال جديدًا، ولا يزال لامعًا. كأنه لم يطأ أرضَ العراق بعد.

لا ينبس ببنت شَفَة، بل ينخر كالحصان. فيبدأ خفاجي التَّمَلمُلَ وينظر إلى السقف ثم عبر الباب. يبدو كل شيء طبيعيًّا في الردهة. فثمَّة شَبابٌ أمريكان ببذلاتٍ يَمشون بأكوابٍ ورقيَّة وهواتف نقَّالة. لا أحد ينظر إلى الداخل، ولا أحد يلتفت حوله. فيغلق الرَّجُلُ البعيدُ البابَ بحَذَر. ويقترب الموصلي فجأةً ويرمي مُجلَّدًا برتقاليًّا على حِجْر خفاجي. أعرف هذا السيناريو: إنه المَلَفُّ والمُجلَّد. فيبتسم خفاجي. "افتحه".

تَفُكُّ أصابع خفاجي الخيطَ الأَحمرَ، وتُخرِجُ حزمَةً صغيرة من الأوراق. تنزلق صورتان فوتوغرافيَّتان على الأرض. ويدرك أنه لا يعرف هذا السيناريو مطلقًا حين ينحني ليلتقطهما. تلمس أصابعه الصور، ويتمنَّى لو أنه كان جالسًا في مكان آخر بغرفة ما أخرى. تعود إحدى الصورتين إلى عام 1988، وهي لمجموعة رجالٍ بِزيٍّ مُوحَّدٍ يجلسون في مكتب. يستغرق خفاجي ثانيةً ليتذكَّرها، إنها بمقَرِّ القيادة الإقليمي في السُّلَيمانِيَّة. ويبدو واضحًا أنهم يضحكون مع أنهم جميعًا يعتمرون

أقنِعَةَ الغاز السوفييتيَّة القديمة. يحمل بعضهم أكوابًا زجاجية صغيرة من الشاي، كأنهم يرفعون نخبًا.

قضى خفاجي عام 1987 في كركوك، يُواجِهُ فوضى إعادة توطين آلاف الجنوبيين في المدينة بأقصى سُرعَةٍ مُمكِنَة. ونُقِل في العام التالي إلى الجبال والجبهة. كانت تلك السنة الوحيدة في حياته التي تمنَّى فيها لو لم يَعِش أبدًا. لقد كتب رُزمًا من الأوراق عنها، وأعدَّ بشأنها مُذكِّراتٍ وتقاريرَ. لكنه تحدَّث عنها مرة وحيدة، إلى سهير. ولم يُكرِّرها أبدًا. لقد ذهب إلى الشمال، ونجح في أن يبقى على قَيدِ الحياة. وفي المُقابِلِ جَرَّدوه من كل شيء وأرسلوه إلى بيته.

لقد وَلَّت تلك الأيَّامُ منذ زمن. إنها مَنسيَّة وممسوحة. واليوم يُحَملِقُ خفاجي إلى صورة بعد سِتَّةَ عَشرَ عامًا، وتُحَملِقُ الصورة إليه، وتجرُّ وراءها قافِلَةً من الذكريات. دائمًا ما قال والد خفاجي إن السِّرَّ بين يَدَيْ الغريبِ سلاح. ونادرًا ما كان أبوه مُخطِئًا.

يميل الموصليُّ إلى الأمام ويُلوِّح إلى "خفاجي: "كمل قراية. لا يظل بالك لو الأوراق توسخن، الأصول مالتها بكاليفورنيا".

الصُّورَة الأخرى في الشتاء عند بوَّابات مكانٍ سَمَحَ خفاجي لنفسه بتصديق أنه لم يَكُن إلا حُلمًا سيِّئًا. يشعر فجأةً بهواء قارسٍ ويَقشَعِرُّ حين يرى المنازل والأَحصِنَةَ والبغال والأحذية الطويلة والإطارات والبناطيل، والطين الذي يُلطِّخ كُلَّ شيء.

"تعرف هذا شنو؟ مكان اسمه توب زاوا. تشانت المديرية كلش كفؤة هناك. أكو وحدات هناك عندها سجلات دقيقة هواية لكل شي. مثل ما تشانت سجلاتك كلش دقيقة".

يُحدِثُ هذا الاسم -توب زاوا- جُرحًا قطعيًّا بطول السنين. لقد استخدمه خفاجي لمدَّةِ عامٍ حتى أصبح وَقعُه حادًّا لدرجة أنه يكاد

يَجرَحُ. كان عامًا من النشاط المُستَمِرِّ، والتحليق فوق الوديان والغوص في التقارير، واقتحام ضباب الحرب بلا تردُّد.

ظلَّ لسنواتٍ لا يَتذكَّر سوى الزهور البرية. فقد وصل إلى هناك مع حلول الربيع، فكانت الجبالُ أشبهَ بالسِّجَّاد وعليها تصميماتٌ خيالية وما يُشبِهُ آثارَ الندبات. لم يَرَ أبدًا أيَّ شيء بهذا الجمال. الجبال مُغطَّاة بدرجاتٍ من الأبيض والأحمر والأرجوانيِّ، والأخضر يمتدُّ بلا نهاية. والنرجس الأحمر يَتفرَّع كالوريد الدَّامي في قلب التِّلال، والهواء برائحة الأعشاب البَرِّيَّة. علَّمه سائِقُه الأَسماءَ الكُرديَّةَ لكل وردَةٍ ونبات. لكن الآن، في هذه اللحظة بالذات، لا يتذكَّر خفاجي إلا رائحةً خضراء حلوة، إنها رائحة الموت. يتذكَّر رائحة التفاح والبصل الأخضر والثوم التي تظلُّ عالِقَةً لأيَّامٍ في الوديان. إنها رائحة غاز الخردل. فيستبدُّ الضَّعفُ به في مقعده، وتَنزلِقُ الأوراق من على حِجرِهِ إلى الأرض.

لا يعرف مُطلَقًا ما سيحدث بعد ذلك، ولا حتى إلى متى سيستمر. يُدرِكُ أن الموصليَّ يَتحدَّث إليه، لكن كأنَّ الغُرفَةَ أصبحت مُظلِمَةً. يفتح عيناه على آخرهما والأضواء تعمل، لكنه لا يرى شيئًا. ويسمع بين الحين والآخر أصواتًا من الردهة، لكنها تَمُرُّ وتتلاشى. ويسمع خطواتٍ ومُحادَثاتٍ تأتي وتَمُرُّ.

ينفتح البابُ فجأةً بعد بعض الوقت، ويدخل المُساعِدُ مع شابَّيْن آخرين. يضحكون على نكتة ما ويحملون قهوة في أكواب ورقية.

يصيح: "أيُّها المفتش!"، ثم يلتفت إلى الموصليِّ، ويضيف، وقد أصبح وجهُه جادًّا فجأة: "مسرور جدًّا للقائِكَ يا سيِّدي". يتقدَّم الشَّابَّان الآخران بالدَّور، حريصَيْن على مصافحة يَدِ المَنفيِّ: "إن مقابلتك شرف يا سيدي".

يَقِفُ الموصلي وينشغل بتمسيد سُترَتِه وهو يردُّ عليهم. ويبتسم ابتسامةً عريضة وقد استرخى كُلُّ مَن في الغرفة.

يشعر خفاجي بقَلَقِ سَميكَيْ العُنُقِ الواقِفَيْن عند الباب، وهو ما يُوقِظُه من كابوسه. لديه بضعُ ثوان فقط ليستغلَّ هذا الموقف، فيُقَرِّر استغلال الفرصة. ينهض ويقول للمساعد: "سعيدٌ برؤيتك. لقد كُنَّا نتناقش بشأن كيفية تنسيق الجهود بشكل أفضل". ويُصافِحُ رفيقَيْ المساعد، ثم يريح يده بلا تَكَلُّفٍ على كتف الموصلي وكأنهما صديقان: "فلتجلسوا جميعًا. دعونا نبدأ الآن".

يجلس المُساعِدُ ويُعلِّق: "حسنًا إن لم يكن وجودُنا ثقيلًا". فيجيب خفاجي: "أبدًا. على الرَّحب والسعة".

يُقدِّم المساعد الشابَّيْن الآخرين ذوي البذلات: "هذان الشابَّان سينضمَّان إلينا أيضًا. إنهما من بروسبيرتي، لكنَّهما على صِلَةٍ بكل ما نفعله هنا. ربما حتى قد يكون لديهما بعض الأفكار الجديدة بشأن التنسيق".

يضحك أحدهما: "لا أعرف شيئًا عن ذلك!"، ويبتسمون جميعًا وينظرون إلى خفاجي.

يشرَعُ الموصليُّ بقَولِ شَيءٍ ما، لكنَّ خفاجي يُقاطِعُه: "العملية حسَّاسة، لكن هذا يجب ألَّا يوقفنا، أليس كذلك؟ لِمَ لا أجلب لنا بعض قهوة؟". يرفع المساعد والآخرون أكوابهم الورقية تعبيرًا عن اكتفائهم. بينما يميل الموصليُّ إلى الوراء ويبتسم بانزعاج. يُحاوِلُ خفاجي أن يكون لطيفًا وهو يجذب سُترَتَهُ من على شَمَّاعة المعاطف، لكنه يفشل.

"سأعود بعد قليل إذًا"، يُعلِنُها خفاجي للموجودين بصوتٍ مَسرور. بل ويربت على ذِراعِ الرَّجُلِ الواقف عند الباب وهو يَمُرُّ به.

يُشعِلُ سيجارةً على درجات سُلَّمِ المستشفى ويحاول أن يُفكِّر، لكنَّ كُلَّ نيكوتين العالم لن يَحلَّ هذه المشكلة. فينقر عُقبَ السيجارة بعيدًا ويدخل.

يتذكَّر الكتاب المُستَقِرَّ على مكتبه وهو يُسجِّلُ الدخول في الطابق الرابع بالمستشفى. ومع وصوله إلى غرفة مروج يعجز عن الحديث عن أي شيء سوى الكتاب: "آسف مروج، ما جبت شي. نسيت الكتاب الملعون مرة اللوخ".

تتطلَّع مروج بعينَيْن مُتعَبَتَيْن وتحاول الابتسام. ويبحث هو عن كرسيٍّ ثم يعود للجلوس بجوارها. تأخذ يده وتربت عليها برفقٍ بِيَدِها الدافئة. تمرُّ دقائِقُ قبل أن تكسر مروج الصَّمتَ: "شنو اللي دا يضايقك بابا لهاي الدرجة؟".

يداعب خفاجي شَعرَها ويُتَمتِمُ: "ما أريد أحتشي".

أَغلَقَت عينَيْها وهَمَسَت: "أحتشي بابا. لو تروح أحسن".

لا يُعلِّقُ وتَمرُّ دقائِقُ قبل أن تُكرِّرَ مروج: "إحتشي".

يستمرُّ صمتُ خفاجي، لا يُقاطِعُه سوى سُعال المريضة الأخرى في الغرفة، والرَّنينُ الرَّقيقُ للجهاز الطبي. ثم يشعر بالبرد فجأةً ويبدأ بالارتجاف.

"بابا، إنت مريض؟".

لا يَبعَثُ صَوتُ مروج على الرَّاحَة. وكلَّما فتح فمه ليتكلَّم، ينسكب غضبه وإحباطه. يُخبِرُ مروج عن ابنة خالها. يخبرها عن الجُثَثِ التي على الأرض والدَّمِ والذباب. يخبرها عن حركة المرور ونقاط التفتيش والمَشرَحَة. يخبرها عن الرَّجُلَيْن اللَّذَيْن في منتصف الممر. يُخبِرها مع أن لا شيء يبدو منطقيًّا. يخبرها عن الجيران الجُدُد في المنزل. يخبرها عن الفِتيَةِ المُسلَّحين الجالسين في المدخل. يخبرها عن الطُّرُقِ الملتوية التي يسلكها جيئةً وذهابًا من وإلى البيت. يخبرها أنهما تَعرَّضا للطرد. يُحَملِقُ عبر النافذة وهو يتحدَّث، ولا ينظر إليها ولو مَرَّة. تستمع مروج وتَمدُّ يدها إلى يده. وأخيرًا، يَشرَعُ بالحديث عن السُّلَيمانيَّة،

وعـن تـوب زاوا. ويتفاجـأ حـين يجـد أنـه لم يَنـسَ شـيئًا. يتحـدَّث لوقـتٍ مَـرَّ كأنَّـه سـاعات، يُخبِرُهـا بِـكُلِّ شيء.

حـين ينظـر إليهـا أخـيرًا يجدهـا نائمـة. يأخـذ يـده مـن يدهـا ويداعـب خَدَّيْهـا ويرفـع البطانيـات إلى ذقنهـا. يلقـي نظـرة حولـه في الغرفـة ويلاحظ أن المريضـة الأخـرى مسـتيقظة تمامًـا وتُحَملِـقُ إليـه كأنـه شَـبَحٌ. فيقـف بحركـة تلقائيَّـةٍ مُفاجِئَـة، وتنـادي مـروج بصـوتٍ رقيـق: "آني هنـا بابـا. قـول لي بيـت".

"مـاشي مـروج"، ويَسـكُتُ قبـل أن يُجيـب: "لِسـانُ الفَتَـى نِصْـفٌ ونِصْـفٌ فُـؤادُهُ، فَلَـمْ يَبْـقَ إلَّا صُـورَةُ اللَّحـمِ والـدَّمِ/وإنَّ سَـفاهَ الشَّـيخِ لا حِلْـمَ بَعـدَهُ، وإنَّ الفَتَـى...".

يَنتَظِرُ خفاجي صوتَ مروج، لكنَّه لا يَسمَعُ شيئًا.

"وإنَّ الفَتَـى بَعـدَ السَّـفاهَةِ يَحْلُـمِ. هـذا زهـير[1]. تُصبحـين عـلى خـير مـروج"، ويَهمِـسُ: "أرجـع باتـشر".

يُلقـي نظـرةً عـلى المريضـة الأخـرى وهـو يبتعـد، وتختفـي هـي تحت بطانيَّاتهـا.

يصـل إلى المنـزل ويجـد الحـُرَّاسَ قـد عـادوا إلى مواقعهـم. فيهـرول وهـو يَمـرُّ بهـم عنـد البوَّابـة، ثـم يهـرول مُجـدَّدًا عنـد المدخـل. ويحاولـون كالعـادة أن يوقفـوه بـأن يعرضـوا عليـه الشـاي. ويلاحـظ أن الردهـة ممتَلِئَـة بحقائـب السـفر وعُلَـب الكرتـون. ويسـمع ضجَّـةً بالأعـلى حين يبلـغ السُّـلَّم.

يحتشـد جَمـعٌ مـن الرجـال عـلى بَسـطَةِ السُّـلَّم التـي تسـبق الطابـق الثـاني حـول شـخصٍ يَرتـدي رداءً وعمامـة باللـون الأسـود، إنـه رَجُـلُ ديـن. ويسـتغرق خفاجـي دقيقـةً ليبلـغ مُنتَصَـفَ الحَشـدِ الكثيـف. إنهـم

(1) الأبيات من مُعلَّقة "زهير بن أبي سُلمَى".

يتكلَّمـون الفارسـية، بالإضافـة إلى العربيـة. يقـف عـلي بجـوار الرجـل ويحـاول تَهدِئَـةَ الحَشـدِ. ويتسـلَّل خفاجـي مُتجـاوِزًا آخـر الرجـال حـين يلفـت عـلي انتباهَـه.

يذهـب خفاجـي ليفتـح بابـه ويلاحـظ أن البـاب مفتـوح بالفعـل عـلى آخـره. يلقـي نظـرة عـلى الغـرف، فيجـد شـيش الشرفـة مفتـوح هـو الآخـر. يَتفقَّـد الشـارع حـين يذهـب ليُغلِقَـه. ثمَّـة سـيارة "مرسـيدس" سـوداء أوقَفَهـا الحُـرَّاسُ عنـد البوابـة، ويشـيرون إلى سـائِقِها ليـدور ويرجـع. فيميـل السـائق إلى الأمـام عـلى لوحـة القيـادة مُتطلِّعًـا إلى المبنـى ويمسـح كلَّ طابـقٍ بِعينَيْـه. وفي النهايـة يُجبِرُه حُـرَّاس البوابـة عـلى الاختفـاء.

يذهـب خفاجـي إلى الخِزانَـةِ الجانبيـة ويجـد زجاجـة چـوني ووكـر، فيتجـرَّع كأسًـا ثـم يرتشـف آخـر. ويعـود إلى الشُّرفَـة ويُحَملِـق أعـلى الأسـطح إلى سـماء الليـل. يشـعر بعـد بعـض الوقـت بـأن أحـدًا يُحَملِـقُ إليـه فينظـر حولـه. ينظـر إلى البوَّابـة ويـرى ألَّا أحـدَ هنـاك. ثـم يلحـظ الرَّجُـلَ المُحتمـي بالظـلال في الشـارع وهـو يتطلَّـع إليـه. فيبتعـد عـن سـور الشُّرفَـة خطوتـين. ينتظـر ثـم ينظـر مُجـدَّدًا فـيرى الرَّجُـل نفسـه يختفـي في المدخـل بالأسـفل. وبعـد ثـوانٍ يـراه يهـرول عائـدًا إلى سـيارته ويتبعـه أحـدُ الحُـرَّاس. يـراه خفاجـي وهـو يَفِـرُّ، ويـدرك أنـه يعرفـه. إنـه الحـارس الـذي كان في الجامعـة. إنـه هنـا في الشـارع، والحـارس يُهَـروِلُ خلفـه.

يجـد خفاجـي مياهًـا فيسـارع للاسـتحمام. لكنهـا تصبـح هزيلـةً سريعًـا ثـم تختفـي. وتذهـب الأنـوار أيضًـا وهـو يمـدُّ يَـدَه إلى منشـفته فيجفِّـف نفسـه في الظـلام. يبحـث عـن مصبـاح الغـاز وهـو يرتجـف. وحـين لا يجـد أي كبريـت في المطبـخ، يتحسَّـس سُـترَتَه بحثًـا عـن قدَّاحـة. ولأوَّل مـرة منـذ الصبـاح تُصـادِفُ يَـدَه بطاقـات التعريـف. فيفحصهـا واحـدةً تلـو الأخـرى تحـت الضـوء المُرتَجِـف: كانـدي فـردوسي، سـالي ريـاضي، سوسـن.

يتمعَّن بوجه الفتاة، لكنه يجد نفسه سريعًا يبحث عن سهير. إنهما العَمَّة وابنة الأخ، إنهما الماضي والحاضر من الشيء نفسه. ثم يتذكَّر ما قاله له نضال. لقد أَردتَ بشدَّة أن تجد سوسن فتخيَّلتَ الأمر، ولا تزال تتخيَّله. يمدُّ يدَه بحثًا عن صورةِ سَوسَن التي أعطاها له نضال. ينظر إلى الصُّورَتَيْن جنبًا إلى جنب، ويبدأ بتمييز الاختلافات.

يَصُبُّ لنفسه كأسًا لينسى أولئك الفتيات، وآخر لينسى الذكريات الهابطة على الجبال، وثالِثًا لينسى الموصلي. تَمرُّ الدقائق ثم الساعات ويسود الهدوء في الخارج. الزجاجة نصف فارغة، لكنَّ عقله أكثرُ امتلاءً من أيِّ وقتٍ مَضى.

يلتقط البطاقات مُجدَّدًا ويتمعَّن بها لمرَّةٍ أخيرة. يَمرُّ على كاندي فردوسي وسالي رياضي. ثم يأخذ صورة سوسن ويتخيَّل أن هذه الابتسامة مُوجَّهَة إلى حبيبها. وفجأة يجد أنه لا يفكِّر في سوسن ولا سهير، بل زبيدة. فوجه سوسن يُذَكِّره بسهير، لكن ذلك المكياج يَخُصُّ أستاذتها. حينَئذٍ فقط، وبعقلٍ مُشوَّشٍ بتأثير السكوتش وهَمسِ لَهَبِ المصباح؛ يُلاحِظُ أن الاسم الذي على بطاقة التَّعريف ليس سوسن فرج، بل سوزي جنة. لم يكن مُخطِئًا، ولم يكن يتخيَّل أَيَّ شيء.

الخميس
4 ديسمبر 2003

يستيقظ خفاجي بدماغ شبه رائِقٍ، ويَحلق ويغادر المنزل سريعًا. يصادف جعفر على السُّلَّم، والذي كان يدنو حاملًا صينيَّةً من أكواب الشاي الفارغة. فيبتسم الفتى ويصيح: "صبَّحك الله بالخير أستاذ محسن!".

يكاد خفاجي يتعثَّر بالحارس الجديد عند بَسطَةِ السُّلَّم التالية. فيقف انتباهًا ويُحيِّي خفاجي بوَرَعٍ: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". كذا ينهض الحُرَّاسُ الجالسون عند الباب ويعرضون عليه احتساء الشاي معهم.

يرى وهو يخرج من الباب رَجُلَيْن آخَرَين مُعَيَّنَيْن عند طرف الشارع. يقفان بسلاحَيْهما على كتفيهما وينظران إلى الاتجاه الآخر. يكاد يتجاوَزُهما قبل حتى أن يُلاحِظاه. ينادي صوتٌ من البناء، ويُلوِّح الحُرَّاسُ ويبتسمون لزملائهم في الشارع. يُهَمهِمُ أحدهم بنصف ابتسامة: "في مالله".

كان خفاجي أوَّلَ المارِّين بالبوَّابات اليوم، وأول مَن يَصِلُ إلى المكتب.

يلقـي نظـرة عـلى الحقيبـة التـي تحمـل زِيَّـه، لكنـه يُقـرِّرَ أَلَّا يرتديـه. ويميـل إلى الخلـف ويُشـعِلُ سـيجارة ثـم يبـدأ القـراءة.

تُشـبِهُ بعـضُ الملفَّـات القصَـصَ القصـيرة الموجَـزَة، بينـما تشـبه ملفَّـاتٌ أخـرى الروايـاتِ الدَّسِـمَة. هـذا الرجـل أراد أن يصبـح مُعلِّـمًا، لكنـه رسـب في الثانويـة وحقَّـق نجاحًـا محـدودًا في أكاديميـة الشرطـة. كـذا رسـب مرَّتَيْن في تدريبـات الحـزب. أعيـد تكليفُـه لينضـمَّ إلى شرطـة آداب الموصـل خـلال الحملـة الإيمانيـة في التسـعينيات. وذاك رجُـلٌ آخـر درس الهندسـة، وهـو يشـير إلى تلـك الحقيقـة في كل مُذكِّـرَةٍ مـن مُذكِّراتـه الطويلـة التـي كتبهـا دون أن تُطلَـب منـه، والتـي تتكـوَّن مـن تحليـلاتٍ بيانيَّـةٍ مُكثَّفـة للجريمـة. يُنتِـجُ رسـومًا بيانيَّـةً لِـكُلِّ عـام مـن أعـوام العقوبـات، يوضِّـح عليهـا مُعَـدلات التَّسـوُّل والدعـارة والتهريـب ومبيعـات المخـدرات وتجـارة السـوق السـوداء. إنهـا مثيرةٌ للاهتـمام جـدًّا إن كانـت دقيقـة. وذلـك رَجُـلٌ آخَـرُ عـلى الأرجـح قتـل شـخصًا في نِـزاعٍ عائِـليٍّ وهـو صغـير. مَلفُّـه لا يقـول هـذا صراحـةً، لكـن هنـاك ملاحظـة تُفيـد بأنـه يجـب أَلَّا يُكلَّـف بالعمـل في إربيـل. ويَخُـصُّ أحـدُ الملفَّـات عقيـدًا في مديريـة الأمـن العـام، ويضـمُّ دراسـات عِـدَّةً عـن أهميـة حقـوق المـرأة وتنظيـم الأسرة. لا يبـدو الأمـر منطقيًّـا حتـى يقـرأ خفاجـي مُلاحَظَـةً في الهوامـش: "لديـه تسـعة أطفـال". تبـدو هـذه الملفَّـات اليـوم كأنهـا خَيـالٌ. بعضهـا حتـى قـد يَرقـى إلى مَرتَبَـةِ الأدب الجيِّـد.

يذهـب بعدهـا إلى ديفـاك مـن أجـل وجبـةٍ سَريعَـةٍ مـن الخُبـزِ البائـت والجبنة البلاسـتيكيَّة.

يَـشرَعُ في فـترة بعـد الظهـيرة بقـراءة مَلـفِّ آخِـر قائـدِ شُرطَـةٍ في البصرة. وهـو يـدرك قبـل حتـى أن يأخـذ الملـفَّ أنـه كان رَجُـلًا يَجـدُر تجنُّبُـه. كـذا كان معظـم الملفَّـات التـي تعـود إلى سـنوات العقوبـات، إمَّـا يُـرثَى لهـا وإمَّـا قَـذِرَة. كانـت يـدا هـذا الرجـل غارِقتَـيْن في القـذارة حتـى مرفقيـه. لا

يُـوردُ المَلَـفُّ أيَّ شيء غـير عـادي حتـى عـام 1991، ثـم يذكـر ترقيـةً تلـو الأخـرى حتـى العـام المـاضي. يتعلَّـم هـذا الرَّجُـلُ أن يقفـز قبـل أن تغـرق السـفينة مباشرةً. لكـن خفاجـي يلقـي الملـف عـلى الطاولـة؛ فالملـفُّ يذكـر أنـه كان مـن الشرطـة المدنيـة، لكـن قِصَّتـه تشـير إلى أنـه يعمـل لحسـاب المُخابـرات. فيشـعل سـيجارةً ويسـأل نفسـه لِـمَ قـد يُزعِجُـكَ ذلـك؟ ربمـا لأن المَلَفَّـات تكـذب. ربمـا لأن الأمـر شـبيه بـأن يقـرأ أحـدٌ مَلفَّـكَ. لكنَّـكَ لم تكـن هكـذا مطلقًـا. جيلـك كانـت لديـه آمـال وأحـلام، وأيديولوچيـا.

لقـد أرادوا مـن خفاجـي في المديريـة أن يقـرأ المَلفَّـات بسرعـة. لكنـه وضـح لهـم أنـه يعـرف أيضًـا كيـف يقرؤهـا بتَمَعُّـن وبإبـداع. لقـد اسـتطاع أن يجعـل تشريـح جُثَّـةٍ يبـدو مثـل اسـتخراج شـهادة مـيلاد لهـا. ولـو أن لديـه مـا يكفـي مـن التقاريـر، فإنـه يسـتطيع أن يجعـل المُخبريـن المتَوفـين يتكلَّمـون لسـنوات.

يقـرأ التَّقاريـرُ مثـل القصائـد، مثلـما اعتـاد أن يقـولَ. يدرسـها ويتعلَّـم أن يُميِّـزَ قوافيهـا. يبحـث عـن البِنيَـةِ الأعمـق فيهـا. فـإن لم تَكـن تبحـث عـن الأنمـاط الكامِنَـةِ بـين السُّـطور وأنـت تقـرأ، فإنـك لم تكـن تقـرأ مـن الأسـاس.

أرادوا منـه في بدايـة عملـه في الشُّرطـة أن يكتـب التقاريـر لا أن يَقرَأهـا. كانـوا يعرفـون طبيعـةَ عَمَلِـه قبـل ذلـك لكنَّهـم أرادوا أن يُمـرِّروه عـبر المسـار الوظيفـي الطبيعـي كغيره. أرسـلوه لاعتقـال رجـالٍ يبيعـون أجهـزة دي ڤـي دي بالسُّـوق السـوداء، ثـم جعلـوه يكتـب تقريـر اعتقالهـم. أرسـلوه لضَبـطِ ماخـورٍ غـير مرغـوب فيـه، ثـم جعلـوه يُـدوِّن التحقيـقَ الأَوَّليَّ.

لكنـه أراهـم ألَّا فائـدة مـن كتابـة الملفَّـات إن لم يكـن أحـدٌ سـيقرؤها كـما يجـب. وبعـد شـهرين في الشـوارع، قـرَّروا أنـه مُفيـدٌ أكـثر داخـل المخفـر ووراء مكتبـه، بـل وأسـعد أكـثر هنـاك. يجلـس ليبحـث عـن

النهايات المفقودة والقوافي المكسورة، يبحث عن الشِّعر في التقارير والمُذكِّرات.

يتطلَّع وهو يُطفِئُ سيجارته ويجد كوب القهوة قد امتلأ بأعقاب السجائر، فيذهب للتخلُّص منها في سَلَّة المُهمَلات. يسأل نفسه ماذا فعلت الأيديولوچيا من أجلك؟ ويُحَملِقُ إلى الرماد وهو يتساقط. لقد فازوا. وخسرتَ أنت. الوطنيُّ اليَومَ هو من يمسك الطَّبَقَ والشوكة بينما يقسِّم الغريبُ بلدَه من أجله. والإرهابيُّ اليوم هو مَن يجرؤ على الشكوى بينما يلتهم الغُرَباءُ أطرافَه.

يَمدُّ خفاجي يده إلى دُرجِه ويفتح عُلبَة روثمانز أخرى قبل العودة إلى المَلَفِّ الذي على مكتبه. لماذا تتعامَلُ مع الأمر بهذه الدفاعيَّة؟ أنتَ لستَ مُتهمًّا بأيِّ شيء. ليس اليوم على الأقل... ويُدخِّن سيجارتَيْن قبل أن يعترف بأن مَوقِفَه مع الموصليِّ قد فاجأه.

يتصفَّح المَلَفَّ الذي أمامه وينهض. يُفتِّش بالأدراج ويبحث وسط الأوراق على مَكتَبِه. إنه يبحث عن الملف -الخاصِّ به- الذي قَدَّمه له الموصليُّ. وحين لا يجده يُشعِلُ سيجارةً أخرى ثم يتفقَّد ساعته. يُقرِّر وهو يُطفِئُ تلك السِّيجارة أنه بحاجَةٍ إلى قراءَةِ مَلفِّه.

يستغرق ساعة حتى يَجِدَ مَلفَّه، أو حتى يَجِدَ المكان الذي يفترض أن يكون فيه. المُجلَّد موجودٌ واسمه عليه، لكن المَلَفَّ ليس بالداخل. فيغلق البابَ ويجلس على أحد المكاتب، إنه مكتب سيترون. يُحاوِلُ فتحَ الأدراج من باب الفضول، لكنها لا تنفتح.

يُشعِلُ سيجارةً أخرى ويُفكِّر. وينقر الرماد ثم يقذف عقب السيجارة على الأرض قبل أن يخطو عليه ويَفقِدُ تَوازُنَه. تهبط يده على لوحة مفاتيح أحد الحواسب وتعود شاشَتُه إلى الحياة. ينظر إليها ويعبث بأزرارها، ويستسلم حين لا يحدث شيء. يُلقي نظرة على الحاسوب الذي على مكتب المساعد ويذهب إليه. تُلامِسُ يده

الفـأرة وتـضيء الشاشـة. لكـن هـذا الحاسـوب أيضًـا عليـه قفـل. فيتفقّـد الحواسـب الأخـرى واحـدًا تلـو الآخـر. كل منهـا يـضيء، ويتنفّـس خفاجـي الصعـداء حـين يجـد إحـدى الشاشـات مُتاحَـة للاسـتخدام بـلا قُفـلٍ. يجلس ويبـدأ اللعـب بالمـؤشّر. يُمـرِّرُه صعـودًا وهبوطًـا ويضغـط عـلى المُجلّـدات. تصادفـه قوائِـمُ مـن المسـتندات لكـن لا شيء يبـدو مُميَّـزًا.

حـين يسـمع أصواتًـا مـن المَمـرّ، يتوقّـع أنـه الموصـليُّ مُجـدَّدًا. فيذهـب ببُـطءٍ ليقفـل البـاب ويطفـئ الضـوء. وبعـد لحظـة يطـرق أحـدٌ عـلى البـاب ويُهَزهِـزُ المقبـض، ثـم يسـود الصمـت. ينتظـر خفاجـي عنـد البـاب دون أن يصـدر أي أصـوات. أحدهـم يَطـرُقُ مُجـدَّدًا، ثـم يتحـرّك بخطـواتٍ متثاقلـة. بعدهـا يسـمع خفاجـي وقـع أقـدام في المَمـرّ، ويتخيَّـل الصَّـوتَ نَفسَـه مُجـدَّدًا. ينحنـي ويـرى ظِـلَّ أحـد يحـاول النظـر مـن تحـت البـاب. ويعـود الطَّـرقُ مُجـدَّدًا بعـد بضـع دقائـق. ينبـض قلـب خفاجـي بعُنـفٍ، لدَرجَـةِ أنّـه واثِـقٌ بأنهـم يسـمعونه في الخـارج. وفي النهايـة يمـشي الشَّـخصُ مُبتَعِـدًا.

يعـود خفاجـي في الظـلام إلى الحاسـوب، ويفتـح مُسـتَنَدًا يحتـوي عـلى قائمـة أخـرى. حينئـذ يبـدأ بتمييـز أسـماء الأشـخاص الذيـن لهـم مَلفّـاتٌ في الخزانـات. يفتـح قائمـة أخـرى ويـرى الأسـماء نفسـها مُكـرَّرة. يفتـح مسـتندًا آخـر ويجـد بـه نسـخة إلكترونيـة مـن ملـفٍّ قَـرَأَه قبـل يومـين. ويتكـرَّر ذلـك مـع ملـفٍّ آخـر. تمـرُّ دقائـق ويبـدأ ببُـطءٍ في تمييـز نظـام ترتيـب الملفّـات. يمـر بالقوائـم نفسـها مُجـدَّدًا ولكـن بالعكـس، ويُركّـز على العناويـن. وكـما الحـال في الخزانـات، ليسـت هنـاك حـدودٌ فاصلـة بـين الأجهـزة الأمنيـة. تتداخَـلُ الأجهـزة العسـكرية والمدنيـة والاسـتخبارات الخارجيـة والاسـتخبارات الداخليـة والأمـن العـام والأمـن الخـاص واسـتخبارات الحـزب. تتداخـل ملفّاتُهـا بـلا قافيـة ولا نظـام. يُجـرِّب خفاجـي فتـح النوافـذ والمسـتندات وقفلهـا أمـلًا في سَبْرِ أغـوار تصميـم هـذا الأرشـيف. يظلُّ يرجـع في المُجلّـدات إلى أن يجـد أكـبر اثنـين: "الهيـكل القديـم"، و"إعـادة الهيكلـة".

يفتح مُجلَّد "إعادة الهيكلة" ويشرع سريعًا باستكشاف الملفَّات الفرعية. يجد في أحدها مستندًا بعنوان "المكافآت"، ويضمُّ صفحاتٍ ممَّا قد يكون عناوينَ وأرقامَ هواتِف، وآخر يبدو مثل كشف حساب. ويقرأ في صفحة أخرى قائمةً طويلة من الأسماء العراقية. يَمرُّ بمئات الأسماء سريعًا ولا يُميِّز أيًّا منها. ويتفقَّدها مَرَّتَيْن قبل أن يلاحظ أن كُلَّها أسماء نساء. ثم يجد ملفًّا آخر بعنوان "التصاريح الأمنية"، ويحتوي على عشراتٍ من الاستمارات المملوءة. يُراجِعُ القائمة مَرَّتَيْن قبل أن يُميِّزَ اسم إحدى المتقدِّمات، إنه كاندي فردوسي.

ينهض خفاجي ويُضيء الأنوار. يطرف للحظة ويمسك بمفكِّرَته ويعود إلى الحاسوب. يُمرِّر الصفحة صعودًا إلى بداية المَلَفِّ ويُراجع العناوين مُجدَّدًا. معظمها قريبة، بل في الواقع هي في المنطقة الأمريكية. وبقية العناوين موجودة في أجزاء أخرى من المدينة. يبدو أحد العناوين مُميَّزًا وسط القائمة. فيشعل خفاجي سيجارة ويحاول أن يفهم. وبعد دقائق يتَّضِحُ له الأمر: إنه الشارع الذي شهد جريمة القتل. يتمعَّن به مُجدَّدًا ثم يُقلِّب في مُفكِّرته. في الواقع، إنه المنزل نفسه أيضًا. حينئذ يشرع بالتركيز على أكبر عدد ممكن من العناوين الأخرى: 126 الصالحية. 44 الشيخ معروف. 19 الشواكة. 77 الفاتح. ما الذي يجمع هذه العناوين هنا؟

ثم ينتقل إلى صفحات الأرقام. يُحَملِقُ إليها محاولًا أن يستنبط ما تشير إليه. كل منها يبدو مثل مُدخَلٍ ثُلاثيٍّ مُؤَرَّخ، لكن الأرقام التي في الأعمدة لا ترسم أيَّ نَمَطٍ ثابت، إنها مثل قصاصات من أبيات. ثم يجد في صفحة مُنفَصِلَة قائِمَةَ مُدخَلاتٍ أُحادِيَّةٍ بها أرقامٌ كبيرة وتواريخ. فيُدَوِّن بضعًا منها ثم يتفقَّدها مُجدَّدًا. يقرأ تلك الملفَّات بتَمَعُّنٍ، كأنها أبياتُ شِعرٍ. يبحث عن بَحرِها وقافيتها، ثم عن نهاياتها المفقودة وأصواتها المكسورة.

يجلس على حافَّة المكتب، ويرسم على ورقة مُخطَّطًا لقاعدة البيانات بأدَقّ تَصوُّرٍ مُمكِنٍ. ويشعل سيجارةً أخرى ويُقرِّر العودة إلى الملفَّات. لكن المعلومات المنفصلة لا تعني شيئًا إن لم تعرف نظام أَرشَفَتِها.

تتغيَّر الشاشة وهو يلمس لوحة المفاتيح، وتظهر فجأةً لعبة سوليتير وتملأ الشاشة ودَورُ اللعبة في منتصفه. فيرمي العُقبَ على الأرض ثم يُجرِّب الضغط على أزرار مختلفة، لكنه يعجز عن أن يجعلها تختفي. ولا يستطيع الوصول إلى الشاشة السابقة. فيضرب الأزرار، وينتهي به الأمر برَميِ لوحة المفاتيح كلها على الأرض. يسمع خشخشة الباب الخافتة بعد هدوء أصوات التَّحطُّم فيتجمَّد. ثم يسمع صوت المساعد ينادي: "خفاجي! هل أنتَ بالداخل؟"، ينظر إلى لوحة المفاتيح المُحطَّمة على الأرض والشاشات المضيئة الخافتة. والمساعد يطرقُ وينادي مُجدَّدًا: "خفاجي! هل أنت بالداخل؟".

يصيح أخيراً: "نعم!"، وهو غير مُتأكِّدٍ حِيالَ ما يجب أن يفعله، يندفع إلى أسفل المكاتب ويفصل التَّيَّارَ الكَهربيَّ عن الحواسب فتنطفئ الشاشات واحِدَةً تلو الأخرى. ويجمع أجزاء لوحة المفاتيح قدر استطاعته ويرميها وراء دُرج خزانة الملفَّات.

يأخذ نَفَسًا عميقًا ويفتح الباب، ويدعك عينيه ويُتَمتِمُ: "معذرة، لا بُدَّ أنني غَفوتُ". يعود متهدِّلًا إلى كرسيه المعتاد ويلتقط الملفَّ الذي على المكتب. ينظر إلى قائد شرطة البصرة مُجدَّدًا، وبعد بضع دقائق من الصمت يسأل: "متى سيأتي سيترون؟" دون أن يرفع عينيه عن الصفحة.

لا ينظر إليه المساعد حين يجيب: "هاه؟ إنه في اجتماعاتٍ طوال اليوم وسيعود صباح الغد. على فكرة، يريد سيترون أن يعرف آخر التَّطوُّرات بشأن القائمة".

"أي قائمة؟".

"قائمة الضُّبَّاط الذين سنتواصل معهم".

لا يُعلِّـق خفاجـي. ويرفـع المسـاعِدُ عينيـه أخـيراً: "الذيـن سـيُجَنَّدون لحسـاب جهـاز الشرطـة العراقيـة".

"أعمل على إعدادها. ستكون جاهِزةً يوم الجمعة".

"هل هذا ما اتَّفقتما عليه؟".

"نعـم"، ويهـزُّ خفاجـي كتفيـه. ومـع خـروج تلـك الكلـمات مـن فمـه، يعـي مـا كان يشـعر بـه منـذ البدايـة: إنهـم لا يعرفـون إلَّا مـا يقولـه لهـم.

"ولقـد تحدَّثـتُ معـه بشـأن اقتراحِـكَ أن نجتمـع مـع فرقـة عمـل المـوارد البشريـة وهـو موافِـق".

يُلقـي نظـرةً أخـيرة عـلى المسـاعد، ويكـذب حـين يقـول: "جيـد"، ثـم يضيـف: "أريـد أن أعـرف التَّطـوُّرات بشـأن سَـكَني. لقـد أصبـح خروجـي خطـرًا، تفهَـمُ قَصـدي بالتأكيـد".

يجلـس المسـاعد أمـام حاسـوبه، ويسـبُّ ثـم يرفـع عينيـه: "مـاذا؟ نعـم، صحيـح. هانـك يتـولَّى الأمـر، أنـا متأكِّـد".

يسـأل المسـاعد وخفاجـي في طريقـه إلى الخـارج: "أتعـرف مـا حـدث لحاسـوبي؟".

يهزُّ خفاجي كتفيه مُجدَّدًا: "معذرة".

يتذكَّـر كتـاب مـروج بعدمـا بلـغ مُنتصَـفَ المَمـرِّ. ويعـود إلى الغرفـة فيجـد المُسـاعِدَ وقـد هبـط عـلى يديـه ورُكبَتَيْـه وينظـر إلى حـروفِ لَوحَـةِ المفاتيـح في راحَـةِ يَـدِه. يصيـح مـن تحـت المكتـب: "يـا خفاجـي! هـل أتى عُـمَّالُ النظافـة هـذا الصبـاح؟".

بعد ظُهرِ الخميس
4 ديسمبر 2003

يشعر خفاجي لأوَّل مَرَّةٍ بالسعادة وهو يُسجِّل دخوله عند مكتب الاستقبال. ولأوَّل مَرَّة أيضًا يأتي مُحمَّلًا بالهدايا. فقد وجد ورودًا ناضِرَةً في مزهريَّةٍ بأحد مَمرَّات القصر. فتطلَّع حوله سريعًا قبل أن ينتزعها بسيقانها. ثم عاد من أجل المزهريَّة وأخذها هي الأخرى.

تنتصب مروج في سريرها حين تراه يَدلُفُ إلى الغرفة. تبتسم بكلِّ حَواسِّها، وحتى بعينيها: "صباح الخير بابا. هذا كله إليَّا؟".

"بس لا تسأليني منين جبته"، ويضحك. يبحث حوله عن مكانٍ فارغٍ، ثم يضع الورود على عتبة النافذة. ولا تفارق الابتسامةُ وجهَ مروج.

"هذا شنو بابا؟".

"الكتاب اللي ظلِّيت أنساه طول الأسبوع. أخيراً اتذكَّرت أجيبه اليوم".

"راح تقرا؟".

"لعد ليش آني هنا بابا مروج. من وين نبتدي؟"، ويسكت ثم يضيف: "بس قبل ما أبدي، عندي خبر مو زين. ما دا ألقى نازك بأي مكان".

تبدأ مروج الكلام، لكنها تتردَّد.

"راح ألقيها. وأجيبها هنا وأقرا اللي تريدينه".

"لعد شنو جبت؟".

يفتح صفحةَ العنوان: "الشعر التمهيدي. المُجلَّد الثاني. المُحدَثون".

"جبت كتاب مدرسة بابا؟!".

يحاول أن يجعلَها تَضحَكُ: "لا تقاطعيني مروج. خلي أقرا الباقي: الطبعة التاسعة. معتمد من وزارة التعليم، 1978".

"هذا الكتاب مو إلي. خلّي أشوفه بابا". ويعطيها الكتاب فتفتحه وتنظر إلى شيءٍ ما. فيسقط من يدها وتُغلِقُ عينيها.

حين ينظر إلى الصفحة يرى الخَطَّ اليَدويَّ الذي في الهوامش. ينظر بتَمعُّنٍ أكثر ويرى أنه ليس خَطَّ مروج، ولا خَطَّه ولا خَطَّ سهير. ويطوي الصفحة فيرى توقيع عُدَيّ، و"مدرسة تميم المتوسطة 1982"، هذه لم تكن نُسخَةَ مروج. فيمد يده إلى يدها ويمسكها. يُغلِقُ عينَيْه ويستمع إليها وهي تتنهَّدُ باكِيَةً. وأخيراً تأخذ نَفَسًا عميقًا ثم نَفَسًا آخر وتمسح عينيها. ثم تهمس: "ماشي بابا. إقرا".

"شتريدين تسمعين؟". يشرع خفاجي بقراءة الأسماء من الفهرس. "محمود سامي البارودي. معروف الرصافي. حافظ إبراهيم. أحمد شوقي".

تَئِنُّ مروج: "ما أريد مومياوات إذا تسمح!".

"خليل مطران. أبو شادي. أبو شبكة".

تتأوَّه: "لو رِدت قصايد عن الأشجار راح أقرا شعر فرنسي".

"إنتي ما تعرفين فرنسي...".

"هذا قصدي!".

يُتابِعُ قراءة الأسماء، وتستمرُّ مروج في رفضها. وحين يصيح: "أبو القاسم الشابي"، تلين أخيراً.

"بس أول مقطع أو مقطعين. الباقي شعر عن الأشجار".

يغلق الكتاب. وحين يشرع بالإلقاء، تلقي مروج الأبيات معه:

"إذا الشَّعبُ يَومًا أرادَ الحَياةَ، فلا بُدَّ أَن يَستَجيبَ القَدَر

ولا بُدَّ لِلَّيْلِ أن يَنجَلي، ولا بُدَّ للقَيْدِ أَن يَنكَسِر

ومَن لَم يُعانِقْهُ شَوقُ الحَياةِ، تَبَخَّر في جَوِّها وانْدَثَر

فَوَيلٌ لِمَن لم تَشُقْهُ الحَياةُ، مِن صَفعَةِ العَدَمِ المُنتَصِر

كَذلِكَ قالت لِيَ الكائِناتُ، وحَدَّثَني رُوحُها المُستَتِر...".

تَعبَسُ مروج بعد المقطع الأول، لكنَّها لا تُسكِتُه، بل تعترض في المقطع الأخير: "قلت لك أريد المقطع الأول بس. وبما إنك قلته، أريدك تبدي من أول وجديد. وإقرا بشغف أكثر من فضلك".

يبدأ خفاجي مُجدَّدًا، ويكتفي هذه المرَّةَ بالقراءة من الكتاب على نحوٍ مُطيع. تُقاطِعُه مروج مُجدَّدًا بعد بضع مقاطع: "فَوَّتت بيت بابا".

يهبط بعينيه إلى الصفحة ويعيد قراءة المقطع نفسه وتُومِئُ هي. يُعيد قراءة المقطع السابق، ثم تهزُّ رأسها: "لا. هذا غلط".

يرفع الصفحة إليها: "باعي بعينتش". تلقي نظرةً على القصيدة للحظة، ثم تضع إصبَعَها على أحد الأبيات وتقول: "زين، لقيتها.

اسـمعني وقـول لي شـنو الخطـأ". تَـشرَعُ بالقـراءة مـن الكتـاب بينـما يستمع هـو وعينـاه مُغلَقتـان. يوقِفُهـا ويقـول: "أكـو بيـت فـات عليتـش: يَجـيءُ الشِّـتاءُ، شِـتاءُ الضَّبـابِ، شِـتاءُ الثُّلـوجِ، شِـتاءُ المَطَـر. فيَنْطَفِـئُ السِّـحرُ، سِـحرُ الغُصـونِ، وسِـحرُ الزُّهـورِ، وسِـحْرُ الثَّمَـر".

تُعيد الكِتابَ إليه: "كمّل قراءة بابا".

"يعني ألتزم بالقراية بس؟".

"إي. بس مِن تلاقي شي ما موجود بالصفحة، لازم تصلحه".

"تخيَّل شنو راح يصير لو الناس تجاهلت اللي بالصفحات!".

وهـو يقـرأ يـرى شَـفَتَيْها تلينـان وتَنَفُّسَـها يُبطـئ. يسـتمرُّ في القـراءة لسـاعة، ويُعيـد قـراءة القصائـد التـي يحفظانهـا عـن ظهـر قلـب. لا يتوقَّف إلَّا بعـد غَفوهـا بوقـت طويـل. يُغلِـقُ الكتـاب ويُحَملِـقُ عـبر النافـذة إلى المبنـى المجـاور الخـالي.

"تشـنت أفكـر بابـا". يوقِظُـه صوتُهـا ويجـد الليـل قـد هبـط بالخـارج. فيتمطَّـى مـادًّا ذراعيـه وينهـض، ثـم يجلـس مُجـدَّدًا.

"بشنو؟".

"تشنت أفكر بالقصة اللي قلت لي إياها. أكو شي مو منطقي".

"شنو قصدتش بالشي؟ ماكو شي بالقصة منطقي".

"لا، أقصـد إنـك أول شي تطلـع تـدور عـلى سوسـن، وراهـا بنيـة لـوخ. شـنو اسـمها؟".

يفكِّر خفاجي لثانية، ثم يجيب: "أعتقد زهرة بستاني. المفروض".

"بعديـن تلقـى سوسـن وإنـت تـدور عـلى زهـرة. وراهـا تلقـى الاسـم الـلي عـلى هويتهـا هـو الوسـيلة الوحيـدة الـلي تخلّيـك تتعـرف عليهـا،

وهــذا مــو اســمها أبــدًا. قصــدي الــشي الوحيــد الــلي يخليــك تشــك إنهــا سوســن، هــو اســمها المســتعار".

لا يُعلِّق خفاجي.

"مــن وجهــة نظرنــا هــاي صــدف، مــو؟ بــس مــن وجهــة نظــر ثانيــة يمكــن مــو صــدف؟".

"متأكد إنتش صح!" ويضحك خفاجي. "شنو وجهة النظر اللوخ؟".

"مــا أدري بابــا. جايــة أفكــر بالشَّــغلَة. البنتــين راحــن الجامعــة. البنيــة اللــوخ اشــتغلت ويــا نفــس الأســتاذة همــين؟".

لا يُعلِّق خفاجي. بل يَتصفَّحُ مُفكِّرَتَه ليُبقِيَ عينيه مشغولَتَيْن.

"مــا ســألته، مــو هيتــش؟ لعــد ســيترون طلــب مــن عنــدك تلاقــي المترجمــة الضايعــة، صحيــح؟".

"صحيح".

"المفــروض هــي مــا تشــتغل ويَّــا ســلطة الائتــلاف المؤقــت. لعــد شــلون يعرفهــا؟".

"شنو قصدتش؟".

"شلون يعرف البنية؟ زهرة؟".

مكتبة
t.me/t_pdf

يُحــاوِلُ خفاجــي أن يتذكَّــر مُحادَثَتَهــما، ثــم يُقِــرُّ: "مــا أعــرف". ويُفكِّــر مُجــدَّدًا ثــم يقــول: "يمكــن يعرفهــا مــن غــير مــكان. هــو مهتــم بالقضيــة كلــش. هــو رادني أحتــشي ويــا المترجمــين عــلى مودهــا".

"هو اللي انطاك صورتها؟".

"إي. لو هو لو المساعد مالته. ما أتذكَّر".

"يعني على الأقل هو يعرف شكلها. وتقدر تفترض إنه ما انطاك النسخة الوحيدة من الصورة. لعد المساعد يعرفها للبنية؟".

"ما أعرف".

"زين. يمكن تريد تسأل بابا"، وتُضيف بصوتٍ مُرتَفِع، "آني لو مكانك راح أسأل"، وتُغلِقُ عينَيْها.

"صحيح بابا، أكيد. شبيتش؟".

"مو متضايقة. إحباط بس. قاعدة هنا طول اليوم، ما دا أسوي شي".

يَضحَكُ خفاجي: "زين. راح أجيب أوراق تقريهن. خلي نشوف شلون هاي الشغلات تصير مثيرة!".

"لا ما دا أقصد هيتش. أكو أيام أحس روحي أحسن. مو تحسن تشبير، بس أحسن. معظم الأيام أحس بنفس الشي. ما دا أعرف إذا كان هالشي راح يحل المشكلة".مكتبة سر من قرأ

يَترُكُ خفاجي مُفكِّرَتَه ويُمَسِّدُ خَدَّها. وتنهض هي وتسأل: "يعني سيترون يعرف شكل البنية؟".

"أعتقد إي".

"وتشان من أول اللي وصلوا ذاك البيت، مو هيتش؟".

"إي". ويلتقط خفاجي قلمه.

"وقدر يتعرف على زهرة بستاني بنفسه".

بعد سُكوتٍ، يُعلِّق خفاجي: "وياتش حق. سيترون ما احتاج يِدزّني ذاك المشوار أبدًا".

ليلة الخميس
4 ديسمبر 2003

يَملأُ خَفاجي صينيَّتَه في الكافتيريا بنوعٍ ما من اللحم المَطهوِّ والأرز. يبحث عن زبادي سادَة لكنَّه لا يجد إلا عُلَبًا كرتونيَّةً صغيرة من أنواع بالسُّكَّر وبنكهات الفواكه. يُلوِّح رَجُلٌ إلى خفاجي من الجانب الآخر من غرفة الطعام. يتمعَّن به ويلاحظ أنه عراقيٌّ ويرتدي بذلة مَكويَّة. يبدو أنه مَنفيٌّ آخرُ، ووجهه مألوفٌ إلى حدٍّ ما، فيردُّ خفاجي الابتسامة. عند ذلك كان قد نهض وأشار إلى خفاجي لينضمَّ إليه.

ينفجر صوتُ الرَّجُلِ بالحماس مع وصول خفاجي: "أنت أخو حسن، صحيح؟ يا للمُصادَفة! أنا سلمان جبوري الغانم. لا تتذكرني لكنني صديق قديم لأخيك"، وقالها بإنجليزيَّةٍ بريطانيَّة. فيومِئُ خفاجي، ويُصافِحُ اليَدَ التي مَدَّها جبوري. "اسمي سلمان الجبوري، ممنون لشوفتك. وإنت إحسان، تمام؟".

"محسن".

"تمام. تشنت أفكر بـحسن صار لي كـم يـوم. صـار تشـم سـنة مـن شـفته. كل كريسـماس يوصلنـا منهـم كارت معايـدة. بـس صـار سـنين مـا اتشـاوفنا. شـلونه؟".

يَهزُّ خفاجي كتفيه: "مثل ما هو. أكيد".

يَـأكُلُ خفاجـي بينـما يتكلَّـم جبـوري: "أعتقـد التقينـا مـرة قبـل سـنين. آني تشـنت راجـع عطلـة".

"إنت وحسن تشنتوا أول طلبة عراقيين بكامبريدج، مو هيتش؟".

"وأول اثنين اتزوجوا إنجليزيات!".

يُحـاوِلُ خفاجـي أن يُركِّـزَ بمـا يقولـه جبـوري لكنَّـه مُشـتَّت، إذ يُحـاوِلُ أن يُحـدِّدَ نَـوعَ اللَّحـمِ الـذي يأكلـه. إنـه ليـس لَحـمَ ضَـأنٍ ولا لَحـمًا بَقريًـا. فيُبعِـدُ الصِّينيَّـةَ مـن أمامـه.

يُركِّـز خفاجـي عـلى مَسـحِ فَمِـه قبـل أن يُـدرِكَ أن الرَّجُـلَ الآخـر قـد توقَّـف عـن الـكلام. يبتسـم ويسـأل: "يعنـي رجعـت نهائيًـا؟".

"حاليًا بس. أشتغل بشركة ماكانيل وساتون. تعرفنا؟".

لا يُبدي وَجهُ خفاجي أيَّ تَعبير.

"وليـش تعرفنـا؟ آني جـزء مـن فريـق دمـج الاقتصـادات النامية بالسـوق العالمـي. لمـا الشركـة وقعـت عقـد، دَزُّوني هنـا حتـى أديـر العمليـات. زوجتـي مـا عجبتهـا الفكـرة مطلقًـا، وعبالهـا الشَّـغلة خطـر. بـس هـي ظَلَّـت ثلاثـين سـنة تسـمعني أحتـشي عـن العـراق. عـلى مـود هيتـش مـا منعتنـي أرجـع لإعـادة الإعـمار".

يُومِئُ خفاجي.

"كَلَّفونـا بشـكل أسـاسي بتحويـل صناعـات العـراق الوطنيـة إلى أشـكال عمـل تجاريـة قابلـة للنمـو".

ينظُـرُ خفاجـي إلى طَبَقِـه ويُفكّـر إذا كان يُريـدُ قَضمَـةً أخـرى أم لا، لكنَّـه يُقـرِّر ألّا يَأخُذَهـا. وحـين يـدرك أن جبـوري ينتَظِـرُ أيَّ رَدٍّ منـه، يسـأله: "قـول لي يعنـي شـنو؟".

"العـراق دولـة غنيـة، صحيـح؟ غنيـة بالنفـط بـس ماكـو صناعـة. لـو رحـت أي مـكان بالخليـج راح تلقـى أعـمال بنـاء بـكل مـكان. راح تلقـى رافعـات مهولـة ومـدن تتبنـى بليلـة ويـوم. بـس هنـا ماكـو لا حركـة بنـاء ولا شي. الاقتصاديـين الـلي مثـلي دا يباوعـون مـكان مثـل هـذا وما يشـوفون غـير كـوارث مـن إيـد البـشر. عندكـم مصانـع ألمونيـوم هنـا. تمام؟ تنتجـون كميـات ضئيلـة لعـد ليـش يتكلـف إنتـاج نـص كيلـو رقائـق ألمونيـوم هنـا أكـثر مـن طـن بالسـويد؟ بـاع عـلى مصـافي النفـط هنـا. التكنولوجيـا الـلي بيهـا كلـش قديمـة لدرجـة إنهـا تكلـف دولارات زيـادة عـن كل قطـرة نفـط تسـتخرجونها. بـس أرجـع وأقـول هـذا جـزء بسـيط مـن المشـكلة. بعـد عمليـة التكريـر المكلفـة مـن غـير داعـي، تروحـون تبيعـون المنتـج بالقيمـة السـوقية نفسـها تقريبًـا. هيتـش أوصـف الموضـوع: الصناعـة بالعـراق مجـرد وظيفـة لمـدى الحيـاة. وبهـا الوقـت بـاوع حواليـك، دا تشـوف مصانـع تنتـج أي شي بهـاي الأيـام؟".

يُتَمتِمُ خفاجي: "الكهرباء انقطعت لما...".

يَهتِـفُ جبـوري: "بالضبـط!" ويُتابِـعُ: "شـبكة الكهربـاء كارثـة مكتملـة الأركان، بـس تشـانت متوقعـة. مـع سـوء الإدارة والفسـاد والإهـمال، كلـش زيـن لحـد هسـه أكـو شـبكة كهربـاء أساسًـا. راح نضطـر نبنـي وحـدة جديـدة مـن الصفـر".

يُوضِّـحُ خفاجـي: "بـس تشـانت تشـتغل قبـل..."، لَكـنَّ جَبـوري يَـشرَعُ بالحديـث عـن تايلانـد وبوليفيـا وسريلانـكا وإيرلانـدا. فبِشَـكلٍ مـا كُلُّهـا لهـا صِلَـةٌ مُباشِرَةٌ بالعـراق: "اتعلمنـا مـن ذيتـش الـدروس فعـلًا يـا محسـن".

يُقاطِعُه خفاجي أخيرًا: "تريد تشاي؟ تشاي هندي؟".

يَرفَـعُ جبـوري حاجِبَيْـه ويذهبـان إلى البـار. يُقـدِّم لهـما الرَّجُـلُ كـوبَيْ شـايٍ مـن وراء المنضـدة. ويدعـو خفاجـي جبـوري إلى الخـروج لتدخـين سـيجارة.

يَخرُجـان عـبر بـابٍ جانِبـيٍّ، ويجـدان الظـلامَ الدَّامِـسَ في الخـارج يُخيِّـم عـلى كُلِّ مـا عـدا ضـوء الفلوريسـنت المُسَـلَّط عـلى المدخـل. يجتمـع الرَّجُـلان بجـوار لافتـةٍ كُتِـبَ عليهـا "منطقـة تَجمُّـع عنـد الإخـلاء"، ويحـاولان إشـعالَ سـيجارَتَيْهِما وسـط الريـاح. ثـم ينفتـح البـابُ ويَظهَـرُ المُسـاعِدُ مـن ورائـه. يسـحب عُلبَـةَ سـجائِرَ مـن جيـب سُـترَتِه ويبتسـم لهـما، مـع أنَّـه يَسـتَغرِقُ لحظـةً لتمييـز خفاجـي. يُرحِّـب بـه خفاجـي ثـم يُقـدِّم كُلًّا منهـما إلى الآخـر. يسـمع خفاجـي اسـمَ الشَّـابِّ لأوَّلِ مَـرَّةٍ وهـما يتكلَّـمان، إنـه لويـس فـورد. يُدخِّـن الرِّجـالُ الثلاثـةُ سـجائِرَهم، ثـم يَعـرِضُ خفاجـي عـلى الآخريـن روثمانـز، وكلاهـما يقبـلان. يتمنَّـى جبـوري السـكوتش بصـوتٍ عـالٍ بِمُجـرَّد أن ينتهـي مـن الشـاي. ويَـشرَعُ فـورد بإخبارهـما عـن بـار فنـدق الرشـيد. ويَجِـدُ خفاجـي نفسـه مأخـوذًا معهـما بشـكل مـا.

يسـتَمِعُ إلى جبـوري وهـو يسـأل فـورد عـن حياتـه في طريقهـم إلى البـار.

"لقـد كتبـتُ أُطروحَـةَ تَخرُّجـي عـن التَّرابُطـاتِ الماليَّـة المُرتَبِطَـة بالتهديـدات النَّاشِـئَة، ثـم حصَلـتُ عـلى تدريـبٍ مُتخصِّـص في الدِّراسـات الأمنيـة. في أحـد الأيـام كنـتُ أَتحـدَّث إلى مديـري عـن تحويـل التهديـدات إلى فُـرَص. وفي اليـوم التـالي وَجَدتُـه يطلـب منِّـي الانضـمامَ إلى مجموعـةِ مُسـتقبَل العـراق دون إجـراء أيِّ مُقابَـلات. وهـا أنـا ذا"، ويضحَـكُ فـورد، ويُشـعِلُ جَولَـةً أخـرى مـن السـجائر. وبينـما يتحـدَّث جبـوري ولويـس، يتَّفِقـان سريعًـا عـلى أنهـما يتشـاركان شـبكات المَعـارِفِ ذاتهـا.

يـأتي كثـيرون لتحيَّـة فـورد في الفنـدق. ويحـرص هـو عـلى تقديـم جبـوري إلى البعـض. بينـما يبتسـم اثنـان ويُصافحـان خفاجـي أيضًـا مـن بـاب الـذَّوق. وفجـأةً يتملَّـكُ الإجهـادُ مـن خفاجـي ويُسَـيطِرُ الصُّداعُ عـلى رأسـه: "آسـف يـا صديقـاي. أنـا مُتعَـب".

يتـذرَّع جبـوري: "لا تغـادِرْ. إن كنـتَ مُتعَبًـا حَقًّـا فخُـذْ مشروبًـا واحـدًا فقط".

يوقِـفُ حـارِسُ البـار خفاجـي. لكـن لويـس يُصافِـحُ الرَّجُـلَ ويقـول: "لا بـأس يـا تومـي، إنـه معـي". ويُطَرقِعـان أصابِعَهـما معًـا في طقـسٍ لم يَـرَهُ خفاجـي إلَّا في الأفـلام الأمريكيـة.

يُمكِـنُ أن تُوجَـدَ تِلـك الغُرفَـةُ في أيِّ مـكان. ثمَّـة كُـرَةٌ عاكِسَـةٌ مُترَبـة تتـلألأُ تحـت سَـقفٍ مُمتَـدٍّ خَفيـضٍ يَعـزِلُ الصَّـوتَ. إنهـا غُرفَـةٌ مُظلِمَـةٌ، وداخِنـة، ومُزدَحِمَـة للغايـة. ويُوضِّـح لويـس: "هـذا واحِـدٌ مـن أماكِـنَ قليلَـةٍ يُمكِنُـكَ فيهـا الحصـول عـلى مـشروب".

يبـدو الزَّبائِـنُ مـن الانطبـاع الأوَّل مُطابِقـين لزبائـن الكافيتريـا. لكـن بالتدريـج يُميِّـز خفاجـي اختلافـاتٍ طفيفـةً. فأغلبيَّتُهـم مـن الأمريـكان، لكـن يوجـد أوروبيُّـون أيضًـا. يدعوهـما جبـوري إلى الجَولَـةِ الأولى مـن المشروبـات ويرسـلهما للبَحـثِ عـن طاولـة. ويشـير فـورد إلى المجموعـات المُختَلِفـة: البريطانيـون والأسـتراليون معًـا، والطِّليـان والإسـبان معًـا، والبُولنديُّـون والأوكرانيُّـون معًـا. "الـكُلُّ يَتجمَّعـون هنـا في ليـالي الخميـس. سـأعود عـلى الفـور". ويذهـب فـورد إلى بعـض الأصدقـاء.

يعـود جبـوري بعـد عـشر دقائـق ومعـه ثلاثَـةُ كـؤوس. ويُخـرِجُ خفاجـي مُكعبَّـات الثلـج مـن كأسـه ويرميهـا عـلى الأرض. يرتشـف الرَّجُلان السـكوتش ويمسـحان الغرفـة، والضَّوضـاءُ أعـلى مـن أن يبـدآ مُحادَثَـةً. يسـتأذن جبـوري مرَّتَـيْن ويذهـب لمُصافَحَـةِ أحـدٍ. لم يسـتغرق خفاجـي

كثيراً حتى يُنهي كأسه. وبمجرَّدِ قيامه ليُغادِرَ كان جبوري قد عاد بمِزاجٍ مُتحمِّس: "مكان رائع، أليس كذلك؟".

ينظر جبوري إلى كأسِ خفاجي الفارِغ، ثُمَّ إلى الكأس الآخر الذي لم يُلمَسْ بَعدُ. فيُقدِّمه إلى خفاجي ويصيح وسط الضجيج: "إليك الجولة التالية". وسريعًا يُنهي خفاجي كأسَه الثاني من السكوتش المُخفَّف، وقد بدأت قَبضَةُ الليل في التَّراخي. يشير جبوري إلى أشخاصٍ عِدَّة في الغرفة: صحفيُّون ومُقاولون ورجالُ أعمالٍ. "حقًّا توجد مجموعةٌ مُذهِلَةٌ من الأشخاص في هذه الغرفة، أتفهم قصدي؟ إنها مجموعة مُذهِلة. بغداد لم تَشهَد تَجمُّعَ هذا القَدْرِ من المواهب منذ ألف عام!".

يعود فورد بعد بعض الوقت ومعه المزيدُ من المشروبات. ولا يهتمُّ خفاجي بإزالة الثلج، بل يُنهي كأسَه الرابِعَ سريعًا. يتابع جبوري وفورد الحديثَ، ويجد خفاجي صعوبةً في مُتابَعَةِ حديثِهما وسط الضَّجيج. لكنه لم يَعُد مُتعَبًا، وقد بدأ يشعر بطَفْوٍ في رأسه. يربِّتُ جبوري على ظَهرِهِ ويسأله: "إذًا، أخبِرْني بما تنوي فِعلَه. ما المشروعات التي تُعِدُّ لها؟".

يَتَلعثَمُ خفاجي وهو يقول شيئًا ما، ثم يتوقَّف حين يعود فورد إلى الطَّاولة. ويستكمل جبوري وفورد مُحادَثَتهما.

يتطلَّع خفاجي حوله في الغرفة بعينَيْن حَمراوَيْن كالدَّمِ، وقد أصبح مُنزَعِجًا. ويُدرِكُ حقيقةَ أن ليس هناك نساء. يلاحِظُ امرأةً واحِدَةً مُحاطَةً بالرِّجال. كُلُّهم يُغازِلُونها، ويحاولون أن يشتروا لها المشروبات.

يَطرَحُ خفاجي سؤالًا، لكنَّ كَلماتِه تَخرُج مُشوَّشَةً. فيطرحه مُجدَّدًا ولكن بِبُطءٍ وتَأَنٍّ: "أين النساء؟"، ويبدو أن بقاءَه مُتأخِّرًا هكذا لم يَكُن قرارًا حكيمًا.

يضحك جبوري: "نعم، محسن مُحِقٌّ في سؤاله. أين تُبقون النساء يا لويس؟"، ويغمز لخفاجي ويتابع: "رُكبَتايَ المُسِنَّتان قد تكونان ضعيفَتَيْن، لكنَّني لا أزال أعرف كيف أرقص".

يستغرق فورد في التفكير للحظة: "هذا سؤالٌ أكثر أهمِّيَّةً ممَّا تُدرِكان. تَخَيَّلا ما كان ليحدث هنا لو أن هناك الكثير من النساء".

لكن جبوري وخفاجي لا يقولان شيئًا.

يتابع فورد: "فعلنا ذلك في السعودية، وكاد أن يتسبَّب بثورةٍ. يقولون إنهم فعلوا ذلك من باب احترام الثَّقافَة الإسلامية. فلا يجب أن نأتي إلى بلادِهم ونستَعرِضُ نساءَنا، سيكون ذلك تَصرُّفًا غير مُراعٍ. لكنَّني لا أدافع عن عدم استقدام النساء. هذا بالتأكيد يُقلِّل فُرَصَ المُضاجَعة هنا"، ويبتسم ابتسامةً واسِعَة.

يَندفِعُ خفاجي قائلًا: "المُضاجَعَة؟".

تحدثُ سَكتَةٌ غيرُ مُريحَةٍ قبل أن يلتَفِتَ فورد إلى جبوري ويضيف: "أَتَدبَّرُ أموري في ذلك الشأن".

يضحك الثلاثة، ويسأل جبوري: "حقًّا؟ لقد عَملتُ في بلادٍ كثيرة. وكان بعضُها أسوأَ كثيراً من هذا. لكن دائمًا ما كان واضحًا جدًّا حيثُما ذهبتُ كيف يتدبَّر الرِّجالُ أمورَهم، ولا سِرَّ في ذلك. لكن كيف تتدبَّرون الأمرَ هنا في العراق؟ لديكم آلاف الرجال المُتمركِزون هنا لأشهر. لا أُصدِّق أنهم يتقبَّلون هذا الوَضعَ بلا اعتراض؟"، ويغمز إلى خفاجي.

يضحَكُ فورد: "الكثير من البورن والأفلام والمجلَّات. أيًّا يَكُن ما يريدونه، يوفِّرْه الجيشُ لهم".

"وفي القواعد؟".

يضحك لويس مُجدَّدًا: "تُقال دائمًا أمورٌ غريبة عن الجيش. مثل الطائرات التي تأتي من بانكوك. والشائعات والنَّمائم عن ماخور ما هنا في المنطقة الخضراء".

ينهض ويقول: "دعوني أجلب الجولة التالية".

تأخذ المُحادَثةُ اتِّجاهاتٍ أخرى مع عودته. فيتحدَّث جبوري وفورد لبعض الوقت عن ثَرواتِ العراق غير المُستَغلَّة. يتثاءَب خفاجي ويتساءَلُ عن سَبَبِ بقائِه، فيتجرَّع كأسه ثم يغادر.

يصافح جبوري ويتحدَّث عن الالتقاء مُجدَّدًا قريبًا. ويتطلَّع فورد إلى الجانب الآخر من الغرفة باحثًا عن أصدقائه.

تَحوَّلَت الأجواءُ في الخارج إلى البرودة والظلام. يظنُّ خفاجي أنه يرى حدودَ قَوسِ النَّصرِ في الأفق، ويبدأ السَّيرَ نَحوَه ثَمِلًا. يشعل سيجارةً ويتخيَّل ما قد يشعر به إن لمس تلك المنحوتات الضخمة. ويجد نفسه بعد ثلاث سجائر يتجوَّل في طريقٍ فَتَّتَت جنازيرُ الآليَّات الثقيلة والدَّبَّابات أسفَلْتَه. لكنه يتردَّد حين يجد أنه لم يَعُد يرى شيئًا في الظلام. لا يرى ضوءًا ولا يَسمَعُ صوتًا، وليس أمامه سوى الليل الهادِئِ الخاوي. يُتابِعُ المَسيرَ وهو لا يسمع شيئًا سوى وَقْعِ قَدَمَيْه وهما تركلان التُّرابَ والحصى. ويبدأ التِّمثالُ الإسمنتيُّ في التَّجسُّد في الظلام. يتوقَّف ويُحَملِقُ، وتدور السماء لِلَحظَةٍ قبل أن تمسك نفسها. يستغرق بِضعَ لحظات قبل أن يستوعب أن هذا ليس التِّمثالَ. إنه مَسجِدٌ، أو مَقبرَة. فيمشي بامتداد الحوائط الخارجيَّة الدائرية. الجدرانُ الخرسانة ذاتُ الزَّخارف لها مَلمَسٌ يُشبِهُ الكتابَةَ المِسماريَّة الضَّخمَة. وهو يجرُّ يده عليها ليُوازِنَ نفسه، وفي النهاية يصل إلى المدخل. يتقدَّم إلى داخل الظلال، ورائحة الخراء والقمامة تكاد تجعله يتراجع. يُشعِل عودَ ثِقابٍ وينظر حوله. الأرض مُغطَّاة بالتراب والرُّكام وشيءٍ آخر. ويخطو هو نحو ما يبدو كشاهِدِ قَبرٍ. وحين ينطفئ عودُ الثِّقاب

يُشعِلُ واحدًا آخر، ويتأمَّل الثُّريَّا الكريستاليَّة والآيات القرآنية. يلمع الخَطُّ الذهبي المُتألِّق بخفوتٍ مثل كَوكَبَةٍ بعيدة. يعرف خفاجي صاحِبَ هذا القبر، إنه المُفكِّر البَعثيُّ العظيم الذي ما كان أحدٌ لِيَقرأَ أَعمالَه لو لم يُجبِرْه الحِزبُ على ذلك. إنه الفيلسوف الذي أصرَّ على أن السياسة يجب أن تُنظَّمَ مثلَ الشِّعر؛ فأفسد كِلَيْهما في سبيل ذلك. يتذكَّر خفاجي سَماعَهُ عن دَفنِ هذا الرَّجُل. وكحال الجميع لم يُفاجَأ بخَبَرِ وفاة ميشيل عَفْلَق. بل المفاجأة الوحيدة هي أن ميشيل عفلق كان على قَيدِ الحياةِ كُلَّ هذا الوقت.

ثمَّة أنينٌ في الزاوية يجعل خفاجي ينتفض، وينطفئ الثِّقابُ. يحتاج إلى بضع محاولات حتى يُشعِلَ عودَ الثِّقاب التالي، ثم إلى لحظةٍ ليرى تلك العيونَ اللَّامِعَةَ في الظلام. ينطفئ الثِّقابُ مُجدَّدًا ويستوعب هو ما رآه. إنها كَلبَةٌ ضالَّةٌ تُرضِعُ جراءً وسطَ كَومَةِ قمامة. فيخطو خفاجي عائدًا إلى الباب.

أصبح هواءُ الليل أبْرَدَ الآن. يرتَجِفُ خفاجي ويرفع ياقة سُترَتِه حول أذُنَيْه. ويبدأ مسيرةَ العودة الطويلة. تُفيقه الرِّياحُ المُنعِشَة، ويُشعِلُ سيجارةً تلو الأخرى وهو عازِمٌ على أن يضيع رائِحَةَ الكحول قبل أن يستقلَّ التاكسي.

يطلب من السائق أن يأخُذَه إلى شارع أبو نواس. وهناك يمشي مُضطَرِبًا ويتَّخِذ مسارًا آخر طويلًا ومُتعرِّجًا بطول الحَيِّ قبل أن يَصِلَ إلى شارعه. يستقبله الحُرَّاسُ عند بَوَّابَةِ الشارع بحَذَر، ويُرافقه أحدهم إلى باب مبناه ويرجع حين يتمكَّن حُرَّاسُ المبنى من التَّكفُّل به. يعتذر الشاب ويتمنَّى لخفاجي أُمسيَةً سعيدة. ويتعثَّر خفاجي وهو يصعد السُلم ويسقط على سريره دون حتى أن يُضيءَ الأنوار.

الجمعة
5 ديسمبر 2003

ينام خفاجي بعمق شديد، حتى أنه لا تراوده أي أحلام. يستيقظ مبكرًا ويتفاجأ باختفاء صداعه وصفاء ذهنه. يجد المياه قد عادت، فيملأ غَلّايَةَ المياه ثم يذهب للحِلاقَة والاستحمام. يُحدِثُ وعاءُ الألومنيوم صريرًا ويضطرب على موقد الغاز، ويبصُقُ المياهَ الساخنة والبُخارَ حين تغلي المياه. ينتَقِعُ الشَّاي في المياه المغليَّة بينما يغسل خفاجي أيامًا من أقداح الشاي المُتَّسِخَة المُستقرَّة في الحوض، ويستمع إلى صَلصَلَة كُلِّ قدح وهو يضعه على رفِّ التجفيف. ثم يكنس الأرض ويمسح المناضد. وحين ينتهي، يجد المطبخ قد عاد نظيفًا مثلما كان دائمًا.

يعود إلى غرفة المعيشة والشاي بيده. في البداية يمدُّ يده ليلتقط كتاب شِعرٍ، إنه ديوان جرير. لكنَّ أكوام الكتب المُستقرَّة على الأرض تُخجله فتدفعه إلى ترتيبها. يشبه ترتيب الكتب على الرفوف بنظر خفاجي التأمُّلَ، أو مثل الانتقال إلى بيتٍ جديد. فيبدأ بوضع بعض الكتب في أماكنها، لكنه يُشَتَّت حين يُصادف كتابًا من سنوات مُراهَقَتِه، إنه عواطف لمحمد صالح بحر العلوم. ويتصفَّح كتابًا آخر لساعَةٍ قبل

أن يضعه على الرف، إنه كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى.

يُعِدُّ كوبَ شايٍ آخر ويحاول ترتيب الكتب الأخرى على الرفوف. ويجد نفسه في النهاية يجلس على كرسيِّه المُفضَّل، ويقرأ كتابًا لم يعرف أنه يمتلكه، ويظلُّ على هذا الحال لبضع ساعات. يرتِّب الكتب على الرفوف ويتصفَّح كتابًا ويصنع الشاي. ثم يعيد الكرَّة حتى بلَغَت الساعة الحادية عشرة. حينئذ كانت كلُّ الكتب قد عادت إلى الرفوف، لكنها ليست الرفوف نفسها؛ إذ قرَّر هذه المرة أن يفصل الكُتُبَ العربيَّةَ عن الإنجليزية؛ فهذا يحلُّ مشكلة الترتيب الأبجدي التي أَلَمَّت بالكتب من قبل. صحيحٌ أنها تُؤدِّي إلى اختلاط الألوان الأدبية، لكنه يستسلم ويتركها على حالها غير المثالي. كان قد لاحظ وهو يتصفَّح مجموعته أن عددًا من كتبه مفقودٌ. وحين انتهى وجد أن رفًّا كاملًا تقريبًا قد اختفى، كلُّه من كتب الشعر. يُمثِّل الرَّفُّ العاري دليلًا قاطِعًا على السرقة التي حدثت، والآن بات يعرف لِمَ لَمْ يجد ديوان نازك.

يذهب إلى المطبخ ليصبَّ قدح شايٍ آخر فيجد الإناء فارغًا؛ لذا يُقرِّر أنه ربَّما حان وقت الذهاب إلى العمل. يخرج من الباب، ويجد علي عند بَسطَةِ السُّلَّم.

"السلام عليكم أخويا. ما راح تصلِّي ويانا؟".

"الله يحفظك علي. بارك الله بيك. يا ريت بس...".

يضيف علي بهدوء: "موعدنا الأحد، عقب باتشر. آني آسف لأنه الموضوع صار بهاي الطريقة. انطيناك وقت زايد. على هواه تكون لقيت حل؟".

"إي لقيت. مشكور".

يومئ ويُصافِحُ علي. يبدو وجه علي أكثر دفئًا وصِدقًا من أيِّ وقتٍ مضى، ولا تبدو الظُّلمَةُ إلَّا في عينيه. يبتسم خفاجي ابتسامةً واسعة حتى يكاد يضحك. الأمر بالفعل ليس شخصيًّا، حسبما يقول خفاجي لنفسه، ربما حتى يكون مُعجَبًا بكَ. يشير حُرَّاسُ الباب إلى حُرَّاس الزاوية، والكل يبتسم إلى خفاجي وهو يمشي نحو النهر.

لا يجد عند البوَّابَةِ إلَّا حفنة من المنتظرين ويتقدَّم وسطهم سريعًا. يخلع سُترَتَه ويرفع ذراعيه وقميصه. ينظر إلى وجوه الحُرَّاس وهو يمرُّ بينهم لكنه لا يُميِّز أيًّا منهم. يحاول أن يبتسم لأحدهم لكن بلا أيِّ استجابة. إنها مجموعة جديدة من الحُرَّاس.

يعمل فورد أمام حاسوبه ويُلوِّح إلى خفاجي حين يدخل. لا ينهض ولا يلتفت، بل يهتف: "هاي!" ويتابع: "كيف حالُكَ هذا الصباح؟".

يتصفَّح خفاجي مُفكِّرَتَه بدلًا من الرَّدِّ عليه. يمدُّ يَدَه بحثًا عن علبة روثمانز جديدة في الدُّرجِ ويُمزِّق غلافها البلاستيكي ويحاول أن يقذفه في سَلَّةِ القمامة لكنه يُخفِق. يُخرِجُ سيجارةً ويُشعِلُها ثم يسأل: "أين سيترون؟ يجب أن أتحدَّث إليه".

يشمُّ فورد رائحة التبغ ويلتفت: "اليوم الجمعة. أعرف أن لديه مَوعِدًا هنا لاحقًا؛ لذا على الأرجح سيأتي قبله. تعرف أنك لا يَجِبُ أن تُدخِّن هنا".

"إنه بلدٌ حُرٌّ الآن، صحيح؟".

"وفنجاني ليس مِطفَأةً. هذا مُقرِف".

يتفقَّد خفاجي ساعته، إنها الثانية ظهرًا تقريبًا. يُعلِّق سُترَتَه وشاله على الشَّمَّاعة ويرى كيس ملابس بلاستيكيٍّ شَفَّافٍ تحت مكتبه يحتوي على الزِّيِّ المُوحَّد. يتساءل إن كان يجب أن يسأل عن الحذاء ذي الرقبة، لكنه يُقرِّر ألَّا يشغل باله.

يلتفـت إلى خِزانـات المَلَفَّـات. كان حينئـذ قـد تفقَّـد مئـات الملفَّـات. فيأخـذ نَفَسًـا ويُقـرِّر أن ينتظـر حتـى يُنهـي سـيجارته التاليـة قبـل أن يبـدأ.

يهتف فورد كأنه يقرأ أفكاره: "سيترون ينتظر قائِمَتَكَ اليوم".

يُتَمتِمُ خفاجي: "نعم. بالتأكيد. حسنًا". ولكن ليست هناك قائمة.

يُغلِـقُ فـورد حاسـوبَه بعـد بضـع دقائـق ويخـرج عـبر البـاب. "سـأعود لاحقًـا. لدينـا موظَّـفٌ جديـد سـيأتي بعـد ظهـر اليـوم. أَخـبِرْه أنَّـي سـأعود. أراك لاحقًـا يـا خفاجـي".

يتفقَّـد خفاجـي سـاعته، إنهـا الثالثـة عـصرًا وسـيترون لم يظهـر بعـد. يهتـف: "انتظـر! متـى سـيأتي سـيترون؟".

يهزُّ فورد كتفيه بلا مبالاة.

"أواثق أنه سيأتي؟".

"يأتي أحيانًا في صباحات الجمعة".

"لقـد قـال إننـي سـأتمكَّن مـن الانتقـال إلى منـزل جديـد بحلـول هـذا الوقـت".

"معذرة".

"أهناك طريقة أخرى لأتحدث إليه؟".

"لقـد قـال إنـه سـيأتي، لكـن في الواقـع هـذا يـوم إجازتـه"، ويُمَـرِّر فـورد أصابِعَـه بِشَـعرِهِ.

"لكنَّكَ قُلتَ إنه أراد القائمة اليوم".

يهزُّ فـورد كتفيـه: "يُمكِنُـكَ أن تعطيهـا لي الآن، أو ربمـا غـدًا حـين يـأتي. أنـا واثـق أنـه سـيأتي مُبكِّـرًا؛ فلدينـا اجتـماع في السـاعة التاسـعة. سـتحضره أنـتَ أيضًـا".

"ماذا؟".

"اجتماعنا. أخبَرتُكَ بشأنه الليلة الماضية".

"...؟".

"اجتماعُ التَّنسيق مع فريق الموارد البَشريَّة. لقد طَلَبتَ مِنِّي أن أُرتِّبَه".

"أوه... صحيح"، قالها خفاجي وهو يُطفِئُ عُقبَ السيجارة. فيعبس فورد وهو يخرج إلى المَمرِّ.

يتابع خفاجي العملَ على مكتبه لبضع دقائق أخرى قبل أن يخطو نحو الباب. لقد اكتشف أن لديه اجتماعًا في التاسعة صباحًا مع الموصلي. ويتساءَل عَمَّا سيتحدَّثان بِحَقِّ الجحيم.

ينظر خفاجي إلى الحائط المُجاور للباب ويرى شيئًا لم ينتَبِه له من قبل.

صُفَّارات التحذير. إن سَمِعتَ نغمةً ناحِبَةً عالية. 1 - أَمِّنْ كلَّ المستندات السِّرِّيَّة. 2 - أغلِقْ كُلَّ النوافذ وأَقْفِلْ كُلَّ الأبواب. 3 - غادِر المبنى فورًا.

إن سمِعتَ نغمةً ناحبة منخفضة. 1 - ابتعد عن كُلِّ النوافذ. 2 - انخفِضْ واتَّخِذْ ساتِرًا. 3 - انتظِرْ صفَّارة الأمان، ثم اذهب إلى "منطقة التَّجمُّع عند الإخلاء".

يُحاوِل خفاجي أن يُغلِقَ الباب، لكن المفتاح اختفى.

يُجرِّب أن يُشغِّل الحواسب، لكنه يستسلم. فيذهب إلى مكتب سيترون ليبحث عن المفاتيح، وحين لا يجد أيًّا منها يبحث في الأدراج. هذه المرَّة يَجِدُ أحدَ الأدراج غير مُقفَلٍ فيفتحه، لكنه لا يجد بداخله سوى حقائب دفل فارغة. يُخرِجُها ويَقلِبُ كلًّا منها رأسًا على عقب ولا يجد شيئًا. يميل إلى الخلف ويتحسَّس سجائره في جيبه.

يُجرِّب أحَدٌ في الخارج فتحَ مقبض الباب لكنه لا ينفتح. ثم تَطرُق يَدٌ عليه برِقَّة. فيغلق خفاجي الدُّرجَ بِرِفقٍ ويعود إلى مكتبه ويهتف: "إنه مفتوح".

تَصِلُ زبيدة رشيد إلى منتصف الغرفة قبل أن تُميِّزَ خفاجي، وتتوقَّف مكانها حين تراه. ويُطلِقُ هو زَفرَةَ ارتياحٍ حين يرى أنها وحدها.

"هالو ست. تعالي تفضَّلي"، ويبذل قصارى جهده ليقولها بحَزمٍ.

"إنت؟"، ويجد صوتها أَبرَدَ ممَّا كان عليه في ذاكرته: "أدور على السيد سيترون. وينه؟".

يبتسم خفاجي ويهزُّ رأسه: "ما أعرف ست. أعتذر". ويُضيف بعد لحظة: "تشنا ننتظر وصوله بأي لحظة. تريدين تنتظريه؟".

يُشير خفاجي إلى كُرسيٍّ خاوٍ، وتتفقَّد هي ساعتها. قَدَمُها لم تتوقَّف عن النَّقرِ على الأرض منذ وصَلَت، وهي لا تحاول أن تُخفي الأمر. فتتطلَّع ولا تقول شيئًا. وحين تَردُّ، يخرج رَدُّها كأنها تُسدي إليه معروفًا أو تُصدِرُ تهديدًا: "زين. إذا تشان هذا اللي أقدر أسوِّيه".

يتقدَّم خفاجي ويجذب الكُرسيَّ من أجلها: "تفضَّلي استريحي. أجيب لتش تشاي؟".

تسأل مُحتَدَّةً: "شنو تسوِّي هنا؟".

يحاول خفاجي أن يشرحَ لَكنَّ كلامه يخرج بلا معنى، وتُمثِّل هي عدمَ الاهتمام. وبعد بَعضِ الوقت تُقاطِعُه ببساطة: "إي. تشاي إذا تسمح". وتُشيح بنظرها عنه.

يعود بعد خَمسِ دقائق من الكافتيريا ومعه كوبان ورقيَّان يحملان الشاي المُسكَّر مع الحليب. يسمع رنينَ الهاتف فيضع الكوبين

الساخِنَيْن على المكتب. وحين يرفع سمّاعَةَ الهاتِف ليَرُدَّ يُنهي المُتَّصِلُ المُكالَمَة.

"نقدر نشرب التشاي سوا؟".

"أكيد"، وتلتفت إلى النافذة مع أن الشيش مُغلَقٌ. ويفتح خفاجي النَّوافِذَ ثم يبعد الشيش. تمرُّ خطوطٌ غائِمَةٌ من البرتقالي والوَرديِّ وسط ضباب آخر النهار. وتَعرِفُ الغُرفَةُ لأوَّل مَرَّةٍ شعورَ مُرور النسيم الخفيف. يُغلِق خفاجي النافِذَةَ سريعًا، لكن الغرفة قد أصبحت بارِدَةً بالفعل. فيرتدي سُترَتَه ويجلس، ويُدفئ يديه بالكوب الساخن. يشرب ببطء ويتأمَّل الغسق وهو يرسم لوحة اليوم.

تَشرَعُ الدُّموعُ في التَّدفُّقِ على خَدَّيْها بلا صوتٍ ولا حركة.

"آني سوِّيت شي كلش غبي محسن. الشَّغلة مو بيدي"، ثم تَتَنشَّق وقد خرَجَت كلماتهُا كأنَّها دعوة. يمدُّ خفاجي يده إلى يدها، ثم يتراجع. تُحملِقُ هي إلى قَدَميْها، بينما تُطارِدُ عينا خفاجي عينيها. ويُحَملِقُ فجأةً إلى فخذيها ورُكبَتَيْها وسِمَّانَتَيْها وكَعبَيْها، وصولًا إلى قدميها، اللتين تنتعلان صندلًا مفتوحًا. ويتأمَّل أظافر قدميها المَطليَّة.

يتذكَّر كوبَ شايِهِ ويَجِدُه قد بَرَدَ. يتردَّد، ولكنَّه يكسر الصمت في النهاية: "على كيفتش زبيدة. مهما صار، كل شي راح يصير زين".

"الشغلة مو زينة محسن".

"يمكن أقدر أساعد؟".

"ما أعتقد محسن".

"ما تعرفين".

"لا محسن، إنت اللي ما تعرف".

تَمُرُّ دقيقة، ثم يتجرأ خفاجي على قوله: "قوليلي. شنو صار بسوسن لعد؟".

لا تنظر إليه، ويتابع هو: "الشغلة إلها علاقة بسوسن، مو هيتش؟ وزهرة وباقي البنات هيمن".

تَرُدُّ وقد أصبَحَت تنظر إليه: "شتعرف؟".

"أعرف إنهن تشانوا يشتغلون وياتش. وأعرف إنهن انقتلن لأن اشتغلوا وياتش". ويَسكُتُ، ثم يَكذِبُ: "وأعرف إنتش تشتغلين ويا سيترون، وأعرف راتبتش".

تسكُتُ وتُجَفِّف عينَيْها. ثم تتطلّع عبر النافذة وتبدأ الحديث: "قبل تشَمْ يوم سمعت مراسل أمريكي يقول شلون حياة المرأة اتحسَّنَت بعد الغزو. تخيَّل؟ حياتنا اتحسنت!".

يُلاحِظُ خفاجي أنه لا يزال يُحَملِقُ إلى قدميها. فيرفع عينيه إلى السقف مُحرَجًا. ويَرِنُّ الهاتف، لكنه يَتجاهَلُه.

"يريدون ينقذونا إحنا النسوان. يريدون يحررونا. دا يألِّفون قصص عن أمريكيات أسيرات عند العُربان[1]. تشانت ذيتش القصص تحقق أهدافها، لحد ما طلعت إنها غير حقيقية. ممكن تتوقع وراها إنهم راح يخرسون على شغلة إنقاذ النسوان".

تموت ابتسامَةُ خفاجي، وتُتابِع هي: "ما عندهم أي فكرة شنو دا يسوُّون هنا. ركبوا حصان من غير ما يعرفون شلون يصعدوه. وهسَّه عرفوا إنه خطر نزولهم من الحصان أكبر من خطر إنهم يظلون فوقاه".

(1) البدو بالعامية البغدادية.

يُخرِجُ سيجارةً ويُشعِلُها، ويترك العلبة على الطاولة أمامها ويذهب لجَلبِ قدح فورد.

"يعني الأمريكان راح يتعاونون ويَّا أي طرف ممكن يصير حليفهم. بس صِدِق هم يديرون بال لحقوق المرأة؟ يعني حلفاءهم الملالي يقبلون إني أطلع بالليل؟ يعني الجدود الأكراد راح ينصرون خواتهم بالجنوب؟".

تَلتَفِتُ إلى الباب ثم تأخذ كوبها. وتأخذ رَشفَةً وتَعبَسُ وتُعيدُه إلى مكانه. تُتابِعُ وهي تنظر إلى خفاجي مباشرة: "يمكن هاي استراتيجيَّة غبية".

يتَّفِق معها: "إي تشانت غبية"، ثم يتذكَّر أنه من الأفضل تَركُ الآخرين يُفضون بِكُلِّ ما بداخلهم، فيُومِئُ لها لتستمرَّ في الحديث.

"بس أحسن هواي بدائل. شنو راح تسوين لو تشنت مكانهن؟ ماكو غير شغل".

"إي، بس كِلِّش خطر".

"تشان عندنا وعود. تشان أكو ضمانات للبنات. بس هسه انكسر فد شي. تقدر تساعدنا؟".

"شلون؟" ويَندَمُ خفاجي على سؤاله بمُجرَّد خروجه من فمه.

"لازم أحتشي ويَّا سيترون. لازم يسوي شي أكثر مثل ما وعدنا".

يَسألُها: "شنو أقول له من أشوفه؟".

"قول له آني أعرف إنه شخص أقدر اعتمد عليه. قول له خلي يصلح الوضع، وإلا الشغلة انتهت".

لم يسمع صُفَّارَةَ الإنذار حين هبطت إلى الأمام وقبَّلَت خَدَّه. لم يجد لا نغمةً ناحِبَةً عالِيَة ولا ناحِبَة مُنخَفِضَة. وجد فقط رائِحَةَ

عِطرهـا تَغـرِسُ نَفسَـها في أعـماق عقلـه. يُحـاوِلُ أن يبتعـد بنظـره لكـنَّ أصابِعَهـا تُمسِـكُه بِرِقَّـةٍ مـن ذقنـه. تأخـذ منديـلًا مـن حقيبَتِهـا وتمسـح أحمـرَ الشِّـفاه عـن خـدِّه. ثـم تخـرج دون أن تنطـق كلمـةً أخـرى.

يميـل خفاجـي إلى الخلـف في كُرسـيِّه بعدمـا سَـيطَرَت عليـه الحـيرة أكـثرَ مـن أيٍّ وقـتٍ مـضى. يَجِـدُ السـماء قـد أظلَمَـت في الخـارج، والشَّـمسَ قـد هبَطَـت. وبينـما هـو جالِـسٌ مكانَـه يَـرِنُّ الهاتِـفُ مُجـدَّدًا، فيتجاهلـه ويُدخِّـن سـيجارته ببـطء. ويتوقَّـف الرَّنـينُ ثـم يبـدأ مُجـدَّدًا. فيلقـي عقـب السـيجارة عـلى الأرض ويُطفِئُـه قبـل أن يرفـع السـماعة. يجـد صـوت فـورد عـلى الطَّـرف الآخـر مـن الخَـطِّ في حالـةٍ هيسـتيريَّةٍ: "خفاجـي، أريـدُكَ أن تـأتي بسرعـة. وقَعَـت حادِثَـةٌ أخـرى. أيُمكِنُـكَ مُلاقـاتي حـالًا؟".

يُنهـي خفاجـي المُكالَمَـةَ ويُـزَرِّرُ سُـترَتَه ويطفـئ الأنـوارَ ويهـرع إلى الخـارج.

مساء الجمعة
5 ديسمبر 2003

يُلقي خفاجي نظرةً على فورد وهما في السيارة، ويرى شحوبَ وَجهِه.

يسأله خفاجي: "إلى أين سنذهب؟"، ولا يجد رَدًّا، فهو لم يَسمَع السؤال. تتحرَّك الهامفي بسرعات غير مُنتَظِمة، أحيانًا تكون مُسرِعَة، وأحيانًا تزحف على طريقٍ أَتلَفَته أعمالُ البناء. يتنطَّط خفاجي في كرسيِّه ويتطلَّع عبر النافذة فيرى عشرات الجرَّافات والجرَّارات والرافعات. وعلى جانب الطريق ثمَّةَ صَفٌّ لا ينتهي من قِطَع الخرسانة المُجهَّزة للتركيب. وبعد بضع دقائق تتوقَّف العربةُ فجأة، ثم تبدأ الزَّحفَ على آثار العربات التي على الطريق. يرى خفاجي المزيدَ من قطع الخرسانة المتكوِّمة، وخندق عميق يمتدُّ بطول الشارع.

يمرُّون بناقلات جنود وعربات هامفي مصفوفةٍ بطول الخندق. ويتطلَّع خفاجي حوله محاولًا تخمين موقعهم. يبدو هذا مثل حَيِّ الكِندي، لكنه لا يتذكَّر أنهم غادروا المنطقة الأمريكية. المكان مُطوَّقٌ بالكامل، وهناك اختناقٌ مروري صغير. تومِضُ الأضواءُ الملُوَّنة الرَّعَّاشة أعلى شاحِنَتَيْن تابعتين للشرطة العسكرية، ويرى خفاجي رجال الشرطة

العسكرية يُلوِّحون بعِصِيٍّ مُضيئَةٍ وسط الظلام يوجِّهون بها السيارات إلى الشوارع الجانبية. يُخفِضُ السائق زجاج نافذته وهم يقتربون ويُحيِّي أحد رجال الشرطة، والذي يُلوِّح له بدوره ليمرُّوا. يقترب شرطي من عربتهم ويخرج فورد للحديث معه، ثم يعود الرجلان بعد دقيقة. يجذب فورد خفاجي من كتفه: "تعال معنا، لكن كُن حَذِرًا؛ فالتفتيش لا يزال جاريًا، ورُبَّما لا يزال بعضهم بالداخل. دعني آخذك إلى المنزل".

يظهَرُ العشراتُ من جنود العمليات الخاصَّة المُقنَّعين في ضوء عربات الشرطة اللامع، ثم يغرق الشارعُ في الظلام. ويرتعش الضَّوءُ، فتسبح صفوف الرجال مثل الظِّلال. ويرتعش ثم يغرق الشارع في الظلام. ويرتعش، فتبدو حركة الرِّجالِ والأسلحة كثيفة. ويرتعش مُجدَّدًا ويعود الظلام ليغمر الجميع. يتبع خفاجي الرَّجُلَين الآخرين في شارعٍ آخَرَ أتلَفَته أعمالُ حَفرِ الخَندَق الجانبي. وقد نُصِبَت قطع الخرسانة في عدَّة مواضع بالخندق وجرى تعشيقُها سويًّا. هذا هو جدار القلعة، مع أن به الكثير من الثغرات في هذه البقعة تحديدًا.

يصلون إلى منزل تُضيئُه مصابيحُ كاشِفَةٌ مَرفوعَةٌ على مُدرَّعَتَيْ برادلي. يسمع خفاجي من جانبه ومن خلفه صياحًا وأصوات تحطُّم أبواب. يسأل خفاجي الضابِطَ الآخر: "أيُّ شارعٍ هذا؟".

"تقاطُع ويسكي مع تشارلي".

يسأل خفاجي: "ما اسمه الحقيقي؟".

"انتظر. دعني أحضر مُتَرجِمًا".

بعد دقيقة، يظهر جسدٌ مُمتَلِئٌ يُغطِّيه تدريعٌ كامِلٌ وقِناعٌ للوَجه. يُومِئُ إلى فورد وخفاجي.

"أين نحن؟ أتعرف أي شارع هذا؟".

"أظنُّ أنه شارع الفتح". يرفع خفاجي مُفكِّرَتَه إلى الضوء ويستغرق دقيقةً ليجده، لكنه يجده: الفتح. حين رأى الكلمة لأول مرَّةٍ، ظَنَّ أنه شارِعٌ في الجانب الآخر من المدينة. ظنَّ أنه مُجرَّدُ نَقلٍ صَوتيٍّ سيِّئ، مثلما ويسكي وتشارلي ترجمة سيِّئة.

وجده منزلًا خرسانيًا تقليديًّا مع لمسات من الرخام الأسود على الطريقة الإيطالية. لكنه أصبح الآن شيئًا آخر؛ فالرُّخام والخرسانة حين ينفجران يكون لهما ردودُ فِعلٍ مُختَلِفَة جدًّا. الهواء مُتشَبِّعٌ بتُرابٍ أبيضَ ناعِمٍ، يجعل خفاجي والآخرين يسعلون ويرفعون مناديل على وجوههم. وقد فُجِّر البابُ الأمامي المُدعَّم بالصُّلب. يشمُّ خفاجي رائِحَةً نَتِنَةً، ويُميِّز عناصرها على الرغم من الأقمشة التي تُغطِّيها، إنها مزيجٌ من روائح احتراق الطلاء والبلاستيك والشَّعر. ثَمَّةَ بِرْكَةٌ من الدِّماء والأطراف المُتشابِكَة لثلاثة شباب. ويرتدي جنديٌّ أمريكيٌّ قُفَّازاتٍ مَطَّاطِيَّةً ويَشغَلُ نَفسَه باستعادة بنادق "إيه كيه 47" من تحت جُثَثِ الشباب.

يُخبِرُ الضَّابِطُ الآخَرُ خفاجي بأن يتوقَّع وصول الشرطة العسكرية بعد قليل: "سيُطلِعونكَ على ما حدث هنا. يجب أن أعود أنا إلى رجالي". يقف فورد وخفاجي مُتجاوِرَيْن ويُجريان مسحًا لساحة المعركة. ويشرَعُ خفاجي بعد دقيقة بالتجوُّل في الطابق الأرضي باتِّجاه حركة عقارب الساعة بينما تُسلِّط المصابيح العارية ضوءًا زائدًا على الغرف الفارغة. إنها مساحة خرسانيَّةٌ خاوية، لكن يبدو الاستخدام المُتكرِّر واضحًا على أرضيَّتها. وتوجد في غرفة الطعام دَستَةٌ من الأَسِرَّة الصغيرة عليها بَطانيَّاتٌ صوفيَّةٌ رَخيصةٌ ووسائِدُ قَذِرَة. ويوجد في المطبخ المزيد من أكياس القمامة والزُّجاجات البلاستيكيَّة، وعظام دجاج وعُلَب تونة قديمة، وعدَّة غَلَّايات شاي أصبحت إحداها خاويةً، وتحترق على الموقد، فيُطفِئ الغاز تحتها. ثم يلحظ أن باب المرحاض مفتوحٌ على آخره، لكنه على الأقل يَعمَلُ. ثم يقترب من الحوائط وينقُرُ

عليهـا نقـرات مُنتَظِمَـة لكنـه لا يسـمع شـيئًا؛ فالخرسـانة لا تتيـح تلـك المساحات على أي حال. ينتقل إلى غرفة أخرى في الخلف ويجد المزيد من الأشلاء، فحين فجَّروا الجدارَ من الخارج تمزَّق الرجال الموجودون بالداخل. هناك أشلاء بشرية وملابس وأحذية في كل مكان. يخطو خفاجي على ساعِدِ جُثَّةٍ، وتنقبض أصابعها حول مُقدِّمَةِ حذائه، لكنه يتراجَعُ بمُجرَّد أن يراها. يُميِّز رائحةً أخرى مع روائح مادَّة الكوردايت والخشب والبلاستيك، فيضع المنديل على وجهه لكن بعدما ملأت رائِحَةُ الشَّعرِ المُحتَرِق أنفَه. ثم يهرع عائدًا إلى غرفة الطعام ويشعل سيجارة. يجد في إحدى خزانات المُؤَنِ مَخبأً لمُعِدَّات تفجير، وقذائف مدفعية وأغطيةً معدنيَّة ولفافاتِ أسلاكٍ. ويعود للتجوُّل في الطابق الأرضي. الفيلَّا بها طابقان، لكن ليس هناك سُلَّمٌ إلى الطابق الثاني. فيتحسَّس حائط غرفة الطعام مُجدَّدًا حين يسمع وقع خطوات الأحذية العسكرية وراءه. ثم يلتفت ليجد فورد واقفًا هناك بصُحبَةِ رَجُلٍ طويل بُنِّيِّ البَشرَة يعتمر خوذةً بيضاء.

يتقدَّم الرجل ليُعرِّفَ نفسه: "أيُّها المُفتِّش خفاجي، أنا العَرِّيف بيلاسكوران من وحدة الشرطة العسكرية رقم 172. وردتنا أوامر بالاتصال بمكتبكم إن حدث شيءٌ هنا".

ينظر إليه خفاجي ثم يُتَمتِمُ: "هل يوجد أي شيء هنا لنا؟ يبدو المكان كساحَةِ حَربٍ وليس مسرحَ جَرِيمَة".

"أنت مُحِقٌّ... لا يوجد شيء لكم هنا. يجب أن تصعد إلى الأعلى".

يقود الرَّجُلُ خفاجي عبر الفِناء الخلفي وصولًا إلى باب معدنيٍّ عليه قُفلٌ ثقيل. إنه قُفلٌ ثقيل مكسور، ويؤدِّي إلى سُلَّمٍ خارجيٍّ شديد الانحدار. تضرب رائِحَةٌ حِمضيَّةٌ كريهةٌ أنفَيهما وهما يصعدان السلم، إنها رائِحَةُ الغاز المسيل للدموع. فيرفع خفاجي المنديل على

فمه مُجدَّدًا ويغلق عينيه. ويبدو الانزعاج على وجه فورد ويهرع نازلًا السلم.

يهتف الشرطي: "الرائحة أقوى في الأسفل. هيا اصعد".

أوَّل ما يشعر به خفاجي هو الهواء البارد الذي يهبُّ عبر النوافذ المفتوحة. ثم يلاحظ أنه قد رأى هذا التناقُضَ بين الطابقين العلوي والسفلي من قبل. يوجد سجَّادٌ شرقيٌّ، وليس هناك كراسٍ، بل أرائك مُنخَفِضَة ووسائد. وهناك ستائر ثقيلة مُزَركَشَة مُعلَّقة على الحوائط. لكنَّ اللَّمبات الملُوَّنة هي ما يصدمه؛ فالضوء خافت جدًّا، وهو أحمر وأرجوانيٌّ وأزرق للغاية. أيُّ شخصٍ سَيُميِّز هذا المكان حتى ولو لم يعمل بشرطة الآداب من قبل.

يتجاوَزُ السجادَ والزجاج المتكسِّرَ وعبوات الغاز المسيل للدموع والثريات، ويُضيِّق عينيه ليرى الجانب البعيد من الغرفة. يرى كومةً من الأشياء الملُوَّنة على الأريكة، لكنه لا يُميِّز أيًّا منها؛ فيذهب إليها. يُزعِجُه تَهشُّم الزجاج المتكسِّر تحت حذائه. ويُميِّز أولًا قِطَعَ ملابس، إنها قِطَعٌ مُبعثَرَة عليها نَقشاتٌ لامعة من الساتان والشالات والخرز والأساور. ثم يجد أطرافًا بشرية ووجوهًا مُتشابِكَةً وسط الأقمشة. ترتدي الشَّابَّاتُ الثلاث ملابِسَ داخليَّة كتلك الخاصَّة بليلة الدُّخلَة. يبدو أنها حفلةُ جِنسٍ جماعيٍّ هائلة توقَّفَت في منتصفها. يشيح خفاجي بنظره ويذهب ليبحث عن مُلاءَةٍ ليُغطِّيَهنَّ.

يتجوَّل في الغرفة ويرى على الأرض أحذيةً نِسائيَّةً ذات كعوب طويلة مُتناثِرَة كأنها قد رُكِلَت. ويوجد بينها حذاءٌ رجاليٌّ. ينظر بداخله فيرى كلمة "مقاس 11" منقوشة بالإنجليزية.

يرى مجموعةً صغيرة من زجاجات النبيذ ومنافض السجائر على الطاولة الزجاجية المُنخَفِضة في الزاوية قُربَ النافذة. ويلحظ على طاولَةٍ أخرى أكوامًا من مسحوقٍ أبيض. وثمَّة حقيبة دفل حمراء

مدسوسة أسفل الطاولة. يبدو أنه دائمًا ما توجد حقيبة دفل. فيأخذها خفاجي ويُفتِّشها، ويجدها خاوية مثل غيرها.

يتمشَّى في الغرفة باحثًا عن المزيد من أجزاء القصة. لا يزال المُسجِّل مُتَّصِلًا بالكهرباء؛ لذا يضغط على زِرِّ التشغيل. يُدوِّي صوت موسيقى البوب عاليًا، ويُفاجِئُ خفاجي للغاية لدَرَجةٍ أَنَّه يحتاج إلى لحظةٍ لإطفائه مُجدَّدًا. يفتح مُشَغِّلَ الأقراص ويتفقَّد القُرصَ فيجده لنانسي عجرم، وذلك الاسم لا يعني له شيئًا. يتمشَّى إلى النافذة ويهبط بعينيه مُحَملِقًا إلى المشهد الذي يتشكَّل الآن أمام القيلَّا. يجد صعوبةً في إدراك ماهِيَّة ذلك الصف الممتد من الشرائط القماشية البيضاء وراء الأضواء الكاشفة. ويدرك بعد الحَملَقَةِ لدقيقة أنها عِصاباتُ أَعْيُن رجالٍ مُنبَطِحين على الرصيف. وتَقِفُ حولهم مجموعاتٌ من الجنود المُقنَّعين الذين يراقبونهم، وأسلحتهم مُخفَضَة وجاهزة للاستخدام. بالكاد يبدو آخِرُ رَجُلٍ في الصف واضحًا. وقد أنهضوه ليتحدَّث مع المترجم والجُنديِّ. لملابسه ووجهه وشَعرِه ألوانٌ داكِنَةٌ تختفي في الظلام، فتبدو عِصابَةُ عَينَيْه كأنها مُعلَّقة في الهواء.

يلتفت خفاجي حتى يصبح الشرطيُّ العسكري أمامه: "ما الذي حدث هنا؟".

"سيدي، عند الساعة ألف وثمانمائة سَمِعَت دَوريَّةٌ صَوتَ طلقاتٍ صادرٍ عن الطابق الأرضي. فافترضوا أنه حدث اختراقٌ للسِّلكِ الشَّائِك واشتبكوا، ثم طلبوا دعمًا. حاولوا أن يُبقوا أَعيُنَهم على الأهداف قَدرَ استطاعتهم. ونحن نعرف أن مجموعة حاجِّيز(1) قد هربت من القيلَّا. على الأرجح احتموا بأحد البيوت المجاورة".

"وبعد ذلك؟".

(1) Hajjis لفظٌ شائعٌ في صفوف الجيش الأمريكي للإشارة إلى العرب عمومًا، والعراقيين خصوصًا.

"انتظر رِجالُنا حتى أصبح معَهم القُوَّةُ النارية الكافية ثم أعادوا الاشتباك. بدؤوا بالغاز المُسيِّل للدموع في كِلا الطابِقَيْن. ولم يجدوا ردًّا. ثم اندلعت الحربُ في الطابق الأرضي. وحينئذ وصلنا نحن. كانوا مُسلَّحين ومُستعدِّين، لكنَّ فُرَصَهم في الانتصار كانت مَعدومَةً. لم يكونوا ينتظرون إلَّا أمرَ الرَّبِّ. لم نحتَجْ إلى أكثر من فرقَعَتَيْن حتى ندخل. حينئذ كان أمرهم قد انتهى. لقد حالَفَنا الحَظُّ. كان يمكن لهذا أن يصبح كابوسًا".

يسكت خفاجي. "إذًا فلِمَ استدعوكَ؟".

"معذرةً يا سيِّدي؟".

"هل يَتَّصِلون بكَ كلَّما حدث اشتباك؟".

"لا".

"إذًا فلِمَ اتَّصلوا بكَ؟".

"الشرطيُّون العَسكريُّون لهم سلطة قضائية في المنطقة الخضراء يا سيدي".

"نحن في المنطقة الخضراء؟".

"نحن داخلها نظريًّا، حتى ولو كان الجدار غير مُكتَمِلٍ بعد. هذا الجزء يَخصُّنا، وكذلك مَن يعيشون هنا".

"مَن يعيش هنا إذًا؟ في هذا المنزل؟".

"لا نعرف بَعدُ. على حَدِّ عِلمنا كلُّ مَن يعيشون في هذا الشارع غيرُ مُعادين. لقد حصلوا على موافَقاتٍ أمنيَّةً على أي حال. لدينا حوالي خمسة آلاف مَحلِّيٍّ حصلوا على تصاريحَ أمنيَّةٍ. لكنَّ المنطقة ليست آمِنَةً مائة بالمائة. العَرَبات لا تستطيع الدخول أو الخروج دون المرور عبر البوَّابات، لكن يمكن العبور مَشيًا عبر الثغرات. لكنَّنا هنا على مدار الساعة، ولا شيء يحدث هنا دون معرفتنا".

"إذًا فهذا حدث جَلَلٌ؟".

"إن أصبح الإرهابيُّون ينصبون مُعَسكراتٍ هنا؛ فهذا حَدَثٌ جَلَلٌ للغاية. هناك رِقابٌ ستطير. عمَّ تبحث أنت وسيترون؟".

ينظر خفاجي إلى فورد الذي يقف عند الباب، مُجمَّدًا مثل تمثال، ووجهه شاحِبٌ كالرُّخام. يُدرِك خفاجي فجأةً أن فورد يعرف الفتيات اللاتي على الأريكة. وأنه يعرف هذا المكان.

يعود خفاجي إلى الشُّرطيِّ العسكري: "نحن هنا لأن بعض المُترجِمات قد اختَفَيْن". ويشير إلى الأريكة: "يجب أن نفحص هذه الجُثَث... قد يَكُنَّ هؤلاء. أفترض أنَّكَ تَعرِفُ أن هذه المنازل عادةً ما يكون بها مساحة تخزين إضافية أو غرفة تخزين".

يعبَسُ الشُّرطيُّ العسكريُّ وهو يحاول أن يفهم. يضيف: "ربَّما تَحتَ السُّلَّم". يومئ الرَّجُلُ ويتابع خفاجي: "إن كان لديك كلابٌ، يجب أن تَجلِبَهم وتفحص بهم المكان".

يومئ الشرطي العسكري مُتَجهِّمًا: "حسنًا. سنبحث عن أي مساحات تخزين، أو غُرَفٍ آمِنَةٍ، أو أيٍّ ما يَكُون فورًا".

"حسنًا. أيُمكِنُنا استعارة بعض الأكياس منكم؟ وقُفَّازات أيضًا؟ شكرًا لك". يومِئُ الرَّجُلُ مُجدَّدًا ويهبط السُّلَّم. ويُنادي خفاجي فورد، الذي يبدو الانزعاجُ جَليًّا على وجهه.

"أتعرف هذا المكان يا لويس؟".

حين لا يردُّ، يسأله خفاجي: "يجب أن نَلتَقِطَ بعضَ الصُّوَر يا لويس. أيُمكِنُكَ جَلبُ كاميرا؟" ويختفي فورد بعدما يهبط السُّلَّم.

يفتِّش خفاجي الغرفة الرئيسية في الطابق الثاني طوال الساعتين التاليتَيْن، ثم غرف النوم المُتفرِّعة منها. ويلمس المسحوق الذي على الطاولة الزجاجية ثم يَلعَقُ أصابِعَهُ. وحين يصيب الخَدَرُ طَرفَ لِسانِه

يَهـزُّ رأسـه ويكتـب مُلاحَظـةً. هنـاك خِزانـة مشروبـات كحوليـة مُمتَلِئَـة بزجاجـات لم يَـرَ مِثلَهـا أبـدًا. وحـين يعـود الشرطـيُّ العَسـكريُّ يسـأله خفاجـي: "إن كُنَّـا داخـل المنطقـة الخـضراء، فكيـف...؟".

ينخـر بيلاسـكوران: "صَدِّقنـي، أعـرف مـا تُفكِّـر بـه. القِصَّـة أنهـم كان يجـب أن يُنهـوا الجـدارَ الجديـد عـلى مرحلتـين. المُقـاوِلُ المسـؤول عـن المرحلـة الثانيـة أنهـى عملـه سريعًـا، بينـما توقَّـفَ المَسـؤولُ عـن المرحلـة الأولى. يُفـترَضُ أن يعمـل عـلى مـدار السـاعة حتـى يُنهِـيَ مَهمَّتَـه، لكنـه ليـس لديـه مـا يكفـي مـن الرجـال ليُغطِّـي الوَرديَّتَـيْن".

يهـزُّ خفاجـي رأسـه. ويَضحَـكُ الرَّجُـلُ الآخـر: "صَدِّقنـي، أخبرناهـم أن هنـاك مشـكلة".

يفحـص خفاجـي كُلَّ غُرفَـةِ نَـومٍ بِتَمعُّـن. الغُـرَفُ خاويَـةٌ في معظمهـا، باسـتثناء بعـض الأغـراض والمرايـا والأَسِرَّة التـي بجوارهـا طـاولاتٌ صغـيرة، كـذا توجـد أغـراضٌ شـخصيَّةٌ في كل الغُـرَف. ثمَّـة أحمـر شِـفاه وملابِـسُ داخليَّـةٌ وبلـوزات وأحذيـة. إنهـا أشـياء لا تـدلُّ عـلى شيء، لكنـه يَضَعُهـا داخـل أكيـاس عـلى أي حـال. يجـد بطاقـات تَعريـفٍ جديـدة كالتـي وجدهـا مـن قبـل. ويعـثُرُ عـلى أنـواعٍ جديـدة مـن بطاقـات التعريـف في ثـلاثِ غُـرَفٍ. ثَمَّـةَ بطاقـة تعريـف جامِعيَّـةٌ ورُخصَـة قيـادة. وحـين يُطابِقُهـا لا يتفاجـأ، فـكلُّ وجـهٍ لـه عِـدَّةُ أسـماء.

ينقُـرُ عـلى حائـط الجبـس ويسـمع صوتًـا أجـوفَ مـن وراء السُّـلَّم. يفـترض في البدايـة أنهـا مُجـرَّد مسـاحة تخزيـن، لكنـه يـرى الحـدودَ الخارجيـة لِلَوحَـةِ تَحكُّـمٍ صَغـيرة. ولـو كان الضَّـوءُ أقـوى لـرأى اللوحـة قبـل ذلـك بكثـير؛ فهـي ليسـت مَخفيَّـةً عـلى الإطـلاق. يفتـح اللوحـة ويجـد نفسـه مُحدِّقًـا إلى فجـوَةٍ سـوداء صغـيرة. يـرى مصباحًـا طوليًـا في الجانـب الآخـر مـن الغرفـة فيجلبـه ويُضيئُـه ويوجِّهـه إلى داخـل الفجـوة. يَلفِـتُ نظـره شيءٌ عـلى الأرض فيلتقطـه ويَجِـدُه جِسـمًا معدنيًـا ثقيـلًا، ويسـتقرُّ

في راحـة يـده كأنـه مصنـوعٌ ليسـتقرَّ هنـاك. يخلـع قُفَّـازه المطاطـي ويستشـعر الثِّقَـلَ عـلى جلـده العـاري. إنـه مُسـدَّس سـميث آنـد ميسـون ماجنـوم عيـار 357 مطـلي بالنِّيـكل، ولـه ماسـورَةٌ قصـيرة. إنـه سِـلاحٌ للمُباهـاة. يَشـتَمُّه فـلا يجـد سـوى رائِحَـةِ المعـدن المُزيَّـت البـارد، وهـو مـا يكفـي لتأكيـد أنـه لم يُسـتخدَم اليـوم. ويُزلِـق المسـدَّسَ في جيـب سُـترَتِه.

يحـشر المصبـاحَ داخـل الفجـوة، ثـم يربـض حتـى يتمكَّـن مـن دخولهـا. يـرى في الضـوء المبـاشر خزانـةً ضئيلـة مُزدَحِمَـة وبهـا جُثَّـةٌ أخـرى. وهـي ليسـت مُجـرَّد جُثَّـةٍ أخـرى، بـل جُثَّـة آخِـرِ شـخص يُفـترض أن يكـون هنـاك.

لقـد كَمَّمـوا سـيترون ولَفُّـوه بسِـلكٍ مـن الصُّلـبِ قبـل إجلاسـه عـلى الكـرسي، وقَيَّـدوا معصَمَيْـه بأربِطَـةٍ بلاسـتيكية.

وتعرَّضَـت الفتيـات الـلاتي في الغرفـة لإطـلاق النـار، مـن أعـلى إلى أسـفل عـبر العنـق مثـل الأخريات.

لكـن سـيترون مختلـف، فـلا توجـد دمـاء ولا جـروح. وجهـه أرجـواني فاتِـحٌ أو أزرقُ أو كلاهـما. يلاحـظ الشَّـالَ الملفـوف حـول حَلقِـه، إنـه مـن الحريـرِ المُزَخـرَفِ، وهـو مَربـوطٌ بإحـكامٍ. فيَهبِـطُ بعينَيْـه إلى جـورَبَيْ سـيترون. يبـدو أنـه لم ينتعـل الحـذاء ذا الرقبـة الليلـة.

يريـد أن يَمـدَّ يـده ليلمـس الجثـة، لكـنَّ شـيئًا مـا يبـدو غريبًـا. فيجـذب المصبـاح أكـثرَ، لكـنَّ جَسـدَه يحجـب الضـوء. يفحـص مـا حولـه ببُـطءٍ فـيرى بطَّارِيَّـة سـيارة، ويتتبـع الأسـلاك بعينيـه فيلاحـظ البقعـة التـي تلتـفُّ فيهـا الأسـلاك لتدخـل تحـت ملابـس سـيترون، ويبـدو أنهـا تَصِـلُ إلى جذعـه.

يتراجـع فجـأةً ويتتبَّـع الأسـلاك مـرَّةً أخـرى. هـذه الأسـلاك تُشـكِّل فخًّـا. وسـيترون ليـس مَيِّتًـا فقـط، بـل هـو أيضًـا سـلاحٌ، وهـو مُوجَّـهٌ إلى خفاجـي مباشرة.

كان قـد زحـف إلى خـارج الخِزانَـةِ وبلـغ منتصـف السُّـلَّم حـين أعـاد التفكـير. فعـاد ببُـطءٍ إلى اللوحـة ودخـل الفجـوة مُجـدَّدًا. تبـدو جيـوب سـترة سـيترون خالِيَـةً، لكنَّـه يُفتِّشـها، وتُخـرِجُ أصابِعُـه أوراقًـا فيرفعهـا باتجـاه الضـوء. ويجـد أيضًـا مناديـلَ ومَحـارِمَ ورق مُسـتَعمَلة، فيرميهـا أرضًـا. ويميـل عليـه ويفتِّـش جيـب الجانـب الآخـر. تتلمَّـس أصابعـه طريقهـا لكنـه لا يشـعر بـأي شيء. يميـل عـلى بطـن سـيترون ويحـاول مُجـدَّدًا، فيجـد في طريقـه كُتلَـةً مـن قِطَـعٍ معدنيـة فتُحرِّرُهـا أصابِعُـه، ويسـمع صريـر مفاتيـح.

يرجـع إلى الخلـف ويبـدأ في التحـرُّك نحـو السُّـلَّم. ينظـر إلى الكَومَـةِ الصغـيرة مـن أكيـاس الأَدِلَّـة التـي عـلى الأرض ويُقـرِّر أن ينسى أمرهـا. وحـين يَصِـلُ إلى أسـفل السُّـلَّم يُصادِفُ جُنديًـا عـلى وشـك دخـول المبنـى، ويهتـف: "لا تدخُـلْ! هنـاك قنبلـة!".

يجـري خفاجـي حـول الفيـلَّا، وإلى الشـارع. يـراه الشرطـيُّ العَسـكريُّ ويقـترب منـه، لكنـه يَلهَـثُ ولا يقـدر إلَا أن يهمـس: "توجـد قنبلـة هنـاك! قنبلـة!".

يـشرَعُ الشُّرطـيُّ العَسـكريُّ بالصيـاح بأوامِـرَ إلى رَجُـلٍ بجـواره قبـل أن يختفـي وراءَ بوَّابـات الفيـلَّا. ينظـر خفاجـي حولـه بحثًـا عـن فـورد لكنـه لا يـراه في أي مـكان.

أُخلِيَـت الفيـلَّا خـلال دقائـق. وخـرج شُرطيَّـان عَسـكريَّان ركضًـا، تُغطِّي أيديهـما قُفَّـازاتٌ وعـلى وجهيهـما قناعـان. ثمَّـة جنـودٌ يعتَمِـرون أقنِعَـةَ الوَجـهِ ويتجوَّلـون تحـت الأضـواء الكاشـفة وأسـلحتهم عـلى أفخاذهـم. فيشـعل خفاجـي سـيجارةً ويبـدأ السَّـيرَ بطـول الشـارع. يخـرج مـن الضَّـوءِ ويعـود إلى حيـث صَفُّـوا عَرَبَتَهـم، لكنهـا اختفـت. كـذا اختَفَـت عَرَبـاتُ الجيـب الأخـرى، والأضـواء الرَّعَّاشَـة، والرِّجـال ذَوو العِصابـات. يراقـب أبـواب المنـازل واحِـدًا تلـو الآخـر في الظـلام، وكُلُّهـا مفتوحـة عـلى آخرهـا.

يصل إلى نهاية الشارع ويبدأ في مسارِ الرجوع. وينطلق الانفجارُ الأوَّلُ وهو على بُعدِ حوالي 50 متراً. تحوَّلَت النوافذ الزجاجية في لحظتها إلى سُحُبٍ مُنفَجِرَة مَطيرة. ثم يندلع الانفجار الكبير قاذِفًا طوبًا وغبارًا ونارًا في كل الاتجاهات؛ فيندفع أرضًا. وينهض فيرى جُثَثَ الرجال الذين كانوا واقفين قبل دقيقة عند مدخل الڤيلّا. لقد كانوا أقربَ مِمَّا يجب. يشاهد جنديًّا يتلَّوى في الشارع، ورَجُلًا ينادي ويبحث عمَّن يساعده. يبذل جهدًا ليسمع ما يقوله الرجل، ثم يُدرِكُ أنه ليس هناك أيُّ أصواتٍ، وأنه لا يسمع إلا رنينًا.

ينفُضُ الغُبارَ عن نفسه ويتابع المشهدَ الصَّامِتَ حوله. يَشرَعُ بالرَّكضِ، ويركض حتى يبدأ بالتدريج في سماعِ العالَمِ من حوله. يسمع أنفاسه وضربات قلبه أولًا، ثم أصوات حذائه على الحَصَى والخرسانة. كان قد جرى حوالي كيلومترًا حين رأى الأضواء الرَّعَّاشة بالأحمر والأزرق، ثم بدأ يسمع السَّرائِنَ، سمع سارينةً واحدة ثم عدَّةَ سَرائِنَ. ووثب فوق الخندق حين ظهرت أولى شاحِناتِ الإطفاء. بات الآن خارجَ المنطقة الأمريكية وداخل الظِّلالَ. يركُضُ ويركُضُ حتى تنقطع أنفاسه. يَمرُّ موكِبٌ من مُدرَّعات برادلي في الظَّلام على بُعدِ مئات الأمتار وراءه، وراء الجدار الذي بُنِيَ نصفُه فقط ووراء الخنادق. يميل إلى الجدار ويحاول أن يُخرِجَ عُلبَةَ الروثمانز. فتجد أصابعه مفاتيحَ سيترون بدلًا منها.

لَيلُ الجُمعة – صباحُ السَّبت
5 – 6 ديسمبر 2003

يَعبُرُ التاكسي النَّهرَ مَرَّتَيْن في الطريق إلى المنزل، وفي كل مَرَّةٍ ينتظر عند نقطة التفتيش. ينزل خفاجي قُربَ المَقرِّ الجديد لحزب الدعوة، ويمشي بطول شارع أبو نواس، مارًّا بالمقرِّ الجديد للحزب الشيوعي وظِلِّ شهرزاد وهي تُسلِّي ظِلَّ شهريار. ينحرف عن الشارع عند تمثال أبو نواس ليبلغ حافَّةَ الضفَّة الاصطناعيَّة، الغارقة في الضوء الأزرق. يجلس على سورٍ مُنخفِضٍ ويُشعِل سيجارة، ويتذكَّر الجلوس في البُقعَةِ نفسها منذ ثلاثين عامًا مع سهير وصديقاتها من المدرسة، يشربون العَرَقَ على النجيل. يتساءَل كيف منعوا الثلج من الذَّوَبان، لكنه لا يتذكَّر. ينقر السيجارة التي شرب نصفها بإصبعه عاليًا في الهواء ويشاهدها وهي تختفي أسفل الضفة.

يُشعِلُ سيجارةً أخرى ويُحَملِقُ إلى أضواء المدينة البرتقالية الكئيبة. القمر شبه مُكتَمِلِ اليوم، وبريقه غيرُ فَعَّالٍ في مواجهة ضباب المدينة، لكنَّ المياه المُظلِمَة تحته تتلألأ في بُقَعٍ مختلفة. ويصبح نهر دجلة بفضل الظلال الصامتة سَيلًا من اللا شيء يملأ الأفق. يُحملِقُ خفاجي

إلى النهر حتى يصبح خندقًا في عينيه. إنه خَطٌّ دفاعٍ آخر يحمي هذا الجانب من المدينة من المعسكر الأمريكي المنصوب في الكرخ.

يميل بظهره على الجدار الخرساني ويَدَعُ البرودة تتسلَّل إلى عظامه. يفكِّر بكل ما حدث خلال الأيام الماضية، ثم لا يفكر بشيء إطلاقًا. لا شيء باستثناء صورة جُثَّة سيترون. يحاول أن ينساها بالتفكير بصُورٍ أخرى، أو كلمات. يحاول مُجدَّدًا أن يتذكَّر شيئًا من كلمات نازك. يحاول أن يتذكَّر بيتًا أو كلمةً أو أيَّ شيء. ويضطرُّ في النهاية إلى الاعتراف بأن المشكلة ليست بالقصائد، بل بِعَجزِه عن التَّذكُّر أو قُدرَتِه على النسيان.

يُغلِقُ عينيه ويحاول أن يُفكِّر في سهير، ويتمنَّى لو كانت معه. يتخيَّلُها تبتسم لَهُ، وتخبره بأن الأمور ستكون على ما يرام. لكن الوجه الذي يظهر هو وجه زبيدة. يتنفَّس خفاجي وتعود إليه كلمات نازك فجأة.

مَرَّت أَيَّامٌ مُنطَفِئات

لم نَلتَقِ.. لَمْ يَجمَعْنا حتَّى طَيفُ سَرابٍ

وأنا وَحدي، أقتاتُ بِوَقعِ خُطَى الظُّلُماتْ...

يبتسم لنفسه. يبدو أن شيئًا من الشِّعر قد عاد. لكنَّ مَطلَعَ القصيدة يقول: لم نَعُدْ نَلتَقي. يُغلِق عينيه ويحسُّ كأن جسده يطفو. وحين يفتح عينيه مُجدَّدًا يجد نفسه قد نسي الأبيات. فيُغلِقهما مُجدَّدًا لكنَّه لا يرى وجهها يبتسم إليه.

يشقُّ طريقَه بصعوبَةٍ إلى البيت وقد نال منه التَّعَب، ويتوقَّف ليُبعِدَ كيسًا بلاستيكيًّا عن حِذائِه. وقُربَ زاوية شارعه يصدم إصبعَ قَدَمِه برصيفٍ مَكسورٍ ويكاد يقع. فيتوقَّف ليُريح كاحِلَه وهو يهمس لَعَناتِه إلى الظلام. يرى حينَئِذٍ ضوء المكابِحِ الأحمر يضيءُ وينطَفِئُ. إنَّها

المرسيدس السوداء مصفوفة عند نهاية شارعه. يكتسح فيضانُ الضَّوء الأحمر الليلَ المُظلِمَ ثم يتراجع. يتجمَّد خفاجي ويحاول أن يُفكِّر، وتبدأ قدماه في التَّحرُّك قبل أن يعرف ما سيفعله. يتقدَّم إلى النافذة وينظر بالدَّاخِلِ قبل أن يُدرِكَ السَّائِقُ وجودَه. إنه الرَّجُل ذو العُنُقِ السميك الذي كان بالجامعة، والذي يعمل حارسًا شخصيًّا لزبيدة. ويَضرِبُ خفاجي مُسدَّسَه على النافذة بقوَّةٍ كادت تكسر الزجاج قبل أن يفعل السائِقُ أيَّ شيء.

لا يُقاوِمُ الرَّجُلُ حين يطلب منه خفاجي أن يأخُذَه إلى زبيدة، ولا يقاوم حين يمدُّ يدَه داخِلَ سُترَتِه ويأخذ مُسدَّسه، ثم يُخرِجُ منه المُشطَ ويضعه في جيبه. ويأخذ الطلقة من جَوفِ المُسدَّس ويرميها من النافذة.

لا يتذمَّر الرَّجُلُ حين يُصوِّب خفاجي إليه المُسدَّسَ عيار 357 ويأمره بأن يأخذه إلى منزل الأستاذة. ولا يتذمَّر حين يغفو خفاجي ويُوقِعُ مُسدَّسَه على الكرسي.

يذهبان باتِّجاه الجنوب ثم الشرق. ويستيقظ خفاجي في الوقت المناسب ليرى آخِرَ البيوت الفقيرة بحَيِّ الدُّورَة. وكان قد نام مُجدَّدًا حين بلغوا الطريق السريع رقم 7. ويجدهما حين يستيقظ مُجدَّدًا يُسرِعان على طريقٍ تُرابيٍّ طويل. يدعك خفاجي عينيه ويحاول أن يُلَملِمَ نفسه. يجري دجلة على يمينه ببطءٍ شديد حتى يكاد يبدو كالبحيرة. وتتوقَّف السيارة أمام بوَّابة كبيرة. يُنزل السائِقُ نافِذَتَه ويتقدَّم رَجُلٌ في الظلام ليلوِّح لهما بالتَّقدُّم. يتحرَّكان لدقيقة أخرى حتى تظهر فيلَّا، ويتذكَّر خفاجي بعد بعض الوقت مُسدَّسَه ويأخذه. يشير للسائق ليخرج من السيارة، ويبدآن المَشيَ بطولِ مَمَرٍّ من الحَصَى نحو الباب الأمامي، السائق في الأمام وخفاجي وراءه. هنا في الريف يبدو القمرُ ساطعًا ويميل إلى اللون الأزرق أكثر من الأبيض.

توجَدُ نُجومٌ كثيرة جدًّا لدرجةٍ تَصعُبُ عَدُّها. هنا تتمايَلُ حُقولُ القصب بألوانِ الأزرق الداكن والرمادي والأبيض. وتَحفُّ الرِّياحُ كأنها همسات، إنه الصَّوتُ المُهَدهِدُ نفسه الذي يُحْدِثُه النهر وهو يندفع نحو البحر. كان كُلُّ هذا كافيًا لجعل خفاجي يريد أن ينام في حينه ومكانه. ولا يُبقيه مستيقظًا إلّا صوت القرقشة الذي يُحدِثُه الحصى تحت حذائه الجلدي.

يَصِلان إلى الشرفة الأمامية للبيت ويستدير الحارس، ويأمره خفاجي بالعودة إلى السيَّارة فيُطيعُه. كاد خفاجي أن يصل إلى الباب الأمامي حين انفتح وانسكبَ من ورائه ضَوءٌ أصفرُ دافئٌ مثل سجادة تبسط نفسها على الأرض. يدخل البيت دون أن ينطق كلمة. وهناك يجد زبيدة لا ترتدي إلا روبًا منزليًّا وابتسامَةً قَلِقَة.

تمشي نحو خفاجي لكنه يُبعِدُها عنه. ينظر إلى المسدس الذي بيده ثم إليها مُجدَّدًا. وآثار الدموع في عينيها تجعله يندم على قرارِهِ أن يُقابِلَها.

"زبيدة، شنو اللي دا يصير لخاطر القواد؟".

تُحَملِقُ إليه لكنها لا تقول شيئًا. يرفع صوته: "سيترون مات، وإنتي لازم توضِّحين لي الموضوع".

تبدأ البكاء، لكن هذه المَرَةَ بلا دموع.

يبدأ خفاجي الصياح: "زبيدة، سيترون مات. وهواي بنات همين. لازم تحتشين هسَّه".

تتابع الحَملَقَةَ إلى خفاجي. تُحَملِقُ إلى المسدس الذي بيده، ثم تُحَملِقُ إلى عينيه مُجدَّدًا. هو غير متأكِّدٍ إذا كان صمتها تَحدِّيًا أم تهديدًا، أم أنه مجرَّد علامة على أنه ضيَّع وقته. ولا يخطر على باله أنه دعوة.

وحين تُباشِرُ دَعوَتَها، تكون بطيئة جدًّا لدرجة أنه لا يلاحظ إلى أنْ تُلامِسَ شَفتاها شَفَتَيْه وهو يشتمُّ جِلدَها وشَعرَها ويحتضنها بكلِّ قُوَّته.

يتراجع ولكنه يَجِدُ مُسدَّسه بِيَدِها، ومُوجَّهًا إلى بطنه. يفتح فمه لكنَّ يَدَها تَمنَعُه من قَولِ أيِّ شيء. يقفان هناك لدقيقة قبل أن تضع المُسدَّس في جيب سُترَتِه وتأخذه من يده. تقوده بطول ردهةٍ رُخاميَّةٍ طويلة، وتطفئ الأنوار وراءَهما وهي تتقدَّم. يدخلان إلى غرفة نوم، ثم إلى حَمَّامٍ، حيث تشرع بملء المَغطَسِ بالمياه. تُجلِسُ خفاجي وتبدأ بمسح التراب عن وجهه بمنشَفَةٍ. يغلق عينيه وهي تمسح جَبهَتَه وحاجبيه وجفنَيْه وذَقنَه وفَمَه. يشعر بأصابعها تمرُّ على شفته العليا. يشاهدها وهي تخلع سُترَتَه ويتخيَّل أنه في حلم. ويصطكُّ المُسدَّسُ حين تُعلِّق سُترَتَه على الباب، ثم تخرج وتغلق الباب وراءها. يُغرِقُ هو جسده في المياه الساخنة، ويميل إلى الخلف وينقع جِلدَه وعضلاته وعظامه. ويتوقَّف الزمن حين يغلق عينيه.

يفتح عينيه ويجد المياه قد برَدَت. فيخرج ويُجفِّفُ نفسه بمنشَفَةٍ بيضاء سميكة. ثم يعود إلى غرفة النوم ويجد زبيدة تجلس قُبالَةَ طاولة كتابة. وتُغلِقُ دُرجًا حين تسمعه يقترب.

يستيقظ بعد ساعاتٍ على صوت الأذان. يستمع إلى تلك الدعوة في الظلام تحت الملاءات الدافئة: حَيٍّ على الصَّلاة، حَيٍّ على الفلاح! الصَّلاةُ خَيرٌ من النَّوم! ينتهي المُؤذِّن ويتخيَّل خفاجي أنه يسمع صوت الرياح في حقول القصب بالخارج، ثم يُدرِكُ أنه صوتُ تَنَفُّسِ زُبَيدَة. فيتقلَّب في السرير لكنه لا يجدها. يستوي جالِسًا ويرى جانِبَ وَجهِها عند طرف السرير. تلتَفِتُ إليه مع أنه لا يستطيع أن يرى وجهها في العَتَمَة.

"محسـن، ردِت أقـول لـك كل شي. بـس مـا أقـدر وهسَّـه آني مضطـرَّة. إحنـا محتاجينـك".

"إنتن ما تريدوني"، وقالها بصوتٍ بارد.

تأخـذ نَفَسًـا عميقًـا: "هـذ الوقـت خطـر بالعـراق. يعنـي خطـر عـلى النسـوان".

"إنتي قلتي هذا فعلًا".

"خطر خاصة على ذولي اللي ما عندهن حماية".

"قوليلي فد شي ما أعرفه".

تَرمِشُ عيناها في الظلام. وتَشبكُ يديها حول يَدَيْ خفاجي.

"لما تصير السلطة بيد مسلحين، النسوان تصير صيد حلال. خاصة الـلي مـا عندهـن زَلَـم. مـا عندنـا رياجيـل ولا آبـاء ولا إخـوة ولا وِلـد. بزمـن الحـرب، النسـوان الـلي لازم يشـتغلن يصـيرن مُعرَّضـات للخطـر بشـكل خـاص. بـاوع دايـر مدايـرك، تـرضى لبنتـك تطلـع تشـتغل؟"، وتَهـزُّ رأسـها وتُغلِـقُ عينيهـا: "مـا دا أصـدق إنـك تريـد أحـد يـشرح لـك هـذا محسـن".

"مـو مضطـرَّة تشرحـين هالـشي زبيـدة. أريدتـش تقولـين لي شـنو الـلي دا يصـير بـس".

"آني أوفِّر الشغل والحماية للي يردنها. سوية يصير ضعفنا قوة".

"الدعارة قوة؟".

"منـين عبالـك بنـاتي يجـون؟ أكـو منهـن طالبـات بالجامعـة وأهلهـن خلصـوا فلـوس. لـو زوجـات ماتـوا رياجيلهـن. كل وحـدة عندهـا ظـروف خاصـة كلـش. وهـن بمجموعـة يصـيرن أقـوى لـو ظلـن وحدهـن. ولمـا يصـير ويـاك فلـوس، تقـدر تشـتري الحمايـة. هـاي الدنيـا".

"ولما الدنيا ما تمشي هيتش ويصير خطأ".

"الخطأ صار لما تشَمْ وحدة منهن اشتغلن مترجمات". وسكتت لوهلة، "أكو بنات عبالهن يقدرن يطلعن من هاي الشغلة. والأمريكان تشانوا مأيسين ومستعدين يشغلون ياهو التشان يروح يشتغل يومين ورا بعض".

"زهرة تشانت أول وحدة شافت سيترون ووصلتني بيه. تشانوا يريدون يجيبون بنات من الفلبين. سلطة الائتلاف ما رادوا يدِزّون متعهدين لتايلاند. تشانوا متأكدين راح تصير ضجة لو الإعلام شم خبر. اتفقنا على خطة شغل تحل إلهم مشاكلهم. أما إحنا، راح نحقق طفرة أكيد".

"هذا مو أكيد هسه".

"عمرك سمعت عن حرب بدون سكس؟ ما صارت قبل إنه جيش من الزّلّم راح أي مكان من غير جيش نسوان وراه. هذا سوق كِلِّش صغير وإحنا محتكرينه".

يُغلِقُ خفاجي عينيه، وزبيدة قريبة جدًّا لدرجة أنه يشعر بأنفاسها وهي تتكلَّم: "مشاكلنا كلها تشانت دائمًا لوچستيَّة، لا مشكلة فلوس ولا أخلاق، الأمريكان يريدون بنات".

"لعد منين إجت فكرة الترجمة؟".

"تشانت فكرة زهرة، خلتها براس سيترون. خَلَّته يحط الكل بقوائم الرواتب ويطلع إلهم تصاريح أمنية. طلَّع إلْهُن هُويّات، صارن يطبن ويطلعن من غير ما يلفتون أي انتباه".

"مثل ذاك البيت اللي بشارع الفتح؟".

"ذاك البيت تشان آمن بشكل خاص. والتوسع اللي بالخضراء تشان راح يحل المشكلة للأبد. ما دا أصدق".

سَكَتَت لبُرهَةٍ: "سيترون تشان حريص على حمايتنا. ما فد يوم بيت من بيوتنا تعرض للتفتيش".

"لحد ذاك الأسبوع".

"إي. قبل الأسبوع الي فات ما تعرض إلنا أحد. لا قوات تحالف ولا جوارين ولا ميليشيات. تشنا مثل الشفافين".

"لعد ليش سيترون رادني أحقق باختفاء زهرة؟ شنو الفايدة؟".

تَرُدُّ زُبَيدَة بلا تَردُّد: "سيترون راد يخلي الشَّغلة سكتة. بس تشان عنده أسبابه الخاصة حتى يلاقيها".

"مثل شنو؟".



لا تَرُدُّ.

"تشان المقابل زين؟".

"يا الله! إي. سيترون ما تشان بخيل. تشان يريد خط إمداد، ودفع كلش زين حتى يضمن نوفي له الطلبية. البنات تشانوا راح يظلون يشتغلون تشَمْ شهر بعد ويبطلن. تشانت الشغلة ماشية...".

"شلون الفدائيين وصلوا إلهن؟".

تَضرِبُ جَبهَةَ خفاجي: "ما دا أعرف. الشغلة كلها تحيِّر، يجوز دا يبتزوهن؟ لو يأخذوهن رهائن؟".

يُضيفُ خفاجي: "مو هم اللي قتلوا البنات".

تَهمِسُ: "أعرف. الشغلة مو منطقية".

"لعد شنو اللي صار الليلة؟".

"ما عندي أي فكرة. اللي أعرفه إنه سيترون إجه على مود موعد غرامي الجمعة بعد الظهر مثل العادة".

"ويا من؟".

"شلون محقّق إنت؟".

يَتجاهَلُها: "تشانت زهرة هناك؟".

"تشانت من المُفضَّلات عنده".

"وينهـا زهـرة هسَّـه؟"، ويُحـاوِلُ أن ينظـر إلى زبيـدة، لكـنَّ وَجهَهـا يختفـي بالعتمـة.

"ما إلي سيطرة عليها".

يَجلِسُ تائهًا وسط أفكاره. وأخيرًا يستسلِمُ: "شنو راح يصير هسه؟".

تَضَعُ إصبعًا على شفَتَيْه وتُسكِتُه.

وتبدأ الكلِماتُ في التَّدَفُّق في العتمة مثل النهر القريب.

إنَّـه الآنَ إلَـهٌ. أَوَ لَـمْ تَغسِـلْ مَبانينـا عَلَيـهِ قَدَمَيْهـا؟ إنَّـه يَعلـو ويُلقـي كَنْـزَهُ بَـينَ يَدَيْهـا. إنَّـهُ يَمنَحُنـا الطِّـينَ وَمَوتًـا لا نَـراهُ. باسِـطًا في لَمعَـةِ الفَجـرِ ذِراعَيْـه إلَيْنـا. ظافِـرًا كالرِّيـحِ نَشـوانَ يَـداهُ. سَـوفَ تَلقَانـا وتَطـوِي رُعبَنَـا أَنَّى مَشَـينا. مَـنْ لَنـا الآنَ سِـواه؟

أَتَهمِـسُ زُبَيـدَةُ قَصيـدةَ نـازك للفَيَضـان بأُذُنَيْـك؟ لكـنَّ خفاجـي يَعجَـزُ عـن الإجابـة عـلى هـذا السـؤال.

صَباح السَّبت
6 ديسمبر 2003

يُغـادِرُ خفاجـي الفيـلّا والشـمس في طَـورِ الإشراق، والهـواء رَطـبٌ وبـارد. يتمطّـى ويـرى كوكـب الزُّهَـرَة قريبًـا ومُضيئًـا في الـشرق. يبـدو ضـوؤه الأحمـر البرتقـالي مثـل ندبَـةٍ عـلى السُّحُب. يفكّـر في نضـال ومهـا، وهـو يعـرف أنـه يجـب أن يتحـدَّث إليهـما، لكنـه لا يعـرف مـاذا سـيقول.

يجـد الحـارِسَ نائمًـا في المقعـد الخلفـي للمرسـيدس. يَدعَـكُ الرَّجُـلُ عينيـه ثـم يتثـاءب ويـشرب مياهًـا مـن زجاجـة بلاسـتيكيَّةٍ قديمـة مغـروزة تحـت فرامـل اليـد. يخـرج مـن السـيارة ويُمـدِّد رِجلَيْـه، ثـم يركـب بكـرسيِّ السـائق ويُديـر المفاتيـح في السـيارة.

يعـرض خفاجـي عـلى الرَّجُـل سـيجارةً، ولا يرفضهـا. يُدخِّـن خفاجـي ويتفـرَّج عـلى الطريـق وهـو يَمُـرُّ كأنـه في فيلـمٍ صامـت، وفي النهايـة يُلَملِـمُ نفسـه. إنهـما في مـكان مـا قـرب المدائـن. يقطعـان بضـع كيلومـترات وسـط حقـول قَصَـبٍ كثيفـة. ويُبطِئـان حـين تظهـر نقطـةُ تَفتيـشٍ في الأفـق. تتوقَّـف السـيارة أمـام الجـدران الخرسـانية، ويقـترب رَجُـلان يرتديـان تدريعًـا كامِـلًا ويعتمـران قِناعَـيْن ويتفقَّـدان داخـل السـيارة. يأخـذان

بطاقـة تعريـف السـائق ثـم خفاجـي ويختفيـان. بعـد دقيقـة يعـودان ويَرُدَّانهـا. يتكـرَّر ذلـك عنـد نُقطَتَـيْ تفتيـش أُخرَيَيْن قبـل أن يَصِـلا إلى أَوَّل البيـوت الفقـيرة في الجنـوب.

يعـرض خفاجـي عـلى الرَّجُـل سـيجارةً أخـرى، ويُقـدِّمُ يَـدَه مُصافِحًـا: "محسـن". ويُتَمتِـمُ الرَّجُـل: "عمـر".

بعـد السـيجارة الثالثـة يطلـب خفاجـي أن يسـتخدم جَـوَّالًا. ويُقـدِّم عمـر إليـه هاتفًـا دون أن يُبعِـدَ عينيـه عـن الطريـق الخـاوي ثـم يلتفـت إليـه ويبتسـم. يعـاني خفاجـي مـع الهاتـف قبـل أن يعـرض عمـر أن يطلـب الرَّقـمَ مـن أجلـه. يبـدو صـوتُ نضـال بعيـدًا حـين يَـردُّ، فينظـر خفاجـي إلى سـاعته: "آسـف وَعِّيتَـك".

يقول نضال: "مسافرين باتشر".

"اسمع نضال، ما أعرف شلون...".

"محسـن، ماكـو داعـي تقـول أي شي. أعـرف إنـك سَـوِّيت كل الـلي بيـدك".

"هذا اللي أريد أقوله. ما تشنت...".

"مـا محتـاج تقـول لي أي شي. سوسـن راحـت. يمكـن تكـون مَيِّتـة أو عايشـة. مـا أقـدر أقـول لـك شـلون...".

يَسـتَمِعُ خفاجـي طـوالَ الدقيقـة التاليـة إلى صـوتِ أَبٍ يَنتَحِـبُ، ثـم يتكلَّـم نضـال أخـيراً: "مـا ممكـن تعـرف".

ويضيـف: "لحـد مـا يصـير هالـشي، مـا نقـدر ننتظـر. راح نسـافر باتـشر مثـل مـا قلـت لـك. راح نبقـى هنـا طـول اليـوم نسـلم عـلى الأصدقـاء. تعـال".

يَعِـدُه خفاجـي: "أكيـد مـا أفوِّتهـا"، مـع أن جُـزءًا منـه لا يريـد الذهاب مُطلَقًا.

يُوصلُ عمـر خفاجـي إلى البوابـة ثـم يَتصافَحـان. وبمجـرَّد أن يُغلِـقَ خفاجـي البـابَ تَنطَلِـقُ السَّـيَّارَةُ مُسرِعَـة.

يتقـدَّم خفاجـي إلى البوَّابـة الخارجيـة، يتسـاءل عـمَّا سـيفعله بالمُسـدَّس الـذي في سُـترَتِه، فيخلعهـا ويضعهـا جانبًـا. يَجـذِبُ قميصـه ويَعبُرُ ويسـتدير حتـى يُفتِّشَـه الرجـل. لا تنطلـق أيُّ صُفَّـارات ولا تَـرِنُّ أي سرائـن، ويرتـدي سُـترَتَه مُجـدَّدًا. ويُكـرِّر هـذا عنـد البوَّابَـةِ الداخليـة.

يذهـب خفاجـي إلى الكافتيريـا. ولا يسـتطيع أن يكبـت ابتسـامته حـين يـرى نعـمان في المطبـخ، والـذي يدعـوه لتدخـين سـيجارةٍ عـلى رصيـف التحميـل. يُفتِّـش في جيوبـه بحثًـا عـن قَدَّاحـة، فتلمـس يـده كُتلَـةً مـن الأغـراض المَعدِنيَّـة المُسـنَّنة. لا يتذكَّـر مـا هـي حتـى يَجذِبَهـا وينظـر إليهـا. ويُفكِّـر طـوال وقفتـه مـع نعـمان فيـما سـيفعله بمفاتيـح سـيترون.

مـع تَخلُّصِهـما مـن عُقْبَـيْ سـيجارَتَيْهما عـلى الأرض كان قـد عـرف مـا سـيفعله. فيهتـف مُودِّعًـا نعـمان وهـو يمـشي بأقـصى سرعتـه نحـو المكتـب.

مُعظَـمُ المفاتيـح لا تفتـح أي شيء، لكـنَّ أحدَهـا يَفتَـحُ دُرجَـيْن كبيرَيْـن. يجـد في داخـل أحدهـما حقيبـة دفـل حمـراء أخـرى لكنهـا غـير فارِغَـة. يفتـح سَـحَّابها ولا يصـدق مـا يـراه. الحقيبـة بهـا عـشرات الـرزم، مئـات الأوراق مـن فئـة مائـة دولار مجموعـة معًـا، ومرصوصـة بنظـامٍ في صفـوف.

يقفـل خفاجـي السـحاب ويجـر الحقيبـة إلى خـارج الـدُّرجِ. يُذَكِّـره ذلـك بمـدى الثِّقَـلِ الـذي يمكـن أن يصبـح عليـه الـورق. ويتذكَّـر مُعلِّـمًا أخبرهـم ذات مـرة أن الـورق قـد صُنـع ليحتفـظ بالرطوبـة؛ لـذا فمعظـم وَزنِـه مـن المـاء. وحـين يشـيخ الـوَرَقُ الرَّخيـصُ، يبـدأ بفُقـدان قُدرَتِـه عـلى الاحتفـاظ بالميـاه. ومـن دون الرطوبـة يَجِـفُّ ويَتشـقَّقُ ويَمـوت؛ فالـورق يعيـش حياتـه الثَّقيلَـةَ الغريبـة بوجـود المـاء. وقـد تذكَّـر خفاجـي ذلـك في كل مَـرَّةٍ نَقَـلَ فيهـا كُتُبَـه.

لكنَّ الأموالَ أثقَلُ من الكتب. ربما بسبب حبرِها الخاصِّ.

يُغلِقُ الحقيبة مُجدَّدًا ويجرها على الأرض وهو يشعر كأنها دلوُ مياهٍ. يمدُّ يَدَهُ داخِلَ الدُّرج الثاني ويجد حقيبة دفل أخرى. يتحسَّسها من الخارج ويحسُّ بشيءٍ صُلبٍ ومُكتَنِز، وحين يفتحها يجِدُ هاتِفًا جَوَّالًا. ويرى تحتها مجموعة من المُجلَّدات فيجذبها ويتصفَّح الأسماء المطبوعة أعلاها، إنها أسماء نساء وبنات. ويفتح أحدَ المُجلَّدات فيجد صورَةً لفتاةٍ تَضَعُ أحمر شِفاهٍ تُحَمِلقُ إليه، إنها سوزي حبيب.

لا يحتاج إلى سيجارة ليعرف ما سيفعله. يفتِّش الغرفة حتى يعثر على صندوق كرتونيٍّ، ويرمي الحقيبة في قاعه والمَلَفَّات فوقه. ثم يضع حقيبة ملابِسه عليها مع بعض الأوراق المُنفَصِلَة والأدوات المكتبيَّة، مثل: أقلام الرَّصاص والمُفكِّرات المستخدَمَة قليلًا وبعض الدَّبَّاسات. ثم يضع الصندوق إلى جانب الباب ويُخطِّط لخطوته التالية: الهروب.

يُخرِجُ خفاجي مَحفظَتَه ويَجِدُ رقم هاتف كارل. فيأخذ الجَوَّال ويُجرِّب الاتصال به، وينجح بعد بضع مُحاولاتٍ. يَردُّ شابٌّ: "أبويا نايم، تقدر تخابره بعدين؟".

"راح أنتظر. قول له آني دا أخابره". يقولها خفاجي وهو يُحاوِلُ إخفاءَ الحَماس، "قول له محسن يريد يحتشي وياك عن الشعر".

يُشعِلُ خفاجي سيجارةً ويَرسُمُ السيناريوهات في عقله وهو ينتظر. وفي الخلفيَّة يسمع وقع أقدامٍ وأصواتٍ تَهتِفُ واضطرابًا. تمرُّ دقائق ويسمع في النهاية صوت الابن مُجدَّدًا: "العفو أستاذ محسن. أبوي يحب يتأخَّر بالنوم أكو فد رقم يخابرك عليه؟".

يجيبه خفاجي: "لا ماكو. ما عندي". ويَسكُت لوَهلَةٍ ثم يضيف: "قول له راح أنتظره بقهوة دجلة. هو يعرفها، ساعة وأنتظره هناك".

يُنهي خفاجي المُكالَمَة. ليست لديه خُطَّة، لكنه يرمي عقب السيجارة على الأرض ويتساءل كيف يجلب مروج. ثم ينهض ويلقي نظرةً أخيرة على المكتب.

فجـأةً ينفتـح البـاب ويدخـل ثلاثـة رجـال بـزي عسـكري. فيمـد خفاجـي يـده داخـل جيبـه ويتحسَّـس المسدَّس. يذهـب إليهـم ويتحـدَّث بصـوتٍ عـالٍ كفايـة ليواري خوفـه: "صباح الخـير، تفضَّلـوا. تفضَّلـوا أَيُّهـا السـادة"، ويمـدُّ يـده إلى الضابـط الأعـلى رتبـة ويقـدِّم نفسـه.

"أيُّهـا المُفتِّـش خفاجـي، أنـا النقيـب چون بـارودي مـن وحـدة الشرطـة العسـكرية رقـم 267".

"الأمر مُتعلِّقٌ بـسيترون، أليس كذلك؟" ويحاول خفاجي أن يبدو قَلِقًا.

"أعرف أنَّكَ كُنتَ هناك ليلة أمس. أنت مَن اكتشَفَ الجُثَّة، صحيح؟".

"صحيحٌ. لقد كان الأَمرُ مُروِّعًا".

"إلى أين ذَهَبتَ؟ حين وصلنا لم يَجِدوكَ في أي مكان".

"ذهبتُ إلى المستشفى".

ينظر بارودي إلى رَجُلٍ آخر ويقول: "دَوِّن ذلك".

"اسـمع يـا خفاجـي، لم يكـن هـذا تَصرُّفًـا صحيحًـا. الموقـف أمامنـا فَوضَـويٌّ للغايـة. ربمـا كان سـيترون في المـكان والتوقيـت الخطـأ، لكنَّنـي أشـكُّ في ذلـك. يجـب أن نفـترض أنهـم كانـوا يعرفـون مَـن هـو. والآن يجـب أن نُراجِـعَ مسـار الأحـداث رجوعًـا لِنَفهَـمَ كيـف حـدث ذلـك".

"مَن هو إذًا؟".

لا يَـردُّ بـارودي، بـل ينظـر إلى الحواسـب ويتحـرَّك الآخـران ويشرعـان بتشـغيلها. يجلـس الرجـل أمـام أحـد الحواسـب ويفتـح قِرابًـا بـه أدواتٌ صغـيرة. يضغـط عـلى لوحـة المفاتيـح إلى أن تُـضيء الشاشـة، ثـم يشـتغل بالحاسـوب بمفـكٍّ وبـأداةٍ أخـرى لم يَرَهـا خفاجـي مـن قبـل.

تعـود نظـرة بـارودي إلى خفاجـي: "لدينـا أسـبابٌ للاعتقـاد بـأن مـوت سـيترون لـه علاقـة باسـتهداف المُترجِـمات".

يُومِـئُ خفاجـي ويتابـع بـارودي كلامـه: "أمامنـا مَهمَّتـان وهـما مُتعارِضَتـان: يجـب أن نُؤمِّـن الحمايـة لمُترَجِمينـا. ويجـب أن نُحقِّـق بشـأنهم لنعـرف مَـن منهـم يعمـل لحسـاب الطـرف الآخـر. يحتـاج رجـالي إلى تفتيـش هـذا المكتـب، بدايـة مـن الآن. نأمـل أنَّـكَ سـتتمكَّن مـن مُسـاعَدَتِنا. آسـف لأننـا سـنُعَرِّضُكَ لبعـض التدقيـق، لكـن هكـذا يتـمُّ الأمـر".

"بالتَّأكيـد يـا سـيدي، أنـا في خدمَتِكُـم. دعنـي أخـبرك بمـا أعرفـه، إنـه ليـس بالكثـير. لقـد جُلِبـتُ إلى هنـا للمسـاعدة في إعـادة بنـاء قـوات الشرطـة. أفحـص الملفَّـات القديمـة وأُحـدِّد مَـن يمكـن ضَمُّـه مـن بـين صفـوف ضُبَّـاط الشرطـة ذوي الخـبرة".

يسـكت خفاجـي. ويـدرك أمرَيْـن وهـو يحـكي: أن للمـرة الثانيـة، لـن يعرفـوا إلَّا مـا سيُخبِرُهم بـه، وأن لا شيء مـن أحـداث هـذه القصـة يبـدو مُقنِعًـا: "كنـا نعـرف أن العمـل الشـاق لا يـزال أمامنـا، ولقـد انضممـت إلى الفريـق منـذ بضـع أيـام فقـط".

ينظـر بـارودي إلى خفاجـي بتركيـز. ويُبادِلُـه خفاجـي النَّظـرَ، ويضيـف: "الآن وقـد رحـل سـيترون، لسـتُ مُتأكِّـدًا بشـأن مـا سـيحدث".

عـلى الأقـل تلـك العبـارة الأخـيرة حقيقيـة. وحـين أنتهـي مـن هـذه المحادثـة سـأغادر للأبـد.

"مفهـوم أيُّهـا المُفتِّـش خفاجـي. لكننـي سـأفعل مـا بوسـعي لتحظـى جهـودك بالدعـم الـذي تسـتحقه. واضـح أن هـذا ليـس اختصاصي. وليسـت لـديَّ السُّـلطة لأفعـل أكـثر مـن توصيـل هـذا إلى الأشـخاص المَعنيِّـين".

طـوال السـاعة التاليـة، يطلـب بـارودي مـن خفاجـي أن يوضِّـحَ لـه مـا كان يفعلـه. يطـرح أسـئلةً عـن الأمـوال. ويطـرح أسـئلة عـن فـورد. ويذكـر أسـماءً أخـرى، ويسـأل عـن أشـخاص لم يُقابِلهـم خفاجـي. يطـرح أسـئِلَةً

عـن فتـاة اسـمها زهـرة بسـتاني، ثـم عـن المُتَرجِـمات. لا يقـول خفاجـي شـيئًا غـيرَ حقيقـيٍّ، لكنـه أيضًـا لا يقـول شـيئًا عـن زهـرة أو المُتَرجِـمات.

حـين يقـول خفاجـي لـبارودي إن السـؤال عـن مُرتَّبِـه لم يُحسَـم بعـد، تبـدأ المقابلـة مـن جديـد.

يُـدوِّن بـارودي المُلاحظـات ويبـدأ بإعـادة الأسـئلة نفسـها. يُلمِّـح طـوال المقابلـة إلى أن خفاجـي وسـيترون قـد عمـلا معًـا بشـكل يومـيٍّ، ولا يهتـمُّ خفاجـي مطلقًـا بتصحيـح المعلومـة. يتابـع خفاجـي بطَـرفِ عَينـه الرَّجُلَـيْن الآخريـن وهُـما يَقلِبـان المكتـبَ رأسًـا عـلى عقـب. برِفـقٍ وبِشـكلٍ مُنظَّـم، لكـنْ رأسًـا عـلى عقـب. يجلـس أحدهـما قبالـة الحواسـب ويوصـل بهـا أجهـزة ويبحـث بالملفَّـات. ويفصـل حاسـوبًا ويضعـه جانبًـا، ثـم يفعـل الأمـرَ نَفسَـه مـع الحواسـب الأخـرى. يرتـدي الرَّجُـلُ الآخـر قُفَّـازاتٍ مَطَّاطِيَّـة، ويُفتِّـش في خزانـات الملفَّـات والمكاتـب وسِـلال القمامـة. ويسـتخدم مفاتيـح أخـرى لفتـح كل أدراج مكتـب سـيترون. يدفـن يـده بالداخـل، وينظـر تحـت المكتـب بكشَّـافٍ صغـير. ويطلـب الرجـل الـذي يتـولَّى الحواسـب المسـاعدة. فيبـدآن معًـا في إخـراج كميـات صغـيرة مـن المُعِـدَّات الإلكترونيـة عـبر البـاب.

تذهـب أسـئلة بـارودي وتعـود مُجـدَّدًا إلى موضـوع الأمـوال، وهـو لا يقصـد مُرتَّـب خفاجـي. أمَّـا خفاجـي فإنـه لا يُفكِّـر إلَّا في خاطـرة وحيـدة: إنَّـه يَومُـكَ الأخـير هنـا.

يدخـل فـورد وهـو يبـدو كشـخصٍ آخـر. إنـه شِـبهُ إنسـان، وعمـره أكـبر بعـشر سـنوات مـمَّا كان عليـه البارحـة. كان يُمكِـنُ البارِحَـةَ أن تُصـدِّقَ أنـه مُراهِـقٌ يُعـاني مـن مشـكلاتٍ في الحلاقـة. لكـن في هـذا الصبـاح سـوالفه بيضـاءُ، ووجهـه بلـون الرمـاد، وعينـاه بحُمـرَةِ الـدَّم. فجـأة يعانـق خفاجـي بقـوة لدرجـة أنـه يشـعر بعظـام فـورد البـارزة.

يُـدرِكُ خفاجـي حينئـذ فقـط أن بـارودي كان ينتظـر كلَّ هـذا الوقـت لـيرى فـورد. وأنـه لم يَكُـن في نظرهـم إلَّا قِطعَـة إضافـة. والآن انتهـى دوره، وذلـك خـبر مقبـولٌ إلى حَـدٍّ مـا.

يدخـل رَجُـلٌ آخـر ويُقـدِّم نفسـه: "المفتـش خفاجـي؟ أنـا بـيرني أولـدز، مـن أمـن سـلطة الائتـلاف المؤقَّتـة. سـأتولَّى مـشروع الشرطـة إلى أن يجلبـوا بديـلًا لــسيترون، وأنـتَ ستعمل معـي. اجلـب أشـياءَكَ وتعـال معـي عـبر الرَّدهَـة. سـأخبرك بمـا يحـدث حـين نصـل إلى هنـاك".

يذهـب خفاجـي إلى مكتبـه ويمـلًا جيوبـه بعلـب السـجائر. ثـم يأخـذ صندوقـه ويتبـع أولـدز بطـول الممـر. يحـاول أن يبـدو مُسـترَخِيًا، لكنـه يضطـرٌّ إلى إنـزال الصنـدوق الثقيـل قبـل أن يصلـوا إلى المكتـب بكثـير. ويسـاعده أولـدز في رفعـه ويحملانـه معًـا لبقيَّـة الطريـق.

ينتهـي اجتـماع أولـدز سريعًـا. وكان خفاجـي قـد غـادَرَ المبنـى في عقلـه مـن قبـل الاجتـماع. يَشـعُرُ بِـكُلِّ دقيقـةٍ كأنهـا سـاعة. ينشـغل بشـدَّةٍ بخطواتـه التاليـة، لدرجـة أنـه لا يسـمع مـا يقولـه لـه أولـدز تحديـدًا: "في الوقـت الراهـن، سـيُعلَّقُ العَمَـلُ في بغـداد. وسـيُعاد تعيينُـك إلى فريـق عمـلٍ في كركـوك إلى حـين ترتيـب الأوضـاع هنـا. سـنُغادِرُ الليلـة في السـاعة ألـف وتسـعمائة".

يُتَمتِمُ خفاجي: "يجب أن أُجهِّزَ حقائبي".

"اذهـب وجَهِّزهـا إذًا. وكُـن جاهـزًا هنـا عنـد السـاعة ألـف وثمانمائـة عـلى الأكـثر".

وفي لحظتهـا يُصافِحُـه خفاجـي ويخـرج مـن البـاب بصندوقـه الثقيـل. ينجـح في الخـروج مـن القـصر دون أن يُنزِلَـه. ويضطـرٌّ إلى إنزالـه كلَّ حـوالي مائـة مـتر في الطريـق إلى مستشـفى ابـن سـينا. وأخـيرًا يَعـرِضُ جُنـديٌّ عليه المُسـاعَدَة، ويحملهـا طـول الطريـق، وحتـى إلى داخـل الرَّدهَـة. يعطـي خفاجـي الشـابَّ سِـيجارَةَ روثمانـز، ويخرجـان ليُدَخِّنـا معًـا.

بَعدَ ظُهرِ السَّبت
6 ديسمبر 2003

يلاحظ خفاجي الاضطراب قبل وقت طويل من إنزاله للصندوق عند مكتب استقبال الطابق الرابع. وحين يحاول أن يتجاوزَ مَكتبَ الاستقبال، تُوقِفُه المُمرِّضَة وتُذكِّرُه بالتوقيع لتسجيل الدخول. يُحيط الصندوق بذراعَيْه أمام صدره ويدخل وسط الحَشدِ. ثَمَّة أشخاصٌ كثيرون جدًّا داخل غرفة مروج لدرجة أنه يعجز عن الدخول في البداية.

تمتلئ الغرفة بالبالونات والورود وتُغطِّيها الأضواءُ البَرَّاقَةُ، والهواء ساخِنٌ وخانِقٌ. يقف رجال يحملون كاميرات فيديو وميكروفونات ومُعِدَّات إلكترونية. يحاول خفاجي أن ينظر من فوق أكتافهم لكنه لا يرى ابنته. فالسِّتار حول سريرها مُغلَقٌ بإحكام. وتجلس بجوار السرير على الجانب الآخر من الغرفة مُراسِلَة أمريكية بشكل مُحرَج، تبتسم وتمسك يَدَ المريضة الأخرى، وهي امرأة عراقية أكبر سنًّا لها عينان سوداوان وقناع أكسچين. المرأة مستيقظة، لكن لا يبدو عليها صفاءُ الذِّهن. تنظر إلى الرجال ذَوي الكاميرات وترفع إبهامها بعلامَةِ

استحسان، وتسأل المُراسِلَةُ المُصوِّرَ: "هل التقطت ذلك؟" فيومئ. "حسنًا، لِنُعِدْ الطبيبَ إلى هنا".

يُطفِئُ أحدهم الأضواء الكاشفة، وتبدأ درجة حرارة الغُرفَة في الانخفاض فورًا. تتحوَّل ابتسامة المراسلة حينئذ فقط إلى عبوس.

يخرج رجُلٌ من الغرفة. ويشير بأدب إلى الصندوق الذي بين يدي خفاجي ويأمره بأن يتراجع نحو المَمرِّ. يتقدَّم آخران باتجاه خفاجي فيتراجع إلى خارج الغرفة. أحدهما يحمل لوحَ كتابة ويصيح في المَمَرِّ: "أين الطبيب؟ نريده الآن".

يعود خفاجي إلى داخل الغرفة ويحاول تخطي صناديق الأدوات وحقائب الظهر المليئة بالمُعِدَّات، حتى كاد يتعثَّر. يسنده أحدهم ويمسك آخر الصندوقَ ويَردُّه إليه. ويلاحظ أن المراسلة تشير إليه، فيفتح الستار ويُغلِقُه سريعًا وراءه.

يُنزل الصندوق ثم ينظر إلى وجه مروج النائم. تبدو أضعفَ من الأمس، بل أسوأ؛ فاصفرار بَشرَتِها يبدو جَليًّا بلا شَكٍّ. يبحث عن كرسيٍّ ليجلس، لكنه لا يجد أيَّ كراسٍ. يضع يده بِيَدِ مروج. وتزداد الجَلَبَةُ بالغرفة خارج الستار. وفي النهاية يفقد خفاجي صَبرَه.

حين يخطو إلى خارج الستار يجد المراسلة واقِفَةً بجواره: "مرحبًا. أنا كاريداد ماكميلان. أخبروني أنك هنا لزيارة ابنَتِكَ".

يُحَملِقُ خفاجي إلى المرأة لكنه لا يَردُّ.

"نُسجِّل تقريرًا عن المرضى العراقيين، عن الزاوية الإنسانية. إنها بعض الأخبار السعيدة على سبيل التغيير. أيمكن أن نتحدَّث بشأن تجربة ابنَتِكَ؟".

يتطلَّـع خفاجـي حولـه في الغرفـة ويُتَمتِـمُ ببسـاطة: "نـو سـبيك إنجلـش[1]". يَمـدُّ يَـدَه بجوارهـا ليأخذ كُرسـيًّا. وتحـاول المراسـلة أن تتحدَّث إليـه مُجـدَّدًا، لكنهـا تستسـلم بمجـرد دخـول الطبيـب إلى الغرفـة. يومـئ الطبيـب إلى خفاجـي أوَّلًا بابتسـامة قَلِقَـة، ثـم ينظـر إلى المراسـلة: "حسـنًا. يُمكِنُنـا التسـجيل الآن. هيـا".

تأمُـرُ المُراسِـلَةُ مُسـاعِدَها بإعـادة الآخريـن إلى الغرفـة، لكـنَّ الطبيـب يقاطعهـا: "إن أَرَدتِ إجـراء مُقابَلَـةٍ معـي، يجـب أن تبـدئي الآن. أمامـك خمـس دقائـق". وينظـر إلى سـاعَتِه ثـم يذهـب إلى المـرأة العراقيـة المُسِـنَّة عـلى السريـر الآخـر. وتتطلَّـع هـي إليـه وفي عينيهـا دَرَجَـةٌ شـاحِبَةٌ مـن الارتبـاك. يربـت الطبيـب عـلى ذراعهـا ويفحـص نبضهـا ثـم يقـول: "سـتكونين عـلى مـا يـرام"، بينـما تبـدأ الكامـيرا في التصويـر. المـرأة المُسِـنَّة لا تفهـم كلماتـه، لكنهـا تفهـم معانيهـا.

تُشـير المُراسِـلَة فيُحـرِّك حامِـلُ لَـوحِ الكِتابَـةِ الطَّبيـبَ إلى الجانـب الآخـر مـن المريضـة، فيصبـح في الجِهَـةِ المُقابِلَـة للمُراسِـلَة. وتعيـد تشـغيل ابتسـامتها كالأضـواء التـي حولهـا. وتبـدأ حـرارة الغرفـة لحظيًّـا في الارتفـاع.

"في المعركـة مـن أجـل قلـوب العراقيـن وعُقولِهـم، ليـس هنـاك سِـلاحٌ أَقـوى مـن الطِّـبِّ. وعـلى هـذه الجبهـة، جبهـة المـداواة، يُمهِّـد الأَطِبَّـاءُ الأمريكيـون الطريـقَ مـن أجـل الانتقـال إلى السـلام في العـراق الجديـد. نحـن هنـا مـع الطبيـب لويـس سـتون، أحـد الأطبَّـاء الأمريكيـن الكُـثرِ الذيـن يعالجـون المـرضى في بغـداد".

يُومِئُ الطبيبُ ويُلقي ابتسامةً قاتمة.

"أيُمكِنُكَ أن تُخبِرَنا عن يومِكَ المعتاد هنا أيُّها الطبيب ستون؟".

(1) يَدَّعِي بإنجليزيَّةٍ ركيكة أنه لا يتحدَّث الإنجليزية.

"بخلاف الصَّدمَـة الجَماعيَّـة، الوضـع لا يختلـف كثـيرًا عـن أي يـوم في الوطـن. أرى المـرضى، وأفكّـر في كيفيـة تقديـم العنايـة اللازمـة لهـم"، قالهـا بشـفَتَيْن دقيقتـين للغايـة.

"إذًا أَخبِرْني ما المُختَلِفُ في العمل بالعراق أيُّها الطبيب؟".

"يختلـف هنـا أن الكثـيرُ مـن مرضـاي يعانـون مـن مُضاعَفـاتٍ لأمـراض مُزمِنَـة قابلـة تمامًـا للعـلاج".

ابتسامة المُراسِلَة لا تَهِنُ قطُّ: "أي أمراض تقصد؟".

ينظـر مبـاشرةً إلى الكامـيرا لأول مـرة: "نـادرًا مـا أرى في الوطـن مـرضى يعانـون مـن شيءٍ مثـل أمـراض الـكلى والكبـد التـي لا تُعالـج لسـنوات. لكـن هـذا مـن أكـثر الحـالات شـيوعًا هنـا. عليـكِ أن تسـألي نفسـك عـن سـبب ذلـك".

"ما سَببُ ذلك أيُّها الطبيب؟" قالتها بابتسامَةٍ واسعة.

"لأننـا عـلى مـدار ثلاثـة عـشر عامًـا منعنـا عـن هـؤلاء النـاسِ العِنايَـةَ البسـيطة التـي احتاجـوا إليهـا. مُقابِـلَ كُلِّ عراقـيٍّ أراه اليـوم، مـات المِئـاتُ غـيره خـلال العَقـدِ الأخـير، ببسـاطةٍ لأنهـم لم يتمكّنـوا مـن الحصـول عـلى الأدويـة الأساسـية التـي احتاجـوا إليهـا. كل هـذه المُشـكِلات كانـت نتيجـةً لنظـام العقوبـات. ومَـن فـرض تلـك العقوبـات يـا كاريـداد؟ إنـه نحـن. إنـه الشَّـعبُ الأمريـكيُّ".

"لكنهم يجب أن يُقَدِّروا العنايةَ التي تُقدِّمها لهم الآن".

لم يَعُـد الطَّبيـبُ يبتسـم مُطلَقًـا، ولم يَعُـد يتحـدَّث إليهـا: "لسـتُ متأكِّـدًا إن كانـت كلمـة "يُقـدِّرون" هـي الكلمـة الصحيحـة". وينظـر إلى العجـوز، التـي تعـاني لتَبتَسِـمَ وهـي تتطلّـع إلى المُراسِـلَة، "كاريـداد، تَخيَّـلي أن تتعـرَّضي للتَّسـميم. تَخيَّـلي أن أُسَـمِّمَكِ كلَّ يَـومٍ لمـدة عـشر سـنوات. وأسـتمرَّ في تسـميمِكِ لدرجـة أنَّـكِ الآن عـلى فِـراش المـوت. ثـم تخيَّـلي أن

آتي في يـومٍ بشـكلٍ سِـحريٍّ وأقـول لـك إنَّ معـي التريـاق. هـل سـتَصِفُ كلمـة التقديـر مـا تُكِنِّينَـه لي في تلـك اللحظـة؟".

لا تتـلاشى ابتسـامَةُ المُراسِـلَة أبـدًا مـع أن الارتبـاك يبـدو في عينيهـا. لكـن قبـل أن يَعُـمَّ الارتبـاك، ينظـر الطبيـب إلى سـاعته ويعلـن: "والآن يجـب أن أعـود إلى العمـل. شـكرًا جزيـلًا لـكِ عـلى اهتمامِـكِ. مرضـاي بحاجـة إلى الراحـة؛ لـذا مـن فضلكـم غـادروا".

يلفـتُ الطَّبيـبُ نَظـرَ خفاجـي، ثـم يدنـو منـه. وينتظـر الرجـلان بينـما يُغـادِرُ الحَشـدُ الغرفـة. ثـم يجـدان نَفسَـيْهِما وحدهـما: "أنـا مَسرورٌ جـدًّا لأنَّـكَ أتيـتَ يـا سـيد خفاجـي. حالـة مـروج ليسـت بسـيطة".

"ما الأمر يا دكتور؟".

يفتـح الطبيـب السـتار ويتحسَّـس رسـغ مـروج. ينظـر إلى وجههـا لدقيقـة ثـم يجيـب: "الأمـر أننـا كنَّـا نأمَـلُ أن نعكـس التَّدَهـوُرَ الـذي حـدث لهـا بسرعـة، لكنَّنـا لم نتمكَّـن مـن ذلـك. لقـد اسـتجابت بشـكلٍ إيجـابيٍّ لبعـض مُثَبِّطـات إيـه سي إي وإيـه آر بيـز، وبـدا أن حالتهـا في طَـوْرِ الاسـتقرار".

يبـدو خفاجـي مُتحَـيِّرًا، ويوضِّـح الطبيـب: "هاتـان فئتـان مـن الأدويـة التـي تُسـتَخدَمُ في عـلاج أمـراض الـكُلَى في هـذه المراحـل".

"إذًا، فما الذي يحدث؟".

"بـدأت مـروج تُظهِـرُ آثـارًا سـلبيَّةً لتعاطـي إيـه آر بيـز، وهـذه الاحتماليـة دائـمًا مطروحـة. أكُنـتَ تعلَـمُ أن قلبهـا أيضًـا مريـضٌ يـا سـيد خفاجـي؟"، ويَسـكُتُ لوَهلَـةٍ، "نأمـل أن غسـيل الـكلى وحـده سيُحَسِّـن حالتهـا، لكـن ليـس هنـاك ضـمان لذلـك. فمثلـما تـرى هـي ضعيفـة. ولحُسـنِ حَظِّهـا، تمكَّنَـت مـن النـوم عـلى الرغـم مـن ذلـك السـيرك الـذي نُصِـب اليـوم".

يُصافِحُ خفاجـي الرَّجُـلَ وهـو يغـادر ثـم يجلـس بجـوار مـروج. يأخـذ كتـابَ الشِّـعرِ ويـشرع بالقـراءة، لكنـه يَعجَـزُ عـن التركيـز عـلى الأبيـات التـي أمامـه. تَمـرُّ سـاعتان وخفاجـي يُمَسِّـدُ جبـين مـروج ويقـرأ بصـوتٍ عـالٍ. يتوقَّـف بـين الحـين والآخـر. ويُخـبِرُ مـروج عـن سـيترون وعـن المـال وعـن زبيـدة وعـن نضـال ومهـا، وعـن كل شيء. يتسـاءَلُ بصَـوتٍ مُرتَفِـعٍ، يُجـادِلُ نفسـه همسًـا ومـروج نائمـة. ومـع وقوفـه مُجـدَّدًا يجـد نفسـه مُجـبَرًا عـلى الإقـرار بـأن خُطَّتَـه لم تَعُـدْ خيـارًا مطروحًـا.

تبتسـم إليـه العجـوز، ويـدرك أنهـا كانـت تسـتمع إليـه طـوال الوقـت. تسـتمع إليـه وهـو يقـرأ الشِّـعرَ. تسـتمع إليـه يتحـدَّث إلى مـروج. كانـت تسـتمع إلى كل شيء. ويعـاني خفاجـي مـع الصنـدوق ثـم ينزلـه أرضًـا. ويبحـث حولـه عـن شيء ليكتـب بـه. ويفحـص الملفَّـات إلى أن يجـد ورقـةً بيضـاء. فيضـع المَلَفَّـات عـلى عتبـة النافـذة ويعـود إلى مكتـب الاسـتقبال ليسـتعير قلـمًا. يكتـب رسـالةً صغـيرةً إلى مـروج يُخبِرُهـا فيهـا أنـه سيسـافر لبضعـة أيـام. ويُزلِـقُ الرِّسـالَةَ داخـل صفحـات الكتـاب حـين ينتهـي، ثـم يرفـع الصنـدوق عـن الأرض مُجـدَّدًا. يـتردَّد قبـل الذهـاب وينظـر إلى مروج لمـرَّةٍ أخـيرة. يُلـوِّح إلى العجـوز وداعًـا، وترفـع هـي إصبعيهـا بعلامـة النـصر. يطلـب مـن موظفـة الاسـتقبال في طريـق خروجـه أن تكتُـبَ رَقـمَ الهاتـف مـن أجلـه: "هـذا الرقـم الرئيـسي، وهـذا الرقـم الداخـليُّ للغُرفَـة. وكتبـتُ لَـكَ رقـمَ مَكتـبِ الاسـتقبال هنـا أيضًـا، عـلى سـبيل الاحتيـاط".

يجلـس خفاجـي ليـشرب الشَّـايَ في الزاويـة الخلفيَّـة مـن مقهـى دجلـة. يمـرُّ رَجُـلٌ يَنقُـرُ بفُرشـاةِ أحذيَـةٍ عـلى لَـوحٍ كرتـونيٍّ مَطـويٍّ. وينظـر خفاجي إلى الاتِّجـاه الآخـر. ثـم يدنـو آخَـرُ ويفعـل الـشيءَ نفسـه، وينظـر خفاجـي إلى سـاعَتِه. تقبـض يـداه عـلى الصنـدوق الموضـوع عـلى الطاولـة. وفي كل مَـرَّةٍ يُنهـي قـدح شـايٍ يـأتي رَجُـلٌ ويأخـذه، ويطلـب خفاجـي كوبًـا آخـر.

يضـع الصنـدوقَ عـلى الأرض ويُفتِّـش في الملابس والأوراق التـي في أعلاه. ويحفـر حتـى يصـل إلى الحقيبـة، ثـم يلقـي نظـرة حولـه ليتأكَّـد مـن عـدم

التفات أحدٍ إليه. تُفتِّش يداه في الحقيبة إلى أن تَجِدَا حزمةً سائِبَةً من النقود. فيُزلِقُ حزمةً في جيب سترته ثم حزمة أخرى. وبعد إغلاق الحقيبة يُعيدُ ترتيب الملابس. أصبحت جيوب سترته الآن مُمتَلِئَة بكُتَلٍ معدنية وبعُلَبِ السجائر وبالنقود. يحاول تسوية الجيوب من الخارج لكن بلا فائدة. ثم يتفقَّد ساعته ويرى أن الساعة قد مَرَّت بالفعل.

بمرور الوقت يبدأ الشاي في الوصول إلى مثانته. فيضع رِجلًا على رِجلٍ ثم يُنزِلُها. ويتفقَّد ساعته وينظر حوله مُجدَّدًا. لم يتغيَّر أي شيء. هناك الكثير من النُّدُل والكثير من أكواب الشاي. العجائز يجلسون معًا، يُلقون النِّكات ويحكون القصص المُكرَّرة، ويلعبون الألعاب القديمة. إنه الانتظار القديم نفسه.

تجعله مثانته يتشنَّج، لكنه لا يتحرَّك من رُكنِه. يلاحظ أن إحدى يديه تستقرُّ بشكلٍ غريب على الصندوق تحت ركبتيه، فيقف ويتمطَّى بذراعيه. ويتفقَّد ساعَتَه مُجدَّدًا ويضع رِجلًا على الأخرى. يبدأ عقله في التجوُّل بعيدًا عن جسده وبعيدًا عن المقاهي المزدحمة المليئة بالرجال العاطلين. وبعيدًا عن حقيقة أن رَجُلًا لا يعرفه خفاجي ربما يأتي لمساعدته وربما لا.

كان خفاجي بالفعل يوشِكُ على التَّبوُّل في بنطاله مع ظهور ملمع الأحذية مجددًا. فيفاجئه خفاجي بموافقته على تلميع حذائه قبل أن يعرض الرجل. ويوافق الرَّجُلُ مسرورًا على مراقبة أشياء خفاجي أوَّلًا بينما يذهب إلى المرحاض. وحين يبتسم الرجل الفقير، يَبرُزُ صَفٌّ من الأسنان المفقودة: "أكيد، براحتك. راح أظل هنا، وين أروح؟".

أرض المرحاض مُبلَّلة ولَزِجَة. ويتنفَّس خفاجي عبر فَمِه ليتجنَّب استنشاق رائحة البول النَّتِنَة الصادرة من البورسلين البُنِّيِّ والبرتقالي المُتشقِّق. ثم يُدقِّق في المياه وهي تتقطَّر في المبولة. وتخطر بباله قصيدة قديمة:

نُوضَعُ في العَصَّارَةِ كَي يَخرُجَ مِنَّا النَّفْطُ.
نَخْبَكِ... نَخبَكِ سَيِّدَتي
لَم يَتَلَوَّثْ مِنكِ سِوى اللَّحمِ الفاني
فالبَعضُ يَبيعُ اليابِسَ والأَخضَر
ويُدافِعُ عَن كُلِّ قَضايا الكَونِ
ويَهرُبُ مِن وَجهِ قَضيَّتِه
سَأبولُ عَلَيهِ وأَسكَرُ... ثُمَّ أَبولُ عَلَيهِ وأَسْكَرْ

تَعتَصِر مثانة خفاجي نفسها، ويبدأ شُعورٌ دافِئٌ بوَخزِ بَطنِه وصدره بخِفَّة. كأنَّه قد تبوَّل للتَّوِّ جالوناتٍ من المِرَّة السوداء[1]. لن تهجر ابنتَكَ. لن تغادر هذا المكان. هذه مَدينَتُكَ ولن تُسلِّمَها. ويذهب لغسل يديه. وحين يجد الحوض مكسورًا، لا يتفاجأ ولا يتضايق. بل يَمسَحُ يديه في بنطاله وقد حسم قراره.

ينتظر الرَّجُلُ بصَبرٍ بجوار الطاولة ويبتسم حين يعود خفاجي. يُمدِّد خفاجي قدميه بجورَبَيْهما على اللَّوح الكرتونيِّ الذي وضعه الرَّجُلُ على الأرض. ويطلب خفاجي قدحي شاي آخرين، واحدًا له وآخَرَ لمُلَمِّع حذائه.

ومع وصول كارل لم يَعُد خفاجي مُتَعجِّلًا؛ فقد أصبح الزَّمَنُ أبطأَ بشكلٍ ما. فيبتسم الرجلان ويتصافحان.

"مشكور على جيتك. خلّي أطلب لك تشاي. أعتذر عن المرة اللي فاتت، بس الوضع كلش فوضوي هسه".

---

(1) "المِرّة السوداء" واحدة من الأخلاط أو المِزاجات الأربَعَة، وهو نِظامٌ طِبِّيٌّ لتركيب وعمل الجسم البشري اعتمدته المدرسةُ اليونانية القديمة والفلاسِفَة اليونانيُّون. ويفترض النِّظامُ أن وجود فائض أو نقص في أحَدِ المِزاجات يُؤثِّر على نفسية وصِحَّة الشخص. والسوداء تؤثِّر على شعور الشخص بالاكتئاب والسَّوداويَّة.

يلـوِّح إليـه كارل لينـسى الأمـر: "هسـه أكـو حـرب. مـا بيهـا شي إذا النـاس اتأخَّـروا".

يتحـدَّث كارل عـن عائلتـه، وعـن زوجـة ابنـه الحُبـلَى، وعـن المزيـد مـن الأحفـاد. ويسـكت كفايـة بعـد كـوبَيْ شـايٍ، حتـى يُضطَـرَّ خفاجـي إلى الـكلام: "أريـدك تسـاعدني بشـغلة هـروب. مـو إلي، لعائلـة زوجتـي. لازم يطلعـون عـلى عـمان. حـضّروا غراضهـم وجاهزيـن للسـفر. مـا راح ياخـذون شي، بـس الـلي تشـيله سـيارتك".

يضحك كارل: "سيارتي!".

"اليوم لازم يطلعون بالليل. وكروتك كلش ممتازة".

"اشكد؟ هذا مشوار مو سهل هالأيام".

"أنطيك دفتر[1] هسه لو وافقت، ودفتر لاخ من توصلهم".

يميل كارل للوراء: "يجب أن أفكر بالأمر".

يُخـرِجُ خفاجـي رُزمَـةَ نُقـودٍ مـن جيبه ويُسـلِّمها لـكارل تحـت الطاولة: "ليـش مـا تـروح التواليـت وتعـد هـاي قبـل مـا تأخذ قـرار؟".

يدفـع خفاجـي حسـاب المشروبـات ويأمـر القَهوَجـي بـأن يُبقـي الفَكَّة. ويعـود كارل بنظـرة عـلى وجهـه تتأرجَـحُ بـين الحماسـة والذُّعـر، ولا يقـول إلَّا: "مـاشي، عليهـا. يـا اللـه!".

يتبـع خفاجـي كارل إلى سـيَّارته البيچـو العائليـة وهـو مُتشـبِّثٌ بصندوقـه: "إذا حَطِّينـا الغـراض فـوق السـيباية، الكـراسي تصـير تسـعة". ويضـع خفاجـي الصُّنـدوقَ عـلى الأرض بالخلـف، ويتحـرَّك الرَّجُـلان فيعـبُران النهـر.

(1) عشرة آلاف دولار بالعاميَّة العراقية.

يُسَيطِرُ الصمت على خفاجي حتى يَصِلا إلى بناية نضال ومها. يجلسان في الكرسي الأمامي ويتساءل خفاجي من أين يبدأ. فيُخرِجُ الرُّزمَةَ الأخرى ليُريها لكارل: "هاي العشرة اللوخ".

يشي وجه كارل بجدِّيَّةٍ شديدة، وبشكلٍ ما يُطَمئِنُ هذا خفاجي. يُسلِّمه النقود: "اسمعني، آني أثق بيك. أخذ الفلوس كلها. هاي عائلتي، هم بين إيديك وهذا كل اللي نملكه".

يبتسم كارل: "لا يظل بالك. نقدر نتحرك أول ما يجهزون. بس لازم أخابر زوجتي".

تختفي ابتسامَتُه تمامًا حين يأخذ المال كأنَّ النُّقودَ مُلوَّثة. ويفتح صندوق التابلوه ويرمي الرُّزمَتَيْن فيه. وحين يحاول صَفْقَ بابه يَنفَتِحُ مُجدَّدًا. فيحشر النقود في آخر الصندوق بِيَدٍ واحدة، ويُغلِقُ قُفلَ الصندوق مُجدَّدًا ببُطءٍ باليَدِ الأخرى. ومع انتهائه يقول: "يلا نروح نشوفهم". وتشير نَبرَةُ صوت كارل إلى أن الجزء الصعب من الرحلة قد انتهى بالفعل.

يأخذ خفاجي صندوقه ويساعده كارل في صعود السلم به. هناك أطفال يصعدون ويهبطون السُّلَّم وينادون بعضهم. وثَمَّة فتاةٌ صغيرةٌ تغيظ الرَّجُلَيْن حين يتوقَّفان لالتقاط أنفاسهما في الطابق الثالث.

تفتح مها الباب وتُقبِّلُ خَدَّيْ خفاجي وتُرحِّب بالرَّجُلَين. يقف الزوار من الشقة المجاورة لتحيَّة خفاجي وكارل. ثم يجلس الجميعُ وتختفي مها في المطبخ لإعداد القهوة. يسمعونها تبكي من الغُرفَةِ الأخرى فتذهب إحدى النساء لتبقى معها. يلتفت خفاجي إلى نضال ويطلب الحَديثَ إليه في الغرفة الأخرى. يمشيان عبرَ غُرفَةِ نَومٍ إلى شُرفَةٍ صغيرة. ويعرض خفاجي سيجارةً على نضال لكنه يرفضها. فيشعل خفاجي واحدةً لنفسه.

"نضال، أريدك تسمعني زين. ولازم تسمع نصيحتي"، ولأوَّل مَرَّةٍ يُلاحِظُ كيف شابَ نِضال خلال الأسبوع الماضي. الأمر ليس مُتعلِّقًا بالخسارة فحسب، فحتى بعدما تَخسرُ، تجد نفسَكَ تخسر أكثر.

كان خفاجي قد بلغ منتصف قِصَّتِه حين طلب منه نضال أخيراً سيجارةً. تُقدِّمُ مها قدحَيْ قهوَةٍ صَغيرين وتُحَملِقُ إلى زوجها: "والله؟ ما دخَّنت صار لك سنين!"، ويَصرِفُها نضال بنظرَةٍ صارِمَة.

"أكو صندوق بذيتش الغرفة. الصندوق بيه تشنطة متروسة فلوس. اعتبرها تعويض عن خسارتك. ما راح ترجع لك سوسن ولا حياتك القديمة، بس كلش كافية حتى تبتدي حياة جديدة. أخذ التشنطة لغرفة النوم وخلي الفلوس بتشنطة من عندك. ولمن تخلص لا تقول لأحد على اللي سويناه وتسافرون رأسًا، كلكم. الرجَّال اللي جبته وياي...".

"منو هو؟".

"فد واحد. سايق أعرفه من زمن. سيارته طابقة جوا وهو جاهز ياخذكم للحدود وحسابه واصل. ما يعرف شكو بالصندوق وما يريد يعرف. لا تأخذون أي شي غير الملابس. أي شيل لاخ راح يلفت الانتباه".

تَدخُلُ مها الشُّرفَةَ. وتعبس بوجه خفاجي ثم تُحاوِلُ الابتِسامَ. فيُومِئُ نضال إليها، وتعود إلى الداخل.

"من توصل عمان افتح لك حساب بالبنك وحط بيه كل شي لحد ما تخلص. افتهمت؟ وراها خابرني وقول لي إنت وين".

يَنظُرُ خفاجي إلى ساعَتِه ويُدرِكُ أنَّه يجب أن يرحل. وترتسم الصَّدمَةُ على وجه نضال وهو عائِدٌ معه إلى الصالون. يأخذ الصندوق ويحمله إلى غرفة النوم، ويعملان معًا على قَدَمٍ وساق. يُفرِغُ نضال حقيبةً قديمةً، ويطويان معًا النقود في شكل حزَمٍ من القماش. ينظر

نِضالُ إلى خفاجي بين الحين والآخر، وعيناه مُجمَّدتان من الخوف. يلمس نضال يَدَ خفاجي وهُما يُغلِقان الحقيبة ويقول: "محسن، من وين هاي الفلوس؟".

"لا تسأل. أخذهن وبس".

يَأخُذُ نضال مها جانبًا ويتكلّمان. تَعتَرِضُ للَحظَةٍ ثُمَّ تنادي فتَيَيْن مُراهِقَيْن ليعودا إلى الشقة. ويدخل خفاجي وكارل إلى المطبخ. يُسَلِّمه خفاجي المُسدَّس ويقول: "ويَّاك فلوس كافية حتى تدفع لأي واحد يتعرض لكم. وإذا ما سوِّيت هالشي، ويّاك هذا همين". ويضع كارل المسدس في جيبه ويضحكُ.

"راح أنتظر يومين وأخابرك حتى أتأكد إنك رجعت سالم".

يَثني كارل أصابِعَ يَدِه الأخرى لتصبح على شَكلِ مُسدَّسٍ ويُحدِثُ صوت طَقطَقَة: "طاخ".

يُودِّع خفاجي العائِلَةَ. أنفاس الأولاد مُنقَطِعَة إثر لعب الكرة بالخارج، ويلهثون وهم يصافحونه، ومها تبكي وهي تُقبِّل خفاجي.

"آسف مها. راح ألحقكم لعمان أول ما أقدر".

لا تُعلِّقُ مها، لكنَّها تشرع بالبكاء مُجدَّدًا. ويعرض نضال أن يهبط السلم مع خفاجي لكن خفاجي يمنعه: "كافي اللي وراك اليوم، أشوفك بعمان". هكذا وَعَدَه، مع أنه غير واثق من حقيقة هذا الوعد.

تَغرُبُ الشمس، ويشرع الأولاد الذين يلعبون في الشارع بالرَّكض إلى منازلهم. لا يزال خفاجي يحمل الصندوق وهو يَمرُّ بعَربَةِ كارل، لكنَّه لم يَعُد ثقيلًا للغاية. يلاحظ أن الأبواب غير مُقفَلَة والنوافذ مفتوحة على آخِرِها، كذا صندوق التابلوه. فيمدُّ يده بداخله ويتحسَّس النقود حيث تركها كارل. ثم يُغلِق الصندوق مَرَّتَيْن قبل أن ينغلق فعلًا. ويبتسم وهو واثِقٌ بأنه وجد الرَّجُلَ المُناسِبَ للمَهمَّة.

مساء السبت
6 ديسمبر 2003

كانـت الشَّـمس تقـترب مـن الغـروب مـع وصـول خفاجـي إلى بِنايَتِـه. الحُــرَّاسُ في المدخــل يرتشــفون الشــاي وهــو يدنــو منهــم. يبتســمون ويدَّعـون الوُقـوفَ وهـو يَمُـرُّ فيهتـف: "لا يـا رجـال، لا تقفـوا"، وهـو يُلَـوِّح لهـم. وتعـود الكهربـاء وهـو في طريقـه إلى الأعـلى.

لا يسـتغرق الكثـيرَ مـن الوقـت حتـى يجمـع أشـياءه، فقـد عـرف طوال الأسـبوع المـاضي أنـه سـيغادر. واليـوم فقـط عـرف وجهتـه. يُخـرِجُ زِيَّـه من الصنـدوق ويـدرك أن الملفَّـات ليسـت موجـودة. فيحقـب غيارَيْـن كاملـين، وزوجًـا مـن الملابـس الداخليَّـة والجـوارِبَ والقُمصـانَ الداخليـة والقمصـان الخارجيـة والبناطيـل وكنـزَةً وسُـترَة. لم يتبـقَّ بعـد ذلـك مـكانٌ لأي شيء آخـر. يتطلَّـع حولـه ويتسـاءل عـمَّا قـد يأخـذه أيضًـا. يجـد ألبـوم صـور عائليـة قديـم، والـذي سـيندم لاحقًـا عـلى أنـه يضـمُّ صـورًا لـسهير وعُـدَيَّ ومـروج فقـط، وبـلا أي صـور لوالدِيَـهْ أو أخواتـه أو أخيـه. يدنـو مـن رفِّ الكتـب ويعـاني ليُقـرِّر مـا سـيأخذه. سـيأخذ كِتـابَ شِـعرٍ واحـدٍ، لكنـه لا يسـتطيع أن يُقـرِّر أيَّ كتـاب. فتسـحب أصابِعُـه في النهايـة "المعـرِّي" مـن عـلى الـرف. إنـه ديـوان لـزوم مـا يلـزم.

يسمع خفاجي رَجُلًا يسعل وراءه ثم صوتًا يقول: "أخ محسن، السلام عليكم".

يلتفت فيرى علي، الذي يقف عند الباب المفتوح. "وعليكم السلام علي. بيش أساعدك؟".

"بلكي ما أزعجتك أخ محسن".

"لا أبدًا"، ويتفقَّد خفاجي ساعَتَه ويلوِّح له ليدخل الغرفة. يتقدَّم علي خطوتَيْن ويسأله خفاجي: "جيت تأخذ المفاتيح؟".

يهزُّ علي رأسه لكنه لا يقول شيئًا. ينظر خفاجي إليه مُجدِّدًا ويضيف: "راح تلقيهن هناك بصف الباب، ع الميز"، ويشير خفاجي لكن علي يَتجاهَلُه.

يعود خفاجي إلى تَفَقُّد كُتُبِه على الرَّفِّ. ثم يهتف دون أن يلتَفِت: "بلكي ما عندك مانع بس ما أقدر أقدم لك شي. كلش مستعجل. دقائق وأمشي خلاص".

"هذا اللي رِدِت أحكي ويَّاك عليه محسن، إنت ما راح تطلع".

"العفو؟".

"أقصد إنه إحنا فكرنا بالموضوع محسن".

يجلس محسن، ويَضَعُ رأسه بين يديه، ويُحَملِق إلى الأرض ولا يقول شيئًا .

"إسمعني، إنت مو مضطر تغادر. بلكي هذا الخبر يكون زين، بس راح أتفهَّم إذا ما إلك واهس[1] تشكرني. على أي حال، يا ريت هالشي يصلح الوضع. ما نقدر نجبرك حتى تبقى. بس يا ريت تبقى".

(1) مزاج بالعامية العراقية.

ينهَضُ خفاجي دون أن ينطق كلمةً ويعود إلى غرفة النوم ليأخذ الحقيبة. يجرُّها بطول المَمرِّ مُتجاوزًا غرفة المعيشة، ويضعها أرضًا بجوار الباب الأمامي. ويعود بعدها ويمدُّ يده باتجاه علي.

"شكرًا لأنك قلت لي علي. إي هو خوش خبر إنه راح أقدر أبقى ببيتي، بس أقدر أسأل شنو سبب تغيير رأيكم؟".

"أخويا محسن، قول لي إذا أكو فد شي أقدر أسويه إلك. إحنا جوارين".

يَنظُرُ خفاجي إليه. ويُحَملِقُ وراءه إلى خِزانات الكتب. يرى الرفوف الفارغة ثم يقول: "أكو شي واحد تقدر تسويه على مودي علي، ما تهمني القنفة ولا الكراسي ولا المواعين والجدورة. تقدرون تاخذوهن. بس أريد دواوين الشعر مالاتي، كلهن. إذا تقدر تسوي هيتش، أقدر أقول إنك جاري صدق".

يومِئُ علي ويَضمُّ أطرافَ أصابعه.

"إي، فد شي لاخ. راح أغيب شوية بس أرجع. أقدر أعتمد عليكم تفتحون عينكم ع المكان وآني ما موجود؟".

يَبتَسِمُ علي: "أكيد". يقولها وهو يأخذ الحقيبة برِفقٍ من يد خفاجي، ثم يهبط بها السُّلَّمَ. وفي البهو يتصافَحُ الرَّجُلان، ويأمر علي أحدَ الحُرَّاس بمساعدة خفاجي بحمل الحقيبة. فيحملها الرجل بطول الطريق إلى شارع أبو نواس.



المنطَقةُ الحَمراءُ

وأبرَقَت السَّماءُ كَأَنَّ زَنبَقَةً من النَّارِ
تُفَتِّح فوقَ بابِلَ نَفسَها، وأضاءَ وادينا
وغَلغَلَ فِي قرارَةِ أَرضِنا وَهَجٌ فَعرًّاها
بِكُلِّ بذورها وجُذورِها وبِكُلِّ مَوتاها
وسَحَّ وَراءَ ما رفعته بابِلُ حَولَ حُمَّاها
وحَولَ تُرابِها الظَّمآنِ، مِن عُمُدٍ وأَسوارٍ
سَحابٌ لَولا هَذِهِ الأَسوارِ رَوَّاها!
وفي أبدٍ من الإصغاءِ بَينَ الرَّعدِ والرَّعدِ
سَمِعنا لا حَفيفَ النَّخلِ تَحتَ العارِضِ السَّحَّاحِ
أو ما وَشوَشَته الرِّيحُ حَيثُ ابتلَّت الأَدواحُ
ولَكِن خَفقَةَ الأَقدامِ والأَيدي
وكَركَرَةً و"آهِ" صَغيرةٍ قَبَضَت بيُمناها
على قَمَرٍ يُرَفرِفُ كالفَراشَةِ أو على نَجمَه

على هبةٍ من الغَيمَه

على رعشاتِ ماءٍ، قَطرَة هَمَسَت بها نِسمَه

لِنَعلَمَ أنَّ بابِلَ سوف تُغسَلُ من خَطاياها!

بدر شاكِر السَّيَّاب

الأحد - الخميس
7 - 11 ديسمبر 2003

تُقلِعُ المروحيَّةُ رأسيًّا نحو ظلام الليل، ثم تسبح في خطوطٍ مُتعرِّجة إلى خارج المدينة. بداخلها صَفَّان مُمتدَّان من الرجال، مربوطَيْن إلى دعاماتِ الطائرة، كلٌّ منهم ينظر إلى آخَرَ أمامَه. يَغُطُّ الرَّجُلُ المقابل لخفاجي في النوم بمجرَّد أن يجلس ولا يستيقظ حتى يهبطوا في "كركوك".

لقد مَرَّ خمسة عشر عامًا منذ ركب خفاجي مروحيَّة. مَرَّ خمسة عشر عامًا وحياة كاملة منذ كان في الشمال. يغلق عينيه لكنه مستيقظٌ تمامًا طوال الرحلة. اهتزازات المروحية تهزُّ عظامه. لأوَّل مرَّة منذ أشهر، أنت هنا لأنك اخترت أن تكون هنا. لقد أعطتكَ يَدُ القَدَرِ أوراقَ لعبٍ جيدة. كانت أوراقًا جيِّدَةً جدًّا فجَعَلتَ نضال يأخُذُها ويترك اللُّعبَة. خُذْ أوراقًا جديدةً والعَبْ مُجدَدًا.

يصلون في الصباح الباكر. ويحمل الكُلُّ ما عدا خفاجي حقائِبَ ظَهرٍ خضراءَ كَبيرةً. يمشي هو وراءهم يَجُرُّ حقيبته القديمة على مَدرَجِ الطائرات. ولا يبدو في الأفق شيءٌ أبعد من الحقول الشاسعة

مـن الخرسـانة المُتشـقِّقة. ولا يتبـادر إلى ذهنـه إلَّا الآن أن كركـوك عبـارة عـن معسـكر في مـكانٍ مـا بالفضـاء. ينقـر أولـدز عـلى كَتِفِـه ويلتفـت فـيرى سيارة سـوبربان سـوداء تتوقَّـف. وتأخذهـم السـيارة إلى تَجمُّـعٍ مـن المقطـورات البيضـاء.

"أهـلًا بكـم في تشـوفيل يـا جماعـة"، قالهـا ضابـط خـرج لتحيَّتِهـم في منتصـف الليـل.

ينظر أولدز إلى خفاجي ويوضِّح: "إنها وحدات سكن مُعدَّلة".

"هــذا صحيــح، إنهــا سي إتــش يــوز. لم نَخـتَرْ إلَّا الأفضــل مــن أجــل ضيوفنــا. ســأريكم وحدتكــم".

يأخذهـما الرجـل إلى طـرف إحـدى المقطـورات ويفتح البـاب البلاسـتيكي الرقيـق ويـضيء الأنـوار. وينظر خفاجـي إلى الأرضية البلاسـتيكية.

"حسـنًا، لسـتم الأفضـل حظًّـا؛ فوحدتكـم ليـس بهـا مرحـاض. أيُّهـا السَّـيِّدان، سـتجدان مرحاضَـيْن لكـما هنـاك"، ويقولهـا وهـو يشـير وراء مقطـورة أخـرى. يحجـز أولـدز أحـد الأسِرَّة، ويرمـي خفاجـي حقيبتـه عـلى السريـر الآخـر ويـشرع بإفراغهـا. يُعلِّـق بَذلَتَـه في الخِزانَـة ثـم قمصانـه وزِيَّـه السـخيف. ويـدرك حـين ينتهـي أنـه بالتأكيـد قـد نـسي وضـع ديـوان المَعـرِّي في الحقيبـة. يخـرج مـن المقطـورة وينجـح في أن يجـد المرحـاض البـدائيَّ. يغسـل وجهـه بميـاهٍ مُثلَّجـة ويعـود إلى غرفتـه، يتنفَّـس هـواء الليـل البـارد والجـاف جـدًّا لدرجـة الحَرَقـان. يتطلَّـع إلى السـماء فـيرى قُبَّـةً مـن النجـوم لم يرهـا منـذ سـنوات. النجـوم تمتـدُّ إلى اللانهايـة. يبـدأ برصـد نجومـه المُفضَّلـة: منكـب الجـوزاء والمـرزم ورجـل الجبـار وسـيف الجبـار ونـير السـيف والنطـاق والنظـام والمنطقـة والميسـان. يتطلَّـع إلى كوكبـة الثـور، وإلى نجـم عـين الثـور. وعنقـود الثُّريَّـا. إنـه ألمَـعُ جُـزءٍ في السـماء. وسـهم الرامـي الـذي لا يطـير ولا يـضرب هَدَفَـه أبـدًا، والعـدو الـذي لا يُـرى إلا في الأفـق المقابـل.

يتمنَّى خفاجي لأولدز ليلةً سعيدة ويتسلَّق ليصل إلى سريره الضئيل. ويُطفِئُ ضوء القراءة الخافت على منضدة السرير ويحاول أن يلفَّ البطانيات حوله. لكنه يغادر السرير بعد بضع دقائق ليبحث عن المزيد من البطانيات. ولا يجد المزيد فينتعل جوربًا ثم يشدُّ الأغطية على نفسه مُجدَّدًا.

يستيقظ في الصباح الباكر ليجد البطانيات قد سقطت على الأرض؛ فيشدُّها على جسده مُجدَّدًا، لكن النوم لا يرتدُّ إليه. ينظر إلى كوب المياه الذي على منضدة السرير، ويُحدِّق إلى المصباح المعدني القريب للغاية من وسادته. يتفقَّد ساعة معصمه ويستمع إلى تكتَكتِها. يشعر بالهواء خارج البطَّانِيَّات كأنه ثلج، حتى يكاد التَّنفُّس يُؤلِمُه. يحملق إلى البخار المتكثف على النافذة. بينما يتقلَّب أولدز ويتنفَّس من فمه كأنه يزأر. خفاجي الآن مُستيقِظٌ تمامًا، وترسم رأسه كوكباتٌ نجميَّةٌ وسط السماء المُظلِمَة كأنها خطوطٌ تصل بين النقاط. يستلقي وهو يُفكِّر في سوسن ثم نضال، ثم سيترون ثم زبيدة. يحاول أن يوجِّه الخُطوطَ ليعود إلى سهير، لكنها لا تذهب بذلك الاتجاه. وفي كل مَرَّةٍ يحاول أن يتخيَّل سهير تتلاشى عيناها وشفتاها وتتحوَّل إلى زبيدة، مع أنهما ليستا مُتشابِهَتَيْن على الإطلاق. كلَّما فكَّر أكثر، يزداد خيال سهير ضبابيَّةً وتزداد زبيدة وضوحًا. يحاول أن يُفكِّر في أي شيء آخر. يفكِّر في مروج ثم عُدَيّ، لكنه يرجع باستمرار إلى تلك الڤيلَّا المُستقرَّة وسط حقول القصب.

ثم يصبح الأمرُ أَسوأ؛ إذ يجد نفسه فجأةً في كركوك ثم في السليمانية، ثم في قُرى الجبل الخاوية والتلال الخضراء الخالية. إنها أخضر من أي شيءٍ عَرَفَه خفاجي. يحلم بسجاجيدَ ثَقيلةٍ من الزهور البرية. وحقول قُلِّبَت تُربَتُها حديثًا. والكثير من التراب، إنه تُراب الخنادق التي حفرها المهندسون، وتراب القُبورِ المنبوشة في ثنايا الليل. كذا ثمَّة زهورٌ وعُشبٌ، وجذور باهِتَة تُحرِّكها الأمطار المتأخِّرة.

ثَمَّـةَ رَبيـعٌ قـاسٍ تَولَّـد عـن شـتاءٍ باعِـثٍ عـلى النسـيان. والأرض تتمخَّـض فتنبـت جوعًـا.

يفتـح خفاجـي عينيـه ويحـاول أن يفكِّـر في الشِّـعر، يحـاول أن يتذكَّـر أي شيء، أي كلمـة أو عبـارة أو صـورة أو صـوت أو إحالـة. ذلـك البيـت الواحـد الـذي قـد يفتـح مسـارًا للفيضـان. بيـت شِـعرٍ يدفـن الذكريـات أو يُخفِّـف آلامَ المـاضي، أو يُنبِـتُ حقـولًا مـن الزهـور فـوق المقابـر الجماعيـة.

لكنـه لا يجـد شـيئًا. ولا حتـى بيتًـا واحِـدًا، ولا عبـارة. يبـدو عقـل خفاجـي كخنـدِقٍ تُـرابيٍّ طويـلٍ تغمـره الـبرودَةُ والشَّـقاءُ. أرض مُقفِـرَةٌ بـلا ورود ولا جـذور. تمـرُّ سـاعات وهـو يُحـدِّق إلى كـوب الميـاه ولمبـة القـراءة وسـاعة يـده. يـروح في النـوم مُجـدَّدًا بعدمـا بـدأ الصبـح في البـزوغ مـن ناحيـة التـلال الشرقيـة اللعينـة.

يقضـون الصبـاح في اجتماعـات. ويدخـل خفاجـي إلى غرفـة الاجتماعات، فيسـلِّمه رجـلٌ لـه شـاربٌ نَحيـفٌ مُجلَّـدًا صغـيرًا مملـوءًا بكتيِّبـات وظـرفٍ صغـير. حـين يفتحـه خفاجـي لاحقًـا في غرفتـه، يجـد أوراقًـا نقديـة طازجـة مـن فئـة مائـة دولار.

يجلـس بجـوار خفاجـي ثلاثـة عراقيـين، أحدهـم مـن البـصرة وواحـد مـن الحلَّـة وآخـر مـن كربـلاء. لا تناسـب بِزَّاتُهـم أجسـادَهم كحـال بِـزَّةِ خفاجـي. بينـما يسـتعرض ضُبَّـاطُ الاتصـال الأمريكيـين والبريطانيـين في الغرفـة مـدى حرصهـم عـلى مقابلـة نُظَرائهـم العراقيـين، ولا يحفـظ خفاجـي أسـماءهم. تجلـس فرقـة مـن الضُّبَّـاط الأكـراد عـلى الجانـب المُقابِـل مـن الطاولـة، والجميـع يرتـدي بـزَّاتٍ مُختَلِفَـةً.

"سـأكون صريحًـا معكـم. نحـن نُواجِـهُ انتكاسـاتٍ وتَحدِّيـات في أنحـاء البـلاد"، هكـذا بـدأ أحـدُ الضُّبَّـاط البريطانيـين حديثَـه بالإنجليزيـة: "قـرَّرت قيـادة سـلطة الائتـلاف المُؤقَّـت أن نعيـد التَّجمُّـع ونُركِّـز جهودنـا عـلى تأسـيس قـوة شرطـة في كركـوك؛ لـذا جلبناكـم مـن أنحـاء البـلاد لحضـور

ورشة العمل هذه، إنه لقاء قِمَّة إن أردتم اعتباره كذلك". وهو يتكلَّم، تصبح الكلمات أبطأ وأكثر تأنِّيًا. ويلاحظ خفاجي شابًّا يُدوِّن ملاحظاتٍ بشكل محموم، ويميل إلى الأمام أكثر من مرَّةٍ كأنه سيُقاطِعُ المُتكلِّم.

"نأمل أن نخرج من هذا التجمُّع بشبكةٍ من علاقات العمل على مستوى البلاد، والأهم، الشعور بالثقة والأمان الذي يتحقَّق بإدراككم أنكم لستُم وحدَكم، بل جزءٌ من فريق. انظروا حولكم، هذا هو فريقُكم. نحن فريقكم". وحين ينتهي، ينظر إلى الشاب ويومِئُ. يأخذ الشاب نَفَسًا عميقًا ويبدأ الترجمة، خالِطًا العربية الرسمية بالعامية البغدادية. وعيناه لا تُغادران قطُّ صَفحَةَ الملاحظات التي يحملها بين يدَيْه.

يُتابِعُ الضابط البريطاني حديثه، ويحرص في أثناء ذلك على النَّظَر إلى عينَيْ كُلِّ رَجُلٍ منهم للحظة قبل السكوت والانتقال إلى الشخص التالي. يظهر المُترجِمُ مُجدَّدًا، ويمرُّ سريعًا على ملاحظاته. بعدها يقف أولدز ويبدأ الحديث عن الحاجة إلى تحديد المشكلات، وخلق حلول ووضع أهداف واقعيَّة. يتعثَّر المترجم كلَّما واجه كلمة Benchmark[1]. يُتَرجِمها في البداية إلى "علامة المقاعد"، ثم "آثار المقعد الطويل"، ثم "أثر طاولة العمل" وهكذا دواليك. كلمات أخرى مثل synergy[2] و entrepreneurism[3] تُحدث فوضى أكبر. تحدث أولدز لنصف ساعة، وحين انتهى كان جمهوره حائرًا تمامًا. يوزِّع أولدز جدولًا زمنيًّا للعمل، ولأول مرَّةٍ يعرف خفاجي أنه سيبقى في كركوك لمدَّة شهر. شعر كأن قلبه قد غرق؛ فقد أخبر مروج أنه سيغيب لبضعة أيَّامٍ فَقَط.

---

(1) بمعنى "مستوى".

(2) تَعاوُن أو تعاضُد.

(3) الفِكرُ الرِّياديُّ.

فضلًا عن المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين، تضمُّ مجموعة عَمَلِ إعادَةِ بِناءِ الشرطة العراقية ثمانيةَ عراقيين، لا أحد منهم من كركوك. "من المفارقات أن هذا سيكون مَيزَة لعملنا في كركوك"، حسبما أخبر ضابِطٌ بريطانيٌّ المجموعة. "لأن لا أحدَ منكم أو مِنَّا من هنا، وبالتالي سنكون أكثرَ موضوعية. سنكون بمكانٍ أفضل يسمح لنا برؤية واقِعِ كركوك أفضلَ من أيِّ شُرطيٍّ من هنا أو مسؤولٍ غارق في التفاصيل للغاية، لدرجة أنه لا يرى الصورة الأكبر. هل من أسئلة حتى الآن؟".

لا أحد يَطرَحُ أي أسئلة.

يتحدَّث خفاجي خلال الاستراحات مع أحد الشُّرطِيِّين الأكراد واسمه صلاح. بالكاد يتذكَّر أحدهما الآخر من الأكاديمية. أكان ذلك حقًّا منذ أربعين عامًا؟ يتشاركان السجائر، ويسألان عن آخَرين من دُفعَتِهما. يتذكَّر صلاح أسماءً ووجوهًا نسيها خفاجي منذ زمن. ويتفاجَأ خفاجي وهو يمرُّ بقائمة الأسماء بحقيقة أن الكثيرين قد رحلوا.

يبقى الضُّبَّاطُ الأكراد الآخرون وحدهم أغلبَ الوقت. وهم أكثر ودًّا مع ضُبَّاط الاتصال الأجانب، كأنه ليس تعامُلَهم الأوَّل.

نظريًّا هم يحضرون جلسات تهدف إلى استحضار الأفكار. وتُمثِّل تلك الكلمة brainstorm أيضًا مشكلة للمترجم. فحين يُجرِّب ترجمتها إلى "العصف الذهني"، ينفجر شَخصان بالضحك ويتساءل الضابِطُ البريطاني الأوَّلُ عمَّا يُضحِكُ إلى هذه الدرجة. وبعد بعض الوقت يتحوَّل الجميع إلى استخدام عبارات إنجليزية.

يقضون الأحدَ والاثنين في اجتماعاتٍ مثل هذه. ويُحاضِرُ مدير شرطة أوكراني عن الإدارة المدنية في إحدى الجلسات الصباحية. وبعد استراحَةِ القهوة يستخدم ضابِطٌ بَحريٌّ بريطانيٌّ عرضًا تقديميًّا ورسوماتٍ

بيانيَّـةً لمناقشـة فكـرة القُـوَّة غـير المُتكافِئَـة[1] في الحـروب. ويَحـضِرون المزيـدَ مـن الجلسـات المُشـابِهَة بعـد الغـداء. وتـزداد زَلَّاتُ المترجـم مـع مـرور الوقـت. فيبـدأ في قصقصـة وتعديـل المـواد التـي يُتَرجِمُهـا؛ مـا يدفـع أحـد الأكـراد إلى مُقاطَعَتِـه باسـتمرارٍ وطلـب أن تُضـاف المـواد المحذوفـة. "ليـس لأجـلي"، ويقولهـا مُـصِرًّا، "بـل لأجـل هـؤلاء في الحضـور الذيـن قـد لا تسـعفهم إنجليزيتهـم".

يسـتمع خفاجـي إلى كل هـذا وتصدمـه حقيقـةُ أنَّـه لـن يتغـيَّر الكثـيرُ إن أضـاف المُترجِـمُ إلى أو حَـذَفَ مـن المحـاضرات. فالرسـالة دائمًـا واحـدة: الأمـور يجـب أن تتحسَّـن.

يفـرغ كُلُّ عَـرضٍ تقديمـي حمولـةً كبـيرة مـن البيانـات. ويبـدو أن لـدى كلِّ مُقـدِّمٍ قُـدرةً هائلـة عـلى جمـع البيانـات والتحكُّـم بهـا. يستشـهد أحـد ضُبـاط الشرطـة العسـكرية الأمريكيـين بسِـجِلَّات تعـداد السـكان مـن فـترة الانتـداب. ويسـتخدم بـين الحـين والآخـر عبـارات عربيـة، وينـادي البـصري بــ"هبيبـي". لا شيء يمكـن فعلـه إلَّا الابتسـام. يُوضِّـح مُقـدِّمُ عَـرض آخر إلى أعـدادٍ تُدلِّـلُ عـلى مستوياتٍ مُتزايِـدَةٍ مـن التعليـم الأسـاسي بـين الفتيـات في المنطقـة الكرديـة في الفـترة بـين 1991 -2002. ويبتسـم الجميـع مجـدَّدًا. تُؤخَـذُ المجموعـة بعـد اليـوم الأول في جولـة بالقاعـدة لمُقابَلَـةِ مسـؤولين عِـدَّة. يـشرب الأمريكيُّـون القهـوة، ويحتـسي البريطانيُّـون الشـاي، وكـذا العراقيـون، ولكنهـم يتمنَّـون لـو كان أقـوى. المحادثـات خفيفـة ومُهذَّبـة وإيجابيـة. الـكلُّ يُمـارِسُ إنجليزيَّتَـه، والـكل يمـارس عَرَبيَّتَـه. بينـما يُبقـي خفاجـي فمـه مُغلَقًـا، باسـتثناء حـين يُوجِّـه إليـه أحدُهُـم سـؤالًا مباشرًا.

يغيـب ضُبَّـاطُ الاتِّصـال الأجانـب عـن الاجتماعـات الصباحيَّـة دون تنبيه أو توضيـح في صبـاح الثلاثـاء. كـذا يغيـب المشـاركون الأكـراد، ويقـول البصريُّ

(1) الحـروب بـين طرفـين غـير متكافئـين، وتحديـدًا بـين جيـشٍ نِظامـيٍّ وقـواتٍ مُتمـرِّدة، ويُطلَـق عليهـا أيضًـا "حـروب العصابـات".

إنـه رآهـم يُغـادرون في الصبـاح الباكـر. بعـد انتهـاء الجلسـة الأولى، يـأتي أحـدٌ ليقـول إن الأمريكيـين والبريطانيـين قـد اسـتُدعوا إلى بغـداد مُؤقَّتـا. يضـع الرجـل الـذي مـن الحِلَّـة عـلى الطاولـة كَومَـةً مُتنوِّعَـةً مـن الجرائـد، وتتحـوَّل ورشـةُ العمـل إلى جلسـة قـراءة تتغـذَّى عـلى أكـواب الشـاي. لقـد جلبـوا "البشـيرة" و"الدَّعـوة" و"الحـوزة" و"المؤتمـر" و"الصبـاح" و"الزمـان" و"صـوت العـراق" و"طريـق الشـعب". يُطلِـقُ البَـصْريُّ عـلى المجموعـة اسـم "لجنـة التنسـيق المركزيـة لجمـع المعلومـات وتحليلهـا وتلخيصهـا" ويلتَصِـقُ الاسـمُ بالمجموعـة. ثـم يضحـك الجميـع عـلى اسـمها المُختَـصَرِ بالإنجليزيـة "CCCIGPR"[1]، مـع أنـه ليـس مُضحِـكًا إلى هـذه الدرجـة.

في اليـوم الأوَّل، لا يقـرأ خفاجـي ولـو كلمـة واحـدة مـن المطبوعـات. بـل يتمـشَّى في الممـرَّاتِ ويُدَخِّـنُ الـروثمانز إلى أن تَنفَـدَ. ويميـل إلى الـوراء ويتأمَّـل حـين ينضـمُّ إلى الآخريـن في غرفـة الاجتماعـات. لكنـه يلـين في اليـوم الثـاني. ويتفقَّـد صحيفـة محلِّيَّـة لأول مـرة منـذ عـام 1968. ينظـر إلى أكـوامٍ مـن الصحـف ويدخـل إلى عـالم الصحافـة المطبوعـة ويبـدأ بقـراءة الآراء المحليـة، وكذلـك تلـك المُعيَّنـة مـن قِبَـلِ طهـران وواشـنطن والريـاض. ففـي كلِّ صبـاحٍ يُحـضِرُ البَـصْريُّ كَومَـةَ صُحُـفٍ طازَجَـة مـن شـخص مـا في المدينـة. ويدخـل بعـد الإفطـار بسـاعةٍ ومعـه كَومَـةٌ مُمتَلِئَـة مـن صُحُـف اليـوم.

ينـدهـش خفاجـي مِـمَّا يقـرأ؛ فالـكُلُّ -مـن الشـيوعيين حتـى الوهابيـين- أصبـح لديـه صُحُـفٌ يوميَّـة. هنـاك صُحُـفٌ ومجـلات مـن جميـع أنحـاء العـالم العـربي، بعضهـا يضـمُّ أخبـارَ اليـوم والبعـضُ أخبـارَ الأمـس، والبعـض يعـود تاريخُـه إلى أسـبوعٍ مـضى أو أكـثر. لا تزيـد الافتتاحيـاتُ صدقًـا عـن مَثيلاتهـا مـن افتتاحيـات صحيفـة "بابـل"[2]. وبعـد جولـة في صفحـات

(1) The Central Coordination Committee for Information Gathering, Processing, and Recapitulation

(2) صحيفة عراقية يومية كان يشرف عليها عُدَي صدام حسين.

الـرأي يكـفُّ خفاجـي عـن قراءتهـا ويكتفـي بالمَـوادِّ الإخباريـة. ويسـهل عليـه وهـو يقـرأ أن يتخيَّـل أن كل تلـك الأخبـار لهـا علاقَـةٌ بـه؛ فالمُقاوَمَـةُ تُصـدِرُ تقاريرَهـا يوميًّـا، وقـد استشـهد المزيـد مـن الأبطـال. ويذكـرون أيضًـا أن عميـلًا آخـر للاحتـلال قـد مـات. كل يـوم يتعـرَّض المزيـدُ مـن رجـال الشرطـة الصُّوريُّـون للقتـل أو الخطـف. ويختفـي المزيـدُ منهـم كلَّ يـوم. وكل يـوم ليـس إلَّا يَومًـا أقـربَ إلى نهايـة الاحتـلال.

يقـرأ خفاجـي أن أحـد مُقاتِـلي المُقاوَمَـة قـد ضَحَّـى بحياتـه حـين اندفع بسيَّارَةٍ نحـو بوابـات الثكنـات العسـكرية الأمريكيـة في تلعفـر عـلى بعـد حـوالي خمسـين كيلومـترًا غـرب المُوصِـل. جـرح الانفجـارُ تِسـعَةً وخمسـين مُحتـلًّا أمريكيًّـا، وسِـتَّةَ عُمَـلاء عراقيـين. يقـرأ أن الهجـوم حـدث في السـاعة 4:45 صباحًـا، وأن الحُـرَّاس عنـد البوابـة فتحـوا النـار عـلى العربـة، والتـي انفجـرت في الحـال. يقـرأ أن مُتحدِّثًـا باسـم الجيـش الأمريـكي قـد ادَّعـى أن الإصابـات لم تكـن خطـيرة. وتقـول مصـادر أخـرى إن عِـدَّةَ إصابـات كانـت خطـيرةً، وأن الطُّغـاةَ الدُّخَـلاءَ اضطـرُّوا إلى نقـل الإصابـات إلى خـارج البـلاد لتتلقَّـى عنايـةً طِبِّيَّـةً أكـثر تَقدُّمًـا. يقـرأ المـادة التاليـة، التـي تصـف كيـف أن عنـد السـاعة 2:30 مسـاءً أسـقطت صواريـخ أرض جـو مروحيَّـةَ مُراقَبَـةٍ مـن طـراز أو إتـش58- كيـوا.

ويقـرأ في صحيفـةٍ أخـرى أن مئـاتٍ مـن الشِّـيعة قـد تظاهـروا في بغـداد أمـس. كانـوا يحتجُّـون عـلى مقتـل رَجُـلِ ديـنٍ عـلى يـد الأمريـكان يـوم الجمعـة؛ فتجمَّـع المُتظاهـرون أمـام فنـدق فلسـطين ولوَّحـوا بأعـلامٍ سـوداء، وحملـوا صـورًا للإمـام الشـيخ عبـد الـرزاق اللامـي وصـورًا لحُطـام سـيارة. يكتشـف خفاجـي أن رَجُـلَ الديـن ابـن الأربعـة وسـتين عامًـا كان بداخلهـا حـين تعرَّضَـت للهَـرسِ تحـتَ دَبَّابَـةٍ أمريكيـة. ويقـرأ أن في اليـوم نفسـه في الخالديـة غـرب الفلوجـة تَظاهَـرَ ثلاثمائـة شـخصٍ ضِـدَّ "الاسـتفزازات الصليبيـة". وكانـوا يُطالِبـون بإطـلاق سراح جيرانهـم وأقاربهـم الذيـن قُبِـضَ عليهـم بواسـطة "الجيـش الصليبـي". وقـد انطلـق المُتظاهـرون مـن مسـجد

الخالديـة يُلوِّحـون بأعـلام العـراق. حمـل بعضهـم لافتـاتٍ تُديـن المجلـس البلـدي المحـليَّ بِوَصـفِ أعضائـه عُمـلاءً، كـذا طالبـوا بعَـزلِ المجلـس. وتوقَّـف المتظاهـرون عنـد مُفـتَرَقِ طُـرُقٍ يُـؤدِّي إلى قاعـدة الحبَّانيَّـة الجويـة. ويقـرأ خفاجـي أن المُتظاهريـن بَعثـوا وفـدًا مـن خمسـة رجـال إلى هنـاك، وقـدَّم الوَفـدُ عَريضـةَ مطالِـبَ شَـمِلَت إطـلاقَ سراح المواطنـين المُحتَجَزيـن دون اتهامـات، ووَقْـفِ الاسـتفزازات الأمريكيـة. ثـم يقـرأ مـادَّةً صغـيرة عـن إسـقاط طائـرة نَقـلٍ عَسـكريَّةٍ أمريكيـة في مطـار بغـداد.

يظـلُّ خفاجـي في اليـوم التـالي يحتـسي الشـاي ويقـرأ. يقـرأ أن مسـؤولي وزارة الدفـاع الاسـتعمارية قـد أقـرُّوا يـوم الأربعـاء بخيبـة أمـلٍ كبـيرة في خُطَطِهـم لإعـداد جَيـشٍ صُـوريٍّ للعـراق. ويقـرأ أن مسـؤولي البنتاجـون اعترفـوا بـأن ثُلُـثَ المُتَدرِّبـين العراقيـين قـد هَجَـروا الجيـشَ الصُّـوريَّ: "نـدرك أن ثُلُثًـا عـلى مـا يبـدو قـد اسـتقال، ونحـن نبحـث بالأمـر لنتأكَّـد مـن قدرتنـا عـلى اجتـذاب وإعـادة تدريـب أشـخاصٍ أكفـاءَ للجيـش العراقـيِّ الجديـد"، وفقًـا للمُقـدِّم جيمـس كاسـيلا، وهـو مُتحـدِّثٌ باسـم البنتاجـون. ويقـرأ في التقريـر نفسـه أن هـذه الكتيبـة كانـت محـلَّ تَقديـرٍ كبـير حـين أنهـى الجنـودُ المُعـادُ تدريبهـم حديثًـا دورةَ تَدريـبٍ أسـاسيٍّ مُدَّتُهـا تسـعة أسـابيع في مَطلَـعِ أكتوبـر، ومـرَّت باسـتعراضٍ عَسـكريٍّ عـلى إيقـاع فرقـة الجيـش الأمريـكي أمـام الطاغيـة الأمريـكي حاكـم العـراق المُحتـلِّ بـول بريمـر. يقـرأ أن المسـؤولين عملـوا لأسـابيع لتسريـع تدريـب الجنـود والشرطيـين الصوريِّـين العراقيـين في مُواجَهَـةِ تَسـارُعِ وتـيرة هجمات المقاومـة. ويقـرأ أن شركـة فينيـل الخاصـة مُتعهِّـدة خدمـات الدفـاع الأمريكيـة قـد نَفَّـذَت أغلـب التدريبـات، مُسـتَخدِمَةً "مدربـين مدنيـين"، وأغلبهـم ينتمـون سـابقًا إلى الجيـش الأمريـكي. يقـرأ عـن شركـة تيتـان، وأخـرى تُسـمَّى سي إيـه سي آي، وعلاقاتهـما بالنظـام الصُّـوريِّ الفاسـد.

يقـرأ في عـدد صحيفـة أردنيـة صَـدَرَ منـذ أيـام قليلـة كيـف أن الجيـش الأمريـكي قـد أوصـل سـبعَ جُثَـثٍ مجهولـة الهُويَّـة إلى شرطـة الفلوجـة

الصُّوريَّـة. ويقـرأ أن مُتحدِّثًـا باسـم الجيـش الأمريـكي في بغـداد قـد وعـد بالتحقيـق في الأمـر. يقـرأ اقتباسًـا عـن أحمـد علـوان، وهـو ضابِـطُ شُرطَـةٍ في الفلوجـة، يقـول فيـه: "تواصَلَـت معنـا القُـوَّاتُ الأمريكيَّـةً وقالـت لنـا أن نأخـذ سـبعَ جُثَـثٍ تُرِكَـت خـارج قاعدتهـم في الفلوجـة". ويقـرأ أن الجُثَـثَ كانـت ملفوفـةً بأكيـاس المـوتى البلاسـتيكيَّة التـي تسـتخدمها عـادَةً القـوات الأمريكيـة. ثـم يقـرأ أنـه لم يُقـدَّم أيُّ توضيـحٍ بشـأن مُلابَسـات وفـاةِ هـؤلاء الأشـخاص، ولا أي معلومـاتٍ عـن هُويَّاتهـم. ويقـرأ عـن علـي خميـس سرحـان، وهـو طبيـب بمستشـفى الفلوجـة حيـث أُخِـذَت الجُثَـثُ، والـذي أوضـح أن العديـد مـن سُـكَّان المدينـة، وبينهـم أقـارب لأشـخاص مفقوديـن، قـد مُنعـوا مـن التَّعـرُّف عـلى الجُثَـث.

يـترك خفاجـي الصحيفـة ويتوقَّـف عـن القـراءة. يمـشي إلى الخـارج ويتمنَّـى لـو أن معـه سـيجارة.

هـذه هـي مسـتويات الأداء التـي بلغهـا خفاجـي وزمـلاؤه يـوم الثلاثـاء، ثـم كرَّروهـا مُجـدَّدًا يـوم الأربعـاء. فقضـوا اليـوم معًـا في غرفـة الاجتماعـات، لكنهـم قليـلًا مـا تحدَّثـوا فيـما بينهـم. إنهـم ودودون فيـما بينهـم ويأكلـون معًـا، ومَـن معهـم سـجائِرُ يُشـارِكونها مـع الآخريـن، لكنهـم ليسـوا في القـارب نفسـه.

حـين يتحدَثـون يكـون الأمـر مُتعلِّقًـا بالمـواد الإخباريـة فقـط. وحـين ينتهـي أحدهـم مـن صحيفـةٍ ويَطويهـا، يأخذهـا الرَّجُـلُ التـالي ويقرؤهـا. وحـين يتناقشـون ويتجادلـون، يصبـح الأمـر كأنهـم يتناقشـون بشـأن قصصٍ خياليـة مـن كوكـبٍ بَعيـدٍ. لا أحـد يتحـدَّث عـن نفسـه، ولا عـن عائلتـه أو ماضيـه. ولا يتسـاءل خفاجـي عـن السـبب.

ينكسـر الروتـين مَـرَّةً وحيـدة حـين يدخـل ضابِـطٌ أمريـكيٌّ إلى الغرفـة يـوم الثلاثـاء ويبحـث عـن خفاجـي ويُسـلِّمُه رسـالة: "هنـاك اكتشـافٌ جديـد في القضيـة. يجـب أن نتحـدَّث بشـأن زبيـدة رشـيد. اتَّصِـلْ بي في

أسرع وقت. بارودي". يستغرق خفاجي بعض الوقت ليجد هاتفًا، ووقتًا أطول ليتَّصِلَ بالرقم، ثم ليتمَّ تحويل مكالمته، إن شاء الله، إلى الرقم الداخلي الصحيح. يَرِنُّ الهاتف، ويَرِنُّ، ولا أحد يجيب. ينتظر خفاجي قُربَ الهاتف، ويتساءل عمَّا يجب أن يفعله. فيُخرِجُ رقم هاتف كارل عبد الغفار ويتصل به. يردُّ شابٌ بنَبرَةٍ قَلِقَة.

حين يسأل خفاجي عن كارل، يهتف الشاب: "منو ويَّاي؟".

"آني صديقه محسن".

"تَوًّا راجع من مشوار. كلش تعبان".

"ما قال لك...؟".

"منو دا يحتشي؟".

"آني محسن. دزيِّته لـ..".

"هو قال نبلغك إنهم زينين".

"ممتاز. مشكور. بلكي تشكر لي إياه. آني مسافر هسَّه، بس أرجع راح أخابْرَه".

يحاول خفاجي أن يتصل ببارودي مُجدَّدًا. في مرَّةٍ يَتمُّ تحويله إلى مكتبٍ آخر في المنطقة الأمريكية. وفي المرَّات الأخرى يرن الهاتف دون إجابةٍ. يطلب رقم كارل مجدَّدًا، لكنه يغلق الخط قبل أن يرن. ثم يتصل بمستشفى ابن سينا. تَعِدُه الممرضة في مكتب استقبال الطابق الرابع بتحويل المكالمة، ويبدأ بفقدان الأمل. حين يسمع مروج على الخط، يعتذر: "شكلي وعيتتش مروج. آني آسف".

"ماكو مشكلة بابا. شلونك؟".

"ظل بالي عليتش. شلونتش؟".

"دا أنام هواية".

"شنو دا يقولون الأطباء؟".

"يقولون لازم أنام هواية، أعتقد جاية أسوي هيتش مضبوط".

"دا تحسين بتحسن؟".

"غيَّروا العلاج صار إلهم يومين. والألم جاي يقلّ من يوميها".

"زين".

"لازم نحتشي عن الكُليَتِين مالاتي دايمًا بابا؟".

"شتريدين نحتشي عنه؟".

"شنو رأيك بالفايلات اللي انطيتني إيَّاهُن؟".

"ما انطيتتش..."، ويسكت لِلَحظَةٍ، "ما تشنت أقصد أعوفها هناك".

لا تَقولُ مُروج أيَّ شيء.

"قريتيها؟".

"شنو عندي أسوي غير؟ انطيتني مجموعة فايلات عن بيوت دعارة. أكيد راح أقراهن".

لا يُعلِّق خفاجي.

"بابا إنت وياي؟".

"إي".

"ما تريد رأيي؟".

"مو متأكّد مروج". ويستمع خفاجي إلى خَشخَشَةٍ على الخط قبل أن يستسلم: "ماشي قولي لي رأيتش مروج".

"الشغلة مالها علاقة بالجنس بابا".

لا يَستَطيعُ خفاجي أن يمنع نفسه من الصِّياح عبر الهاتف: "شدا تقولين؟!".

"إهدأ وقول لي منو هاي المَرَة".

"يا مَرَة؟".

"زبيدة رشيد. ليش ما قلت لي عليها قبل؟".

يَنتابُ خفاجي شُعورٌ بحرَقان في خَدَّيْه. ولا يقول شيئًا.

"حلوة؟".

"ما إله علاقة بالموضوع"، يقولها قبل أن يَستَوعِبَ خَطَأَه.

"لعد هي حلوة بابا؟".

لا يُجيبُ خَفاجي السُّؤالَ. "خلي نحتشي عن فد شي لاخ قبل ما أسد الخط مروج".

"زين لعد هاك هذا البيت بابا: نُعِدُّ المَشرَفِيَّةَ والعَوالي، وتَقتُلُنا المَنونُ بِلا قِتالِ/ونَرتَبِطُ السَّوابِقَ مُقرَباتٍ، وما يُنْجِينَ...".

يُفكِّر خفاجي لِلَحظَةٍ، لكنَّه لا يقول شيئًا.

"حَيرتك؟ يا الله، هاي أول مرة!".

"لا ما حيرتيني مروج، آني تعبان بس. فوتي نامي، راح أخابرتش مرة اللوخ بأقرب وقت".

يُقرِّر كُلُّ مَن في المجموعة أن يذهبوا إلى أسِرَّتهم مُبكِّرًا يومَيْ الثلاثاء والأربعاء، كذا يُقرِّرون الاستيقاظَ مُتأخِّرين. ينام خفاجي بعُمقٍ شَديدٍ لدرجة أنه لا يحلم. يُغلِقُ عينيه ثم لا يَحدُثُ شيء. وحين ينتهي كلُّ يَومٍ فإنه ينتهي بالفعل، ولا يُؤثِّر على اليوم التالي. يطوي كلَّ يَومٍ ويَضَعُه جانبًا إلى الأبد، كأنه صحيفة. ولأوَّلِ مَرَّةٍ منذ أسابيع يبدأ

خفاجي أن يستريح. تصبح أنفاسُه بَطيئَةً ومُنتَظِمَة وعميقة. في الصباح الثالث ينظر إلى المرآة ويُقرِّر ألَّا يَحلق شفته العليا.

يستيقظ يوم الخميس مُتَوقِّعًا يومًا آخر من قراءة الصحف. وحين يرى الأكرادَ خارج غرفة الاجتماعات؛ يدرك أن البرنامج قد تَغيَّر مُجدَّدًا. يدخل ويرى أن أولدز وضُبَّاط الاتصال الآخرين قد عادوا. ويبدأ الاجتماع كأنه لم ينقطع مطلقًا. يرى المفاجأة نفسها على وجوه الآخرين وهم يدخلون مُتأخِّرين. ويطلب البَصْرِيُّ خلال استراحة القهوة تزويدَ مجموعة العمل بالصحف يوميًّا. فيطلب كبير ضُبَّاطِ الاتصال قائِمَةً بأسمائها، ويسلمها لأحد المساعدين. وبحلول استراحة بعد الظهيرة كانت كومة من الجرائد تنتظر كل عراقي.

تَختَلِفُ العُروضُ التَّقديميَّةُ اليوم، فقد أصبح هناك موضوعٌ حَقيقيٌّ ومَهمَّة ملموسة؛ إذ قيل لهم إنهم سيحضرون فعاليَةَ تَخرُّج طالِبَيْن عَسكريَّيْن جَديدَيْن في وسط مدينة كركوك. ولأوَّل مَرَّةٍ يوجد ضابِطًا شُرطَةٍ من كركوك في الغرفة. يبدآن محاضرةً عن سيادة القانون، ويُلقيان نظراتٍ سَريعةً على ضابط الاتصال البريطاني الجالس بجوارهما وهما يتكلَّمان. ومع أنهما يَبدُوان كطالِبَيْن جامِعيَّيْن فإنهما بشكلٍ ما يحملان رُتبَةَ مُراقِب الشرطة. وحين ينتهيان يُصافِحُهما الضابط البريطاني ويُهنِّئهُما. ثم يبدأ الحديث عن قطع رأس المُتمرِّدين وكيف أن الوسائل القانونية لممارسة السلطة دائمًا ما تنتصر. ويختتم بقوله: "من الجوانب الأكثر إزعاجًا في مكافحة المُتمرِّدين المُفارقات المُتضمَّنة في شَنِّ حرب سياسية وعسكرية بالتوازي". ويخبر ذلك الضابِطُ نَفسَه خفاجي على الغداء عن مُغامَراته في رحلاته الطويلة بأنحاء أفغانستان خلال العام الماضي. "إنها مكانٌ رائِعٌ. وشَعبٌ كريم. أَزُرتَها من قبل؟" من خلال ابتسامته، يُدرِكُ خفاجي أن ثِقَةَ الرَّجُلِ بنفسه مُستَخلَصَةٌ ببَراعَةٍ من شعوره بالخوف.

يسأل أولدز خفاجي بعد بعض الوقت إن كان قد واتته الفُرصَة ليتَّصِل ببارودي. فيقول خفاجي: "لقد حاوَلتُ أن أتَّصِلَ، لكن...".

ولا يقول أولدز شيئًا. يخرج المُدخِّنون لتدخين سيجارة، ويلاحظ خفاجي الصفحة الأولى من جريدة على الطاولة. ما يلفت انتباهَه هو صورة للمَنفيِّ الموصليِّ بجوار عبد العزيز الحكيم[1]. يأخذ الصحيفة ويقرأ وصفَ الصُّورة: "مجلس الحُكم العراقي يُؤسِّس مَحكَمَةً لجرائِم الحرب". يتقدَّم الآخرون بينما يذهب هو في الاتِّجاه المقابل والصحيفة في يده. يبدأ القراءة: "يَشهَدُ اليوم مَحطَّةً تاريخيَّةً هامَّةً في تاريخ العراق". ويشير المَقالُ إلى أن المحكمة ستبدأ بالتركيز على جرائم القتل ضِدَّ قبيلة برزان عام 1983. ثم ستُركِّز على المحاكمات المرتبطة بجرائم حَلَبْجَة. ثم على المجازر الجنوبية بعد حرب الكويت.

يطوي خفاجي الورقةَ وينظر حوله. يرى الآخرين مُتَجمِّعين في مواجهة الرياح الباردة عند الطرف المقابل من المبنى. بزَّاتُهم النظيفة تَسطَعُ أمام الخرسانة البيضاء الباهتة، فيُتابع القراءة. ستتمتَّع المحكمة بسُلطَةِ التحقيق في الجرائم ضدَّ الإنسانيَّة وجرائم الحرب وتُهَم الإبادة الجماعية المُرتَكَبَة في البلاد بين 14 يوليو 1968 و1 مايو 2003. لقد أُلقِيَ القَبضُ بالفعل على 38 من قادَةِ النظام القديم المطلوبين للعدالة، وعددهم 55، وسيواجهون هذه المَحكَمَة قريبًا. بالإضافة إلى هذه الأعداد، أقرَّت سُلطَةُ الائتلاف المُؤقَّتة بإلقاء القبض على أكثر من 5500 شخص، وإن لم يكونوا جميعًا مُعتَقَلين على خلفيَّة جرائم حرب. يتصفَّح خفاجي المقالَ التالي: "اكتشف المُحقِّقون منذ مايو أكثر من 200 مقبرةٍ جَماعيَّة في أنحاء البلاد. وذكر مسؤولون أكرادٌ في كركوك اكتشافَ مقبرَةٍ تَضمُّ 2000 جُثَّة. وجرى الكَشفُ في

---

(1) سياسي شيعيٌّ كان مُعارِضًا لنظام صدام حسين وعاد إلى العراق بعد سقوط نظام البعث وكان عضوًا بمجلس الحكم الانتقالي.

قريـة محمـد سـكران عـن أكـثر مـن ألـف جُثَّـة. ويتوقَّـع المُحقِّقـون في المحاويـل أن تزيـد اكتشـافاتهم حـين ينتهـون عـن 15000 جثَّـة".

يَشـعُرُ خفاجـي ببَـدءِ الـدَّوران في رأسـه ويعـود إلى غرفتـه. يَسـتَلقي ويُحَملِـقُ إلى السـقف، لكـن لا شيء يحـدث. لقـد هَجَـرَه النَّـومُ وهَجَـرَه الشِّـعرُ وهَجَرَتـه الذِّكريـاتُ.

تهبـط الشـمس وتُظلِـمُ الغُرفَـة. وترسـل اللَّمبـات الفسـفوريَّة في الخـارج خطوطًـا وظـلالًا طويلـةً عـبر النافـذة؛ فيُغطِّـي نفسـه ببطانيَّـة، لكنهـا لا تكفـي.

يعـود أولـدز إلى الغرفـة بعـد العشـاء ببعـض الوقـت ومعـه البَـصريُّ. يهـزُّ أولـدز كتـفَ خفاجـي، ثـم يعتـذر بالإنجليزيـة بينـما يَدعَـكُ خفاجـي عينيـه. أمَّـا الرجـل الآخـر فإنـه يدعـو خفاجـي للمجـيء معهـم بلَكنَتِـه الجنوبيـة الدافئـة. ثـم يضيئـون الأنـوار ويُصِرُّون: خفاجـي يجـب أن يـأتي؛ فيَنهَـضُ مـن السريـر عـلى مَضَـضٍ وهـو يرتجـف. يرتـدي قميصًـا داخليًّـا إضافيًّـا وجوربًـا إضافيًّـا وهـو يُغيِّرُ ملابسـه. ويجـدون في موقـف السـيارات عربـة سـوبربان لا تـزال تنتظرهـم. غـادَرَ الـكُلُّ في العربـة الأخـرى باسـتثنائهم. وفي خـلال دقائِـقَ كانـوا يُسرِعـون بالعربـة عـلى امتـدادٍ خـاوٍ مـن الطريـق السريـع. يفتـح خفاجـي النافـذة وتُوقِظُـه الرِّيـاحُ. يَشـعُرُ كأنَّ الصحـراء الجافَّـةَ تَمتَـصُّ الهـواء مـن رِئَتَيـه. يتطلَّـع عـبر النافـذة ولا يـرى شـيئًا لمسـافة كيلومـترات. تظهـر حظـيرة مليئـة بالأحصنـة فجـأة تحتَ الأضـواء الكاشـفة وهـم يُسرِعـون بجوارهـا. إنهـا أحصِنَـةٌ بَرِّيَّـةٌ ضَخمَـة، مـن ذلـك النـوع الـذي ينتمـي إلى القصائـد. ويتطلَّـع خفاجـي مُجـدَّدًا فـلا يجدهـا.

حـين يَصِلـون إلى المدينـة يخبرهـم السـائق أنهـم مُتَّجِهـون إلى حـيِّ الألمـاس. لا يبـدو الحَـيُّ مألوفًـا لـخفاجي مُطلَقًـا. وحتـى حـين يظـنُّ أنـه يـرى شـيئًا مألوفًـا فإنـه يعلـم أن ذلـك عقلـه يُمـارِسُ ألاعيبـه فقـط.

يتوقَّفـون عنـد بنايـة مـن ثلاثـة طوابـق حيـث تقـف مجموعـةٌ مـن البشـمرجة عنـد البـاب، وسـيارة الدَّفـع الرُّباعـي الأخـرى موجـودة هنـاك ومصفوفـة في البُقعَـة المقابلـة. يُـؤدِّي المُسَـلَّحون التَّحيَّـة دون أن ينطقـوا كلمـة. ويلاحـظ خفاجـي أنهـم يَحمِلـون الأسـلحة نَفسَـها التـي يحملهـا الرِّجـالُ عنـد بنايتـه.

يفتـح فتًـى صَغـيرٌ البـابَ الأمامـيَّ، فينسـكب ضـوءٌ ودُخـانٌ وضَوضـاءُ إلى الشـارع الصَّامِـت المُظلِـم. وبمجـرَّد أن تعتـاد عينـا خفاجـي الإضـاءَةَ، يـرى رِجـالًا مُتجمِّعـين مثـل عُقَـدٍ سَـميكَة حـول موائِـدَ. تبـدو السـتائر الحمـراء والثُّريَّـات الزُّجاجيَّـةُ المُزَخرَفـة مُتوهِّجَـةً في البدايـة، ثـم يهـدأ وَهَجُهـا. وتنهـال عـلى الغرفـة عـبر مُكبِّرات الصـوت أصـواتُ النَّقـرات عـلى أوتـار العـود. يوجـد نـدل كبـار سـنًا وتشـبه ملابسـهم الهاربـين مـن انهيـار البـلاط العثـماني. يتجوَّلـون حـول الموائـد ويوصلـون زجاجـاتٍ مـن مـشروبٍ رائِـقٍ ويسـتبدلون المنفَضـات الفارِغَـة بأخـرى مُمتَلِئـة. يُحدِثـون أصـواتَ صَلصَلَـةٍ مُتقَنَـةٍ وهـم يعملـون ليظهـروا مـدى انتباههـم. يمسـح خفاجـي الغُرفَـةَ آمِـلًا أن يلمـح أحـدًا مـن المجموعـة، لكنـه لا يـرى أحـدًا. تتحـرَّك امـرأةٌ أكـبرُ سِـنًّا في أنحـاء المـكان وهـي ترتـدي مـا يكفـي مـن الأقمشـة المُطـرَّزة لتنجيـد الغرفـة بأكملهـا. تُحيِّيهـم واحـدًا تلـو الآخـر: "يـا هـلا يـا هـلا بالضيـوف. رجـاءً، رجعـوا هنـاك، حفلتكـم ورا".

يتقـدَّم خفاجـي عـبر الغرفـة ويـرى رجـالًا يلعبـون الأوراق بتركيـز شـديدٍ لدرجـة أنهـم لا يرفعـون عيونَهـم أبـدًا، ولا يلاحظـون مـا يجـري عـلى المائـدة المجـاورة، فـما بالُـكَ بمـرور أحـدٍ بينهـم. وفي نهايـة أحـد المَمـرَّات، والـذي تضيئـه مصابيـح حمـراء مُغطَّـاةٌ بالسَّـتان، تُبعـد يـدٌ سـتارًا مـن الدخـان، ويندفـع ضَحِـكٌ صاخـب مـن وراء بـاب آخـر. يقـف الأكـراد مـن المجموعـة للترحيـب بالواصلين، ويأخـذون كلًّا منهـم باليَـدِ إلى الكـراسي الشـاغرة عنـد الطـاولات. "الليلـة"، يقولهـا أحـدُ ضابِطَـيْ كركـوك، "أنتـم ضيوفنـا. أرحـب بيكـم".

هنـاك نـادلان مُخصَّصـان لهـذه الحفلـة. أحدهـما يدنـو سريعًا: "شـتريد تشرب سـيدي؟".

يتطلَّـع خفاجـي حولـه ولا يـرى إلَّا زجاجـات عـرق وڤـودكا عـلى الطاولـة: "ويـن الويسـكي؟".

"ماكـو ويسـكي، مـع الأسـف. أجيـب لـك بُطُـل[1] مـن الـلي دا يشربـوه الجماعـة؟".

كحـال كُلِّ مَـن يطلبـون الڤـودكا، يفهـم خفاجـي أن في ذلـك بعـضُ الخَطَـر. يقـرأ المُلصَـق عـلى الزجاجـة ببـطء حرفًـا تلـو الآخـر، رافِعًـا صوتـه باسـمها الـرُّوسيِّ. لكـنَّ أحـدًا يجـذب الزجاجـة مـن يديـه ويَصُـبُّ كأسًـا قبـل أن يتمكَّـن مـن قراءتـه كامـلًا. ويرفـع الـكل سريعًـا نخوبًـا وتُلقَـى خُطَـبٌ قصيرة يبتلعـون بعـد كُلٍّ منهـا كؤوسًـا صغيرة مـن النـار السَّـائِلَة. وبعـد بعـض الوقـت يقـف صـلاح ويتنحنـح ويقـول ببسـاطَةٍ عـلى سـبيل التقديـم: "هـردي". ثـم يـشرع بإلقـاء قصيـدة طويلـة. الأصـوات الكرديـة تبـدو أجنبيَّـةً، لكنَّهـا ليسـت أجنبيـة. ومُعظَـمُ الكلـمات تبـدو أجنبيـة، لكنها ليسـت أجنبيَّـة؛ فالشِّـعرُ في حَـدِّ ذاتـه بلـد، حسـبما يعتقـد خفاجـي. وحـين ينتهـي صـلاح، يُصفِّـق الجميـعُ ويطالـب أحـدٌ بالتَّرجَمَـة. يـتردَّد صـلاح، ثـم يحـاول أن يُتَرجِـم:

نحن المُدافِعون عن الفَلَّاحين المُتواضِعين

نحن عَلَمُ الوحدَةِ يَخفُقُ عاليًا

نحن سُيوفٌ في أيدي المَظلومين

لقد ثُرنا ضِدَّ الطُّغيان.



(1) زجاجة بالعامية العراقية.

يُطالِـبُ البَـصْريُّ ببقيَّـةِ التَّرجمـة، لكـنَّ صـلاح يُـصِرُّ عـلى أنهـا طويلـة جـدًّا ومَحليَّـة جـدًّا، ويبتسـم الأكـرادُ. اقـترح أحـدٌ نَخبًـا آخـرَ، نخـب جهـاز الشرطـة الوطنيـة. يصيـح أحـد الأكـراد: "وهـردي! عَلَـمُ الوحـدَةِ يَخفُـقُ عاليًـا!" تنطلـق الألسـنة التـي بالغرفـة أخـيرًا في رحلاتهـا بعدمـا فَـكَّ الكحـولُ قيودَهـا. يَـشرَعُ أحدُهُـم بالغنـاء، ويتوقَّـف كثـيرون عـن الحديـث وينضمُّـون إلى الجَوقَـة. بـدأت العيـون تسـترخي وتتحـوَّل إلى درجـات اللَّـونِ الـوَرديِّ بعدمـا كانـت رائِقَـةً وواعيـة لأيَّـامٍ. الغرفـة دافئـة وخفاجـي ينظـر حولـه إلى زملائـه. هـؤلاء مُعمِّـرو العِـراق الحُـرِّ. وبشـكلٍ مـا تَتحـوَّل العبـارة في بالِـه إلى سـؤال.

يبـدأ الرجـال عـلى كلتـا الطاولتـين سريعًـا في لعـب الأوراق. وينفتـح البـابُ قليـلًا بـين الحـين والآخـر وتُلقـي السـيدة العجـوز نظـرةً إلى الداخل. أحيانًـا تـأتي وتُمَسِّـدُ كتـف أحـد الأكـراد الصاخبـين عـلى الطاولـة الأخـرى. أحيانًـا لا تقـول شـيئًا لكنهـا تـترك البـاب مواربًـا وتنـصَرِف. وعـلى طاولـة خفاجـي يشرعـون بلعـب ويسـت[1]. ثـم يقـترح أحـدٌ لَعِـبَ البوكـر ويُخـرِجُ رُزمَـةَ نُقـودٍ مـن فئـة مائـة دولار. اللعبـة وِدِّيَّـة بمـا يكفـي، وخفاجـي ثَمِـلٌ كفايـة ليُصعِّـدَ الرِّهـان مـع الآخريـن. ويضـع أحدُهُـم كرتونَـةَ مارلبـورو عـلى الطاولـة بجـوار الزجاجـة، والـكل يُدخِّـن منـذ جلسـوا. يشـعل خفاجـي سـيجارة، ويلاحـظ شـابَّتَيْن تنظـران إلى الداخـل مـن عنـد البـاب. ثـم يُقفَـلُ البـاب. ويقـترح أحـد الأكـراد بعـد بعـض الوقـت واسـمه "شـيركو" لعبـةً تَعلَّمهـا في الولايـات المتحـدة. يصيـح: "تكسـاس هولـدم"، وهـو يَـشرَعُ بالتوزيـع وشَرْحِ قواعِدِهـا. ويُـردِّد الجميـع الاسـمَ بتنويعـاتٍ بسـيطة حتـى يصبـح أخـيرًا "تقـص خلـدون". ويرفعـون نخبًـا لخلـدون وطهـوره ويضحكـون بهسـتيريا. يلعـب خفاجـي بضـع أدوار ويخـسر الكثـير مـن المـال، ثـم يسـأل نـادلًا عـن المراحيـض.

---

(1) Whist: لعبة أوراق.

حين يقف تبدأ الغرفة في الدوران. ثم تُمسِكُ الأَرضُ نفسها وتتوقَّف عن الحركة. ويحاول أن يمشي على رِجلَيْن مُذَبذَبَتيْن. يريد مكانًا يغسل فيه وجهه بالماء البارد حتى يتمكَّن من الرؤية بوضوح مُجدَّدًا. يريد أن يتنفَّس هواءً مُنعشًا، هواء الصحراء البارد. فيستند على الجدران وهو يرجع بالمَمرِّ إلى حيث دخلوا. أصبحت الغرفة الأمامية الآن خاويةً في أغلبها. يبدو الديكور سخيفًا من دون حشود الرجال. تَصدُرُ موسيقى فولك وَتَريَّة من مكان ما، ومع أنه لا يفهم الكلمات فإنه يعرف أن شاعرًا في مكانٍ ما قد فقد محبوبته. يبحث حوله عن علامات تشير إلى المرحاض. ثم يسمع ضحكةً ويلتفت ليجد درجات سُلَّم. هناك حفلةٌ أخرى بالأعلى ولعبةُ أوراق أخرى. فيستند على الدرابزين ويبدأ التَّسَلُّقَ. ويجد المرحاض أخيرًا عند قِمَّة السُّلَّم، فيدخله ويقفل الباب ويفتح الصنبور.

يتخيَّل مع كُلِّ رَشَّةِ مياه على وجهه أنه يستيقظ من طبقة أخرى من الحلم. يبدأ خدَّاه بفقدان سخونتهما، ويبدأ رأسه بالصَّفاء. ينظر إلى وجهه بالمرآة ثم يدخل المرحاض. يسمع طَرْقًا على الباب بعد شَدِّه للسيفون مباشرَةً. ويُتَمتِمُ: "لحظة"، ويغسل وجهه مرة أخرى.

يفتح الباب ويجد نفسه مُحَدِّقًا إلى وجه مُميَّزٍ لفتاة. فتاة لم يلتَقِها أبدًا. يُحَملِقُ إليها ويظلُّ يُحَملِقُ، كان مذهولًا لدرجة أنها دفعته قبل أن يستَوعِبَ ما حدث.

حين يُلَملِمُ نَفسَه أخيرًا يهتف: "زهرة؟ زهرة بستاني؟ لازم أحكي وياتش".

يَبدَأُ الطَّرقُ، ويُنادي اسمها مُجدَّدًا: "زهرة؟ من فضلتش طلعي. لازم أحكي وياتش".

لا يَسمع ردًّا. فيطرُقُ مُجدَّدًا وهو مُتَرَدِّدٌ، ويتوسَّل بصوتٍ لطيف. ثم يتخلَّى عن التردُّد، ويتخلَّى صوته عن اللُّطفِ. وبعد قليلٍ يضرب

بقبضتَيْه على الباب ويصيح. ثم يتَّكئُ على الباب مُحاوِلًا فتحه بالقوَّة. ويستمر هذا إلى أن يشعر بيدين سميكتين تَلويان ذراعَيْه وراء ظهره. يقاومهما لكن الألم مُكثَّفٌ جدًّا. فيرتخي ويسقط على وجهه على السجادة. وحين يرفع عينيه يرى قدمَ العجوز ذات الخُفِّ، والحذاء ذي الرقبة الخاص بالحارس الشاب. تُحاوِلُ المرأةُ أن تُهدِّئَه: "راح تصير زين".

"أريد أحكي وياتش زهرة".

"حبيبي ما تقدر تحتشي ويَّاها".

"لازم أحكي ويا ذيتش البنية".

"زهرة مو هنا حتى تحتشي وياها. الحفلة مالتك جوا حبيبي".

لا تزال يدا الحارس مُتشبِّثَتَيْن بذراع خفاجي. وحين يوافق خفاجي تُفلِتُه اليدان. يعود إلى الآخرين وينزلق في كُرسيِّه. لقد استمرَّت اللعبة من دونه وكأنه لم يُغادر أبدًا.

يسحب أحدُهم أوراقًا جديدة ويُوزِّع. ويأخذ خفاجي أوراقَه وينظر إليها قبل أن يستوعب أنها توزيعةٌ سَيِّئَة. عشرة السباتي: لطيف نصيف جاسم. أربعة القلب: همام عبد الخالق عبد الغفور. ينظر خفاجي إلى الأوراق الخمسة المكشوفة على الطاولة، آمِلًا أن يتوصَّل إلى شيء. يأخذ الرجل الذي على يساره واحِدَة من البطاقات ويشرَعُ بالضحك بصوتٍ عالٍ. فينكز الشخصَ الذي بجواره ويُسَلِّمه البطاقة. وسريعًا تَفهَمُ المائدةُ كُلُّها المَزحَة. وحين يرون خفاجي البطاقة أخيرًا، كان بالفعل يعرفها: إنها ثلاثة الكومي.

يضحَكُ خفاجي كالآخرين، لكن بداخله كان بالفعل قد تناسى تلك التَّوزيعَة. تأخذه أفكارُه إلى الطابق العلوي. نحو غرفةٍ مُغلَقَةٍ حيث تجلس زهرة بستاني مع مجموعة أخرى من الرجال. أكانت هي؟

هل يهمُّ الأمر؟ وحتى لو كانت هي، ما الذي كانت ستقوله لكَ أنتَ، لا تعرفه بالفعل؟ ماذا تعرف أنت؟ وفجأةً يُدرِكُ أنَّه لا يُفكِّر بشأن زهرة، بل زبيدة.

يَفرُكُ خفاجي عينيه ويُقرِّر العودة إلى اللعبة. فيربح دورًا ويخسر دورين. لا أحدَ على طاولته يُعامِلُ اللُّعبَة بِجِدِّيَّة. بل يحدث اللعب الجادُّ على الطاولة الأخرى. وتُقرِّر مجموعة خفاجي أن يُوقِفوا اللعبة ويلتفتوا إلى المائدة الأخرى. يُغيِّر واحِدٌ من الكركوكيِّين اللعبة إلى "سيفين كارد درو"[1]. وتصبح المنافسة خلال دَورَيْن غير متوازنة؛ فقد حَظِيَ البَصْرِيُّ قبلَها بسلسلة انتصارات، والآن يبدأ بخسارة الدَّور تلو الآخر ويُعاد توزيع كَومَةِ النقود التي أمامه. المُوزِّعُ مُتجَهِّمٌ ولا يبتسم مطلقًا حتى حين يفوز بدَورَيْن مُتتالِيَيْن. ويجعل وجهه كلَّ ذلك يبدو كأنه مشروعٌ تجاريٌّ. بعد ثلاثين دقيقة من الخسارة، يرمي البصري بطاقاتِه على الطاولة ويصيح: "حسنًا! لقد اكتفينا من لعبتك. الآن دور لعبة أخرى. إليكم لعبة أمريكية".

"ما اسمها؟".

"فيفتي تو كارد بيك أب[2]. لعبة سهلة، إذا لعبتها مرَّة ما راح تنساها".

يُقرِّر الآخرون أن يُسايِروا البصري.

يُتَمتِمُ الكَركوكيُّ وهو يُمرِّر الأوراق على الطاولة: "يلا وزِّع!".

يميل البَصريُّ إلى الأمام ويَخلِطُ الأوراق. ثم يسأل: "جاهزين؟".

تقول الطاولة كلها: "إي!".

---

(1) لعبة Seven Card Draw.

(2) لعبة 52-Card Pick-up ويُترَجَمُ اسمُها حرفيًا إلى: "التقاط 52 بطاقة".

علـى وجهـه ابتسـامَة واسِـعَة بَلهـاءُ وهـو يلتفـت إلى الكركـوكي: "جاهـز؟".

"وزِّع وبس".

عنـد ذلـك يَخلِـطُ البَـصْرِيُّ الأوراقَ مُجـدَّدًا ثـم يرميهـا في الهـواء أعـلى الطاولـة عـلى وجـه الرجـل الآخـر وحِجـرِه.

يسود الصمت.

يشـير البـصري ويصيـح: "خـوش، حلـوة!"، ثـمَّ يَتحـوَّل إلى الإنجليزيـة ويهتـف: "هـذه 52 بطاقـة، والآن التَقِطْهـا!".

يندفـعُ الكَركـوكيُّ فـوقَ الطاولـة. ويضطـرُّ الآخـرون إلى التَّدخُّـل لتفريقهـما. وحتـى مـع ذلـك تُرسَـل اللَّكـماتُ وتُكـدَمُ الوجـوهُ. ومـع رجـوع الأعصاب إلى هُدوئِها كانـت الحفلـة قـد انتهـت. تُرافِقُ العجـوزُ الحفلـةَ إلى الخـارج. وحـين يحـاول خفاجـي الحديـثَ إليهـا يظهـر الحـارس ويأخـذه مـن ذراعـه.

يلصـق خفاجـي وجهَـهُ بنافـذة العربـة عـلى طريـق الرجـوع إلى القاعـدة. ويسـود في الخـارج ظَـلامٌ دامِـسٌ. يبحـث عـن أحصِنَـة، لكنـه لا يـرى إلَّا بَصيـصَ ضَـوءٍ في الأفـق ووَمضـات مَنثـورةً في أنحاء الصحـراء. تُسرِعُ العَربَـةُ السـوداء وسـط ليـل الصحـراء المُظلِمـة وتَمُـرُّ بسـهولة عـبر الفـراغ. الـشيء الوحيـد الـذي قـد يوقِـفُ مثـل هـذه الرحلـة هـو خـوفُ المَـرءِ مـن أفـكاره. يفتـح خفاجـي النافـذة ويستنشـق الهـواء البـارد. يتطلَّـع إلى النجـوم باحثًـا عـن كوكَبَـةِ الجَبَّـار، لكنهـا كانـت قـد أَفَلَـت. ينظـر صـوبَ الأفـق الآخـر ويـرى كوكبَـةَ العَقـرَب تبـدأ في البـزوغ. ويتخيَّـل أن لا شيء يَقِـفُ بينـه وبـين الأفـق. ثـم يتبـدَّد الأفـق ويتخيَّـل أنـه يطـير بعـرض السـماوات. الهـواءُ حُلـوٌ وبـارِدٌ لِدَرَجَـةِ الإيـلامِ، الأمـرُ أَشـبَهُ باستنشـاق شـظايا زجاجيَّـة. يرفـع النَّافِـذَةَ ويُغلِـقُ عينيـه مُـدرِكًا أنـه سـينام بسُرعَـةٍ. وسـيكون نَومُـه بـلا أحـلامٍ مِثلـما كانـت كل لياليـه منـذ تـرك بغـداد.

الجمعة
12 ديسمبر 2003

يَبقَى خفاجي في السرير بتأثير هواء الصَّباح القارِسِ ورأسِهِ النَّابِض. يناديه أولدز في طريقه إلى الخارج، لكنَّ خفاجي يُلوِّح له لِيَترُكَه، ويَشدُّ الأغطية على رأسه. وفي النهاية ينهض لِيَذهبَ إلى الحَمَّام. يستحمُّ ويَحلِقُ ذَقنَه وخَدَّيه، حينها فقط يتساءَل عن الساعة. ويغادر الغرفة بعد أكثر من ساعة من مَوعِدِه في موقف السيارات.

عبر إقامة مراسِمِ التَّخرُّج في صباح يوم جمعة، حسبما أوضح كبيرُ ضُبَّاط الاتصال، سيضمنون ألَّا يُقاطِعَهم شيء؛ فالشوارع ستكون خاويةً حتى الظهر. وستكون المَراسِمُ قد انتهت بحلول وقت الصلاة. وحين سأل البصري عن المَخاطِر، ابتسم الكركوكيُّ. "إنت بالشمال هسَّه. ما عندنا مشاكلكم".

"تستحق المدينة أن ترى هذين الشابَّين وهما يُكرَّمان بشكل لائق"، وتابع ضابط الشرطة العسكرية البريطاني، "إنهم يستحقُّون أن يشهدوا كُلَّ خُطوَةٍ تَتَّخِذُها البلادُ على طريق إعادة الإعمار".

يتجوَّل خفاجي مارًّا بغرف الاجتماعات إلى أن يُصادِفَ مُتأخِّرًا آخَرَ، إنه مدير الشرطة الأوكراني. فيتشاركان سيجارة وهما يدنوان من موقف السيارات. ويركبان معًا الهامفي التي ستأخذهما إلى المراسم.

يتطلَّع خفاجي نحو الشمال فيرى الطقسَ يَتغيَّر؛ فهناك سُحُبٌ كثيفة عالية تَصِلُ من الغرب، والهواء أصبح جافًّا وثقيلًا، وها هي أولى قطرات المطر، ويَسمَعُ على مبعدةٍ دَويًّا منخفضًا، كأنه رعد.

يرى خفاجي وهم يتقدَّمون بالسيارة أن الصحراء التي تَخَيَّلَها خاويةً في الواقع مليئةٌ بالحياة. إنها ليست قاحِلَةً؛ إذ توجد مَصدَّات رياح من الصنوبر والكينا تحفُّ الطريق. وثمَّة مساراتٌ للسِّكَك الحديدية وخطوط كهرباء تقطع الطريق بين الحين والآخر بزوايا مُنحَرِفَة، ثم تختفي في الأفق. وثمَّة صفوفٌ من السيارات والشاحنات. ويجدون أنفسهم لمسافَةِ كيلومترات عالِقين وراءَ قاطِرَةٍ تَجرُّ مَقطوراتٍ ولها لوحاتُ أرقامٍ تُركيَّة. تندفع سُحُبٌ سوداء كثيفة من عوادم القاطِرَة وتُغلِّف سيارتهم بينما يُحدِّق خفاجي إلى حذاء الرضيع المتدلِّي من المصدِّ الخلفي. يرى خفاجي في الحقول البعيدة البُنِّيَّة والحمراء بلدة كوخيَّة من الألواح المعدنية والخيام السَّوداء، وامرأة بفستانٍ زاهٍ أخضر وبرتقاليٍّ تجمعُ المَلابِسَ المُعلَّقةَ على الحبل. وصوت المذياع يُخَشخِشُ ويروح يجيء. يَضَعُ السائق سمَّاعاتٍ في أذنه ويُركِّز على الطريق.

ترتفع سحابَةٌ سوداء في السماء على بُعد بضع كيلومترات في وسط المدينة. يتكلَّم السائِقُ ببُطءٍ إلى السِّلكِ المُتَّصِل بأذنه. ويتحدَّث من فوق كتفه بعد حوالي كيلومترٍ ونصف. "انفجرت قُنبُلة قويَّة وأكو هواية إصابات". يمرُّون بنقطة تفتيش، ثم واحدة أخرى. وتتحرَّك وراءهم سيَّارَتا هامفي أُخرَيان، ولا أحد يتحدَّث.

يَصُفُّون السيارة على بُعد عِدَّة أبنيَةٍ من المخفر. ويمشي خفاجي والأوكراني إلى جانب شرطيٍّ عَسكريٍّ يُلوِّح بمُسدَّس. هناك أعمدة من النَّفط المحترق تحجب الشمس. وتبدأ السُّحُبُ الساخنة في إمطار الدُّخانِ والرماد على كل شيء. يجري رجال الإطفاء في شارعٍ جانِبيٍّ

ويَجـرُّون خراطيـمَ طويلـةً وراءهـم. ويربـط خفاجـي منديـلًا حـول وجهـه ويجـري نحـو الحُطـام.

تَدْلَهِـمُّ حُفـرَةٌ غـير عميقَـةٍ عـلى موقـع الانفجـار. وقـد سـقَطَت أجـزاء مـن جـدار فِنـاء المخفـر، وكـذا جـزء كبـير مـن واجهـة المبنـى الرئيـسي وواجهـات المبـاني بطـول الشـارع. أصبَحَـت النوافـذ فارِغَـةً، والزجـاج المُتكـسِّر أشـبه بسـجَّادَةٍ مُتَلألِئَـة.

يستلقي صَـفٌّ مـن الرجـال المُلطَّخين بالدمـاء عـلى ظهورهـم في شـارعٍ جانبـي. يحـاول بعضهـم الجلـوس ويمسـك بعضهـم بالضِّـمادات عـلى أطرافهـم، وآخـرون يعتنـي بهـم أشـخاصٌ هرعـوا لتقديـم المسـاعدة. تَصِـلُ نقَّالَـةٌ جديـدة كلَّ بِضـعِ دقائـق. ويُحمَـلُ واحِـدٌ منهـم بعيـدًا كلَّ بِضـعِ دقائـق. ينظـر خفاجـي إلى الحشـود مـن حولـه. الرجـال يركضـون وهـو يُحَملِـقُ إلى بقايـا السـيَّارات المُتفحِّمـة، ويتسـاءل أيٌّ مـن هـذه الهيـاكل مُعَـدٌّ ليَنفَجِـرَ بعـد ذلـك. حـين تَمتَلِـئُ الشَّـوارِعُ بالقنابـل... كانـت تلـك فكـرةً بـدأت في عقلـه، لكنـه لم يَسـتَطِع إكمالهـا. يـرى البَـصْرِيَّ مُسـتلقيًا عـلى الرصيـف، وهنـاك ضِـمادَةٌ عـلى جبهتـه، وعينـاه مغلقتـان.

يقـترب خفاجـي ويلمـس ذراعـه برفـق: "أقـدر أسـاعدك؟". يفتـح الرَّجُـلُ عينيـه، ويشـير إلى أذنيـه النَّازِفَتَيْن ويهـزُّ رأسـه ويصيـح: "مـا أسـمع شي"، ويـشرع بالبـكاء. يذهـب خفاجـي إلى بَقَّـالٍ ويأخـذ كل مـا يسـتطيع حملـه مـن زجاجـات الميـاه. ويعـود ليجلـب المزيـدَ مـن الميـاه وعُلَـب محـارم الـورق. يبـدأ بتنظيـف رأس الرجـل. وعـلى الرغـم مـن كـثرة الدمـاء، فـإن جـروح الـرأس ليسـت عميقـة. يُحـاوِلُ خفاجـي أن يتحـدَّث إليـه، لكـنَّ الرَّجُـلَ يَظـلُّ يُغلِـقُ عينيـه. والدمـاء السـائلة مـن أذنيـه لا تتوقَّـف، ويجفـل حـين يحشـوها خفاجـي بالمَحـارِم. وينهـض خفاجـي ويتجـوَّل في الباحـة.

تتناثـر جُثَـثُ الشَّـباب وسـط الحُطـام، وقـد تعـرَّض المحظوظـون للسَّحقِ تحت الجدار. ينضـمُّ خفاجـي إلى مجموعـةٍ مـن رجـال الإطفـاء الذيـن يرفعـون الطُّـوبَ وألـواحَ الخرسـانة مـن كَومَـةِ الـرُّكام. وينتشـل جُثَّـةً ترتـدي زيًّـا يُطابِـقُ زِيَّـه بمساعدة مُسعِف. وحـين يَصُفَّانهـا إلى جـوار الجُثَـثِ الأخـرى يُغطِّـي خفاجـي رأسَ صـلاح بسُـترَةٍ. يُمـيِّـز خفاجـي جُثَّـتَيْن أُخرَيَـيْن مـع امتـداد صَـفِّ الجُثَـثِ طـولًا، ويحـصي حتـى خمسـة عـشر شرطيًّـا بالـزِّيِّ الرسـمي. هنـاك أيضًـا سـتة آخـرون بملابـس مدنيـة. يسـأل أحـدُ ضبـاط الاتصـال البريطانيـين خفاجـي إن كان قـد رأى أولـدز، ويهـزُّ خفاجـي رأسَـه.

يـأتي شـخصٌ ويَأمُـرُ خفاجـي بـأن يدخُـلَ إلى المخفـر بعدمـا تابَعَهـم وهـم يُحمِّلـون الجُثَـثَ لأخذها إلى المشرحـة. يذهب إلى المرحاض ويغتسـل أمـام حـوضٍ قديـم. ثـم يمـشي عـبر الممـرَّات الممتلئـة بالزجـاج والـتراب إلى أن يجـد بقيَّـةَ المجموعـة. ويجـد الجميـع في الغرفـة يأكلـون مـن أطبـاق الكبـاب والكفتـة، وهنـاك سَـلَطاتٌ وخُبـزٌ طـازَجٌ مُسـطَّح. عندهـا فقـط يُـدرِكُ مـدى جوعـه.

يجلـس لينضـمَّ إلى البقيـة، ويحـسُّ أن لا أحـد يتذكَّـر أنـه لم يَكُـن هنـاك. وهـو لا يهتـمُّ بتصحيـح المعلومـة. تجلـس المجموعـة وتـأكل في صمـتٍ. ثـم يجلسـون ويسـتمعون إلى ضابـط الاتصـال البريطـاني يتحـدَّث إليهـم.

"هـذا مـا نعرفـه حتـى الآن، قبـل بـدء الحفـل بقليـل..."، ويتَنَحنَـحُ الرَّجُـلُ ويبدأ مُجـدَّدًا. "حاولَـت عربَـةُ دَفـعٍ رُباعـيٍّ اقتحـامَ البوَّابـة. نجـح رجالنـا في إطـلاق النـار عـلى الإطـارات. ولـولا ذلـك ربمـا لا نكـون هنـا الآن نتحـدَّث إلى بعضنـا البعـض. ولحُسـن الحَـظِّ لم ينجـح السَّـائِقُ في اخـتراق الباحـة".

ثـم يبـدأ بتقديـم تفاصيـلِ حادِثَـةٍ أُخـرى، ويسـتغرق خفاجـي لحظـةً ليفهـم أن لهـا علاقـةً بالضَّابِطَـيْن الشَّـابَّيْن التكريتيَّـيْن. "أؤكِّـد مـا سـمعتموه في الصبـاح الباكـر أيهـا السـادة"، وقالهـا بصـوتٍ خافِـتٍ، "تعـرَّضَ زميلانـا للقَتـلِ، إلى جانـب خمسـةٍ آخريـن، وهـم يُلبُّـون نـداء الواجب هـذا الصباح في ننننـ.." ويتعـثَّر للحظـة، "في مخفَـرٍ ناحيـةَ حـمام. يمكننـا الآن تأكيـد أن الرجـال الذيـن قتلوهـم كانـوا يرتـدون زِيَّ الشُّرطَـة. وتشـير المعلومـاتُ الاسـتخباراتِيَّةُ إلى أن ذلـك ربمـا تَـمَّ بمسـاعَدَةٍ مـن الداخـل. أعتـذر مُقدَّمًـا عـمَّا سـأضطرُّ لقَولِـه الآن، لكننـي آمـلُ أنكـم سـتتفهَّمون أهميَّـةَ ذلـك. كلُّكُـم مأمـورون بالعـودة إلى القاعـدة عـلى الفـور. سـتبقون هنـاك إلى أن نكمـل تحقيقنـا بشـأن الخَـرْقِ الـذي حـدث. سـنحتاج إلى تعاوُنِكـم الآن أكـثرَ مـن أيِّ وقـتٍ مَـضى إن أَردنـا إنهـاءَ هـذا الخَـرقِ. سيُتاح لكـم التَّواصُـلُ مـع عائلاتكـم بمجـرَّد وصولكـم إلى هنـاك".

يُقاطِـعُ الضَّابِـطَ وَقْـعُ الأحذيَـةِ العسـكرية في الخـارج، ويلتفـت كُلُّ مَـن في الغرفـة لينظـروا إلى البـاب. تدخـل فِرقَـةٌ مـن الشُّرطيِّـين العسـكريِّين الأمريـكان مـن البـاب، ثـم ينتـشرون بـأركان الغرفـة.

يُتابِـعُ ضابِـطُ الاتِّصـال: "لا تَظنُّـوا أنكـم قَيـدَ التَّحقيـق لأنَّنـا نَظـنُّ أنكـم مُذنبـون بمسـاعدَةِ العَـدوِّ والاشـتراك معـه. نحـن نعـرف أن الأغلبيـة العُظمَـى منكـم هنـا لأنَّكـم تريـدون للجانـب الصحيـح في هـذه المعركـة أن يَنتَـصِر. أنـا شـخصيًّا أَشُـكُّ جـدًّا في أننـا تَعرَّضنا للاخـتراق، وآمـل أن تُعَلِّلَ التحقيقـاتُ اعتقـادي هـذا. لكـن مـع ذلـك، وإلى أن نَتوصَّـل إلى حقيقـة هـذا الأمـر، يجـب أن نُنظِّـفَ هـذه الفـوضى معًـا. لا يَجِـبُ أن نَسـمحَ لهذه الحـوادث بـأن تُعيـقَ التَّقَـدُّم الـذي نُحقِّقـه. لا يُمكِنُنـا السـماح للإرهابيـين بالفـوز".

يسـكت ويتطلَّـع حولـه في الغرفـة ثـم يضيـف: "إن كانـت معكـم أسـلحة، رجـاءً أخرجوهـا مـن قِراباتهـا وضَعوهـا تحـت الكـرسي الـذي

تجلسـون عليـه وأنتـم تنهضـون وتتحرَّكـون إلى جانـب الغرفـة. هَـؤلاء الشُّرطيُّـون العسـكريون سـيُرافقونكم إلى القاعـدة. أعِدُكُـم بأننـا سـنبذل قصـارى جَهدِنـا لتخفيـف هـذه المِحنَـةِ قَـدرَ الإمـكان. وكُلَّـما سـارعتم بمسـاعدتنا تقـترب نهايتهـا".

ينظـر خفاجـي حولـه إلى رجـال عيونهـم غائِمَـة ومُتعَبـين والآن أصبحـوا غاضِبـين. تـتراوح التَّعبـيراتُ عـلى وجوههـم بـين الغضـب وعـدم التَّصديـق. فيضـع قِطعَـةً مـن اللحـم البـارد في فمـه ويمضـغ. ويصيـح أحـدُ الشرطيـين المحليـين: "مـاذا تقصـد؟ أنَّنـا قَتَلَـة؟".

يرفـع الضَّابِـطُ البريطـانيُّ يَدَيـه في الهـواء، ثـم يخفضهـا ببـطء: "يجب أن تظلُّـوا هادئـين. أنتـم لسـتُم مُجرمـين، لم يَقُـلْ أَحَـدٌ ذلـك. لكـنْ لِسَـلامة الجميـع هنـا، لسـلامتكم وسـلامة زملائكـم...".

"هـم الإرهابيـون! مـو إحنـا. مـن خـرا بدينـك!" يصيـح الشـاب وهـو ينهـض، ويدنـو منـه أحـدُ الشرطيـين العسـكريين والعصـا في يـده.

يبـدأ الشرطيُّـون الآخَـرون في النهـوض، ويصيحـون ويُلوِّحـون بقبضاتهم. يتدخَّـل الشُّرطيُّـون العسـكريون سريعًـا ويُطوِّقـون المجموعـة. ويـرى خفاجـي فرصتـه ليَسـقُطَ أرضًـا ويزحـف وسـط الأقـدام الرَّاكِلَـة إلى أن يَصِـلَ إلى البـاب. ثـم ينهـض ببُـطءٍ شـديد لدرجـة ألَّا يُدرِكَـه أحـد. يمشي ثـم يركـض بطـولِ المَمـرِّ، ويهبـط السُّـلَّم مـع نشـوب الشـجارات في أنحـاء الغُرفَـة.

يركـض أبعـد مـن الـلازم وينتهـي بـه الأمـر في القَبـو. ويبـدأ في غرفـة قَـذِرَة لتغيـير الملابـس بتجربـة أبـوابِ الخِزانـات. مُعظَمُهـا مُقفَلَـة أو خاويـة. لكنـه يجـد في واحِـدَةٍ مـا يحتـاج إليـه، مـع أنـه ليـس مـا توقَّعَـه. تبـدو الملابـسُ كأنَّهـا سَتُناسِـبُ جَسَـدَه أكـثر مـن الـزِّيِّ الـذي يرتديـه. يجـد كابينـةً لِتَغيـير الملابـس ويُفـرِغُ جُيوبَـه ويخلـع زِيَّـه. تشـعر قدمـاه بـالأرض الخرسـانية كأنهـا لَـوحٌ ثَلجـيٌّ. ويجـد منشَـفَةً في خِزانَـةٍ أخـرى

فيذهب إلى حَوضٍ معدني قديم. يرشُّ المياه الباردة على وجهه، ثم يُكرِّرها مرَّةً واثنتين. عيناه حمراوان وتبدوان كأنهما تَخُصَّان شخصًا غريبًا يُحَملِقُ إلى شخصٍ آخر في المرآة. يَغسِلُ الوَسَخَ والتُّرابَ من على يديه وتحت أظافره. ويخلَعُ قَميصَه الدَّاخِليَّ ويَرشُّ صدره بالمَزيد من المياه. يُمرِّر الصابون على جذعه، ثم يشطف مكانَه ويُكرِّر ذلك. ينظر إلى جَسدِه في المرآة ثم يُحَملِقُ إلى وجهه. عيناه لا تزالان مُحتَقِنَتَيْن بالدِّماء ومُتعَبَتَيْن وقد بدأ شارِبُه ينمو. يشرع بالارتجاف، وقد بدأت قدماه تَشعُران بالحرارة مع أنه واقِفٌ في بِركَةٍ صغيرة من المياه المُثلَّجة.

يَلفُّ زِيَّه على هيئة كُرَةٍ ويرميه في خِزانَةٍ فارغة ويرتدي سُترةً واقِيَة، ثم قميصًا تَحتانيًا قُماشُه ناعِمٌ ورَثٌّ. ويملأ جيوبه بمحفظته وأوراقه. ويُزلِقُ الدشداشةَ البيضاء القديمة من أعلى رأسه. ويجد الصَّندلَ كبيرًا جدًّا، لكنَّ جلده ناعِمٌ ومُريح.

يأخذ الكوفية ويَلفُّها حول كتفيه ورقبته، ويرتدي معطفًا كان مُعلَّقًا في خزانة أخرى. إنه أضيق من أن يَتمكَّن من تزريره لكنه أفضل من لا شيء.

يصعد درجات سُلَّمٍ ويخرج من الباب الجانبي. ويمشي خارج المخفر بجوار صَفٍّ من الشاحنات، تُدوِّي مُحرِّكاتها مُطلِقَةً عوادِمَ الدِّيزل. يكاد خفاجي يصطدم بها وهي تَقِفُ في متجر صغير وتتحدَّث بالهاتف. يكاد لا يُميِّزها بسبب حجابها ومعطفها الثقيل. يكاد لا يُميِّزها لأنها تبدو مثلَ امرأةٍ لا يَجِبُ أن تُحَملِقَ إليها. لكن هناك شيء مُميَّزٌ بمدى ثبات وَقفَتِها، كأنها على وَشكِ القَفز، أو على وشك الفرار. بعد التَّمعُّن بصورتها لمُدَّة أسبوع، لم يُؤخَذْ خفاجي على حين غِرَّة؛ فهو سيتعرَّف على زهرة بستاني في أي مكان. وبعد مذبَحَةِ هذا الصباح أصبح يعرف ما سيفعله تحديدًا.

يبـدأ الركـض بأقـصى سرعـة مُتسـائِلًا إن كان أحـدًا يتابعـه. يَنحَـشِرُ داخـل سـوقِ شـارعٍ مُزدَحِـم عـلى بُعـدِ عِـدَّة مُربَّعـات سَـكَنِيَّة ويمـشي فيـه قبـل أن يَنعَطِـف بـين عربـة عصائـر وكُشـكٍ. يتوقَّـف لـشراء عُلبَـة سـجائر رويـال، ويُدخِّـن وهـو يتفـرَّج عـلى الشـارع وراءه. وأخـيراً يلتفـت ليسـأل رَجُـلًا عـن محطـة الأتوبيـس. يُحـدِّق الرجـل إلى خفاجـي ويشـعر في تلـك اللحظـة كأنـه عـارٍ. لكـنَّ الرَّجُـلَ يُشـير ويُتَمتِـمُ ببضـع كلـمات، وينطلـق خفاجـي في ذلـك الاتجـاه. يظـنُّ خفاجـي أكـثرَ مـن مـرَّة أنـه يَسـمَعُ رَعـدًا مـن مـكانٍ مـا بعيـدٍ، وقدمـاه تَمُـدَّان الخُطـى في طريقـه.

يَصِـلُ إلى المحطَّـة مـع بـدء المطـر. ويشـتري أكياسًـا مـن الحُمُّـص المُجفَّـف وبـذور عبـاد الشـمس. ويبحـث عنـد كُشـكِ الصُّحُـف عـن أيِّ كِتـابِ شِـعْرٍ، وحـين لا يجـد يشـتري أكـبرَ عَـددٍ مُمكِـنٍ مـن الصحـف. يَجِـدُ الأتوبيـس التـالي المُتَّجِـهَ إلى بغـداد، وينتظـر سـاعةً قبـل أن تمتلـئ الكـراسي. يتصـوَّر أن رجـال الشرطـة في المحطَّـة يمكنهـم كَشـفُه مـن وراء تَنَكُّـره، ثـم يتسـاءل عـمَّا سـيقولونه إنْ رَأَوا بطاقَـةَ تَعريفِـه.

يحـاول أن يقـرأ الصُّحُـف، لكـن حـين يَصعَـدُ شُرطـيٌّ إلى الحافِلَـة، يَضَـعُ الصُّحُـفَ جانبًـا ويَدَّعـي النـوم. يتمـشَّى الشُّرطـيُّ في المَمـرِّ، مُتفقِّـدًا بطاقـات تعريـف الجميـع. لكـن حـين يُشـغِّل السَّـائِقُ المُحـرِّكَ، يسـتدير الشرطـي وينـزل مـن الحافلـة. ولا يرفـع خفاجـي عينيـه إلَّا حـين يغـادرون المحطَّـة. وحتـى بعدهـا يعجـز عـن الاسـترخاء، بـل ويتصـوَّر سـيناريوهاتٍ أخـرى. مثـل أن يوقِـفَ رِجـالٌ مُسـلَّحون الحافلـة ويُفتِّشـون عـن الشرطـة الصُّوريَّـة، أو عـن الإرهابيـين، أو عـن رجـالٍ يَكذبـون بشـأن هُويَّاتهـم. يُحَملِـقُ عـبر النافـذة، وآخـر مـا يـراه قبـل خفـوت الشـمس هـو ثلاثَـةُ رجـالٍ يَتسـابقون عـلى ظهـور الخيـل. وتبـدو اللطخـة التـي بلَـونِ الصـدأ عـلى الحصـان المُتقـدِّم كأنهـا طَرطَشَـةُ دِمـاء.

لا يرتـاح خفاجـي لتَصـوُّر الصحـراء كمَهـرَب؛ لأنـه يعـرف أنهـا أيضًـا بيـتٌ للحيوانـات والرجـال والأسـلحة. وحـين تُضـاء الأنـوار داخِـلَ الحافلـة، يجـد نفسـه يُحَملِـقُ إلى انعكاسـه. يتذكَّـر بَيتَـيْ الشِّـعر اللذيـن ألقتهـما مـروج: "نُعِـدُّ المَشرَفِيَّـةَ والعَـوالي، وتَقتُلُنـا المَنـونُ بِـلا قِتالِ/ونَرتَبِطُ السَّـوابِقَ مُقرَبـاتٍ، ومـا يُنْجـينَ... الأمـر مُحبِـطٌ لأنَّـه يعـرف القصيـدة. إنهـا مـن مَرثِيّـات المُتنبِّـي. مـن الخـوف؟ لا. لا تعطـي القافيـة الصحيحـة، ولا حتـى الـوَزنَ الصَّحيـح.

يستسـلم وينظـر إلى الصُّحُـف التـي بـين يديـه ويرميهـا أرضًـا. يميـل رأسـه إلى الزُّجـاج ويـروح في النـوم. وبعـد بعـض الوقـت يسـتيقظ وهـو يصيـح ويُصـارِعُ في مِقعَـدِه. ويرمقـه الجالِـسُ بجانبـه بنظـرَةٍ غاضِبَـة كأنـه قـد جُـنَّ جُنونُـه.

صَباحُ السَّبت
13 ديسمبر 2003

وصَلَت الحافِلَةُ وكانت بغداد مُستَيقِظَةً تمامًا. تُغطِّي السُّحُبُ السَّماءَ، والهواء بارِدٌ وثقيل. تثور الرياح ثم تهدأ وهي تنساب في الجادَّة الواسعة. يتقدَّم خفاجي عبر مَحطَّة الحافلات المُزدَحِمَة ويعبر الشارع إلى مقهى مزدَحِمٍ. يشرب كوب شاي ثم كوبًا آخر. ويمرُّ فتى بالصُّحُف ويشير إليه خفاجي ليبتعد. وبعد بضع دقائق يأتي فتًى آخر يبيع مجلَّات. يعطيه خفاجي بعض الدنانير ليشتري له عُلبَةَ سجائر عراقية. ويعود الفتى مُسرِعًا ومعه علبة رويال، ويترك خفاجي له الفَكَّة.

يدفع حسابَ الشاي وينهض، ثم يُشعِل سيجارة ويسلك شارع الرشيد. تبدأ خُطَّةٌ في التَّشكُّل برأسه. إنها خُطَّةٌ لإنقاذ مروج وللاستقالة، أو للاختفاء بصَمتٍ. إنها خُطَّةٌ للذِّهاب إلى البيت والبقاء هناك. عند زاويةٍ مُزدَحِمَةٍ يتوقَّف ليُشعِلَ سيجارةً أخرى. يقف هناك ويتفقَّد الحركة حوله. الحركة الكثيفة الفوضويَّة للرجال والنساء والأطفال الذين يمشون ويسوقون ويركبون ويذهبون. إنها رقصَةُ المدينة ونَبضُها العشوائيُّ وحياتها. إنها حياتها رغم كل ما يحدث.

يُشاهِدُ خفاجي فتًى يسوق قطيعًا من الخِرافِ السَّمينَة لِيَعبُرَ بها التَّقاطُعَ، على الرغم من غلق التَّقاطُعِ للمُشاة. فتنحرف أولى السيارات لتتفاداه وتتوقَّف التي بعدها. وتشرَعُ تلك التي عَلِقَت بالتزمير. الفتى يضرب مثالًا في التركيز واللطافة. فيضرِبُ سيقان الحيوانات بهدوء، لكنه يتجاهل كلَّ ما عداها. كأنه قد بلغ قَريَتَه الآن في عقله.

يشاهد خفاجي القطيعَ يُكمِلُ رِحلَتَه بامتداد الجادَّة، ثم ينزل عن الرصيف ويصطَدِمُ بامرأةٍ شابَّةٍ. ويشعر للحظة في ذلك الحادِثِ بجسد الفتاة، وبدفء جَسَدِها وصلابَتِها. ويدرك وهما يتعثَّران أن ذلك التَّلامُسَ لا يُثيره بقدر ما يُذَكِّره بجسده. يَمُدُّ ذراعَه لمساعَدَةِ الفتاة على النهوض، لكنها تكتفي بنظرةٍ غاضِبَةٍ نحوَه وتبتعد مُسرِعَةً. ويشرع بالاعتذار لكنَّ الأوان فات.

يتطلَّع حوله، ويجد الشارعَ فَجأةً قد امتلأ بالنساء. نساء يَعتَمِرن الحجاب، وأُخرَيات من دونه. نساء يَرتَدين بناطيلَ ضَيِّقَة ونساء بتنانيرَ فضفاضَةٍ، وأُخريات بأَردِيَةٍ سَوداءَ ثَقيلَةٍ. نساء يَنظُرنَ إلى الرِّجال حين تلتقي عيونُهم، وأُخرَيات يُشِحْن بوجوهِهنَّ. نساء شابَّات جميلات فقط لأنَّهنَّ شابَّات. وأخريات مُسِنَّات جميلات لأنَّهنَّ جميلات. بدا الشارع فجأةً كأنه شارِعٌ للنساء. وما يُنْجينَ مِنَ خَبَبِ اللَّيالي. يتسمَّر مكانه ليستَوعِبَ، وأخيرًا يتذكَّر البيت.

نُعِدُّ المَشرَفيَّةَ والعَوالي، وتَقتُلُنا المَنونُ بِلا قِتالِ

ونَرتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَباتٍ، وما يُنْجينَ مِن خَبَبِ اللَّيالي

إنَّه البَيتُ الذي أربكته به مروج. تُخبِره الكلمات أن يذهب لرُؤيَةِ ابنته، لكنَّ مَعانيها تُخبِرُه بشيءٍ آخر. ومَن أفضَلُ مِن زُبَيدة ليَسأَلَه عن خَبَبِ اللَّيالي[1]؟

(1) سعي الليالي.

يُقـرِّر خفاجـي أن يذهـب مبـاشَرةً لرُؤيَتِهـا. فيوقـف تاكـسي ويركـب، وبمجـرَّد أن يقـول المدائـن يرفـض السـائق ويقـف جانبًـا لينـزل خفاجـي. يَلقَـى الـرَّدَّ نفسـه مـن التاكـسي الثـاني والثالـث. يَمُـرُّ بكُشـكٍ لبَيـعِ أَدواتِ المَطبَـخِ فيتفقَّـد السـكاكين ويشـتري أكـبرَ سِـكِّين هنـاك. يلتَفِـتُ البائِـعُ ليَجلِـبَ لـه جريـدةً يَلـفُّ بهـا النَّصـلَ، لكـن خفاجـي كان في طريقـه رجوعًـا إلى الرصيـف.

حـين يرفـض التَّاكـسي الرابـع حالَـمَا يَسـمَعُ كلمـة المَدائِـن، يُفاجِئُـه خفاجـي بالسِّـكِّين. يـشرع السـائق بالتَّأتَـأة ثـمَّ يَبـكي، ولا يُوقِفُـه خفاجـي حـين يفتـح البـاب ويَخـرُج. ينتقـل خفاجـي إلى مقعـد السـائق، ويـركل صندلـه ثـم يَنطَلِـق قبـل أن يتمكَّـن الرجـل مـن العـودة.

يُـسرِعُ إلى خـارج المدينـة. يَطلُـبُ جُنـديٌّ بطاقَـةَ تعريفِـهِ عنـد نقطـة التَّفتيـش، ثـم يختفـي وراء جـدارٍ خَرسانيٍّ سَـميك. يُدخِّـن سيجارةً قبـل أن يشـيروا إليـه ليَترَجَّـل. يقـف مُسـتَمِعًا إلى أصـوات اللاسـلكي ويبصـق بينـما يُجـري أحدُهـم مُكالَمـةً. تظهـر هامفـي بعـد سـيجارَةٍ ونصـف، وتخـرج منهـا مُترَجِمَـة ترتـدي سُـترَةً واسِـعَةً واقِيَـةً مـن الرَّصـاص وخـوذة. تدنـو مـن خفاجـي ومعهـا جُنديَّـان، وتأمـره بـأن يتبعهـا إلى وراء الجـدار.

"هـاي تقـول إنـك تشـتغل ويَّـا سـلطة الائتـلاف". لَكنَتُهـا تَـشي بأنهـا مُثقَّفـة، وتنظـر إليـه مُتَشـكِّكة عـبر الفتحـة الصغـيرة للعَينَـيْن. وينتبـه خفاجـي فجـأةً لمظهـره؛ إذ لم يرتـدِ رَجـلٌ في عائلتـه مـن قبـل دشداشـة.

"إنـت جـاي بمهمـة عمـل رسـمية؟". صوتهـا ناعِـمٌ وشـابٌّ، وتبـدو عيناهـا جميلَتَـيْن عـبر القنـاع. يتَسـاءَلُ خفاجـي لِـمَ لَـمْ يُفكِّـر بهـذا.

يقول: "راح ألتقي ويَّا زملاء بالمدائن".

تتفقَّـد بطاقتـه مُجـدَّدًا، لكنهـا لا تقـول شـيئًا. تذهـب إلى الجنـود الأمريكيـين، ويعـود جنـديٌّ شـاب بعـد بضـع دقائـق ويُسـلِّم خفاجـي بطاقتـه: "سـيبلغون نقـاط التفتيـش التَّالِيَـة بمـرورِك. يومُـكَ لطيـف".

يبتعد خفاجي وهو يتساءل لِمَ لَمْ يسألوه عمّا يجعله يقود تاكسي.

عند كل نقطة تفتيش يُبطئ خفاجي ويُنزِلُ زجاج نافذته، لكنَّ الرِّجالَ يُلوِّحون له ليَمُرَّ. من الصعب تحديدُ المُترجِمين. فإمَّا أنهم مَخفيُّون جَيِّدًا وإمَّا أن هذه الوحدات قد تُرِكَت بلا مُترجِمين. يجد نفسه سريعًا يُبحِرُ فوق بحورٍ من قصب السكر. ينطلق بسرعة جدًّا، لدرجة أنه يُفوِّتُ الطَّريقَ الجانبي. فينعطف عائدًا ويرى وهو ينعطف سِربًا من الحمام يطير مُشَكِّلًا دائِرَةً مُتَّسِعَة حول حقول القصب. إنها ترتفع ثم تغطس. ويمرُّ هو بالبوَّابة، لكنه لا يلاحظها؛ فقد كانت عيناه مفتونَتَيْن بالسِّرب. يكاد يصطدم بِصَفٍّ عَربات "سوبربا" مصفوفة عند نهاية طريق الحَصَى فيُفَرمِلُ، وتُصدر الإطاراتُ صوتَ خَضخَضَةٍ عالِيَة على الحَصَى. ويعلو الغبار وينتشر، وحين يهبط مُجدَّدًا ينظر بتمعُّن أكثر إلى العربات. فيُنزِلُ نافِذَتَه ويمدُّ يده بحثًا عن سجائره ويُفكِّر. يستغرق لحظةً إضافية ليُمَيِّزَ الشِّعار الذي على العربات: ميتيورك تاكتيكال سلوشنز. ولا يسمع في الخارج إلَّا حفيفَ الرياح وسط القصب. يسمع الهمس الخافت للسِّرب وهو يغطس ثم يرفع نفسه مُجدَّدًا، لكنه يندفع مرَّةً أخرى في حركات مُتَذبذِبَةٍ. ويشهق وهو يتفرَّج على الحمام وهو يعلو بصعوبة.

لا يراهما حين يقتربان، بل كان وقع خطواتهما على الحَصَى هو ما جعله ينتبه.

يدنو شابَّان يحملان رشَّاشَيْن على المَمرِّ الخاص، فيبتسم ويُلوِّح لهما. لكن هذا لا يُؤدِّي إلَّا إلى توجيههما لسلاحيهما نحوه. يصيح أحدُهُما بشيء ما، ثُمَّ يفترقان، أحدهما إلى يسار خفاجي والآخر إلى يمينه، ويصبح تقدُّمُهما بطيئًا جدًّا وحَذِرًا. وحين يظهر رَجُلان آخران وراءهما يضع خفاجي السيارة على وضع التَّأهُّب ويبدأ بالتحرُّك.

يبتسـم ويُلـوِّح؛ فهـو يعلـم مـدى صعوبـة أن تُطلِـقَ النـار عـلى رَجُـلٍ ينظـر إليـكَ مُبـاشَرَةً؛ لـذا لا يُبعِـدُ عينيـه عنهـم أبـدًا. يبـدأ الآخـران في الهرولـة نحـو خفاجـي. فيـسرع ثـم يـضرب المِقـوَدَ بقـوَّةٍ إلى اليسـار، ويجعـل السـيَّارةَ حاجِـزًا بـين جسـده وأسـلحتهم. يسـمع أولى الطلقـات تَـضرِبُ بـاب الرَّاكِـبِ وصنـدوق السيارة، ويدفـع قَدَمَـه إلى الأسـفل قـدر الإمـكان ويَجثُـم. يُـسرِعُ بطـول المَمـرِّ الضَّيِّـق ورأسـه تحـت التابلـوه، بينـما تَهتِـكُ الرَّصاصـاتُ الصُّنـدوقَ وتُحطِّـم الزُّجاج الخلفـي. ويندفـع بـلا رُؤيَـةٍ بطـول المَمـرِّ الضيِّـق إلى أن يتوقَّـف أخـيرًا صـوت فَرقَعَـةِ المعـدن السـاخن. ولا يـرى شـيئًا سـوى الغبـار حـين ينهـض وينظـر عـبر المـرآة الخَلفيَّـة. فيأخـذ نَفَسًـا أخـيرًا مـن السـيجارة التـي بـين شَـفَتَيْه، وينقرهـا بإصبعـه نحـو القصـب.

كانـت يَـدُ خفاجـي تتحسَّـس قميصـه بحثًـا عـن سـيجارة أخـرى حـين رأى شـخصًا يقفـز إلى الطريـق السريـع. إنـه رجـلٌ يلـفُّ وجهـه بكوفيَّـةٍ ويُصـوِّب "إيـه كيـه 47" نحـو خفاجـي. فيتوقَّـف خفاجـي لـه. يدنـو الرجـل إلى كـرسي الراكـب ويفتـح البـاب، وينظـر إلى خفاجـي ثـم يتعجَّـب: "أسـتاذ محسـن. الحمـد للـه!".

يُميِّزُ خفاجي سائِقَ زُبَيدَة دون حتى أن يخلَعَ قِناعَه.

يختفـي الرَّجـلُ داخـل حقـل القصـب. ويعـود بعـد لحظـةٍ ومعـه امـرأة يرفعهـا عـلى كتفـه. يقفـز خفاجـي إلى خـارج السـيارة ويسـاعد في حملهـا إلى الداخـل. يحمـل زُبَيـدَة بـين ذراعَيْـه بينـما يُنظِّـف عمـر المَقاعِـدَ الخلفيَّـة ليَضَعاهـا هنـاك. ينظـر خفاجـي إليهـا وتفتـح هـي عينيهـا وتغلقهـما مُجـدَّدًا. يتحسَّـس يدهـا ويتفاجـأ بمـدى سُـخونَتِها.

يركـب خفاجـي في الكـرسي الأمامـي، ثـم ينطلقـان عـلى الطريـق السريـع نحـو بغـداد، تَقبِـضُ يـدا خفاجـي عـلى المِقـوَد، وتتشـبَّثُ أصابـع عمـر بالمُسـدَّس الـذي عـلى حِجـرِه، ويَـدُ زُبيـدَة تَسـقُطُ واهِنَـةً عـلى

الأرض. تسعل مرارًا وتكرارًا، فيعدل خفاجي المرآةَ وينظر إلى وجهها، لكنها لا تتحرك. وحين يقتربون من نقطة التفتيش الأولى، يصيح عمر: "اطلع يمنى".

يبتَسِمُ خفاجي ويتجاهَلُه ويُبطِئُ ويُلوِّح إلى الجنود. ويدرك أنه ارتكب خطأً حين يرى جنديًّا وراءهم يُمدِّد حزام المسامير بعرض الطريق. فيتوقَّف جانبًا ويبتسم ويُلوِّح ويحافظ على التقاء عينيه بعيون الآخرين كحاله دائمًا. يدنو الجنديُّ من السيارة وينظر إلى ما لَحِقَ بها من تَلَفٍ. وحين يطلب من خفاجي وعمر أن يرفعا أيديهما فوق رأسيهما، يضرب خفاجي دواسة البنزين فيصدم الجندي الذي يطير أعلى غطاء المُحرِّك. ويصدر جسدُه صوتًا مكتومًا مُقرِفًا وهو يتدحرج على الزجاج الأمامي وينزلق. وتنهمر من دون تحذير عاصِفَةٌ من الطَّلَقات على السيارة، لكن ليس قبل أن يبتعد خفاجي بالسيارة عن مصدر الطلقات، ويرى في مرآة الرؤية الخلفية عربةَ هامفي تُطارِدُهم. تقترب العربة لكنها تختفي حين ينثني الطريق السريع وسط القَصَب. يصيح عمر إلى خفاجي مُجدَّدًا وهذه المرة لا يتردَّد في الانحراف عن الطريق السريع. ينحرفون يسارًا تجاه النهر لمسافة بضع كيلومترات، مُتَّبعين طريقًا ترابيًّا يَعبُر قَناةَ رَيٍّ ثم قَناةً أخرى. ثم ينعطفون يمينًا فيعبرون الطريق السريع مُجدَّدًا ويدخلون بستانَ نَخلٍ شاسع. ويمرُّون تحت الظِّلِّ الخفيف للنخيل برجالٍ يَتسلَّقون سلالِمَ طويلةً بلا أحذية، وآخرين على الأرض يحملون سِلالًا من القَشِّ. يتفرَّج عليهم أحدُ الفلاحين وهو غارزٌ في الأرض والطين حتى ركبتيه. على مقربة في السماء وراءهم تنقضُّ مروحيَّةُ أباتشي بسرعة وعلى مقربة بطول الطريق السريع، ثم تظهر واحدة أخرى وراءها مباشرة.

يُبطئ خفاجي ليتجنَّب القنوات وآثار السيارات على الطريق. ويتفرَّج عليهم بضعة أشخاص لكن لا أحد يُحَملِقُ إليهم.

يستيقظ عمر أخيراً من نوبة القيادة الآلية ويتفقَّد ساعته ثم الطريق. يَقبَلُ سيجارةً من خفاجي ويُدَخِّنها، وبعد بضع دقائق يقول: "ابق يسرا هنا. راح نوصل المستشفى بساع". ينظر إلى خفاجي ويهزُّ رأسه: "ليش إجيت؟".

"آني اللي أسألك. شنو صار هناك؟".

ينظر عمر إلى الطريق وهو يجيب: "الأمريكان جوي للمعهد هذا الأسبوع. أخذوا كل شي. ما اتأخروا هواية حتى يلاقون البيت. ما إجوا حتى يعتقلون أحد، تشانوا يرمون حتى قبل ما يبيِّنون".

يلتَفِتُ عُمر وينظر إلى زبيدة، ويطيل النظر جدًّا حتى سأله خفاجي: "منو هي؟ قصدي شتصير لك؟".

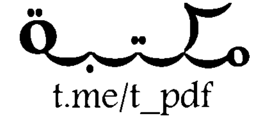
"خالتي. ربَّتني مِن ماتوا أبويا وأمي". ينظر إلى خفاجي ويضيف: "آني مو الوحيد. هواية ناس يعتمدون عليها".

بعد دقيقةٍ تنتهي أشجارُ النخيل، ويتسرَّب الطريق إلى داخل بلدة المدائن. يُوجِّه عمر خفاجي وسط الشوارع المزدحمة وصولًا إلى مستشفى. ويخرج مُسعِفان إلى السيارة ويُحيِّيان عُمرَ باسمِه. يخرج خفاجي ويفحص السيارة. الجُزءُ الوحيد الذي بقي سالمًا هو الإطارات. ويمتدُّ خَطٌّ من الدماء بطول ناحية الراكب. وحينها فقط يلاحظ خفاجي أن دشداشته لا تبدو أفضل حالًا.

تهرعُ المُمرِّضات بزبيدة إلى الداخل، ويمشي خفاجي بجوارها ويمسك يدها ويتابع وَجهَها. عيناها لا تنفتحان، لكنَّ يَدَها تقبض على يده. وحين يأخُذنَها إلى غرفة العمليَّات يترك خفاجي يدها أخيرًا. فيقترب عمر ويُتَمتِمُ: "لازم نمشي منَّا، هسَّه". يرى خفاجي عمر وهو يتقدَّم في المَمرِّ. ثم يستدير ويمشي في الاتجاه الآخر.

يجلس خفاجي في زاوية غرفة انتظار مُزدَحِمَة ويُفكِّر. يخلع معطفه ثم يقلب داخله خارجًا. يبدو سخيفًا لكنه ليس مُروِّعًا. يخرج من الباب الأمامي ويعبر الشارع إلى محطَّة تاكسي. يدفع للسائق الأُجرَةَ إلى وسط المدينة، وينجحان في دخول المدينة دون المرور بأي نقاط تفتيش. يُخبِرُ خفاجي السائقَ بأن يذهب إلى نقطة التفتيش الثالثة.

يسكت الرجل لدقيقة قبل أن يعترف: "ما أعرف شنو هاي". فَيُرشِدُه خفاجي عبر شوارع وسطَ المدينة ثم النهر. ويعرض عليه سيجارةً بعدما عَلِقَا في زحامٍ على الكوبري، فيأخذ اثنتين. يُشعِلُ واحِدَةً في الحال، ويرفع الأخرى وراء أذنه.



مساء السبت
13 ديسمبر 2003

حين تَزوُر المنطقةَ الأمريكية، اترُكْ دشداشَتَك في البيت، وارتَدِ ملابِسَ نظيفة، وارتَدِ بنطالًا، تأكَّدْ من كَيٍّ قميصِك، بل والأفضل من ذلك أن ترتدي سُترَةً ورَبطَةَ عُنُق. وبالمرَّة، اغسل الدم عن ملابسك قبل أن تَصِلَ إلى البوَّابات.

يجب أن يُعلِّقوا هذه النصائح عند كل حاجز ونقطة تفتيش. ربما الأمر بَديهيٌّ لدرجة ألّا تحتاجها. وفي أي يوم آخر كان خفاجي ليضحك على المُغفَّل الذي يحتاج إلى هذه النصائح. ولو أنه فكَّر في الأمر لدقيقةٍ لذهب إلى منزله ببساطة. لكنه لم يَكُن يُفكِّر. ولو كانت هناك أيُّ أفكار بعقله من الأساس، فكلها كانت مُتعلِّقَة بابنته.

يشرعون بالتحديق بمجرَّد أن يخطو خفاجي داخل الزحام. ولا ينتظرون حتى أن يأتي دوره، بل يتدخلون فتُرفَعُ الأسلحة ويأمرونه بخَلعِ مِعطَفِه. ويطرحونه أرضًا حين يرون الدماء. يُثبِّت حذاءُ عسكري كتِفَه بينما يُفتِّشونه ذاتيًا. يعترض خفاجي، لكنَّ الكلمات مثل حَصًى صغيرٍ يتساقط من فمه على الرصيف. يُقيِّدون معصميه

برباطٍ بلاستيكيٍّ وراء ظهره ويأخذونه إلى داخل البوابات. وهذا يعني أن أحدًا قد فحص أوراقه. فيهتفُ خفاجي: "اتَّصِلوا بالسيد چون. السيد چون بارودي، هو يعرف مَن أنا". ومن غير الواضح ما إذا كان أحدٌ يَفهَمُه.

ينتظر خفاجي لساعة، ويبدأ بالارتِجاف ثم يُغلِقُ عينَيْه ويستريح. وأخيرًا يسمع صوتًا: "نعم، هذا هو. يُمكِنُكَ إطلاقُ سَراحِه. سآخُذُه". يلتفت خفاجي ويرى رجلًا أسمرَ لا يُميِّز وجهَه. ويُمسِكُ الرَّجُلُ ببطاقةِ تَعريفِه ومحفَظَتِه.

"خفاجي، أنا راولز، التقينا الأسبوع الماضي. لقد بعثني بارودي. أنت في ورطة. تعال معي".

يُصفِّر راولز وهو يُسلِّم خفاجي محفظته وأوراقه. ويتشبَّث بمُسدَّس خفاجي لِلَحظَةٍ إضافية ويعترض: "سأحتفظ بهذا".

يتحسَّس خفاجي جيب سترته: "أين سجائري؟".

ويندم على ذلك في الحال. إذ يهزُّ الرَّجُلُ الذي عند البوابة رأسه ويقول: "معذرة يا صاح. يُمكِنُكَ شراؤها من مَتجَرِ الحاجِّي". ينظر خفاجي حوله ويرى علبة سجائر مسحوقة على الأرض. يُخرِجُ منها سيجارتين لا تزالان قابِلَتَيْن للتدخين، ويضع واحِدَةً في جيب قميصه الداخلي والأخرى في فمه. تبحث أصابعه عن قَدَّاحَتِه، ويستسلم حين لا يجدها.

يتمشَّى راولز وخفاجي إلى القصر ولا يتحدَّثان. وحين يَمُرَّان بشَخصٍ يُدخِّن، يطلب منه خفاجي شُعلَة. ويُروِّعُ مَظهَرُه الرَّجُلَ فيُسلِّم قَدَّاحَتَه في الحال.

حين يخطو خفاجي إلى داخل المبنى، يُدرِكُ أن الأمر لن ينتهي إلا هكذا: ستذهب إلى بارودي وستتحدَّث إليه. ثم ستستقيل. وستُدَوِّن

الأمر وستكتب التفاصيل في رسالة. يجب أن يكون هناك سِجِلٌّ واحدٌ على الأقل لِشَخصٍ يُخبِر الأمريكان بمدى خطورة العمل لحسابِهِم.

حين يرى بارودي خفاجي يدخل، يَطرفُ ويُحَملِقُ دون تصديق، ثم يُتَمتِمُ: "لا أُصدِّق هذا الهُراءَ. هذا هُراءٌ عَربيٌّ خالِصٌ!".

يهزُّ رأسه، ثم يصيح: "اذهب لتنظيف نفسك وعُد يا خفاجي!"، ويلتَفِتُ إلى جُنديٍّ يكتب على حاسوب: "أَحضِرْ له شيئًا لائقًا ليرتديه. اذهب إلى مَنفَذِ المُؤَن إن تَطلَّب الأمر".

يأخذ راولز خفاجي بطول المَمرِّ إلى حَمَّامٍ خاصٍّ. ويُغلِقُ خفاجي الباب ويُنزِلُ لباسه الداخلي. يُشَغِّل المياه وينتظرها لتَسخَنَ. يغسل الدِّماءَ والتُّرابَ عن وجهه، ويُثبِّت رأسَه تحت الصنبور، ويَدَعُ المياه تجري على جُمجُمَتِه. ثم يشغل المياهَ الباردة ويغسل وجهه ورأسه مُجدَّدًا. وقد أصبح مُستَيقِظًا تمامًا بعدما فعل ذلك مَرَّتَيْن.

كان يُجفِّف نفسه بمحارم الورق حين وصل رَجُلٌ ومعه زَوجٌ من البناطيل الكاكية الواسِعَة، وقميصٌ داخِليٌّ أبيض سادة. البنطال كبير جدًّا؛ فيثني خفاجي الوسط مرَّةً تلوَ الأخرى، ويُدخِلُ به القميصَ الداخليَّ. تبدو هيئته غريبةً، لكنه لا يهتمُّ. ينتعل صندلًا وينظر إلى المرآة مُجدَّدًا. يرى عينين مُتعبَتَيْن وذقنًا مُغطَّاةً بِلِحيَةٍ خفيفةٍ رَماديَّةٍ، وخَدَّين غائِرَيْن. تَفرُكُ أصابِعُه أطرافَ شارِبِه الجديد، ويسأل نفسه: كلُّ شيء يعود إلى حاله، أليس كذلك؟

كان راولز ينتظر خارجَ الباب حين فتحه خفاجي. يعودان إلى المكتب ولا يَقِفُ بارودي حين يدخل خفاجي. بل إنه حتَّى لا يرفع عينيه من على الأوراق التي على مكتبه.

"ماذا يحدث بِحَقِّ الجحيم يا خفاجي؟ يُفتَرَضُ أن تكون في كركوك".

يـرى خفاجـي أن هـذه المُحادَثـةَ ليسـت مُتوجِّهَـةً إلى حيـث تَوقَّـع: "سـيدي، لقـد تلقَّيـتُ الرسـالة، وحاوَلـتُ الاتِّصـالَ عِـدَّةَ مَـرَّاتٍ. فقـد ظَنَنـتُ أنهـا حالَـةٌ طارِئَـة، وأخـبَرَني أولـدز أن آتي بسرعـة".

يرفـع بـارودي عينيـه أخـيراً، ويُضيِّقهـما للحظـة، ثـم يسـأل: "أولـدز قـال لـك أن تعـود إلى هنـا؟".

"نعم يا سيدي".

"هذا هُراء. أولدز لم يَقُل ذلك".

"عفوًا يا سيِّدي؟".

يَهـزُّ بـارودي رأسَـه بحنـق: "هـذا كثـيرٌ مـن الهـراء. أأَنـتَ خائِـفٌ؟ أتَنفَجِـرُ قُنبُلَـةٌ فتعـود جريًـا إلى البيـت؟".

يُقـرِّر خفاجـي ألَّا يُصحِّـحَ لـه تلـك الفكـرة، بـل يُحـدِّق إلى قدميـه. ويتابـع بـارودي: "أنـت مُتغيِّـبٌ عـن الخدمـة بـلا إذنٍ، وفي ورطـة. أتريـد أن تُخبِرَنـا بمـا حـدث فعـلًا؟".

"عفوًا يا سيدي؟".

"يجب أن تُخبِرَنا كيف نَفَّذتَ تلك الحيلة في كركوك".

"لم أُنَفِّذ أيَّ حِيَلٍ يا سيِّدي".

"حسنًا، يجب أن تُخبِرَنا بما فَعَلتَ".

يُحَمِلـقُ خفاجـي إلى الأرض لدقيقـة، ثـم يرفـع عينيـه أخـيراً لتلتَقِيـا بعينَـيْ بـارودي: "لقـد كنـتُ خائفًـا يـا سـيِّدي".

"أنـت تُحِـبُّ العَمـلَ المكتبـي إذًا، هـاه؟"، ويضحـك ويشـاركه راولـز الضحـك: "حسـنًا إذًا. سـنُعيدُكَ إلى العمـل في المكتـب، لدينـا الكثـير مـن الأوراق التـي يجـب أن تَفحَصَهـا. ويجـب أن تنتهـي منهـا سريعًـا. أَتـودُّ أن تُطلِعَـه عـلى التفاصيـل يـا راولـز؟".

يلتَفِتُ راولـز إلى خفاجـي، لكـنَّ عينيـه لا تفارقـان السـقف: "لقـد كان سـيترون يتـصرَّف بـلا أوامِـرَ رَسـميَّةٍ. لا بُـدَّ أنـك اسـتنتجتَ ذلـك بالفعـل. ويبـدو أنـه احتفـظ لنفسـه بفتـاةٍ. ويبـدو أنـه كانـت لديـه علاقـة مـع المسـؤولة عـن تلـك الفتـاة أيضًـا".

"مَعذِرَة؟".

"هل تحدَّث إليكَ قَطُّ عن زبيدة رشيد؟".

"عفوًا يا سيدي؟".

"امـرأة اسـمها زبيـدة رشـيد، كان سـيترون غارقًـا حتـى شوشـته معهـا، وغارقًـا في سريرهـا أيضًـا. إنهـا تُديـرُ شَـبَكَةً للدَّعـارَةِ، وأشـياءَ أخـرى. لقـد زُرنـا مكتبهـا ووجدنـا كنـزًا دفينًـا".

يُقاطِعُـه بـارودي: "عـادةً نُسـلِّم تلـك الأشـياء إلى المُتخصِّـين اللغويِّـين. لكـن في هـذه الحالـة هنـاك مشـكلة".

يتابـع راولـز: "بمـا أنَّـكَ تُحـبُّ العمـل المكتبـيَّ للغايـة فإنـك سـتفحص مـا وجدنـاه. كلُّـه في الغرفـة المجـاورة، وهـذه مَهمَّـةٌ مُسـتعجَلَة. نحتـاج إلى فَحـص هـذه الأوراق البارِحَـة! أحضِرْ بعـضَ القهـوة وابـدأ العمـل".

يعترض خفاجي: "أنا لا أشرب القهوة".

"ماذا؟".

"لا شيء".

يذهـب خفاجـي إلى المكتـب الآخـر بصُحبَـةِ راولـز، ويجـد صفوفًـا مـن الصناديـق في الزاويـة. مُعظَمُهـا مليئـةٌ بملفَّـاتٍ باللُّغـة العربيـة، وبعضهـا بالإنجليزيـة والفرنسـية: "هـذه هـي كل محتويـات مكتبهـا. لقـد جلبنـا كلَّ شيء". يُخَـلِّي خفاجـي مكتبًـا ويبـدأ بفتـح أول صنـدوق، ويجلـس راولـز عنـد المكتـب المجـاور للبـاب.

يبدأ عقل خفاجي في التَّجوُّل وهو يفتح أولى الملفَّات. يتخيَّلها أكثرَ من مَرَّة وهي تمسك القَلَمَ الذي لمس الورقة، وكلُّ مَلفٍّ يُمثِّل قِطعَةً منها.

معظم الملفَّات عبارة عن مُلاحظاتٍ خاصَّةٍ بالمُحاضرات، وهي ليست مُهِمَّة. فقد درَّسَت في الجامعة موادَّ مُتعلِّقَةً بالهياكل التنظيمية، وكان هذا تَخصُّصَها. يتفقَّد مُحاضَرَةً قديمة عن أشجار القرار المُعقَّدَة، ويقضي ساعةً مُحاوِلًا قراءة أطروحتها. الأسئلة التي تسألها زبيدة مُميَّزَة. ووفقًا لها، لم تَرسُمْ الأيديولوچيا الشَّكلَ التَّنظيميَّ للحِزب، بل إن الشكل التنظيمي هو ما أَمْلَى أيديولوچيَّتَه.

يجد خفاجي في بعض الملفَّات القديمة شرائِحَ شَفَّافَةً عليها رسوماتٌ بيانية تُصَوِّر تَطوُّرَ الشبكات، من تَسَلسُلاتٍ هَرَمِيَّة رأسية بسيطةٍ، وسلاسِلِ أوامِرِ من أعلى إلى أسفل، إلى شبكاتٍ أكثر أُفقيَّةً بها عِدَّةُ نِقاط لاتخاذ القَرار. وتُوضِّح زُبَيدَة في الشَّرائِحِ الأخيرة بإحدى المُحاضرات كيف أن حتى المنظمات الأكثر تَطوُّرًا يمكن أن تُخرَّب بفِعلِ تَصلُّبها، وبفعل رَغبَتِها في التَّحكُّم. وتُوضِّح كيف أن أغلبية المواقف غير المُتوَقَّعة تكون نتيجةً مُباشَرَةً لعدم رؤية المُخطِّطين للصِّلات الحقيقية في الشبكات إلَّا بعد وقوع المُشكِلات.

ويجد في صندوقٍ آخرَ مُسوَّداتٍ لأوراق مُؤتَمر قديم حيث دافَعَت زُبَيدَة عن النماذج الهجينة. وهي الهياكل التنظيمية التي تُمكِّن عِدَّةَ أطرافٍ فاعِلَة من التعاون فيما بينها بطُرُقٍ لم يُدرِكْها من قبل أيُّ طَرفٍ مُنفَرِد. واختتَمَت الورقة بقولها: "التنظيم ليس الهيكلَ، بل هو الحركة التي يُتيحُها الهيكلُ".

توجد في الهوامش مُلاحَظاتٌ تَرَكَتها يَدٌ غريبة. ملاحظات تحثُّ المُؤلِّفة على عدم مُتابَعَةِ دراسة هذه الحُجَّة. وتختفي تلك المَزاعِمُ في الصناديق الأخرى، التي تحتوي على موادَّ أحدَث. في مخطوطَةٍ لكتابٍ

عُنوانُـه الرؤيـة والطريقـة الإداريـة للقائـد تقـول الحُجَـجُ المُسـتَخدَمَة عَكـسَ مـا كتَبَتـه سـابِقًا.

أوَّل وثيقَـةٍ مُغايِـرَةٍ يَجِدُهـا خفاجـي كانـت مَخفيَّـةً في أعـماق تدريـبٍ للسَّـنَة الأولى في الإحصـاء. كاد ألّا يراهـا. ثـم ينظـر إلى مُذكِّـرَةٍ بتاريـخ يوليـو 2003. وينظـر إلى الشِّـعار الخافـت للقيـادة العامَّـة ويطَـرِفُ. ينتصـب في مقعـده ويلقـي نظـرة عـلى راولـز، الـذي لا يـزال في مكانـه منـذ سـاعتين.

المُذكِّـرة هـي رَدٌّ عـلى استفسـارٍ بخصـوص اللوجسـتيّات. وفي آخرهـا، باليَـدِ التـي يُمَيِّزهـا خفاجـي الآن عـلى أنهـا يَـدُ زُبَيـدة، يـرى قائِمَـةً مألوفـة: 126 الصالحيـة، 44 الشـيخ معـروف، 19 الشـواكة، 77 الفتـح. إنهـا تلـك العناويـن مُجـدَّدًا. فيفحـص الصناديـق الأخـرى، حيـث يجـد المزيـد مـن ملاحظـات المحـاضرات واسـتمارات وتقاريـر مُقدَّمـة إلى إدارة الجامعـة، وكثـير منهـا مُكـرَّرٌ ومَنسـوخ. كل شيء مُنظَّـمٌ عـلى نحـوٍ مِثـاليٍّ، فـلا أحـد يسـتطيع أن يدَّعـي أن الكاتبـة كانـت غـيرَ مُنظَّمَـة. ثـم يصـادف في مَلَـفٍّ خـاصٍّ بتدريـب إحصـاء آخـر مراسَـلَةٍ بـين زبيـدة وقيـادة الحـزب، وهـي أحـدث.

كان خفاجـي حينئـذ يفحـص الصناديـق المُتبقِّيـة ويأخـذ مَلفَّـات الإحصـاءِ المُقحَمَـة وسـط ملفَّـاتِ التدريـب الأخـرى. وأصبـح في النهايـة يجلـس أمـام كَومَـةٍ مـن الملفَّـات والبيانـات الرسـمية والمُذكِّـرات والرسـائل الخاصَّـة والملاحظـات. حقيقـةً كُلُّ تلـك الأوراق غـيرُ واضِحَـةٍ، وليـس واضحًا إلّا أنهـا سـتكون حُكـمَ إدانَـةٍ إن سَـقَطَت في يـد الأمريـكان.

يرجـع خفاجـي إلى الـوراء في كرسـيِّه. وعندهـا فقـط يلاحـظ أن راولـز قـد غـادر الغرفـة. فيبـدأ في حَشـوِ الأوراق داخـل مُجلَّـداتٍ بُرتقالِيَّـة. ثـم يضـع الأظـرُفَ داخـل مُجلَّـداتٍ بلاسـتيكية ويُخفيهـا في أحـد أدراج المكتب، ويُعيـدُ المـوادَّ الأخـرى بحَـذَرٍ إلى داخـل الصناديـق التـي جـاءت منهـا. ثـم يُكـدِّس الصناديـق ويتفقَّـد المَمـرَّ. يلقـي نظـرةً داخـل مكتـب بـارودي

فيجده خاويًا. ويتقدَّم في الممرِّ ليتفقَّد المكتب القديم، لكن لا أحدَ هناك أيضًا. عندها فقط يتفقَّد ساعته ليرى كم تأخَّر الوقت ويجده قد تجاوز العاشرة مساءً. فيعود إلى المكتب الجديد ويأخذ المُجلَّدات من الدُّرج. يُعيدُ التفكير في المُغادَرَة دون أن يقول شيئًا ويُقرِّر أن يكتب رسالة. لكن بعد خمس دقائق وخمس مُحاولاتٍ لكتابة الجُملَة الأولى يستسلم. غادَرَ وحَسبُ. ويرى سُترَةً صُوفيَّةً مُعلَّقَةً بجوار الباب فيستعيرها.

لا يُدرِكُ أنه وحده في الطابق الثاني إلا حين يسمع أصوات تهليل من الطابق السُّفليِّ. يهبط السُّلَّم ويجد رَجُلًا يهرع بجانبه وهو يهتف: "أمسكنا به، أمسكنا به!".

يتمشَّى خفاجي في الكافيتريا وهو مُتفاجِئٌ لرؤيتها ممتلئة على آخرها. البعض يُحَملِقون مشدوهين إلى الشاشات، وآخرون يتعانقون أو يصفعون أياديهم ويرقصون. ويأتي جبوري مسرعًا من الجانب الآخر من الغرفة لتحيَّة خفاجي: "مبروك. ما دا أصدق، تمام؟".

يتوقَّف خفاجي وينضمُّ إلى الآخرين. وبعد بعض الوقت يَضَعُ المُجلَّدات على الكُرسيِّ المُجاوِر له. وهم الآن يتابعون بيانًا صحفيًّا مُتلفَزًا. وثمَّةَ رَجُلٌ يرتدي بزَّةً قتالية يقرأ بيانًا: في حوالي الساعة 8:26 مساءً بالتوقيت المحلي، داهَمَت عناصِرُ من فرقَةِ المُشاةِ الرَّابِعَة وقُوَّات العمليَّات الخاصَّة مزرعةً على بُعْدِ حوالي خمسة عشر كيلومترًا جنوبي تكريت، وألقَت القبضَ على الرئيس العراقيِّ السابق صدام حسين. شارك 600 على الأقل من القُوَّات في المُداهَمَة التي أَدَّت إلى القبض على حسين ورَجُلَيْن مُسلَّحَيْن ببُندقيَّتَيْن من نوع إيه كيه 47. ووُجِد حسين مُختَبِئًا في حُفرَةٍ صغيرة مساحتها حوالي مترين إلى مترين ونصف تحت مبنى مُلحَق، وكان مُسلَّحًا بمسدس ومعه

750,000 دولار أمريـكي. نُقِـلَ صـدام حسـين بواسـطة مروحيَّـة إلى موقِـعٍ آمِـنٍ وغـيرِ مُعلَـن دون مُشـكِلة.

يشـعر خفاجـي بضربَـةٍ عـلى ظهـره ويسـتدير فـيرى لويـس فـورد. ويتصافحـان، مـع أن خفاجـي غـير مُتأكِّـد مـن سـبب ذلـك. الجميـع يُهنِّئـون بعضهـم البعـض، وتُصافِـحُ خفاجـي أيـادٍ كثـيرة قبـل أن يتمكَّـن مـن المُغـادَرَة.

يبلـغ خفاجـي مدخـل ابـن سـينا ويُخـرِجُ سـيجارَته الأخـيرة، ويُعيدهـا حـين لا يجـد قَدَّاحـة. لا أحـدَ عنـد مكتـب الاسـتقبال حـين يُسـجِّل الدخـول. فيتفقَّـد المَمـرَّ، ويتفقَّـد غُرفَـةً فارغـة، ثـم يلاحـظ حشـدًا مـن المُمرِّضـات مُتجَمِّعـاتٍ حـول مجموعـة شاشـات. كان يتقـدَّم في المَمـرِّ نحـو غرفـة مـروج حـين هتَفَـت مُمرِّضَـةٌ: "لقـد تجاوَزتَ سـاعات..."، ثـم تبتسـم وتقـول: "لقـد نُقِلَـت!"، فتقـترب وتأخـذ خفاجـي إلى رَدهَـةٍ أخـرى.

كانـت مـروج مُسـتَغرِقَةً في النـوم حـين دخـل الغرفـة. فوضـع المُجلَّـدات بجـوار السريـر وجـذب كرسـيًّا وجلـس لينتظـر. وبـين الحـين والآخـر يُمَسِّـدُ شَـعرَ مـروج ويلمـس يَدَهـا. المـكان هـادِئٌ، ولا يلاحـظ خفاجـي أن هنـاك شاشَـةً واحِـدَةً إلَّا حـين ينظـر حولـه. الـشيء الوحيـد الشـخصي في الغرفـة هـو كتـابُ الشِّـعرِ المَـدرسيِّ المُسـتَقِرِّ عـلى منضـدَةِ السَّريـر. فيبحـث عـن الملفَّـات الأخـرى التـي تركهـا، لكنهـا اختفَـت.

تَمُـرُّ سـاعَةٌ وهـو جالـس، مُـدرِكٌ أن مـروج سـتنام الليـلَ كُلَّـه. فينهـض ويغـادر بهـدوء، لكـن ليـس قبـل أن يُكـدِّسَ المَلَفَّـات عـلى المنضـدة. وفي طريـق خروجـه يسـأل المُمرِّضَـة: "لِـمَ نقلوهـا؟".

تُومِـئُ المـرأة وتبتسـم: "بـدأت حالَتُهـا في التَّحسُّـن أخـيراً. حـين تـرى الطبيـبَ سَـيُخبِرُكَ بالتفاصيـل. إنهـا تسـتجيب عـلى نحـوٍ جَيِّـد جـدًّا للأدويـة الجديـدة".

يُصافِحُها ويقول: "شكرًا لك، أنت طَيِّبة جدًّا".

يشدُّ خفاجي السُّترةَ المُستعارَةَ على جسده ليُبعِدَ البرد. ويبحث عن سجائره ثم يمشي بأسرع ما يمكن نحو البوّابات. ويُصِرُّ جُنديَّان أمريكيَّان على مُصافَحَتِه بِقوَّةٍ وتَهنِئَتِه قبل أن يغادر.

الأحد
14 ديسمبر 2003

يَنـامُ خفاجـي بعُمـقٍ وبـلا أحـلام. ويغـادر السريـر مَـرَّةً في الصبـاح الباكـر، ثـم يُعـاوِدُ النَّـومَ. في كل مـرة يَـشرَعُ بالاسـتيقاظ يعـود إلى النـوم مُجـدَّدًا. وفي النهايـة تدفعـه مَعِدَتُـه إلى الخـروج مـن تحـت الأغطيـة. يجـرُّ قدميـه إلى المطبـخ ويذهـب لِيُعِـدَّ الشـاي. يجـد المياه مُنقَطِعَـة فيبحـث حولـه عـن زُجاجـات مياهٍ لكنـه لا يجـد أيًّـا منهـا. ثـم يجـد كوبًـا معدنيًّـا ويرفعـه تحـت حنفيـة حـوض الاسـتحمام حيـث يتـسرَّب دَفـقٌ صغير يكفـي لمَـلءِ الكـوب. يشـعر خفاجـي باللِّحيَـةِ الخفيفـة عـلى خَدَّيْـه وينظـر إلى نفسـه في المـرآة، ثـم يُقـرِّر أن يستسـلم ويخـرج.

يلاحـظ وهـو يَنتَعِـلُ حـذاءه كَومَـةً صغـيرة مـن الكُتُـبِ تسـتقرُّ عـلى السـجادة المجـاورة لكـرسي القـراءة خاصَّتِـه. يتفقَّـد عناوينهـا فيجـد ديـوان نـازك الملائكـة مُسـتَقِرًّا أعلاهـا.

يبتسـم خفاجـي وهـو يَمـرُّ بالحـارس الـذي عنـد بَسـطَةِ الطابـق الثـاني. ويقـف الشـاب ويُحيِّـي خفاجـي وهـو يَمـرُّ. يعـرض الحـراس في الأسـفل الشـاي عـلى خفاجـي ويقبـل الدعـوة لأول مـرة. يـترك أحدُهُـم سـلاحَه

ويضع ثلاث مُكعَّبات من السُّكَّر في كوبٍ صغيرٍ على الصينية، ويصبُّ الشاي ويُقلِّبه. يتردَّد صدى صلصلة الملعَقَة في بئر السُّلَّم صعودًا ونزولًا. ويقدِّم الرجل الصينيَّةَ لخفاجي الذي يأخذ الكوب ويرتشف. وحين يُنهيه يصبُّون كوبًا ثانيًا ثم ثالثًا. وخلال الدقائق القليلة التالية يشربون شايَهم معًا في صمت.

يَشكُرُهم خفاجي حين يتركُ الكأس أخيرًا. ويُلقي نظرة على الشارع وهو على الرصيف فيجده هادئًا. يَمُرُّ بعضُ المارَّة برؤوس مُنحَنِيَة وعيون تنظر إلى الأرض وهم يَشقُّون طريقهم وسط الرُّكام. يتمشَّى خفاجي إلى شارع أبو نواس. ويتطلَّع إلى السُّحُب السوداء الكثيفة المُتجمِّعَة نحو شمال المدينة. والهواء باردٌ وثقيل.

تبتسم مُمرِّضَةٌ جديدة له حين يُسجِّل الدخول عند مكتب الاستقبال. يتقدَّم بالمَمرِّ القديم ولا يستوعب خَطَأَه إلَّا بعد دخول غرفة مروج القديمة، التي يَشغَلُها الآن مُسِنٌّ مَذعورٌ. ولا يجدها في غرفتها الجديدة. بل يَجِدُ أكوامًا من المُجلَّدات منثورة على سريرها والمنضدة والكرسي وعتبة النافذة. كان قد شرع بترتيب الأوراق حين سمع صوت قرقَعَةٍ وراءه. يلتفت فيرى مروج تَقِفُ عند الباب والضَّعفُ بادٍ عليها. تتشبَّث يداها بالمَشَّاية المعدنية بقوَّةٍ جدًّا لدرجة ارتجاف مَفاصِلِها.

"بابا!".

يُعانِقُ خفاجي ابنتَه ويَشرَعُ بالبكاء. يَقِفان مُتشبِّثَيْن ببعضهما البعض في وسط الغرفة. يُمسِّدُ خفاجي شَعرَها. وتحاول هي أن تُهدِّئ والِدَها. وحين تبدأ رِجلاها في الاستسلام يُدرِكُ أنها هي مَن تساعده على الوقوف. تجلس على السرير وتشدُّ الأغطية على حِجرِها. وتنظر حولها لتبحث عن شيءٍ لكنها لا تَجِدُه.

تقول مروج: "حمد الله على رجعتك سالم بابا".

"الطبيب يقول دا تتحسَّنين".

"صحيـح". وتمـدُّ يَدَهـا إلى مُجلَّـدٍ وتُقلِّـب في صفحاتـه: "خـلي نتكلـم عـن هـاي".

تنظـر حولهـا لبعـض الوقـت ثـم تهـزُّ رأسَـها: "بابـا، نقلـت الشـغلات الـلي عـلى سريـري؟ هسـه تشـانت هنـا؟".

"تشنت أرتبهن"، يقولها معترضًا، "خليتهن هنا".

"آني رتبتهن. خلي أشوف إذا أقدر أرجعهن لترتيبهن الصح".

تَخلِطُ الأوراق لدقيقَـةٍ ثـم تقـول: "تمـام. لقيتهـن. تـدري هـاي الأوراق شبيهن؟".

"أكيد".

فتَكشِفُ مروج خِداعَه: "لعد شنو تقول؟".

"إنتي صح مروج. الشَّغلَة ما إلها علاقة بالجنس".

وتَرمـي مُجلَّـدًا بُرتقاليًّـا عـلى السريـر: "البنـات مـا تشـانوا مُتَرجِـمات. هـذا معناتـه أكـو مؤامـرة لغـزو المنطقـة الخـضراء".

يومئ خفاجي: "زين".

تَرفَـعُ مـروج إصبعهـا في الهـواء وتقـضي دقيقـةً أخـرى في تصفُّـح المُجلَّـدات قبـل أن تقـول أخـيرًا: "هـاي ملاحظـاتي، هـذا الـلي تشـنت أدوِّر عليـه".

تلقـي عليهـا نظـرةً وتُعلِّـق: "الـلي مـو مفاجـأة، إنهـا بالغالـب إلهـا علاقـة بصديقتـك".

"مو صديقتي".

"ماشي. هاي المرة اللي تشانت تدير شبكة. الشّغلة إنه ما تشانت شبكة دعارة".

"تشانت فد شي لاخ. هي متخصِّصة بالهياكل التنظيمية".

"إي، مو بشكل نظري بس. من وجهة نظرها يعتبر التنظيم كل شي".

"وسيلة لتحقيق أي هدف".

"تمام اسمع هاي: من البحث مالتها اللي بعنوان (الثابت والمتحرك). هاك: النهايات المفتوحة تُحوِّل الهياكل إلى شبكات".

"يعني شنو؟".

تَضحَكُ مروج: "ما أعرف، بس هو فعلًا مثل تعليق على المؤامرة اللي تشانت تِدبِّرها".

"هي أصلًا نهاية مفتوحة".

"لا، صاحبتك هاي تجمع النهايات المفتوحة. هاي حقيقتها".

"مو صاحبتي"، يقولها مُعترِضًا، لكنَّ مروج تُغيِّر الموضوع.

"بابا، هسه لازم تسمع زين. المذكرات الأولى هنا تحدد الهدف الرئيسي للمنظمة بالشهور الأولى. هاي مصادقة مسؤولين كبار وموظفين بمجلس الحكم وجمع معلومات عنهم. بس الأمور اتغيَّرت لما ظهر سيترون بالصورة".

"قصدتش حَبُّوا بعض؟".

"بابا، اسمع وبس! تشانت فلوس سيترون شغلة أساسية، ساعدتهم هواية. بس الأهم إنه قدَّم إلْهُن الأمان. كانت البيوت آمنة. ماكو أحد يقدر يخترقها لو حتى ييجي يمّها. ما تشان أكو أأمن من ذيتش البيوت".

"وهي نجحت...".

"هـاي الخطـة نجحـت طالما صـدق سـيترون القصـة. زبيـدة تشـانت تقـول لـه البنـات يريـدن حمايـة. وهـذا مجتمـع مسـلم محافـظ، وإنـه إحنـا مـا نتكلـم عـن الجنـس وإنـه إحنـا نقتـل البنـات الـلي يمارسـن الجنـس وهـذا الحتـشي".

"والبيوت تصير محميَّة بفضل سيترون".

"وإلهـا حمايـة مضاعفـة. الجيـش الأمريـكي يبعـد العراقيـين. وسـلطة الائتـلاف تبعـد الجيـش".

"تقدر تستخدم هاي البيوت الآمنة بأي شي. بعدين...".

"إي صحيح. وهيك تقدر المقاومة تستخدمها، واستخدموها".

"طالما ماكو أحد يكتشف الموضوع...".

"بابـا!" تهتـف مـروج. "هـاي قصتـي، خلينـي أحتشـيها. وراهـا أكـو واحـد يكتشـف الموضـوع صِـدِق، الشـغلة إنـه اكتشـفها بعـد فـوات الأوان، بـس هـذا ييجـي بعديـن. هـم بَـدَوا يسـتخدمون هـاي البيـوت بتحريـك المقاتلـين جـوا وبـرا المدينـة. هالـشي تشـان بأيلـول. بـذاك الوقـت تشـان وياهـم عـشرات هويّـات التعريـف الشرعيـة الـلي تخـص سـلطة الائتـلاف مـال البنـات. منـو يعـرف، يمكـن الرياجيـل اتنكّـروا بالعبايـات وقامـوا يتظاهـرون إنهـم مُتَرجِـمات؟ عمومًـا، بتشريـن، تشـانوا يعـبرون السـيطرات بـكل حريـة. أو ع الأقـل هـذا الـلي تقولـه الأسـتاذة مالتـك".

"لعد إلمن تشانت ترفع التقارير؟".

تسكت مروج للحظة، ثم تجيب: "ما نعرف، مو؟".

"حظنـا الزيـن إنهـا تشـانت تسـوّي كل شي بالطريقـة القديمـة. تنسـخ التقاريـر وتضـمُّ نسـخة إلهـا، أو تسـوّي ثـلاث نسـخ".

"يعني ماكو طريقة نعرف بيها إذا هاي التقارير توصل إلمن؟ أو إذا تشان أكو أحد يقراها، ومنو هو؟".

"لا، نعرف أكو محادثات جاي تصير".

"هو نقاش. أكو ناس يريدون البيوت تبقى آمنة، وأكو ناس يفكرون شلون يستخدموها قواعد هجوم، هجمات من جوا. يعرفون إنه الأفضل يسوون هالشي بسرعة. بما إنه الجدار راح يكمل".

"هذا تشان اقتراح البنية المفقودة زهرة بستاني. هاك، لازم تقرا التقرير الأخير. هي موقِّعة عليه". وتعطي مروج التَّقريرَ لخفاجي. اللُّغة المُستَخدَمة فيه مُختَصَرة للغاية: القيادة العامَّة. داخل المجمع الأمريكي. أهم المكاتب والأفراد (انظر المُذكِّرة بتاريخ 7 تشرين 2003). فريق كبير، يشمل وحدة مُفرَقَعات، ووحدات قنَّاصة. الاستشهاد مُحتَمَل. هجوم ناجح = الانسحاب الأمريكي.

يُقِرُّ خفاجي: "شي يضحِّك، بس معقول".

"أكو هواية بابا. هذا اللي قدرت أجمعه لحد هسه".

"ما تشنت أتوقَّع تِسوِّين كل هذا".

"يمكن ما تشنت أقدر لو جبت لي شي أحسن أقراه"، وتبتسم ابتسامةً عَريضةً. ولأوَّلِ مَرَّةٍ منذ شهور تشير ابتسامتها إلى القوة.

"على طاري القراية، لقيت نازك".

"لعد ليش ما جبتها؟".

"باتشر. وعد".

**

يختفي الغروبُ وراء سُحُبٍ مُظلِمَة بينما يغادر خفاجي المستشفى. يُشعِلُ سيجارة ويلفُّ شاله بإحكامٍ حول رقبته ويمشي ويداه في جيبه. يلقي نظرة على قصر سُلطَةِ الائتلاف المُؤقَّتة، ثم يستدير ويمشي نحو البوابة الأمامية. يشعل سيجارة أخرى ويأخذ نَفَسًا عميقًا وهو يغادر المنطقة الخضراء.

كان الليل قد هبط مع وصوله إلى بوَّابة شارعه. يدخل الرَّدهَة وهي مُظلِمَة تمامًا ويُشعِلُ ثقابًا ليضيء له طريقه. وتعود الكهرباء بمجرَّد أن يصل إلى الطابق الأول. يفتح أبو علي البابَ ويلقي نظرة من فوق الدرابزين. يرى خفاجي فيبتسم وينتظره على قِمَّة السُّلَّم. ويدعوه أبو علي حين يصعد لشرب الشاي ويوافق خفاجي، بالأساس لأنه مُرهَقٌ أكثر من أن يرفض. أول ما يسمعه حين يدخل هو صوت التلفاز. ثم بكاء أم علي. تمسح عينيها وتقف حين ترى خفاجي. "شلونك؟ شلونها مروج؟ إنتو زينين؟ ظل بالنا عليكم".

"إحنا بخير. تشان أكو غلط بـ..."، ويبدأ خفاجي التَّوضيحَ، لكنه يستوعب أنهما غير مُهتَمَّيْن، ولم يهتَّما أبدًا. إنهما مُجرَّدُ جيران. وقد شرع أبو علي بالفعل في تغيير قنوات التلفاز. فيجلب قناةً تعرض ضُبَّاطًا أمريكيين يُقدِّمون تفاصيل عن عملية القبض، ومُخطَّطات للمنزل وصور لمروحيَّات تحوم فوق بساتين النخيل. وصورة لطاولة عليها الأدِلَّة، وهي أكوامٌ من الأسلحة والقنابل والمُتفجِّرات والأموال. وثَمَّة ضابط أمريكي يشير إلى كلٍّ منها بعصا خشبية صغيرة. ويكاد خفاجي يضحك حين يلاحظ حقائب دفل الحمراء المألوفة وراء الطاولَة.

وفي النهاية يُشاهِدون مقطعًا لرجُلٍ مُلتَحٍ وهو يُسحَبُ من حفرةٍ صغيرة في الأرض. ويبدو حين يرونه للمرة الثالثة كحيوانٍ أكثر ممَّا

يبـدو كإنسـان. إنـه نِصـفُ نائِـمٍ أو مُخـدَّر. وتميـل أمُّ عـلي إلى الأمـام وتَـشرَعُ بالصِّيـاح إلى الشاشـة: "شـنو مـن بـشر إنـت؟".

تصيح وتجري الدموع على خديها: "لعنة الله عليك يا صدام! ما قدرت تدافع عن روحك حتى! باع وين وصّلتنا!". تهبط على الأريكة وتبكي، ويشرَبُ خفاجي الشاي في صَمتٍ. وتُعاد الموادُّ المُصوَّرة مرارًا وتكرارًا ويتابعون ارتشاف الشاي والمشاهدة بينما يُقلِّب أبو علي بين القنوات. وفي مَقطَعٍ آخر يفحص طبيب أمريكي يرتدي قفازات مطَّاطيَّة شَعرَ صدام الذي يشبه الممسَحَةَ السميكة للأقدام، ثم ينكز فمَه بعصا صغيرة. وتميل "أم علي" إلى الأمام وتصيح إلى الشاشة مُجدَّدًا: "ولك ما قدرت توقف تقاتل. ما قِدِرت؟".

أخيرًا يلتفت خفاجي بعيدًا ويترك شايه، ويضع يديه على رُكبَتَيْه كأنه سيغادر، لكنَّ الشَّاشةَ لا تَدَعُه يذهب. يشاهدون القنوات المختلفة كأنَّ كُلَّ قناة تعرض قِصَّةً مختلفة. يشاهدونه لبعض الوقت، وفي كلِّ مَرَّةٍ يَصبُّ جعفر المزيد من الشاي، وفي كل مرة يرتَشِفُه خفاجي. وفي كل مرة يُسحَب فيها صدام حسين من تلك الحفرة من أجل الكاميرات تَسبُّه أم علي. وفي كل مرة يُخرِجُ لسانه للطبيب تَسبُّه بصوتٍ أعلى، ثم تعود إلى النحيب والبكاء على الأريكة. شيء ما ينتهي اليوم. ويُقرِّر خفاجي أن يُغادِرَ قبل أن يبدأ هو الآخر بالبكاء.

يقول خفاجي: "مشكورين على التشاي. تصبحون على خير". ولا يَصدُرُ من أبو علي إلَّا تلويحة. ويدخل علي وخفاجي يغادر، فيُسلِّم على خفاجي ثم يهمس: "أريد أحكي وياك على صفحة".

"يلَّا. تعال للشقة عندي. آني تشنت رايح هسَّه".

"هسه أي. أجيب فد شغلة لازم تشوفها".

يفتح خفاجي باب شقَّتَه ويبتسم حين يرى كَومَةَ الكُتُبِ مُستَقرَّةً هناك. يذهب إلى المطبخ ليجلب سِكِّينًا. وحين يقطع الحبل تسقُطُ الكتب وتنتشر على الأرض.

يطرق علي الباب ويهتف خفاجي: "اتفضَّل، الباب مفتوح". يدخل علي ووجهه مُصمَت. ينظر إلى خفاجي ولا يقول شيئًا. وبعد سَكتَةٍ طويلة يُلوِّح ببعض الأوراق في الهواء ثم يُلقيها على المائدة.

يقف خفاجي. وينظر إلى علي ويأخُذُ الأوراق. إنها صور فوتوغرافية مَطبوعَة. ويستغرق بعضَ الوقت حتى يفهم ما تعنيه.

ينظر خفاجي إلى صورة لِنُقطَةِ التفتيش الثالثة، ويرى حشدًا من الناس ينتظرون عند البوَّابات. ثم يرى جنديًّا أمريكيًّا يشير إلى العدسة. ويقرأ تاريخ ووقت التقاطها في أسفل يمين الصورة.

ينظر خفاجي إلى علي مُتحيِّرًا ثم قَلِقًا. وفي الصورة التالية يرى خفاجي المرأةَ الباكية. ثم يرى وجهَه واضِحًا كنهار اليوم الذي التُقِطَت فيه الصورة. وفي الصورة التالية يرى نفسه مُجدَّدًا. وكل صورة لها ختم تاريخ ووقت مختلفين. ويبدأ خفاجي بالارتجاف ويرمي الصور على الأرض.

"شنو جاي تشتغل ويَّاهم؟"، قالها علي بصوتٍ فَظٍّ. يتَنَحنَحُ خفاجي وينتظر ولا يقول شيئًا.

"هاي الصور ما إلها معنى أخ محسن. وعمومًا ما أعتقد إنت عميل". ينظر خفاجي إلى السجَّادة ولا يقول شيئًا.

يكسر خفاجي الصَّمت: "شتريد؟".

"صبر".

"ما دا أفتهم".

"خلّي عندك شوية صبر. هذا هو المطلوب لحد ما نفتهم الموضوع أحسن. ما عندنا مشكلة بشغلك ويّا الأمريكان. بالعكس. نشوفها خوش فكرة".



"آني استقاليت".

"أعتقد لازم تبقى ويّاهم".

"قلت لك استقاليت".

"لا تستعجل. مثل ما قلت لك. يا واش يا واش. الصبر. راح ننطيك شوية وقت ما نقول لك قرارنا". ويستدير علي تجاه الباب.

حين يصل إلى المدخل يُضيف: "زين لقيت الكتب مالتك أخيراً".

ثم يخرج.

يَتجاهَلُ خفاجي الساعات وهي تَمُرُّ. ويتجاهَلُ الظَّلامَ والوحدَة، ويتجاهلانه. وفي الخارج تُحاوِلُ سِلسِلَةُ طَلَقاتٍ ناريَّةٍ أن تقطع الصَّمتَ، لكنها تموت بسرعَةٍ جدًّا.

يَستَقِرُّ كتابٌ في حِجرِ خفاجي. إنه ديوان نازك الملائكة. ما كان عليه إلّا أن يَلمَسَ الغلاف حتى تعود الأبياتُ إليه. ذَلِكَ الصَّوتُ، صَوتُكَ سَوفَ يَؤوبُ. لِحَياتي، لِسَمعِ السِّنين. مُثخَنًا بِعَبيرِ مَساءٍ حَزين... أَثقَلَتْهُ السَّنابِلُ بالأَرَجِ النَّشوان، بِصَدًى شاعِرِيٍّ غَريب. مِن هُتافاتِ ضُفدَعَةٍ في الدُّجى النَّعْسان. يُلقي الأبيات على نفسه. وتملأ الكلماتُ الشَّقَّةَ الخاوية وتعود إليه كأنها صَوتُ شخصٍ آخر. صوتُ مروج أو صوت زُبَيدة أو صوت سهير، وأصواتٌ أخرى أيضًا.

كان الوَقتُ مُبكِّرًا في الصباح حين عادت الكهرباءُ فَجأةً. ويقتل تَفَجُّرُ الأضواءِ الهالَةَ الرقيقة التي سَلَّطَتها لُغَةُ نازك حول خفاجي وهو جالِسٌ في الظلام. يَضَعُ الكتاب جانبًا، وتبدأ المياهُ بالتصفير في الأنابيب، فيجري إلى المرحاضِ لِمَلءِ حَوضِ الاستحمام. ويملأ غَلّايَةَ

المياه في المطبخ، ثم يملأ زُجاجةً تلوَ الأخرى من الصنبور. وحين ينتهي يأخذ كوب قهوةٍ صغير ويذهب إلى خِزانَةِ غُرفَةِ الطَّعام. يأخذ زُجاجةً من مَخبَئِها ويَصبُّ لنفسه كأسَ بلاك ليبل. وتتبقّى زُجاجتان ستكفيانه لأسبوعين.

يتمشّى في الشَّقَّة يُطفِئُ الأنور واحدًا تلوَ الآخر. أولًا غرفة النَّوم ثم المرحاض ثم المطبخ وغرفة الطعام. ويجلس على كرسيِّ القراءة خاصَّتِه ويضع الويسكي بجواره. يأخذ رَشفَةً ويَشعُرُ بالسخونة وهي تتدفَّق في حَلقِه، ثم تنتشر عبر عُروقِه وفي أنحاء صدره. وفي ذاتِ يَومٍ سَرَت أَلْسُنُ النَّارِ في بَيتِنا، مَضَت تَمضُغُ البابَ، تُشعِلُ لَيِّنَ السَّتائِرِ، يَدورُ اللَّهيبُ دوائِر، يُزَمجِرُ في شُرُفاتِ مُنانا، ويَضحَكُ من رُعبِنا، يُهدِّدُ أن يتوسَّع، يَركُضُ في حَيِّنا، ويُنذِرُ أن يَتَغدَّى خدودًا، شِفاهًا، ظَفائِر... يبدأ في الخارج صوتُ نَقْرٍ خافِتٍ في التكرار. تك، تك، تك. يكون صوتًا ناعِمًا وغير مسموع في البداية، ثم يعلو ويعلو. تك، تك، تك. سسسس. إنه غيرُ قابِلٍ للشَّك. إنه صوتُ الأمطار الهاطِلَةِ على كُلِّ سَطحٍ تعلوه السَّماء، الشُّرفات وعتبات النوافذ وخزَّانات المياه على الأسطُحِ والسيَّارات والرجال والشوارع العَطشَى وأكوام القمامة التُّرِبَة. تنهار الأسطح الظَمآى وتُبَقبِقُ مثل جلود الطبول ببُطءٍ في البداية. ثم يعلو صوتها، وتُصبِحُ أكثرَ عُنفًا، ويصحبها صَوتُ القَذفِ المُتلاطِم في الجداول والأنهار. تنفَتِحُ السَّماوات ويهبط سَيلٌ بارِدٌ على بغداد. يغسل التُّرابَ عن الأشجار والمباني، ويغسل الأوساخ عن الخرسانة والطُّرُق. ويسمع خفاجي في الأسفل رِجالًا يصيحون وهم يُسرِعون إلى الداخل. ويبدأ الرَّعدُ في نشر الضجيج والهزيم في أنحاء المدينة. ثَمَّة أضواءٌ تَبرُقُ قُبالَةَ النافذة ثم تختفي وسطَ الليل.

يأخذ خفاجي ديوان نازك ويضعه على حِجرِه. يأخذ نفسًا عميقًا ويفتح آخِرَ صفحة. وعندَئِذٍ فقط وبعد إطفاء المصباح، يبدأ بالقراءة

مُجـدَّدًا. وعندئـذ فقـط تبـدأ الأبيـات في الانسـياب إلى أُذُنَيْـه مُجـدَّدًا. عندهـا فقـط ترتَطِـمُ أمـواج الشِّـعر بشـواطئ عقلـه التـي جفَّـت.

ذَلِكَ الصَّوتُ، صَوتُكَ سَوف يَؤوبُ
لِحَياتي، لِسَمْعِ المَساء
وسَأسمَعُ صَوتَكَ حَيثُ أَكونُ
في انفِعالِ الطَّبيعَةِ، في لَحظَةِ الجُنون
حين تُثقِلُ رَجْعَ الرُّعود
ألفُ أسطورةٍ عن شَبابِ الوجودْ
عن عصورٍ تَلاَشَتْ وعن أُمَم لن تعودْ
عن حكاياتِ صبيانِ عادْ
لصبايا ثمودْ
أقاصيصَ غَنَّت بِها شَهرزاد
ذلك المَلِكَ المَجنون
في ليالي الشِّتاء
وسأسمَعُ صَوتَكَ كُلَّ مَساء
حينَ يَغفو الضِّياء
وتَلوذُ المَتاعِبُ بالأَحلام
ويَنامُ الطُّموحُ.. تَنامُ المُنَى والغَرامْ
وتَنامُ الحَياةُ، ويَبقَى الزَّمانُ ساهِرًا لا يَنامُ
مِثلَ صَوتِكِ...

شكر المؤلف

يَشغَلُ الشِّعرُ حَيِّزًا أساسيًّا لدى الجمهور في أماكِنَ عِدَّة. لكن رُبَّما لا تجد أشعارَ المُحدَثين -التي عادَةً ما تكون تجريبيَّةً- حاضِرَةً في أذهان العامَّة إلَّا في العراق. تتألَّق تماثيلُ الشُّعراءِ باعتبارها عَلاماتٍ حَضريَّةً في بغداد والبصرة والنَّجَف، وهي مَصدَرٌ لأسماء الميادين العامَّة البارزة والأحياء المُحيطة بها. وترعى الأحزابُ الدِّينيَّةُ الشِّيعيَّةُ في العراقِ المُعاصِر حَفلات شِعرٍ دَوريَّة مثلما اعتادَ النِّظامُ البَعثيُّ أن يفعل، وقبلهما الحزبُ الشيوعيُّ والديوان الهاشمي. لا يَخفُتُ صَوتُ الشِّعر العراقي أبدًا، حتى وإن كان حبرًا على ورق؛ إذ يحفظ العامَّةُ قصائِدَ كامِلَةً، ويتَّخذونها محورًا لنقاشاتهم، وتصبح الأبياتُ المُنفَصِلَة مَعينًا ماتعًا ومُدخَلاتٍ في معاجِمِ الحياة اليومية. لن يجد العراقيون المُتعلِّمون صعوبةً في تمييز القصائد التي يَتذكَّرها خفاجي. بل يُعَدُّ العديد منها في الواقع مألوفًا للغايَة. وتُقدِّم هذه الرواية نظرةً عابِرَةً على ذلك الكَمِّ الزَّاخِرِ من الشِّعر العراقي. وقد كنتُ محظوظًا بأن أعتمد على أعمال مُتَرجِمي الأدب التالين في سبيل نقل هذه القصائد إلى الإنجليزية:

مُقتَطفات من قصيدة "الخرافات" و"إلى الشعر" لنازك الملائكة، تَرجَمَتها فريال جبوري غزول لمجلة Modern Poetry in Translation 2002.

مُقتَطفات من قصيدة "النَّهر العاشق" لنازك الملائكة، ترجمتها ابتسام بركات لمجلة Modern Poetry in Translation 2002.

مُقتَطفات من قصيدة "الهجرة إلى الله" لنازك الملائكة، تَرجَمها صالح اليافعي وجنة عبد الرحمن لمجلة Modern Poetry in Translation 2002.

مُقتَطفات من قصيدة "جسر المباهج القديمة" لمُظفَّر النَّوَّاب، تَرجَمها سعدي سيماوي وكارول باردينستين لمجلة Modern Poetry in Translation 2002.

مقتطفات من قصيدة God's Freedom Lovers لأحمد هردي، ترجَمَها محمد توفيق علي لمجلة Modern Poetry in Translation 2002.

مُقتَطَفات من قصيدة "إيقاظ الرقود" لمعروف الرصافي، ترجمها إيه جي أربيري ونشرتها مطبعة جامعة كامبريدج 1965.

بَقيَّةُ القصائد تَرجَمتُها من العربيَّة بِنَفسي.



شكر

شُكرٌ خاصٌّ للكُتّاب والصَّحفيِّين والباحثين التالية أسماؤهم؛ لتثقيفي عن العراق المُعاصِر، ومكافحة التمرد على الطريقة الأمريكية: نادية صادق العلي، سنان أنطون، فاضل العزّاوي، شمعون بلاص، أوريت باشكين، حنا بطاطو، حسن بلاسم، سركون بولص، رچيف شاندراسيكاران، تيري دي يونج، چوي چوردون، ليزا حجّار، جبرا إبراهيم جبرا، حسين كاظم، لاله خليلي، دينا رزق خوري، چوزيف ساسون، أنتوني شديد، صموئيل شمعون، سعدي السماوي، علي الوردي، سعدي يوسف. كذلك الشكر موصولٌ إلى العراقيِّين الذين أروني المعنى الحقيقيَّ للصُّمود، وطريقة عمل "الشكرلمة" العراقية. وشكرًا للعائلة والأصدقاء وكُلِّ مَن حكى لي القصصَ التي شَقَّت طريقها إلى هذا الكتاب.

إليوت كولا

شكر المترجم

شكر خاص لنعمان منذر وأيّام أمين لدورهما المحوريّ في خروج هذه الترجمة إلى النور على الوجه الأمثل. والشكر موصول للمؤلف إليوت كولا لكتابته لهذه التحفة الأدبية ومساهمته في تيسير عملية الترجمة.

محمود علي



telegram @t_pdf

من هو العدو؟

تنطفئُ الأنوار ويسألون خفاجي عن مصير العالم. لماذا كان العراقيون بطيئين جدًا في حمل السلاح؟ مَن بنى هذا السجن؟ هل تَعاوَنَ الشّيعَةُ مع الأمريكان لأنهم يكرهون الإسلام بشدَّة؟ لماذا يُحِبُّ الأكراد إسرائيلَ بِشدَّة؟ ويقول خفاجي أقلَّ ما يمكن أن يُقال. لا شيء لإثارة الآمال أو لتثبيطها. لا شيءَ مُحدَّد. لا شيءَ يمكن التحقُّق منه. بعد بضع ساعات يستنتج خفاجي أنهم جميعًا قد اعتُقِلوا من أنحاء الرمادي. معظمهم خلال أيام من وصولهم إلى البلاد. وبعضهم خلال ساعات من وصولهم. إن عادوا إلى ديارهم في يومٍ ما، ستكون هذه الزنزانة هي العراق الوحيد الذي عرفوه.

"نادرًا ما توجد شخصيات عراقية في أدب الخيال الأمريكي إلا وتمثل صورًا نمطية استشراقية أو عناصر لإشباع الرغبات والخيالات السياسية. وهذا ما يميز رواية محقق بغداد. فشخصياتها العراقية تحتفظ بإرادتها وإنسانيتها. ويبدو واضحًا فهم إليوت كولا الواسع للطبوغرافيا السياسية والثقافية. كذا تصور الرواية فوضى ونشاز الاحتلال الأمريكي بوضوح، وتقدم سردًا ذكيًا وسلسًا. إنها رواية مكثفة المشاعر صيغت بعناية. إنها مسرّة للقارئين".

سنان أنطون، مؤلف روايتيّ The Baghdad Blues ووحدها شجرة الرمان

"هذه حكاية أسرة عن الغموض والإثارة في العالم الخانق الضعيف أخلاقيًا ببغداد ما بعد الغزو، التي كانت بيئة مواتية لانفجار العلاقات كحال السيارات مفخخة. إنها رواية بوليسية مثيرة تُحكي من داخل المجتمع العراقي، وتكشف الانزلاق السهل من الخيانة الشخصية إلى الخيانة السياسية، حيث تصبح كل جريمة جرحًا جديدًا في جسد الوطن. إنها رواية رائعة!"

جيني وايت، مؤلفة رواية The Winter Thief وغيرها ضمن سلسلة Kamil Pasha

الغلاف: مويرة عادل


ISBN 978-977-313-839-4

